يوهان ڤولفجانج فون جوته

من حياتي
الشعر والحقيقة

الجزء الأول

ترجمة
محمد جديد

دراسات نقدية عالمية
١٦

يوهان ڤولفجانج فون جوته

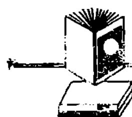
من حياتي

الشعر والحقيقة

الجزء الأوّل

ترجمة

محمّد جديد



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٢

من حياتي

الشعر والحقيقة

الجزء الأول

العنوان الاصلي للكتاب :

Aus meinem Leben

Dichtung und Wahrheit

من حياتي : الشعر والحقيقة = Aus meinem leben
/ يوهان فولفجانج فون جوته ؛ ترجمة محمد جديد . ــ
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٢ . ــ ج ١ ؛ ٢٤ سم . ــ
(دراسات نقدية عالمية ؛ ١٦) .

يتوفر الجزء الأول .

١ ــ ٩٢٨ : غوته ، يوهان فولفجانج غ ٢ ــ ٨٣٨ غ و ت
م ٣ ــ العنوان ٤ ــ غوته ٥ ــ جديد ٦ ــ السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ــ ٩٦٧ /٨/١٩٩٢

القسم الأوّل

من حياتي

الشعر والحقيقة

ما حظي بالتربية من لم يعان العذاب

لابأس في أن يقوم هنا مقام المقدمة للعمل الراهن الذي ربما كان في حاجة إلى مقدمة كهذه أكثر من أيّ مؤلف اخر ، رسالة صديق كانت الحافز إلى مثل هذا المشروع الذي ينطوي على المجازفه دائماً :

« لقد اجتمعت لدينا الآن ، أيها الصديق الغالي ، الأجزاء الاثنى عشر من أعمالكم الأدبية ، ونحن نجد، حين نطالعها، بعض ماهو معروف وماهو غير معروف ، بل إن بعض ما طواه النسيان يعود بهذه المجموعة نضيراً . ولا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من النظر إلى هذه المجلدات الاثنى عشر الماثلة أمامنا في قطْعٍ واحد ، على أنها وحدة . وانه ليطيب للمرءأن يستخلص منها الخطوط العريضه لصورة الكاتب وموهبته. أما الآن فلا سبيل إلى إنكار أن المجلدات الاثني عشر لابد أن تبدو قليلة جداً بالقياس إلى الحيوية التي بدأ بها الكاتب مسيرته في الكتابة ، وبالقياس إلى الزمن الطويل الذي انسلخ منذ ذلك الوقت . وعلى النحو ذاته لا يستطيع المرء أن يتجاهل ، فيما يتصل بالأعمال المتفرقة ، أن ثمة حوافز خاصة أخرجتها في أغلب الأحيان ، وأن هناك موضوعات خارجية محددة ، مثلما أن هناك مراحل حاسمة من مراحل الثقافة تُطِلُّ منها ، وليس بأقل من

ذلك شأناً ما يسود فيها أيضاً من مبادىء وقناعات معينة ، أخلاقية وجمالية عابرة . ولكن هذه الآثار تظل على الإجمال غير مترابطة فيما بينها بل كثيراً ما لايستطيع المرء أن يصدّق في الغالب ، أنها صادرة عن الكاتب ذاته .

على أن أصدقاءك لم يكفوا عن البحث في هذه الأثناء ،إذ يحاولون ، وهم الذين يعرفون أسلوبك في الحياة والتفكير معرفة أوثق ، أن يحلّوا بعض الألغاز ، ويفصلوا في بعض المشكلات ، بل انهم ليجدون ، إذ يعينهم على ذلك هوى قديم ، وعلاقة متقادمة ، بعض الجاذبية ، حتى فيما يعرض من صعوبات . ومع ذلك فلن يكون العون هنا وهناك غير مستحسن ، وذلك أمرٌ لا يجوز لك أن تخيِّبَ فيه مقاصدَنا الودّية بلا ريب .

وأول ما نلتمسه منك أن تتفضّل بعرض أعمالك الأدبية المنسّقة في الطبعة الجديدة وَفْقاً لعلاقات داخلية معينة ، في تسلسل زمني ، وأن تفضي إلينا بظروف الحياة وأحوال النفس التي تقدم المادة اللازمة لذلك ، مثلما تقدم الأمثلة التي تركت أثرها فيك ، وألاّ يقل عن ذلك ما تفضي به من المبادىء النظرية التي اتبعتها ، ضمن سياق معين . فاذا ما صرفت هذا الجهد إلى دائرة ضيّقة فربما ينجم عن ذلك ما قد يكون ممتعاً ومفيداً لدائرة أكبر . وقد ينبغي للكاتب ألاّ يتخلّى ، حتى في آخر سنرات عمره ، عن فضل الحديث ، حتى على البعد ، إلى أولئك الذين يجدون ميلاً إليه . ولئن لم يكن مما يتاح لكل امرىء أن يخرج من جديد ، في سنوات معينة ، بآثار غير منتظرة ، ذات أثر قويّ ، فان العمل في معالجة ما أبدعتَ ، من جديد ، معالجةَ المادّة ، وتحويلَه إلى إبداع أخير ،

خليقٌ ، في هذا الوقت بالذات ، إذ تزداد المعرفةُ كمالاً ، والوعيُ وضوحاً ، أن يكون مسلياً جداً ، وباعثاً للحياة من جديد ، مما يجدي ، مرة أخرى ، في تثقيف أولئك الذين سبق لهم أن ثقفوا أنفسهم مع الفنان ، وبوساطته » .

لقد بعث في نفسي هذا المطلب الذي عُبِّر عنه بتلك الصورة الودّية ، حبّ متابعته بصورة مباشرة . ذلك لأننا حين نسلك في الوقت المبكر طريقنا الخاص بحماسة ، ونرفض مطاليب الآخرين ، دونما صبر ، لكيلا نرتبك ، يكون من المرغوب فيه لدينا إلى أقصى الحدود أن يستحثّنا أيٌّ ضربٍ من التعاطف ، ويوجهنا ، بصورة دورية ، إلى نشاط جديد ، ومن أجل ذلك أقبلت على الفور على العمل العابر ، وهو تمييز كتبي الأدبية الاثني عشر ، كبيرها وصغيرها ، وترتيبها تبعاً للسنين . وجعلت أحاول أن أتمثّل في نفسي الزمان والظروف التي أخرجتها فيها ، غير أن العمل سَرْعان ماغدا أكثر عسراً ، إذ مست الحاجة إلى بيانات وشروح مفصّلة لسدّ الثغرات بين ما غدا معروفاً ، ذلك لأنه كان ينقصني باديء ذي بدء كل ما كنت أتمرّن به أولاً ، وكان ينقصني بعض ما بدأته ولم أفرغ منه . بل إن الصورة الظاهرية لبعض ما أنجزته كانت قد اختفت تماماً ، إذ طرأ عليها فيما بعد تعديل كامل ، وصبت في قالب آخر ، وبقي عليَّ فوق ذلك أن أذكر كيف كنت أجتهد في العلوم والفنون الأخرى ، وماطلعت عليه في مثل هذه الأبواب التي تبدو غريبة ، سواء بصورة منفردة ، أم في ارتباط مع أصدقاء ، سرّاً تارةً ، أو علانية تارة أخرى .

وقد كنت أودّ أن أنجز هذا كله ارضاءً لأصحابي الذين يريدون بي خيراً ، غير أن هذه الجهود والتأملات كانت تنتهي بي من بعيد

إلى أبعد ، ذلك لأنني حين رغبت في تلبية ذلك المطلب الذي أمعنت فيه النظر إمعاناً شديداً ، واجتهدت في تصوير الانفعالات الداخلية والمؤثرات الخارجية (١) والمراحل التي قطعتها من الوجهة النظرية والعملية ، تبعاً للتسلسل ، خرج بي ذلك من الحياة الخاصة الضيقة ، إلى العالم الواسع ، فتجلّت صور المئات من البشر أولي المكانة والخطر الذين أثّروا فيّ من قريب أو بعيد ، بل لم يكن هناك بد من النظر بوجه خاص في الحركات الهائلة في مسيرة العالم السياسية العامة التي كان لها أكبر الأثر عليّ ، كما أثّرت في جمهور المعاصرين بأسرهم . ذلك لأن هذا يبدو أنه هو المهمة الرئيسية للسيرة ، وهي تصوير البشر ضمن إطار الأحوال الخاصة بعصرهم ، وأن تبيّن إلى أي مدى كان مجمل هذا يعاكسه ، وإلى أي مدى كان يواتيه ، وكيف صاغ لنفسه من ذلك نظرة إلى العالم وإلى البشر ، وكيف عكس هذه النظرة ، إذا كان فناناً ، أو شاعراً ، أو كاتباً ، نحو الخارج من جديد . ولكن هذا يقتضي شيئاً لايكاد المرء يقدر على الوصول إليه ، وهو أن يعرف الفرد ذاته وقرنه ، أن يقرر مصير ذاته ويكوّنها على قدر ما يظل هو ذاته في كل الظروف ، وأن يقرر مصير قرنه ويكوّنه من حيث أن هذا القرن يجرف معه المستجيب والكاره ، إلى حد لايستطيع المرء عنده أن يقول حقاً إن كل من ولد قبل عشر سنوات فحسب أو بعدها ، كان من الممكن أن يكون امرءاً آخر تماماً فيما يتصل بثقافته الخاصة والتأثير المتجه نحو الخارج .

وعلى هذا الطريق ، ومن أمثال هذه الملاحظات والتجاريب ، وعن أمثال هذه الذكريات والتأمّلات ، انبثق هذا التصوير الراهن ، وإنما يُستمتَع به ويستفاد منه على أفضل وجه من وجهة النظر هذه الخاصة

بنشوئه ، ويُحكَم عليه أكثرَ ما يكون الحكم إنصافاً . أمّا ما يمكن أن يقال بعدُ ، فضلاً عن ذلك ، ولاسيما عن المعالجة الموزّعة بين الشعر والتاريخ ، فذلك ما تتاح الفرصة له بلاريب ، على نحو متكرر في غضون السرد .

* * *

الكتاب الاول

في الثامن والعشرين من آب ١٧٤٩ ، والساعة تدق الثانية عشرة ظهراً ، جئت إلى هذا العالم ، في فرانكفورت على الماين . وكان البرج يدل على حسن الطالع . فقد كانت الشمس في برج العذراء ، وقد تكبّدتِ السماءَ نهاراً . كان المشتري والزهرة ينظران إليها نظرة الودّ ؛ وعطارد لم يكن كريهاً .وأما زحل والمريخ فكانا يسلكان سبيل اللامبالاة إلاّ أنّ القمر الذي اكتمل منذهنيهة كان يمارس قوة إشعاعه المعاكس على نحو يزداد كلما دنت ساعته بين الكواكب ؛ لهذا فقد قاوم ولادتي التي لم تكن لتتمّ إلاّ بعد انصرام تلك الساعة .

وهذه الجوانب الحسنة ، التي عرف المنجمون في الزمان التالي كيف يقدرونها لي تقديراً عالياً ، ربما كانت السبب في بقائي على قيد الحياة . ذلك لأنني جئت إلى العالم وأنا في حكم الميت نتيجة لقلة براعة القابلة ، ولم يبلغ بيَ القوم أن أُبْصِرَ النور إلاّ بجهود شتّى . على أن هذا الظرف الذي أوقع أهلي في محنة كبيرة عاد بالفائدة على مواطني بلادي ، إذ اتخذ جدّي ، العُمْدة تلك المناسبة لتعيين ممرض توليد ؟ ؟ وإدخال تعليم فن القبالة ، أو تجديده ، وهو الأمر الذي ربما كان في صالح بعض من ولدوا من بعدي .

وحين يريد المرء منا أن يتذكر ما لقيناه في بواكير أيام الشباب فكثيراً ما تعرُض له حالة الخلط بين ما سمعناه من الآخرين وبين ما نملكه بالفعل من جرّاء معاناتنا الخاصة التأمليّة . وبدون أن أقوم في هذا الصدد

بتمحيص دقيق لايمكن ، على أية حال ، أن يفضيَ إلى شيء ، فأنا أعي أننا كنا نقطن منزلاً قديماً يتألف في الحقيقة من منزلين يفضي أحدهما إلى الآخر من خلال فجوة . وكان دَرَج على شاكلة درج البرج يؤدي إلى حجرتين تتصل إحداهما بالأخرى ، وكانت التسوية بين الطابقين غير المتساويين تتم عن طريق الدرجات . وبالقياس إلينا ، أنا وأختٌ صغيرة لي ، كانت ردهة المنزل السفلية التي تتيح مجالاً واسعاً للعَدْوِ ، هي المكان الأثير ، الذي كان له افريز خشبي كبير إلى جانب الباب يتصل المرء من خلاله اتصالاً مباشراً بالشارع والهواء الطلق . وكانوا يسمّون مثل هذا القفص الذي كان كثير من المنازل يجهّز به ، جَوْسَقاً ، وكانت النسوة يقعدن فيه للخياطة والتطريز . وكانت الطباخة تحضّر سلطتها ، ومن هنا كانت الجارات يتحدث بعضهنّ إلى بعض ، وكانت الشوارع تكتسب بذلك ، في فصل السنة الحَسَن ، مظهراً جنوبياً . فقد كان القوم يشعرون بالحرية إذ يأنَسون إلى العلانية . وكذلك كان الأطفال يتصل بعضهم ببعض عن طريق هذه الجواسق . وقد حَظِيَ ثلاثة إخوة يسكنون قبالتي ، من أسرة أوكْسِنْشْتايْن ، وهم الأبناء الذين خلّفهم العمدة الراحل ، بمودّتي الفائقة ، وكانوا يتسلّون معي ويعابثونني بطرق شتّى .

وكان أهلي يطيب لهم الحديث عن ضروب شتى من الدعابة الماكرة أثارني إليها أولئك الرجال الذين كانوا فيما عدا ذلك أهلَ جدّ وعزلة . وها أنذا أسوق واحدة من هذه الدُعابات فحسب . فقد كان هنالك سوق للفخار . ولم يكن القوم قد جهّزوا المطبخ وحده بمثل هذا المتاع من أجل الأيام القادمة ، بل اشتروا أمثال هذه الأواني بقياس صغير

للأطفال أيضاً ، لأشغال اللهو . وذات عصر جميل ، حين كان كل شيء في المنزل هادئاً ، كنت أعيث فساداً في الجَوْسق بأطباقي وقدوري ، ولمّا لم يسفر ذلك عن شيء ، قذفت بآنية من الأواني إلى الشارع ، وسرّني أنها تحطّمت على نحوٍ ممتع للغاية .

وصاح آل أوكسِنْشتاين الذين رأوا كيف كنت أتسلّى ، وكيف بلغ مني أنني كنت أصفق بيديّ الصغيرتين بسرور ، قائلين : « واحدةً أخرى ! » ولم أتلكّأ في القذف بقِدْر على الفور ، بل طفقت أقذف ، نتيجة لصياحهم المتواصل على الدوام ، بقولهم : « واحدة أخرى ! » ، شيئاً فشيئاً ، بكل الأطباق الصغيرة ، والحلل والأباريق الصغيرة ، على بلاط الشارع ، وكان جيراني يواصلون إظهار استحسانهم ، وكنت في غاية السرور لما أهيّيء لهم من متعة ، غير أن مخزوني نفد ، وكانوا مايزالون يصيحون : « واحدة أخرى ! » ، ولذلك أسرعت إلى المطبخ ، لا ألوي على شيء ، وطفقت آتي بالأواني الفخارية التي كانت تهيّيءُ ، بلا ريب ، مشهداً أكثر إمتاعاً بعدُ ، لدى تحطّمها وكذلك جعلت أغدو وأروح ، فآتي بطبق بعد الآخر على قدر ما كنت أستطيع بلوغه على رفّ الأواني ، كلاًّ بحسب دوره ، ولأن أولئك القوم لم يظهروا الرضى أبداً فقد رميت بكل شيء أمكنني سحبه من الأواني ، في تخريب واحد سواء بسواء . ولم يظهر أحد إلاّ بعد حين ، ليمنع ويدافع . وكانت المصيبة قد حلّت . وقد ظفر القوم مقابل هذا القدر الكبير من المتاع الفخاريّ المحطّم ، بقصة ممتعة على الأقل ، كان أصحابها الخبثاء يستمتعون بها بصورة خاصة إلى نهاية حياتهم .

وكانت والدة أبي التي كنا في الحقيقة نسكن في المنزل عندها ، تعيش في حجرة كبيرة في الناحية الخلفية تطل على الخارج ، على جانب ردهة المنزل بصورة مباشرة . وكنا نمارس ألعابنا حتى نبلغ بها إلى مقعدها ذي المساند ، بل نتوسّع في ذلك إلى فراشها حين تكون مريضة . وإني لأذكرها وكأنها روح ، في صورة سيدة جميلة نحيفة ، بيضاء دائماً ، نقية الأثواب ، عذبة ودودة ، وقد ظلت طيبة في ذاكرتي .

وكنا نسمع الناس يسمون الشارع الذي يقع فيه منزلنا « خندق الأيائل » . ولما كنا لانرى . لا الخندق ، ولا الأيائل فقد أردنا أن نلمّ بتفسير هذا التعبير ، وقد رُوي لنا فيما بعد أن منزلنا يقوم على رقعة كانت من قبل واقعة خارج المدينة ، وكان في الشارع الذي يوجد الآن خندق في تلك الأيام كان يربّى فيه عدد من الأيائل . وكانوا يحافظون على هذه الحيوانات هنا ويغذونها . ذلك لأن مجلس المدينة كان يقدم بموجب تقليد قديم ، أيّلاً في مأدبة عامة ، وكان الأيّل في متناول يدهم على الدوام ، هنا في الخندق ، لمثل هذا اليوم الاحتفاليّ ، وان أضعف الأمراء والفرسان خارج المدينة تفويضهم بالصيد وأعاقوه ، بل حتى وان أحاط الأعداء بالمدينة أو حاصروها . وقد راق لنا هذا جداً ، وتمنينا لو أن منطقة صيد مدجّنة كهذه كانت ماتزال تشاهد في أيامنا .

وكان للجانب الخلفي من المنزل ، ولاسيما من الطابق العلويّ ، إطلالة ممتعة جداً على مساحة لاتكاد تفوت النظر ، من حدائق الجيران التي كانت تنتشر حتى جدران المدينة . ولكن من المؤسف أن منزلنا ، وبعض المنازل الأخرى التي كانت تقع قبالة ناصية الشارع ، تعرّضت للاختصار في مساحتها لدى تحويل الأراضي البلدية التي كانت في العادة

موجودة هنا ، إلى حدائق منزلية ، وذلك بأن ضمت المنازل ابتداء من سوق الخيل مباني خلفية على نطاق واسع ، وحدائق فسيحة ، بينما كنا نرى أنفسنا معزولين بجدار فائق العلوّ لباحة دارنا ، عن هذه الفراديس ذات الموقع القريب إلينا جداً .

وكان في الطابق الثاني حجرة كنا نسميها حجرة الحديقة ، لأننا كنا نحاول أن نعوّض نقص الحديقة هناك عن طريق القليل من النباتات أمام النافذة ، وهناك كانت ، حين ترعرعتُ ، إقامتي التي ان لم تكن كئيبة فقد كانت منطوية على الحنين بلاريب . وكانت العين تسرح من وراء تلك الحدائق ، ومن فوق جدران المدينة وأسوارها ، في سهل جميل خصب ، وهو السهل الذي يمتد إلى هوكست . وهناك كنت أتعلّم دروسي أيام الصيف في العادة وأرقب العواصف ، ولم أكن أستطيع الارتواء من النظر إلى الشمس الغاربة التي كانت النوافذ موجهة نحوها بصورة مباشرة . ولكن لمّا كنت في الوقت ذاته أرى الجيران يتجوّلون في حدائقهم ويُعنَوْن بأزهارهم ، والأطفال يلعبون ، والجماعات تستمتع ، وأسمع كُرات لعبة المخاريط الخشبية تتدحرج ، والمخاريط تسقط ، فقد أثار هذا في نفسي بصورة مبكرة شعوراً بالوحدة ، وبحنين ناجم عنها ، وهو شعور سرعان ما تجلّى أثره على نحو أوضح فيما بعد ، وفقاً لما أودعته الطبيعة فيّ من ضروب الجدّ وألوان الهواجس .

وكانت طبيعة المنزل القديمة القاتمة في كثير من المواضع ، ملائمة فيما عدا ذلك ، لإثارة الرعدة والخوف في نفوس الأطفال . ومن سوء الحظ أن الناس كانوا مايزالون متمسكين بمباديء التربية القائلة بانتزاع

كل خوفٍ من الوهمي واللامرئيّ ، بصورة مبكرة ، من الأطفال ؛ وتعويدهم على الرعب . ومن أجل ذلك كان علينا ، نحن الأطفال ، أن ننام كلٌّ وحدَه ، وحين كان هذا يستحيل علينا ، وكنا نخرج من الأسرّة ، ونلتمس صحبة الخدم والخادمات ، كان الوالد ينتصب في طريقنا ، وقد التفّ بثياب النوم فتنكر بها التنكّر الكافي ، وكان يحملنا بالتخويف على العودة إلى مضاجعنا . وفي وسع كل امرىء أن يتصور الأثر السّيء الناجم عن ذلك . فأنّى لمن يُزَجُّ به بين أمرين مَهولَيْن أن يتخلّص من الخوف ؟ على أن والدتي التي كانت على الدوام مَرِحة طلقة الأسارير ، وكانت تجود بذلك على الآخرين، ابتكرت معالجة تربوية أفضل . فقد كانت تعرف كيف تصل إلى غرضها عن طريق المكافآت . وكان الوقت وقت الدرّاق الذي كانت تعِدنا في كل صباح بمتعته الكبيرة إذا ما تغلبنا في الليل على الخوف . ونجح الأمر وكان كلا الفريقين راضياً .

وكان أكثر ما يجتذب نظري داخل المنزل سلسلة من المناظر الرومانية التي كان الوالد قد زيّن بها البهو الأماميّ ، وقد نقشها بعض أسلاف بيرانيزي البارعين الذين كانت لهم دراية حسنة بالهندسة المعمارية والمنظور ، وكان إزميل النقش شديد الوضوح جديراً بالتقدير . وهنا كنت أشاهد في كل يوم « ميدان الشعب » و « الكوليزيوم » و « ميدان القديس بطرس » و « كنيسة القديس بطرس » ، من الداخل والخارج ، و « حصن الملاك » وبعض الأشياء الأخرى . ـ كانت هذه الأشكال تحدث انطباعاً عميقاً لديّ ، كما أن والدي الذي كان نزر الكلام جداً ، قد أسدى معروفاً إذ أسمَعَنا وصفاً للموضوع . وكان

إيثاره للّغة الإيطالية ولكل شيء يمت إلى تلك البلاد بصلة ، ظاهراً جداً . وكان يخرج إلينا مجموعة من المرمر والمواد الطبيعية التي جاء بها من هناك ، في بعض الأحيان ، وينفق قسطاً كبيراً من وقته في وصف الرحلة الذي ألّفه بالإيطالية ، والذي أنجزه نسخاً وتحقيقاً بخطّ يده ، وفي صورة كراريس . وأعانه في ذلك أستاذ في اللغة الإيطالية شيخ مَرِح يدعى جيوفينازّي . كما أن الشيخ كان يغنّي غناءً لابأس به ، وكانت أمي تضطر إلى تكلّف مؤانسته ومؤانسة نفسها بالبيانو في كل يوم ، إذ سرعان ما تعرّفت على لحن الغابة الظليلة الوحيدة

وكانت في والدي طبيعة المعلمين على نحو مطلق . ومع انصرافه عن الأعمال كان يسرّه أن ينقل ما يعرفه ويقدر عليه ، إلى الآخرين وعلى هذا النحو كان قد دفع أمي في السنوات الأولى من زواجها إلى الكتابة النشيطة ، كما دفعها إلى العزف على البيانو ، وإلى الغناء ، حيث كانت ترى نفسها مضطرة إلى أن تكتسب في اللغة الإيطالية أيضاً بعض المعرفة والمهارة الضرورية .

وكنا في العادة نلزم في كل ساعات فراغنا الجدَّة التي كنا نجد في حجرة جلوسها الفسيحة مكاناً متسعاً لألعابنا . وكانت تعرف كيف تشغلنا بألوان شتّى من الأشياء اليسيرة ، وتنعشنا بالمآكل الطيّبة . ومع ذلك ففي مساء يوم من أيام الميلاد توجّت مآثرها بأن أوعزت أن تُعرَض علينا مسرحيةٌ من مسرحيات العرائس وأنشأت بذلك عالماً جديداً في البيت القديم . وقد اجتذبت هذه المسرحية غير المنتظرة نفوس الصبية إليها قسراً ، وأحدثت في الغلام بوجه خاص انطباعاً قوياً جداً دوّى صداه في تأثير كبير بعيد المدى .

على أن المسرح الصغير ، بشخوصه الصامتة ، الذي سبق أن قُدّم إلينا في البداية ، ثم أسلموه للتمرين الذاتي والانعاش المسرحي ، كان لابد أن يكون له عندنا ، نحن الأطفال ، قيمة أكبر كثيراً مما كانت عليه الوصية الأخيرة لجدتنا الطيّبة التي سرعان ما غُيِّبت عن عيوننا أول الأمر بسبب العلّة المتفاقمة ، ثم انتزعها الموت إلى الأبد . وكان رحيلها بالقياس إلى الأسرة ذا أهمية متعاظمة إذ جرّ وراءه تغييراً كاملاً في ظروفها .

وذلك أن أبي كان يحاذر من تغيير أدنى شيء في البيت أو تجديده طالما كانت الجدة على قيد الحياة ، ولكن كان من المعروف يقيناً أنه كان يعدّ العدة من أجل بناء رئيسي تم الشروع فيه الآن على الفور . وكان الناس في فرانكفورت ، كما كانوا في كثير من المدن القديمة ، يسمحون لأنفسهم ، لدى تنفيذ المباني الخشبية ، ابتغاء كسب المكان ، بألاّ يقتصروا على الطابق الأول ، بل ينتقلون أيضاً إلى بناء الطوابق التالية ، الأمر الذي يجعل الشوارع الضيقة بصورة خاصة تكتسب شيئاً من القتامة وإثارة الفزع . وأخيراً أقرّ قانون يقضي بأن من يبني بيتاً جديداً من أساسه لا يجوز له أن يتجاوز مدى الأساس إلاّ بالطابق الأول . أما الطوابق الباقية فيجب أن يشيّدها عمودياً . على أن أبي لجأ ، كما فعل كثير من قبله ، لكيلا يتخلّى عن المجال المتقدّم في الطابق الثاني أيضاً ، إذ لم يكن يأبه للمظهر المعماري الخارجيّ ، ولم يكن يُعنى إلاّ بالتجهيز الداخلي الحسن المريح ، إلى مخرَج يتمثل في دعم الأقسام العليا من البيت ، وانتزاع جزء بعد اخر ، ابتداء من الأسفل ،

وادخال الجديد بما يشبه الاقحام ، بحيث يمكن للبناء الجديد كل الجدّة أن يكون في حكم الترميم ، حين لايكاد يكون قد تبقّى من القديم شيء . ولما كان التقويض والتشييد يتمّان الآن على نحو تدريجيّ فقد اعتزم أبي ألاّ يزايل المكان ليقوم بالإشراف على نحو أفضل ، وليتمكن من الإمساك بزمام العمل ، لأنه كان ذا إلمام جيد جداً بالجانب الفني من البناء . على أنه كان يريد بذلك أيضاً ألاّ يدع عائلته بعيدة عنه . وكان لهذه الحقبة عند الأطفال مفاجأة كبيرة وغريبة . فالحجرات التي طالما احتُجِزوا فيها ، على ما فيها من الضيق ، وَحُمِلوا بالتخويف على الدرس والعمل ، على قلة ما فيهما من المتعة ، والردهات التي كانوا يلعبون فيها ، والجدران التي ألف القوم أن يُعنَوْا عناية فائقة بنظافتها والحفاظ عليها ، كل هذا كانوا يرونه يتداعى أمام فأس صانع الجدران وبلطة النجار ، وذلك من تحتهم ، على حين يسبحون في الهواء ، في الأعالي ، على أخشاب مدعّمة . ثم إنهم يُحتَجزون مع ذلك ، بصورة دائمة ، لدرس معين ، ولعمل محدد — كل هذا أثار اضطرابات في الرؤوس الصغيرة التي لم يكن من اليسير عليها أن تسكن إلى هذا الأمر . ومع ذلك فقد كان الإحساس بالضيق عند الصبية أقلّ ، إذ أتيح لهم مجالٌ للّعب أكثر إلى حد ما مما كان قبلاً ، وأتيحت لهم بعض الفرص للتأرجح على الأخشاب والتواثب على الألواح .

وقام الأب بتنفيذ خطته بعناد في الفترة الأولى . ومع ذلك فحين تداعى السقف أيضاً آخر الأمر بصورة جزئية ، ووصل المطر لى أسرّتنا على الرغم من كل القماش المشمّع المتخذ من السجاجيد المقطّعة ، قرّر أبي على الرغم من عدم ارتياحه ، أن يُسلِم الأطفال إلى الأصدقاء الطيبين

الذين تقدموا إليه في ذلك من قبل ، حيناً من الزمان ، وأن يبعث بهم إلى مدرسة عامة .

وكان لهذا التحوّل بعض المنغصّات . ذلك لأن الأطفال الذين كانوا حتى الآن منعزلين في البيت ، أنقياء ، نبلاء ، على الرغم من أخذهم بالصرامة ، كان لابد لهم حين زُجَّ بهم في وسط كتلة خامة من المخلوقات الصغيرة ، أن يعانوا على نحو غير متوقع أبداً ، من كل شيء من جانب الوضيع والفاسد والدنيء ، لأنهم كانوا يفتقرون إلى كل الأسلحة ، وإلى كل القدرات من أجل حماية أنفسهم من ذلك .

وكان هذا الوقت في الحقيقة هو الوقت الذي وعيت فيه مدينة مسقط رأسي أول مرة : إذ كنت أغدو فيها وأروح وأنا أزداد حرية ، شيئاً فشيئاً ، بصورة مطردة ، وحدي تارة ، ومع أترابي المرحين تارة أخرى . ولكي أنقل الانطباع الذي أحدثته فيّ هذه الأوساط المَهيبة النبيلة ، على نحو ما ، لابدّ لي أن أبادر هنا إلى وصف مسقط رأسي . كما تطوّر في أجزائه المختلفة شيئاً فشيئاً أمامي . وكان أحب الأمور إلى نفسي أن أتنزّه على جسر الماين الكبير ، الذي جعلت منه صلابته ومظهره الحسن بنياناً جديراً بالتنويه . كما أنه،منذ زمن أسبق ، يكاد يكون التذكار الوحيد لتلك العناية التي تدين بها السلطة الزمنية لمواطنيها . وكان النهر الجميل يجتذب نظراتي إليه في الغدوّ والرواح . وحين كان الديك الذهبي يتألّق في الشمس على مفرق الجسر في أشعة الشمس كان ذلك عندي إحساساً يبعث على البهجة دائماً . وفي العادة كنت استمتع استمتاعاً مريحاً للغاية بعد ذلك بالتنزه في زاكسِنْهاوْزِن وعبور النهر لقاء قطعة نقدية تعدل أربعة مليمات . فحينا كنا نجد أنفسنا

على هذا الجانب من النهر من جديد ، وحيناً كنا نتسلّل إلى سوق الخمور ، أو نُعجَب بآليّة الرافعات حين كان يجري تفريغ البضائع . ولكن وصول السفن الخاصة بالسوق كان يسلّينا بصورة خاصة ، حيث كنا نرى ، فيما نرى ، شخوصاً غريبة شتّى تخرج منها . فاذا ما دخل المرء الآن إلى المدينة كان هناك في كل وقت أداء تحية إلى مبنى قاعة البلاط الذي كان مشيّداً على الأقل في الموضع الذي يفترض أنه كان يقوم فيه حصن الامبراطور شارلمان وخلفائه ، بخشوع . وكان المرء يتيه في المدينة الحِرَفيّة القديمة . ويطيب له ذلك بوجه خاص في يوم السوق الأسبوعي ، في الزحام الذي كان يتجمّع حوالي كنيسة بارتيلميوس . وههنا كان حشد الباعة والبقالين منذ أقدم العصور يموج بعضه ببعض . وبسبب مثل هذا الاحتلال لم يكن من السهل في العصور الحديثة إقامة مهرجان واسع مرح في العصور الحديثة . وكانت أكشاك ما يسمى « طريق بفارآيزن » ذات أهمية كبيرة بالقياس إلينا معشر الأطفال وكنا نذهب ببعض القطع لنتخذ لأنفسنا منها صحائف ملونة طبعت عليها حيوانات مذهّبة . ولكن قلّما كان في وسع المرء أن يمعن في شارع نويه كريمه متوغّلاً فيما وراء ساحته المحدودة الغاصّة بالناس إلى أقصى الحدود ، والقذرة . وإني لأذكر أيضاً أنني كنت دائماً أولّي الأدبار فزعاً من منصّات اللحوم القذرة الضيقة التي تسبب الصدمة . أمّا جبل الرومان فكان مكاناً أفضل للنزهة وكان الطريق إلى المدينة الجديدة عن طريق السوق السنوي الجديد باعثاً للبهجة ومسلياً دائماً ، إلاّ أنه كان يكدّرنا ألاّ يكون ثمة شارع إلى جانب كنيسة

ليبفراون مواز لها على خط مستقيم ، وأننا كنا نضطر دائماً إلى قطع الطريق الموارب من خلال زقاق هازن أو باب الكاترينات . غير أن أكثر ما كان يجتذب انتباه الطفل إنما كان يتمثل في كثير من المدن الصغيرة في المدينة ، والحصون في الحصن ، أي مناطق الأديرة المسوّرة ، والأماكن التي كانت ماتزال متبقيّة من قرون سابقة والمتسمة بسمة الحصون على نحو يقل أو يكثر : ومن ذلك قصر نورمبرج ومقر قيادة ماينتس (الكومبوستيل) . والصخرة السمراء ، وهي المنزل الرئيسي الأمّ لمنازل شتالبرج وكثير من الحصون التي تم تجهيزها في العصور اللاحقة لتحويلها إلى مساكن وإلى ضروب من الاستعمال المهنيّ . ولم يكن يُرى في فرانكفورت في تلك الأيام شيء رفيع من وجهة فن العمارة . وإنما كان كل شيء يشير إلى عصر ولى منذ عهد بعيد ، وهو عصر بالغ الاضطراب بالقياس إلى المدينة والمنطقة ، فهذه هي الأبواب والأبراج التي كانت تدل على حدود المدينة القديمة ، ثم تتوالى الأبواب والأبراج والجدران ، والجسور والأسوار والخنادق التي كانت تحاط بها المدينة الجديدة . وكان كل شيء مازال يعبّر بوضوح عن أن ضرورة تحقيق الأمن للجماعة في العصور المضطربة هي التي أخرجت هذه المنشآت ، وأن الساحات والشوارع ، وحتى الجديد منها والأكثر عرضاً ، والأجمل بناءً ، كل أولئك ما كان يدين بالفضل في نشوئه إلا للمصادفة والعسف ، لا لعقل منظّم . ورَسَخ في نفس الغلام ميل معيّن إلى الشعبي كان يغذيه بصورة خاصة الحوليّات القديمة والنقوش على الخشب ، مثل نقش جرافه الخاص بحصار فرانكفورت ، حيث برز معه هوىً

اخر يتمثل في إدراك الظروف البشرية في تعدد جوانبها ، وطبيعيّتها ، دون مزيد من التعويل على الفائدة أو الجمال . ولذا فقد كان من أحبّ نزهاتنا التي كنا نسعى إلى القيام بها بضع مرات في السنة الطواف بطريق سور المدينة من الداخل . وكانت تنبسط الحدائق والساحات والمباني الخلفية حتى ميدان الاحتفالات . ويرى المرء بضعة آلاف من البشر في ظروفهم المنزليّة البائسة ، المنعزلة ، المستترة . فمن حدائق الزينة والعرض العائدة للغنيّ ، إلى حدائق الفاكهة للمواطن الذي يهتم بمنفعته ، ومن هناك إلى المصانع وساحات القصّارين وما شاكلها من منشآت ، فالى المقبرة ذاتها — ذلك لأن عالماً صغيراً كان يقع ضمن محيط المدينة — كان المرء يمرّ بمسرحية من أكثر المسرحيات تعدّداً في جوانبها وروعةً ، إذ تتغيّر مع كل خطوة ، ولم يكن فضولنا الطفولي ليستطيع أن يستمتع الاستمتاع الكافي . ذلك لأنه ما من شك في أن الشيطان الأعرج المعروف ، حين رفع سقوف مدريد لصديقه في الليل لم يكد يسدي إليه أكثر مما كان يؤدي ههنا أمامنا تحت السماء المكشوفة وفي وضح النهار . وكانت المفاتيح التي يجب أن يستخدمها المرء على هذا الطريق ، لينفذ من خلال بعض الأبراج والسلالم والأبواب الصغيرة ، في أيدي أمناء المخازن ، ولم نكن نقصّر في التزلّف إلى مرؤوسيهم على أفضل الوجوه :

وقد ظل المجلس البلدي بالقياس إلينا أكثر أهمية ، وبمعنى آخر ، أكثر رهبة ، وكان يسمّى « الرومانيّ » . فما أكثر ما كان يحلو لنا أن نتيه في قاعاته السفلية التي تحاكي القباب . وكنا نؤمّن الدخول إلى

قاعة اجتماعات المجلس الكبيرة المتناهية البساطة ، وكانت الجدران المكسوّة بالألواح إلى ارتفاع معين ، وكذلك القبة ، آخر الأمر ، بيضاً ، وكان كل شيء بغير أثر لنقش أو أي عمل تصويري ، إلاّ أن المرء كان يقرأ على الجدار الأوسط في الأعلى ، النقش القصير :

إن حديث الرجل الواحد

ليس بحديث أي رجل :

وإنما ينبغي للمرء أن يسمع كليهما ، منصفاً

وبحسب طراز العصر القديم كان قد دُفِع بمقاعد طويلة لأعضاء هذا الاجتماع متحلّقة بصورة دائرية ، تبلغ كسوة الألواح ، ورُفِعت عن الأرض بمقدار درجة . عند ذلك فهمنا بسهولة لماذا كان نظام المراتب في مجلسنا البلدي مقسّماً وفقاً للمقاعد الطويلة . فقد كان المحلّفون يقعدون فيما بين الباب الأيسر والركن المواجه له ، كما كانوا يقعدون على المقعد الطويل الأول . أما الركن نفسه فكان يجلس فيه العمدة ، وهو الوحيد الذي كان له طاولة صغيرة أمامه ، وعلى يساره ، حتى قبالة ركن النافذة ، كان يجلس سادة المقعد الطويل الثاني . وعلى ناحية النوافذ كان يمتد المقعد الطويل الثالث الذي كان يشغله الحرفيون . وفي وسط القاعة كانت هناك طاولة مدير المراسم .

فكنّا إذا وجدنا ذات مرة في (الروماني) نختلط بالحشد أمام جماهير المستمعين إلى العمدة . ولكن كل ما كان يمت بصلة إلى الانتخاب وتتويج الامبراطور كان له جاذبية أعظم ، وكنا نعرف كيف

نكتسب الحظوة لدى البوابين ليتاح لنا أن نرتقي الدرج الامبراطوري الجديد البهيج ، المنقوش بالجص ، والذي كان في العادة يُوصَد بسور . وكانت حجرة الانتخاب المزدانة بالسجاجيد الأرجوانية والسُجُف المذهّبة ذات الزخرفة الرائعة تشيع في نفوسنا الرهبة . أما النقوش فوق الأبواب ، وفيها أطفال صغار أو جنيّات يتحلّوْن بالحلية الامبراطورية وينؤون بنياشين الامبراطورية ، ويمثلون شخوصاً رائعة الغاية ، فكنا نرنو إليها باهتمام كبير ، ونتمنى أن نشهد تتويجاً بأعيننا مرة أخرى . ولم يكن القوم يستطيعون اخراجنا من القاعة الامبراطورية الكبرى إلاّ بجهد كبير للغاية ، حين نكون قد وُفّقنا في الانسلال إليها . وكنا نعدّ أصدقَ أصدقائنا من يمكن أن يحدثنا في حضرة الصور النصفية لمجموعة الأباطرة التي كانت تنتشر منقوشة حوالينا على ارتفاع معين ، عن شيء من أعمالهم .

وقد ترامى إلى أسماعنا بعض الأشياء الأسطورية عن شارلمان . ولكن المهم من الوجهة التاريخية لم يبدأ بالقياس إلينا إلاّ مع رودولف هابسبرج الذي وضع برجولته نهاية لاضطرابات جسيمة جداً ، وكذلك كان يجتذب انتباهنا كارل الرابع . وكنا قد سمعنا بالمرسوم الذهبي والنظام المؤلم الخاص بمحكمة الجنايات . وسمعنا كذلك بأنه لم يجاز أهالي فرانكفورت على ولائهم لخصمه الامبراطور النبيل جنتر فون شفارتسبورج ، وسمعنا بمكسيمليان يُثنى عليه محباً للإنسانية وللمواطنين ؛ وأنه قد تنبأ له المتنبؤون بأنه سيكون الامبراطور الأخير من أسرة ألمانية ، وهو الأمر الذي ثبتت صحته مع الأسف ، حين تردد الاختيار بعد موته بين ملك اسبانيا كارل الخامس ، وملك فرنسا ، فرانسوا الأول ،

فحسب . وكان الناس يضيفون قائلين في وجل ، ان مثل هذه النبوءة ، أو بالأحرى هذه الإرهاصة ، تتردّد الآن مراراً ، لأن من الواضح للعيان أنه لم يبق إلاّ مكان لصورة امبراطور واحد ، وهو وضعٌ يملأ ذوي الروح الوطنية بالقلق ، على الرغم من أنه يبدو ناشئاً عن مصادفة .

على أننا حينما كنا نواصل غُدُوَّنا ورَواحَنا على هذا النحو لم نكن نقصّر أيضاً في التوجه إلى الكاتدرائية ، وزيارة ضريح جنتر ذلك الطيب الذي يقدّره الأصدقاء والأعداء . أما الحجر الغريب الذي كان يغطيّه من قبل فقد أقيم نصباً للجوقة . وأمّا الباب الذي يوجد بجواره مباشرة ، والذي يؤدي إلى مجمع الانتخاب فقد ظل ممتنعاً علينا زمناً طويلاً إلى أن عرفنا أخيراً كيف نصل إلى دخول ذلك المكان البالغ الأهمية أيضاً عن طريق السلطات العليا . على أننا كنا ، نحن بوجه خاص ، نحسن صنعاً لو أننا رسمناه عن طريق مخيلتنا ، كما كنا نفعل من قبل ، لأننا وجدنا أن هذا المكان الجدير بالإكبار جداً في التاريخ الألماني ، حيث اعتاد أقوى الأمراء أن يجتمعوا لحدث على جانب كبير من الخطر ، لم يكن بحال من الأحوال مزوّقاً على نحو يليق بمكانته ، بل كان مايزال فوق ذلك مشوّه الصياغة بالأعمدة الخشبية والقضبان والأسلحة ونحو هذا العتاد الذي كان القوم يريدون أن ينحّوه جانباً . على أن مخيلتنا مالبثت أن ازدادت تحفّزاً ، وخفقت قلوبنا حين تلقينا بُعَيْدئذ الإذن بالحضور لدى عرض المرسوم الذهبي على بعض الغرباء من النبلاء في المجلس البلدي .

وكان الغلام يتسمّع بعد ذلك ، بفضول كبير ، ما كان يحلو لذويه ، وللمسنين من أقربائه ومعارفه أيضاً ، أن يسردوا عليه ويكرروا .

وهو قصص التتويج التي تعاقبت مؤخراً بسرعة . ذلك لأنه لم يكن هناك فرانكفورتيّ في سنّ معينة لم يحتفظ إلى آخر حياته بكلا هذين الحدثين ومارافقهما ، وبمقدار ما كان تتويج كارل السابع بالغ الأبّهة ،إذ أقام فيه المبعوث الفرنسي بصورة خاصة مآدب رائعة ذات تكاليف وذوق ، كانت النتيجة بالقياس إلى الامبراطور الطيب أبعثَ للحزن ، إذ لم يستطع الصمود في مقر مُلْكه مونيخ ، واضطر ، إلى حد ما ، إلى أن يفزع إلى حق الاستجارة في مدن مملكته .

ولئن لم يكن تتويج فرانتس الأول ذا أبّهة تلفت النظر بالقدر الذي كان عليه ذلك التتويج ، فقد اكتسب الروعة مع ذلك بحضور الامبراطورة ماريا تيريزا ، التي يبدو أن جمالها قد أحدث من الأثر في الرجل مثلما أحدثت شخصية كارل السابع المهيبة النبيلة . وعيناه الزرقاوان في النساء ، وعلى الأقل كان كلا الجنسين يتنافسان في إدخال مفهوم متناه في مزاياه ، في رَوْع الغلام المنصت ، عن كلا الشخصين . وكانت كل هذه الضروب من الوصف والأقاصيص تتم بنفس مرحة مطمئنة ، لأن صلح (آخن) كان قد وضع نهاية لكل نزاع في هذه اللحظة . ومثلما كان الناس يتحدثون عن تلك الاحتفالات ، كانوا يتحدثون بارتياح عن الحملات الحربية الماضية ، عن موقعة ديتّنجن ، وما كان يمكن أن تنطوي عليه أحداث السنوات المنصرمة من المزيد . وقد بدا أن كل ما له أهمية وخطر ، مما كان من المألوف أن تسير عليه الأمور بعد صلح مبرَم ، لم يحدث إلاّ ليُتّخذ تسليةً للبشر السعداء الخالين من الهموم .

ولم يكد ينقضي ، في مثل هذه المحدوديّة في الوطن ، نصف عام ، حتى عادت إلى الظهور المعارض التي كانت تحدث في رؤوس الأطفال قاطبة ، في كل عصر ، جيَشاناً لا يصدق ، وكانت المدينة الجديدة المنبثقة عن بناء عدد هائل من الأكشاك ضمن المدينة في وقت قصير ، والاضطرام والنشاط ، وشحن البضائع وتفريغها ، يثيران منذ لحظات الوعي الأولى فضولاً ناشطاً لا يُقهَر وتلهّفاً غير محدود على الامتلاك الطفولي كان الغلام يحاول مع تقدم السنين أن يشبعه بهذه الطريقة حيناً ، وبتلك الطريقة حيناً أخر ، على نحو ما كانت تتيح له ذلك طاقات كيس نقوده الصغير . ولكن كان ثمّة تصوّر يتكوّن حيال كل ما ينتجه العالم وما يحتاج إليه ، وما يتباداله سكان أنحائه المختلفة ، فيما بينهم .

وكان يتم الاعلان عن هذه المواعيد الكبرى التي آن أوانها في الربيع وفي الخريف ، عن طريق احتفالات فريدة كانت تبدو أكثر رقيّاً مما كانت عليه قديماً ، وكانت تجسّد بصورة حية ، ما طرأ علينا منذ ذلك الوقت . وفي يوم الافتتاح كان الشعب كله يقف على قدميه ، وكان يندفع إلى بوابة الانطلاق ، فالى الجسر ، متجاوزاً (ساكْسِنْهاوْزِن) وكانت كل النوافذ تُشْغَل دون أن يحدث شيء على وجه الخصوص طوال النهار . وكان الجمهور يبدو كأنه لم يكن هناك إلاّ ليتزاحم ، وأن المتفرجين لم يكونوا هناك إلاّ ليتأمّل بعضهم بعضاً ، لأن ما كان يُعوَّل عليه لم يكن يحدث إلاّ مع الليل المخيِّم ، وكان يُصدَّق تصديقاً أكثر مما يُرى رأيَ العين .

وذلك أن التجار الذاهبين إلى المعارض كانوا في تلك الأيام الغابرة المضطربة ، حيث كان كل امريء يقترف الظلم كما يروق له ، أو

يساند الحق كما يوافق هواه ، يتعرضون للإزعاج والمضايقة من قبل أولئك الضاربين خيامهم في الطريق ، ذوي النسب النبيل أو الوضيع ، بصورة تعسفية ، مما حمل الأمراء والطبقات الأخرى على توجيه أتباعهم في ظل السلاح ، حتى فرانكفورت . غير أن ممالك المدن لم تُرِد هنا أن تفرط بشيء من ذاتها أو من مناطقها ، فتصدّت للقادمين ، ونشبت في بعض الأحيان خلافات حول المدى الذي يستطيع الخفراء أن يبلغوه ، وهل يستطيعون أن يحصلوا على أذن بالدخول إلى المدينة . ولما كان هذا لا يحدث في شؤون التجارة والمعارض فحسب ، بل كان يحدث أيضاً حين كانت تَقْدم شخصيات رفيعة في أوقات الحرب والسلام ، ولاسيما في أيام الانتخابات . وكان الأمر ينتهي في كثير من الأحيان إلى اشتباكات إذا ما طمع أي واحد من الأتباع الذين لم يكن القوم يريدون أن يحتملوا دخولهم المدينة ، أن يقتحمها مع سيده . ومنذ ذلك الوقت جرت بعض المفاوضات ، ومن أجل ذلك تم عقد كثير من الاتفاقيات على الرغم من أن ذلك كان دائماً مع تحفظ من الجانبين ، ولم يتخلّ القوم عن الأمل في أن يسوّوا آخر الأمر هذا النزاع الذي استمر قروناً ، حين غدا من الممكن أن ينظروا إلى مجمل الاحتفال الذي أدى زمناً طويلاً إلى كل هذا العنف الشديد على أنه يوشك أن يكون عديم الجدوى تقريباً ، وعلى الأقل ، على أنه شيء لا حاجة إليه .

وفي هذه الأثناء خرج الفرسان المدنيون في أرتال عديدة ، وفي مقدمتهم قوادهم ، في تلك الأيام ، من أبواب مختلفة ، ووجدوا في موضع معين بعض الخيّالة من طبقات الأمة المخوّلة بالخفارة الذين كان يتم استقبالهم واستضافتهم إلى جانب زعمائهم ، وتردّد القوم

حتّى المساء ، ثم ركبوا ، وكان الجمهور المترقب لا يكاد يراهم قادمين إلى المدينة ، إذ لم يستطع بعض الفرسان المدنيين ، أن يحافظ على جواده ، ولا على نفسه وهو على جواده . وتقدمت إلى باب الجسر أهم المواكب ، ومن أجل ذلك كان التزاحم هناك أقوى ما يكون في اللحظة الأخيرة تماماً ، وعند هبوط الليل وردت عربة البريد التي كانت تتم خفارتها بالطريقة ذاتها من نورنبرج . وكان الناس يتناقلون في أحاديثهم أنه لابد أن تكون سيدة في كل وقت جالسة فيها وهي تابعة لمنشأها ، الأمر الذي جعل صبية الشوارع يألفون أن ينفجروا ، لدى وصول العربة ، في زعيق حاد ، وان لم يكن الناس قادرين على أن يميزوا بعدُ ، على الفور ، المسافرين الجالسين في العربة بحال من الأحوال . وكان ازدحام الجمهور الذي اندفع في هذه اللحظة من خلال باب الجسر صوب العربة ، شيئاً لا يصدق ، بل شيئاً يذهل الحواس حقاً ، ومن أجل ذلك أيضاً كان المتفرجون يلتمسون المنازل الأقرب .

وكان من الاحتفالات الأخرى التي تفوقها كثيراً في الغرابة ، والتي كانت تثير الجمهور في وضح النهار (محكمة الزمّارين) . وكان هذا الاحتفال يذكّر بتلك العصور الأولى حيث كانت المدن التجارية الهامة لاتسعى إلى التحرر من الحماية التي تنامت مع التجارة والصناعة بدرجة واحدة ، بل كانت تسعى على الأقل إلى الوصول إلى تخفيف لها . وقد منح الامبراطور الذي كان في حاجة إليها ، مثل هذه الحرية حيثما كانت تتصل به ، ولكنها كانت في العادة إلى عام واحد فحسب ، ولذلك كان لابد من تجديدها في كل عام . وكان هذا

يحدث عن طريق الهدايا الرمزية التي كانت تقدم إلى العمدة الامبراطوري الذي كان يجوز أن يكون أيضاً ، من حين إلى آخر ، رئيساً للجمارك ، قبل دخول معرض باتولومي ، وذلك بحكم اللياقة ، حين يكون جالساً مع المحلّفين في المحكمة ، وحين ماعاد العمدة يُعيّن من قبل الامبراطور فيمابعد ، بل غدا ينتخب من قبل المدينة ذاتها ، ظل يحتفظ مع ذلك بهذه الامتيازات ، ووصلت هذه حتى عصرنا ، سواء في ذلك الحريات الجمركية للمدن أم الإجراءات الاحتفالية التي كان نواب فورمز وبامْبِرْج القديمة يعترفون بها بهذه التسهيلات العريقة في القدم . وكان ينادى باليوم السابق على ميلاد ماريا يوم مأدبة عامة . ففي القاعة الامبراطورية الكبرى ، في مجال محدد ، كان يجلس المحلفون ، في مكان رفيع ، وعلى درجة أعلى كان يجلس العمدة في وسطهم ، وأمّا الوكلاء المفوّضون من قبل الأحزاب ففي الأسفل إلى الجانب الأيسر . ويأخذ أمين السر بتلاوة الأحكام المُدرَجة في هذا اليوم بصوت عال . أما الوكلاء فيلتمسون نسخة أو يستأنفون الحكم أو يتخذون ما يجدونه ضرورياً في العادة .

وبمرة واحدة تعلن موسيقا رائعة ما يشبه حلول القرون الماضية . انهم ثلاثة زمّارين ينفخ الأول منهم في قيثارة قديمة ، والثاني في (باص) ، والثالث في (ناي) ، أو مزمار . وهم يلبسون معاطف زرقاً وُشِّيَت حواشيها بالذهب ، وقد ثبتت النوتات على أكمامهم ، ورؤوسهم معتمرة . وكذلك كانوا قد خرجوا من فندقهم ، وهم المبعوثون وحاشيتهم من ورائهم ، في الساعة العاشرة تماماً ، وأهل البلد ينظرون إليهم في دهشة ، وعلى هذا النحو يدخلون القاعة ، وتتوقف

مداولات المحكمة ، ويظل الزمّارون والحاشية أمام الحواجز . ويدخل المبعوث ويتقدم مواجهاً العمدة وكانت الهدايا التي تقدم بأدق طريقة وفقاً للعرف تتألف في العادة من أمثال تلك السلع التي ألفت المدينة التي تقدمها أن تفضّل الاتجار بها . وكان البهار يعدّ نداً لكل السلع ، ولذلك كان المبعوث يأتي هنا أيضاً بكأس خشبيّة جميلة الخراطة مملوءة بالبهار ، وعليها زوج من القفّازات مزوّق بفتحات مقصقصة على نحو رائع ، ومخيط ومحلّى بأهداب من الحرير ، رمزاً لرعاية مبذولة ومقبولة كان الامبراطور نفسه يستخدمها أيضاً في حالات معينة . وكان المرء يرى إلى جانب ذلك قضيباً صغيراً أبيض لم يكن من الجائز قبلاً أن يغيب بسهولة في الأعمال القانونية والقضائية . وكان يضاف إلى ذلك بعض القطع النقدية الفضية . وكانت مدينة فورمز تجلب قبعة من اللبّاد ما تفتأ تستعيدها حتى ظلت كثيراً من السنين شاهداً على هذه الإجراءات الاحتفالية .

وكان المبعوث يبتعد عن الدائرة المغلقة بعد أن يلقي كلمته ويسلّم الهدية ، ويتلقّى من العمدة توكيداً للرعاية المستمرة . وكان الزمّارون ينفخون ، وينصرف الموكب مثلما جاء . وكانت المحكمة تتابع أعمالها إلى أن يدخل المبعوث الثاني ، والمبعوث الثالث ، أخيراً : ذلك لأنهما لم يكونا يأتيان إلاّ بعد بعض الوقت ، أحدهما وراء الآخر ، ليستمر سرور الجمهور وقتاً أطول من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن العبقريات القديمة ذاتها هي التي كانت تتولى الترفيه عن نورنبرج ورفيقاتها من المدن دائماً ، وكانت نورنبرج تأتي بها في كل عام إلى هذا المكان .

وكنا نحن الأطفال نهتم بهذا العيد اهتماماً خاصاً ، لأن رؤية جدنا في مكان رفيع كهذا كانت تتملّق نفوسنا تملّقاً غير قليل ، ولأننا

كنا في العادة نزوره حتى في ذلك اليوم نفسه ، بكل تواضع ، لنغتنم الكأس والقضيب الصغير وزوج القفازات أو قرش العجلة الأبيض .
ولم يكن الناس يستطيعون أن يظفروا بتفسير لهذه الاجراءات الرمزية التي كانت كأنما تعيد العصر القديم بطريقة سحرية ، دون أن يُرَدّوا من جديد إلى القرون الماضية ، ودون أن يتساءلوا عن العادات والتقاليد والروح الخاصة بأسلافنا الذين تجسدوا عن طريق الزمّارين والرسل الذين انبعثوا من جديد ، بل عن طريق أعطيات ملموسة لمس اليد ، وممكنة الامتلاك بالقياس إلينا .

وكان يلي هذه الاحتفالات التي حظيت بالتقدير منذ القديم ، في فصل السنة الحسن ، بعض الأعياد الأكثر إمتاعاً لنا نحن الأطفال ، خارج المدينة ، وفي العراء . إذ كان ينبجس من الضفة اليمنى للماين ، في اتجاه المصبّ ، على بعد نصف ساعة من باب المدينة ، ينبوع كبريتيّ احتجزت مياهه نظيفة ، وأحاطت به أشجار زيزفون عريقة في القدم . وكانت تقوم غير بعيد من هنا « دار الصالحين » وهي مستشفى أقيم من قَبلُ من أجل هذا الينبوع . وكان الناس يحشدون ، على أراضي المراعي البلديّة ، في يوم معين من أيام السنة ، قطعان الأبقار من الأماكن المجاورة . وكان الرعاة مع بناتهم يحتفلون بعيد ريفيّ مع الرقص والغناء ، وشيء من الطرب والمجون ، وعلى الجانب الآخر من المدينة كان يقع ميدان عام مماثل ، إلاّ أنه أكبر منه ، ومزيّن ، على شاكلته ، بينبوع وزيزفونات أجمل . وإلى هناك كان القوم يسوقون في عيد العنصرة قطعان الخراف . وفي الوقت ذاته كانوا يرسلون أبناء اليتامى المساكين الشاحبين ، من بين الجدران الأربعة إلى العراء : ذلك لأن القوم لم

يصلوا إلاّ فيما بعد إلى الفكرة القائلة ان مثل هذه المخلوقات المهملة التي لابد لها أن تشقّ يوماً طريقها في الحياة ، لابد للمرء أن يصلها بالحياة في وقت مبكر ، وأنه من الخير أن يعوّدها على العمل والصبر بدلاً من أن يدعها معلّقة بطريقة بائسة ، وأن لدى المرء كل سبب يحمله على تقويتها منذ نعومة أظفارها ، سواء من الناحية الجسدية أم من الناحية الخلقية . على أن المربيّات والخادمات اللواتي كان يسرّهن دائماً أن يهيّئن نزهة بأنفسهن ، لم يكنّ يتوانين عن أن يحملننا إلى المكان ذاته منذ الساعات الأولى وأن يقدننا إليه حتّى غدت هذه الأعياد الريفيّة تعدّ من أولى الانطباعات التي أستطيع أن أتذكرها .

وكان المنزل في أثناء ذلك قد انتهى ، وذلك في وقت قصير للغاية ، لأن كل شيء كان مقدّراً ومهيّأً بصورة حسنة ، كما تم تأمين مبلغ المال الضروري . ووجدنا أنفسنا الآن جميعاً وقد التأم شملنا من جديد ، وشعرنا بالارتياح . ذلك لأن الخطة التي أحسن تدبيرها ، حين تَمْثُل ناجزة تُنسي المرء كل شيء مزعج اتسمت به الوسائل الخاصة بالوصول إلى هذا الغرض . وكان المنزل فسيحاً بما يكفي بالقياس إلى مسكن خاص ، نيّراً ، طلق الهواء للغاية ، والدرج حرّاً ، والقاعات الأمامية بهيجة كما كانت تلك الاطلالة على الحدائق من عدد من النوافذ مما يمكن الاستمتاع به على وجه مريح . أما أعمال البناء التكميلية الداخلية وما يمت بصلة إلى التكميل والزينة فقد تم انجازها بصورة تدريجية ، وكانت تستخدم للعمل والتسلية في الوقت ذاته .

وكان أول ما تم ترتيبه مجموعة كتب الأب التي كان يفترض في أفضلها ، وهي الكتب المجلدة تجليداً جلديّاً أو نصف جلديّ ،

أن تزيّن جدران حجرة عمله ودراسته . وكان يمتلك الطبعات الهولندية الجميلة للكتاب اللاتين . التي سعى إلى تأمينها جميعاً من القَطْع المربّع (١) من أجل التوافق في المظهر الخارجيّ ، ثم كثيراً مما يعود إلى الأثريّات الرومانية والتشريع الروماني الأكثر أناقة . ولم يكن ينقصها أفضل الشعراء الإيطاليين . أما تاسّو فكان يظهر له إيثاراً عظيماً ، كما كانت توجد أيضاً أفضل كتب الرحلات . وكان هو نفسه يستمتع بتصحيح كايسلر ونيمايتس (٢) وتكميلهما . ولم يكن أقل من ذلك اشتغاله بأكثر الوسائل المساعدة ضرورةً ، بالقواميس من اللغات المختلفة ، وبالموسوعات الكبرى التي كان في وسع المرء أن يستمد منها التوجيه كما يحلو له ، وكذلك اشتغاله ببعض الكتب الأخرى التي تهب الفائدة والمتعة .

أما الشطر الثاني من هذه المجموعة من الكتب ، ويقع في مجلدات صغيرة من رقّ الغزال ذات عناوين جميلة الخط ، فقد وضع في حجرة خاصة من حجرات السقيفة . وكان يقوم بالتأمين اللاحق للكتب الجديدة ، وكذلك تجليد الكتب ذاتها وتنسيقها في صفوف برويّة ونظام عظيمين . وفي هذا الصدد كان للاعلانات الثقافية التي كانت تضفي مزايا خاصة على هذا المؤلّف أو ذاك ، أثر عظيم عليه . وكانت مجموعته الخاصة بالأطروحات القانونية تزداد بضعة مجلدات في كل عام .

وفي البداية تم ضم اللوحات الزيتية (٢) التي كانت في العادة تتناثر في البيت القديم معلّقةً هنا وهناك ، بعضها إلى بعض ، على جدران

---

(١) Quarto

(٢) Key ssler und Nemeiz .

حجرة محبّبة إلى جانب حجرة الدراسة . فكانت جميعاً في أُطُر سود مزيّنة بأعواد صغيرة مذهّبة ، مرتّبة في تناسق . وكان والدي يحمل المبدأ الذي طالما أعرب عنه ، حتى بصورة حماسية ، وهو أنه ينبغي للمرء أن يحمل الأساتذة الأحياء على العمل ويقلّل من اتجاهه إلى الراحلين ، الذين ينطوي تقديرهم على كثير جداً من الحكم المسبق . وكان يحمل تصوراً مفاده أن طبيعة اللوحات تتماثل تماماً مع خمور الراين التي إذا أضفى عليها العمر قيمة حسنة يمكن اخراجها مع ذلك في كل سنة من السنوات التالية على نحو مماثل في روعته للسنوات الماضية . وبعد انقضاء بعض الوقت يغدو الخمر الجديد أيضاً قديماً ، نفيساً مثل ذاك ، وربما كان أحسن مذاقاً . وهذا الرأي كان يثبته على نحو ممتاز عن طريق ملاحظة أن عدداً من الصور القديمة بدا أنها اكتسبت قيمة كبيرة عند العشاق بصورة رئيسية لأنها غدت أكثر قتامة وسُمْرة ، وكان الإيقاع التواؤميّ لمثل هذه الصورة يلقى التمجيد في كثير من الأحيان . وكان أبي يؤكد في مقابل ذلك أنه لا يخشى على الإطلاق أن تسودّ الصور الجديدة في المستقبل أيضاً ، غير أنه لم يكن يريد التسليم بأنها ستربح عن هذا الطريق بالذات .

وعلى أساس هذه المباديء كان يدفع فناني فرانكفورت كافة خلال عدد من السنين ، إلى العمل . فمنهم الرسام هيرت الذي كان يعرف كيف يخرج غابات البلوط والزان وغيرها مما يسمى بالمناطق الريفية ، اخراجاً جيداً مع الماشية . ونظيره تراوتمان الذي اتخذ من رامبرانت نموذجاً ، والذي بلغ ما لا يقل عنه شأواً ، في أضوائه وانعكاسات أضوائه المحصورة ، وضرام شهواته الناريّة المؤثرة ، حتى طُلِب

إليه يوماً أن يرسم نظيراً مماثلاً (١) لصورة لرامبرانت ، ثم شوتس الذي اجتهد ، على طريقة زاختليبن ، في معالجة مناطق الراين ، وليس أقلّ منه يونكر الذي نفّذ لوحات الأزهار والثمار والحياة الهادئة والأشخاص ذوي العمل الهادئ على نمط الهولنديين ، بنقاء بالغ . على أن الهواية لقيت الآن من جديد إنعاشاً وإحياءً بالنظام الجديد ، وبالمجال المريح ، وفوق ذلك بعدُ ، بالتعرّف على فنان بارع . وكان هذا زيكاتس ، وهو تلميذ برنكمان رسام البلاط من دارمشتات والذي ستتفتّح موهبته وشخصيته لنا على نطاق أوسع فيما بعد .

ومضى القوم على هذا النحو يكمّلون الحجرات الباقية بحسب مواصفاتها المختلفة . وكانت النظافة والنظام يسودان على الإجمال . وكان ثمة لوحان كبيران من ألواح المرايا يزيدان بصورة رائعة ما لهاتين السمتين ليصلا بهما إلى إشراق كامل كان يُفتقَد في المنزل القديم لأسباب عدة ، وأولها ألواح النوافذ التي يغلب عليها الاستدارة . وكان أبي يبدو مرحاً لأنه أصاب في كل شيء نجاحاً . ولو أن المزاج الحسن لم يقطعه في بعض الأحيان عدم تلاؤم نشاط العمال ودقتهم مع مطالبيه دائماً ، لما كان في وسع المرء أن يتصور حياة أكثر سعادة ، وذلك بصورة خاصة ، لأن بعض الأمور الحسنة قد عرضت في العائلة ذاتها من ناحية ، أو وردتها من الخارج من ناحية أخرى .

ولكن حدثاً عالمياً هائلاً يزلزل سكينة النفس عند الغلام أول مرة في أعمق أعماقه . ففي الأول من تشرين الثاني ، عام ١٧٥٥ حدث

---

(١) Pendant

زلزال لشبونة ونشر على العالم الذي كان قد أخلد إلى السلام والهدوء رعباً هائلاً . حاضرةٌ كبرى ذات أبّهة ، مدينةُ تجارةٍ وميناءٌ في الوقت ذاته ، تدهمها أكبر الدواهي هَوْلاً على حين غرة ، فاذا الأرض ترتّج وتترنّح ، والبحر يثور ، والسفن تتلاطم ، والمنازل تتداعى ، وفوقها الكنائس والأبراج ، والقصر الملكي يبتلع البحر جزءاً منه ، وتبدو الأرض المتفجّرة وكأنها تبصق ألسنة اللهيب ، لأن الدخان والحريق يتجليّان في الخرائب في كل مكان . وإذا ستون ألفاً من البشر ، كانوا قبل لحظة مازالوا ساكنين مطمئنين ، يهلكون معاً ، ويعدُّ أسعدهم ذلك الذي ماعاد يتهيّأ له إحساس ولا تفكير في المصيبة . وتواصل ألسنة اللهيب اضطرامها وتضطرم معها شرذمة من المجرمين الكامنين في العادة أو المُطلَقي السَراح بفعل هذا الحدث . وإذا الباقون البائسون عرضة للنهب والقتل ، ولكل الاساءات ، وعلى هذا النحو تكرّس الطبيعة عسفها الذي لا تحده حدود ، من كل الجوانب .

وكانت نُذُر هذه الحادثة قد انتشرت في أرجاء واسعة من البلاد . ففي كثير من الأماكن كانوا يشعرون بهزّات أضعف ، وعند بعض الينابيع ، ولاسيما الاستشفائية ، كان يلاحظ توقف غير مألوف . وتعاظم أثر الأنباء ذاتها التي سرعان ما انتشرت بصورة عامة أول الأمر ، ثم مع تفاصيل مخيفة . وعلى أثر ذلك لم يقصّر الأتقياء في الملاحظات . والفلاسفة في التماس أسس للتعزية ، ورجال الكهنوت في المواعظ التكفيرية . وكان ثمة أشياء كثيرة معاً توجه انتباه العالم حيناً من الزمان إلى هذه النقطة ، كما زاد فزع النفوس المروّعة بفعل ضروب القلق على ذاتها وعلى ذويها ، حين سرت من كل حدب وصوب أنباء عن

الأثر الواسع الانتشار لهذا الانفجار على نحو مطرّد في الزيادة والتفصيل . بل ربما لم يسبق لشيطان الرعب في أي عصر من العصور أن نشر رِعْدته على الأرض بهذه السرعة ، وبهذا الجبروت .

ولم يكن تأثّر الغلام الذي لم يكن له بدّ أن يسمع هذا مراراً ، بالتأثر القليل ، إذ إن الربّ ، خالق السموات والأرضين ، والقيّوم عليهما ، والذي كانت تصوره له الوصية الأولى بالغ الحكمة والرحمة ، لم يثبت له بحالٍ من الأحوال أبويّاً حين ترك الأتقياء مع الظالمين ، يهلكون على السواء . وعبثاً حاول الوجدان الناشيء أن يتصدى لهذه الانطباعات ، وغدا ذلك أقل إمكاناً حين لم يستطع الحكماء وذوو الاطلاع من الكتاب أنفسهم أن يتفقوا على الأسلوب الذي ينبغي للمرء أن ينظر به إلى مثل هذه الظاهرة .

على أن الصيف التالي أتاح فرصة أقرب للتعرف بصورة مباشرة على الرب الغاضب الذي يتحدث عنه العهد القديم كثيراً جداً . اذ انطلقت بغتة عاصفة من البَرَد ، وجعلت تضرب ألواح الزجاج الجديدة في الجانب الخلفي من المنزل المواجه للغرب ، برعدها وبرقها ، أعنف ضرب ، فألحقت الضرر بالأثاث الجديد ، وأتلفت بعض الكتب النفيسة والأشياء القيّمة الأخرى ، وكان الأمر أشدّ هَوْلاً بالقياس إلى الأطفال حين اجترفهم خدم المنزل الذين خرجوا عن طورهم تماماً ، إلى دهليز مظلم ، واعتقدوا هنالك أنهم يسترضون الذات الإلهية الساخطة بالزعيق والصراخ المفزعين ، وهم جاثون على ركبهم ، على حين كان الأب الذي كان هو المتماسك الوحيد تماماً ، يفتتح مصاريع النوافذ ويخلعها منقذاً بذلك بعض الألواح ، غير أنّه مهّد بذلك أيضاً السبيل الأكثر

انفتاحاً لانسكاب المطر الذي أعقب البَرَد ، حتى رأينا أنفسنا بعد الخلاص النهائي ، في الأَبْهاء الأمامية ، وعلى السلالم ، يحدق بنا الماء الغامر المنساب .

على أن مثل هذه الأحداث ، على مافيها من إعاقة على وجه الإجمال ، لم تقطع مسيرة التعليم وتسلسله إلاّ قليلاً ، وهو التعليم الذي كان الوالد نفسه قد أخذ على عاتقه أن يعطينا إياه . وكان قد أنفق صباه في ثانوية كوبورج التي كانت تتبوّأ أحد المواقع الأولى بين المؤسسات التعليمية الألمانية ، وكان قد وضع بنفسه أساساً جيداً في اللغات ، وفي كل ما يحسب المرء له حساباً من أجل تربية ثقافية ، ثم انهمك بعد ذلك ، في لايبتسج ، في علم الحقوق ، وتخرّج آخر الأمر في جيسن . ومازالت أطروحته (١) « مختارات من مجاميع قوانين الأرث » تذكر بالثناء من قبل أساتذة الحقوق .

وإنها ، عند كل الآباء ، لرغبة المغلوبين على أمرهم ، أن يروا ما فاتهم هم أنفسهم ، متحققاً في أبنائهم ، والأمر على وجه التقريب كما لو أن المرء عاش مرة ثانية وأراد الآن فحسب أن يستفيد من خبرات سيرة الحياة الأولى . وقد أخذ الوالد على عاتقه ، إذ تولاّه التقدير لمعارفه ، واليقين بالمثابرة المخلصة ، وسوء ظنه بأساتذة ذلك الزمان : أن يعلّم أبناءه بنفسه ، وألاّ يُكثِر من شَغْل ساعات مفردة بأساتذة خصوصيين إلا بمقدار ما كان يبدو ضرورياً . وبدأت نزعة تربوية إلى اللااختصاص تتجلّى بصورة مطلقة . وربما كان التحذلق وتشوّش

---

(١) (Elcta de aditione hereditatis)

الذهن عند المعلمين المعينين في المدارس العامة هو الذي قدّم الحافز الأول لذلك . لقد كان القوم يسعون إلى شيء أفضل وينسون مقدار النقص الذي لابد أن يتسم به كل تعليم لايصدر عن أناس من أهل الصناعة .

وكان والدي قد أصاب في مسيرة حياته من النجاح حتى ذلك الوقت ما يوافق أمنيته إلى حد بعيد ، وكان يُفْتَرَض فيَّ أن أمضي على الطريق ذاته ، ولكن بصورة أوفر راحة وأبعد مدى . وكان يقدر مواهبي الفطرية حيثما كانت مفتقَدَةً لديه . ذلك لأنه كان قد اكتسب كل شيء بمجرد النشاط الذي لا مثيل له ، والمثابرة ، والتكرار . وكان يؤكد لي في كثير من الأحيان ، من قبل ومن بعد ، في الجدّ والهزل ، انه كان خليقاً أن يتصرّف حيال ميولي الفطرية بطريقة مختلفة تماماً ، وألاّ يتدبّر أمرها بهذه الطريقة المتوانية .

وعن طريق الانكباب السريع ، وإعمال الذهن والمثابرة، تجاوزت في وقت قريب جداً التعليم الذي كان والدي والأساتذة الآخرون يستطيعون أن يؤدّوه إليّ ، دون أن أحصل مع ذلك على أساس في أي شيء . أما النحو فلم يرق لي ، لأنه بدا لي مجرد قانون تعسّفيّ . وكانت القواعد تبدو لي مضحكة ، لأنها كانت تتعرض للتعليق بعدد كبير من الحالات الشاذة التي كان يُفتَرض فيَّ أن أتعلّمها من جديد بصورة خاصة . ولولا كتاب « اللاتيني المبتديء » المقفّى لبدت حالتي على جانب من السوء ، ولكني كنت أدندن بهذا الكتاب واتغنّى به لنفسي مسروراً . وعلى هذا النحو كان عندنا جغرافية في مثل أشعار الذاكرة هذه ، حيث تتولى أكثر القوافي نُبُوّاً عن الذوق طبع ما يُبْتَغى حفظه في أذهاننا على أفضل وجه ، ومثال ذلك :

وايسّلُ العليا بها مستنقعٌ كبيرُ   فطيّب الأرض به يبور

(Ober - Yssel viel Morast
Macht das gute Land verhasst)

وقد أمسكت بسهولة بزمام الأشكال والاستعمالات اللغوية ، وعلى هذا النحو طوّرت لنفسي بسرعة ما كان يدخل في مفهوم مسألة من المسائل . ففي أمور البلاغة ومناهجها ، وما شاكل ذلك ، لم يكن يفوقني أحد ، على الرغم من أنني كنت مضطراً إلى التخلف في أغلب الأحيان بسبب الأخطاء اللغوية . على أن مثل هذه الموضوعات الانشائية كانت مع ذلك هي التي تسرّ والدي بوجه خاص ، والتي كان يكافئني عليها ببعض الأعطيات النقدية الهامة بالقياس إلى صبيّ .

وكان أبي يعلّم أختي في الحجرة ذاتها اللغة الإيطالية ، حيث كان عليّ أن أحفظ كتاب (سيلاريوس) غيباً . وكنت إذا فرغت من دروسي في وقت قريب وكان عليّ أن أظل جالساً بهدوء ، استرق السمع إلى الكتاب استراقاً ، وتمكنت من الإيطالية التي كانت تثير استغرابي من حيث هي تحريف مضحك للاّتينية ، ببراعة كبيرة .

وكنت أشاطر في بواكير أخرى هادفة إلى الذاكرة والتأليف أولئك الأطفال الذين كانوا قد اكتسبوا بذلك سمعة مبكرة . ولذلك لم يكد والدي يستطيع الانتظار ريثما أذهب إلى معهد عال . وسرعان ما أعلن إليّ أنني ينبغي أن أدرس الحقوق كذلك في لايْبتْسِج التي كان يؤثرها بحب كبير ، ثم أدخل جامعة أخرى وأتخرّج . أمّا ما يتصل بتلك الثانية فلم يكن يعنيه أيّ جامعة أختار ، إلاّ أنه كان ينطوي لسبب لا أعرفه ، على بعض النفور من جوتنجن ، الأمر الذي كان يكربني :

ذلك لأنني كنت قد أوليت هذه بالذات كثيراً من الثقة وعلّقت عليها آمالاً كباراً .

ثم حدثني أنه ينبغي لي أن أذهب إلى فيتسلار وريجنزبورج ، وألاّ أتوانى في الذهاب إلى فينا ، ومن هناك إلى ايطاليا ، على الرغم من أنه كان يقول مراراً إنه يجب على المرء أن يزور باريس أولاً ، لأنه حين يأتي من إيطاليا لا يتسلّى بشيء أكثر منها .

وجعلت أكرر لنفسي هذه الحكاية الخاصة بمسيرة حياتي المقبلة وأنا مسرور ، ولاسيما حين انتهت إلى قصة عن ايطاليا ، وأخيراً إلى وصف لنابولي وبدا ما يُعرَف عنها في العادة من الجد والجفاف وكأنه يذوب في كل حين ويغدو منعشاً ، وهكذا تولّدت فينا معشر الأطفال الرغبة العارمة في المشاركة في هذه الفراديس .

أما الساعات الخصوصية التي كانت تزداد شيئاً فشيئاً فكنت أشرَكُ فيها أطفال الجيران ، على أن هذا التعليم المشترك لم يدفع بي إلى الأمام ، فقد كان المعلمون يتهاونون ، كما أن شقاوات أترابي ، بل أشكال خبثهم أحياناً ، تبعث الاضطراب والاستياء والتشويش في ساعات الدراسة الضئيلة . وأما كتب المختارات التي يغدو بها التعليم مرحاً متعدد الجوانب فلم تكن قد وصلت إلينا . وأما كتاب كورنيليوس نيبوس الجاف ، والعهد الجديد المفرط في السهولة ، والذي أصبح مطروقاً إلى حد كبير عن طريق المواعظ والتعليم الديني ، وكتب سيللا ريوس وبازور ، فلم يكن في وسعها أن تثير اهتمامنا . وفي مقابل ذلك كانت قد تملكتنا حمياً القوافي والشعر بدرجة معينة عن طريق مطالعة الشعراء

الألمان في تلك الأيام . وكانت قد تملكتني أنا من قبل حين كنت أجد المتعة في الانتقال من المعالجة البلاغية للواجبات المدرسية ، إلى المعالجة الشعرية .

وكان لنا معشر الأطفال اجتماع في يوم الأحد حيث كان يفترض في كل واحد أن يخرج بأشعار نظمها بنفسه ، ولقيت ههنا شيئاً عجيباً جعلني اضطرب له زمناً طويلاً جداً . وذلك أنني كنت أرى قصائدي دائماً أفضل القصائد ، مهما يكن من أمرها ، وسرعان مالاحظت أنا وحدي ، أن المنافسين لي ، الذين كانوا يخرجون أشياء بالغة الركاكة ، كانوا على تلك الحالة ذاتها ، وأنهم لم يكونوا يرون أنفسهم أقل مني ، بل إن ما بدا لي مدعاة للتفكير بصورة أكبر أن غلاماً طيباً كان غير أهل لمثل هذه الأعمال البتة ، وكنت ، بعد ذلك ، أفوقه كثيراً ، وكان يدع مربيه يكتب له أبياته ، ومع ذلك فلم يكن يرى هذه الأبيات أفضل الأبيات قاطبة فحسب ، بل كان على يقين كامل أنه قد نظمها بنفسه ، كما كان يزعم لي مخلصاً ، في كل وقت ، حيثما كنت أخلو إليه ، في علاقتنا الأكثر وثوقاً .

فلما رأيت الآن مثل هذا الخطأ والجنون جلياً أمامي داخلني الفزع من احتمال أن أكون أنا نفسي مصاباً بهذه الحالة ، ومن أن تكون تلك القصائد أفضل من قصائدي حقاً ، ومن أنني ربما أبدو في نظر ذلك الغلام ، بغير حق ، مجنوناً ، مثلما تبدو لي الأشعار تماماً . وقد أثار هذا في نفسي اضطراباً شديداً ، وإلى أجل بعيد ، إذ كان من المستحيل عندي أن أعثر على سمة مميزة ظاهرة للحقيقة ، بل تعثرت في ضروب إنتاجي ، إلى أن أدخل السكينة على نفسي أخيراً الاستخفاف

والاعتداد بالنفس ، وفي النهاية عملية اختبارية فرضها علينا المعلمون والآباء الذين تنبّهوا إلى طرائفنا . بصورة مرتجلة ، وأصبت فيها نجاحاً وخرجت منها بالثناء العام .

ولم تكن قد أنشئت في ذلك الزمان مكتبات للاطفال بعد . وكان الكبار مازالوا يتسمون بالعقليات الطفولية ، فكانوا يجدون من المريح أن ينقلوا ثقافتهم الخاصة إلى الخلَف . فباستثناء كتاب « العالم المصوَّر — (Orbis pictus) » لآموس كومينيوس لم يصل إلى أيدينا كتاب من هذا النوع ، ولكن التوراة بالحجم الكبير ، بما فيها من النقوش النحاسية لميريان ، كانت كثيراً ما يجري تصفحها من قبلنا . وكانت « حوليات » جوتفريد المصورة من قبل الأستاذ ذاته تعلمنا أغرب أحداث التاريخ العالمي . أما كتاب « حُقّ البخور في فقه اللغة (Acerra philologica » فكان يصوغ خرافات شتى ، وفوقها أساطير وغرائب ، ولما أحطت بعيد ذلك علماً « بالتحولاّت » لأوفيد ، ودرست الكتب الأولى دراسة جادة بوجه خاص امتلأ دماغي الفتيّ بسرعة بما يكفي من كتلة الصور والوقائع والشخصيات والأحداث الهامة والعجيبة ، ولم يكن من الممكن قط أن أشعر بالملل ، إذ كنت اشتغل بصورة مستمرة بمعالجة هذا الذي اكتسبته ، وتكراره ، من أجل إخراجه من جديد .

وكان كتاب فينيلون « تيليماك » يحدث أثراً أكثر تديّناً وأخلاقيّةً من تلك الآثار القديمة الفجة والخطيرة بجملتها ، ولم أتعرّف عليه إلاّ في ترجمة نويْكيرْش ، وكان يظهر أثراً في نفسي بالغ الحلاوة والنفع ، على الرغم من كل ما في روايته من نقص . أما أن « روبنسون كروزو » انضم إلى هذه الأشياء في الوقت المناسب فذلك

أمر يكمن في طبيعة الأشياء ، وأما أن « جزيرة فيلزنبورج » لم تنقصني فمسألة فيها نظر . وكانت « الرحلة حول العالم » للورد أنسون تربط نبل الحقيقة بالغنى الخيالي للأسطورة ، وحين كنا نصحب هذا البحّار الرائع بأفكارنا كنا نُحمل بعيداً إلى كل أرجاء العالم ، وكنا نحاول أن نتابعه بأصابعنا على الكرة الأرضية المجسّمة . وكان مقدّراً لي الآن أن أكون في انتظار حصيلة أغنى من ذلك بعدُ ، حين وقعت على كتلة من الكتب التي لايمكن في الحقيقة أن تعدّ ممتازة في شكلها الراهن ، ولكن مضمونها يقرّب إلينا بعض منجزات العصور الغابرة بطريقة بريئة .

وكانت دار النشر ، أو بالأحرى مصنع تلك الكتب التي عرفت ، بل اشتهرت في العصر التالي تحت عنوان « كتابات شعبية » أو « كتب شعبية » ، في فرانكفورت ذاتها . وكانت تطبع ، بسبب الرواج الواسع ، بحروف قائمة ، على أشنع ورق متشرّب ، وعلى نحو لايكاد يقرأ ، فكنا ، معشر الأطفال ، سعداء بالعثور على هذه البقايا القيّمة من العصر الوسيط على منصة صغيرة أمام منزل بائع كتب قديمة في كل يوم ، واقتنائها لقاء بضع دريهمات ، فـ « الشيطان الماكر » و « أبناء هايمون الأربعة » و « ميلوزينه الجميلة » ، و « الامبراطور أوكتافيان » ، و « ماجليونة الجميلة » ، و « المحظوظ » ، مع سائر السلالة ، حتى « اليهودي الخالد » ، كل ذلك كان في خدمتنا كلما راق لنا أن نبادر إليها بدلاً من أن نبادر إلى أية لقمة مستطابة . وكانت المزيّة الكبرى في هذا أننا حين كنّا نتلف كتاباً بالقراءة أو نلحق به الضرر أيّاً كان ، فسرعان ما كنا نستطيع تدبيره والتهامه من جديد .

ومثلما تفسد رحلة عائلية في الصيف ، بعاصفة مفاجئة ، على نحو مزعج للغاية ، وينقلب ظرف سعيد إلى أشد الظروف كراهية ، فكذلك تحل أمراض الأطفال بغتة في أجمل الفصول من باكورة العمر . ولم يكن ماجرى لي بالأمر المختلف . وكنت قد اشتريت كتاب « المحظوظ » بكيسه ، مع خيمة الأحلام الصغيرة ، حين أصابني انزعاج وحمّى كانا ينطويان على نُذُر الجدري . وكان التطعيم من أجل الجدري مازال ينظر إليه عندنا على أنه شديد الإشكال ، وعلى الرغم من أن كتاباً شعبيين قد أوصوا به على نحو معقول ، وبالحاح ، فان الأطباء الألمان كانوا مع ذلك يترددون في عملية كانت تبدو كأنها تستبق الطبيعة . ولذلك جاء الانكليز النهّازون للفرص الى القارّة ، وجعلوا يلقحون ، مقابل أجر مرموق ، أبناء أولئك الأفراد الذين وجدوهم موسرين ومتحررين من الأحكام المسبقة ، ومع ذلك فقد ظلت الأغلبية عرضة للداء الوبيل القديم ، وفشا الداء بين الأسر ، وقتل وشوّه كثيراً من الأطفال ، وقلّما كان الآباء يجرؤون على اللجوء إلى وسيلة كانت جدواها الظاهرة قد ثبتت بالنجاح من وجوه عديدة . على أن المكروه نزل الآن ببيتنا ، ودهمني بعنفوان متميز تماماً ، فكان جسمي كله مزروعاً بالبثور ، ووجهي مغطىً ، وظللت بضعة أيام راقداً مكفوف البصر ، في آلام مبرّحة ، وكان القوم يبحثون عن التخفيف قدر الإمكان ، ويعدونني بجبال من الذهب إذا سلكت سبيل الهدوء ولم أزد السوء بالحك والهرش . وكانت لي الغلبة على نفسي . وفي هذه الأثناء كانوا يحافظون على الدفء عندنا قدر الإمكان جرياً على الحكم المسبق السائد ، ويزيدون بذلك من حدة البلاء فحسب . وأخيراً ، وبعد زمان أنفقناه في الغمّ ، سقط الداء عني كما يسقط القناع عن الوجه ، دون أن تخلّف البثور

أثراً ظاهراً على البشرة ، ولكن الملامح كانت متغيّرة بصورة ملحوظة وكنت أنا راضياً لمجرد عودتي إلى رؤية ضوء النهار ، والتخلص شيئاً فشيئاً من البشرة ذات البقع ، ولكن قوماً آخرين كانوا على جانب من القسوة يحملهم على أن يذكروني في كثير من الأحيان بالظرف السابق ، ولاسيما عمّة لي طافحة بالحيوية ، كانت من قبل تعبدني عبادة ، ولكنها قلّما كانت تستطيع أن تراني ، حتّى بعد سنين لاحقة ، دون أن تصيح : « الويل للشيطان ،ماأقبح ماصرتَ إليه ! » . ثم كانت تحدثني بالتفصيل ، كيف كانت تتسلّى في العادة معي ، وما كانت تلفت من الأنظار حين كانت تحملني وتطوف بي ، وهكذا تبين لي في وقت مبكر أننا كثيراً ما ندع الناس يكفرون ، بصورة حسّاسة ، عن المتعة التي مننّا عليهم بها .

ولم أسلم من الحصبة ، ولا من البثور ، ولا من أي اسم يمكن أن تسمى به أشباح العذاب في الصبا . وفي كل مرة كان القوم يؤكدون لي أن من حسن الحظ أن هذا البلاء قد ولّى الآن إلى الأبد ، ولكن من المؤسف أن بلاءً اخر كان يتهددنا من الخلف ويتقدم زاحفاً . وكل هذه الأمور كانت تزيد من تعلقي بالتفكّر ، ولما كنت قد وطّنت نفسي على الجَلَد في كثير من الأحيان ، لأنأى بنفسي عن الجانب المؤلم في نفاد الصبر ، فقد بدت لي الفضائل التي كنت أسمع تمجيدها عند الرواقيين ، جديرة بالتقليد إلى أقصى الحدود ، بل أكثر مما أوصت نظرية التسامح المسيحية بشيء مشابه له .

وبمناسبة هذه المعاناة العائلية أود أن أذكر أيضاً أخاً لي أصغر مني بثلاث سنوات ، أصيب مثلي بتلك العدوى وعانى منها ما ليس بالقليل .

وكان ذا طبيعة رقيقة ، هادئاً ، عنيداً ، ولم يكن بيننا قط علاقة حقيقية ، كما أنه لم يكد يجاوز في العمر سنوات الطفولة ، وأنا أذكر بين عدد من الأخوة الذين ولدوا من بعدي ، والذين لم يظلوا كذلك على قيد الحياة طويلاً فتاة واحدة فحسب ، جميلة جداً ولطيفة ، سرعان ماتوارت ، إذ رأينا أنفسنا ، أنا وأختي ، بعد انصرام بعض السنين ، باقيين وحدنا ، فارتبطنا برباط أوثق وأكثر وداً .

وقد أصبحت تلك الأمراض والمعوّقات المزعجة الأخرى ، ثقيلة العبء في نتائجها بصورة مضاعفة : ذلك لأن أبي الذي بدا أنه وضع لنفسه جدولاً زمنياً معيناً للتربية والتعليم ، كان يريد أن يتدارك كل تقصير من جديد بصورة مباشرة ، وفرض على الناقهين دروساً مضاعفة لم يكن من الصعب عليّ احتمالها حقاً ، ولكني كنت أشعر بثقلها بمقدار ماكانت تقف تطوّري الداخليّ وتكبحه إلى حدٍّ ما .

وكنا نفزع من هذه الهموم التعليمية والتربوية في العادة إلى الجدّين . وكان مسكنهما يقع في جادة فريد برج ، ويبدو وكأنه كان حصناً في الماضي . ذلك لأن المرء لم يكن يرى حين يتقدم منه إلاّ باباً كبيراً له أسوار مسنّنة كان يلتقي عن كلا الجانبين بمنزلين من منازل الجيران ، فاذا ما دخل المرء وصل عن طريق ممر ضيق أخيراً إلى ساحة فسيحة للغاية تحيط بها مبان غير متشابهة تم توحيدها الآن في مسكن واحد . وكنا في العادة نسرع على الفور إلى الحديقة الّتي كانت تمتد بطول وعرض مرموقين وراء المباني ، وكانت تلقى عناية فائقة ، وكانت الممرات محاطة في أغلب الأحيان بأسوار من الكرمة ، وقد خُصص قسم من المكان لنباتات المطبخ ، وقسم آخر للأزهار الّتي كانت تزيّن

أحواض الأزهار كما تزين أحواض الخضار ، من الربيع إلى الخريف في تبدّل خصب . وكان الجدار المتجه نحو الجنوب على مدى طويل يستخدم من أجل عرائش حائطيّة حسنة الإنشاء لأشجار الدرّاق كانت تواجهنا منها الثمار المحظورة طوال الصيف ناضجة شهية للغاية . ومع ذلك فقد كنا نؤثر أن نتجنّب هذا الجانب إذ لم يكن يتاح لنا هنا أن نرضي اعتدادنا بأنفسنا ، وكنا نتجه صوب الجانب المواجه له حيث كانت سلسلة لا تخطئها العين من أحراش شجيرات عنب الذئب ، وعنب الثعلب تفتح أمام نَهَمِنا سلسلة من المحاصيل حتّى الخريف . ولم تكن تقل عن ذلك أهمية بالقياس إلينا شجرة توت طاعنة في السن ، باسقة ، واسعة الامتداد ، سواء من أجل ثمارها ، أم لأن الناس كانوا يحدثوننا أن دود القزّ كان يتغذى بأوراقها . وكان المرء يجد في هذه المنطقة الوادعة الجدّ في كل مساء يُعنى بيده بالتربية اللطيفة الخاصة بأشجار الفاكهة والأزهار ، بينما كان بستانيٌّ يتولّى العمل الأكثر خشونة . ولم يكن قط يضيق ذرعاً بالجهود المتعددة الجوانب التي تعد ضرورية للحفاظ على فصيلة جميلة من القرنفل ولتنميتها . وكان يربط بنفسه بعناية أغصان أشجار الدرّاق على شكل مروحة ، على العرائش الحائطية ليهيء نمواً أكثر خصباً وراحة للثمار ، ولم يكن يدع لأحد سواه عزل البصلات عن أزهار التوليب ، وعزل العَيْسلان والنباتات القريبة إليها ، وكذلك الاهتمام بالحفاظ عليها . ومازال يحلو لي أن أتذكر مبلغ نشاطه حين كان يشتغل بتطعيم أنواع الورود المختلفة . وكان يلبس لذلك ، اتقاءً للأشواك ، تلك القفازات الجلدية ذات الزي القديم التي كانوا يناولونه إياها ثلاثاً في كل عام في محكمة الزمّارين ، فلم يكن ينقصه من هذا القبيل شيء قط . وكذلك كان يرتدي دائماً

ثوب نوم يشبه البزّة الرسمية ، وعلى رأسه قبعة مخملية سوداء ذات غضون ، فكان بذلك يستطيع أن يمثّل شخصيّةً متوسطةً بين ألكينوس وليرتيس

وكان يمارس كل هذه الأعمال البستانية بمثل النظام والدقة اللذين يمارس بهما أعماله الرسمية . لأنه كان يقوم ، قبل أن ينزل من بيته ، دائماً ، بتنسيق حاشية سجل دفوعاته لليوم التالي ، وبقراءة الملفّات . كما كان يغدو في الصباح إلى المجلس البلدي ، ويتناول طعامه بعد عودته ، ويغفو بعدها في مقعد الجدّ الخاص به . وهكذا كان كل شيء يسير كل يوم مثل سواه . وكان قليل الكلام ، ولم يكن يصدر عنه أثر العنف . ولا أذكر أني رأيته غاضباً ، وكان كل ما يحيط به قديم الطراز . ولم أشعر قط بأي تجديد في حجرته المكسوة بالألواح . أما مكتبته فلم تكن تحوي ، باستثناء المؤلفات القانونية إلاّ أوائل كتب وصف الرحلات وأسفار البحر واستكشاف الأراضي . ولست أتذكر ، على الإطلاق ، ظرفاً كهذا الظرف ، كان يمنح الشعور بالسلام الذي لاينقض والذي له ديمومة خالدة .

على أن ما كان يزيد من المهابة التي كنا نحس بها إزاء هذا الشيخ النبيل ، إلى الحد الأقصى الإيمان بأنه يملك موهبة التنبؤ ، ولاسيما في الأمور التي كانت تمسّه هو نفسه وتمس مصيره . ولم يكن في الحقيقة يفصح عن مكنون ذاته بصورة حاسمة ومفصّلة لأي أحد سوى الجدّة ، ولكننا كنا نعرف جميعاً مع ذلك أنه كان يحيط علماً ، عن طريق أحلام لها دلالتها ، بما سيحدث . ومثال ذلك أنه أكّد لزوجه ، في الوقت الذي كان فيه ما يزال معدوداً من صغار القضاة ، أنه سيصل

عند شغور أول محل في مقعد المحلفين إلى المحل الشاغر . وحين مات بعيد ذلك بالفعل أحد المحلفين متأثراً بنوبة قلبية أوعز في يوم الانتخاب والاقتراع بإعداد كل شيء في البيت بهدوء لاستقبال الضيوف والمهنئين ، وقد تم بالفعل سحب الكرة الذهبية الحاسمة لصالحه . أما الحلم البسيط الذي ينبئه بذلك فقد أفضى به إلى زوجه على النحو التالي : لقد رأى نفسه في إجتماع عاديّ كامل للمجلس البلدي ، حيث جرى كل شيء حسب الطريقة المتوارثة . ونهض المحلف المتوفّى مرة واحدة عن مقعده ، ونزل الدرج ، والتمس منه بطريقة ملزمة أن يتبوّأ المكان المتروك ، ثم خرج من الباب .

وقد حدث شيء مشابه حين رحل العمدة بالموت . ولايتردد القوم في مثل هذه الحال طويلاً في شغل هذا المنصب لأنهم يضطرون دائماً إلى التخوّف من أن يعمد الامبراطور إلى إحياء حقه من جديد ، في تعيين العمدة ، في أية مرة من المرات . وفي هذه المرة عقدت في منتصف الليل جلسة استثنائية أعلن رسول المحكمة امتدادها إلى الصباح . ولأن هذا كان يوشك أن ينطفيء ضوء مصباحه ، فقد التمس جذوةً من نار ليستطيع أن يستأنف طريقه . فقال الجد للنساء « أعطوه جذعاً كاملاً فلقد بذل هذا الجهد من أجلي » ، وكان هذا الإعلان يتمشى مع النجاح : فقد أصبح بالفعل عمدةً ، وهو الأمر الذي كان الظرف فيه يدعو إلى العجب بصورة خاصة ، وذلك أنه على الرغم من أنّ ممثله في الاقتراع قام بالسحب في الدور الثالث والأخير فان الكرتين الفضيتين خرجتا أولاً ، وبذلك ظلت الكرة الذهبيّة له راقدةً في قاع الكيس ..

على أن سائر الأحلام التي أصبحت معروفة لدينا كانت واقعية كل الواقعية ، بسيطة لاأثر فيها للخيالي أو العجيب . ثم اني أتذكر اني قلّبت كتبه ومذكراته ووجدت مدوّناً فيها بين ملاحظات أخرى تتصل بالبستنة قوله : « جاءني اليوم ليلاً ن . ن . وقال . . . » وكان الاسم والإيحاء مكتوبين بالرموز ، أو كان يوجد بالطريقة ذاتها قوله : « رأيت اليوم ليلاً . . . » وكان الباقي بالرموز مرة أخرى باستثناء حروف العطف وماعداها مما لا يمكن استخلاص شيء منه .

ويظل هنا من الجدير بالذكر أن ثمة أفراداً ممن لم يظهر لهم أثر من القدرة على الانتقام في العادة قد وصلوا ضمن محيطه في اللحظة الراهنة إلى القدرة على الوصول إلى احساس مسبق بحوادث مرض ووفاة معينة في الزمان ذاته أو في زمان سابق له بمدى بعيد ، بعلامات محسوسة ، ولكن مثل هذه الموهبة لم تنتقل بالوراثة إلى أيّ من أبنائه أو أحفاده ، بل بالأحرى أنهم كانوا في معظمهم أفراداً مفعمين بالحيوية ، محبين للدنيا ، مستبشرين بالحياة ، لا يتجهون إلا إلى الواقعيّ .

وفي هذه المناسبة أذكر هؤلاء بامتنان لكثير من الخير الذي لقيته منهم في صباي . وهكذا كنا ، على سبيل المثال ، مشغولين ، نتسلّى على نحو متعدد الجوانب للغاية ، حين زرنا الابنة الثانية المتزوجة من تاجر الخردوات ملْبَر ،والتي كان مسكنها ودكانها يقعان في وسط أكثر أقسام المدينة حيوية وازدحاماً عند السوق . وجعلنا ننظر ههنا من النوافذ إلى عجيج الناس وتزاحمهم حيث كنا نخاف أن نضيع ، بسرور كبير . ولئن كان السوس وحده هو الذي يثير اهتمامنا في الدكان بين أنواع شتّى من السلع في البداية ، وكذلك قطع مربّى السوس السمر

المختومة المحضّرة من عرق السوس (١) ، بصورة ممتازة ، فقد ألفنا شيئاً فشيئاً طائفة كبيرة من الحاجيات التي كانت تغدو وتروح في مثل هذا المتجر . وكانت هذه الخالة هي الأكثر حيوية بين أخواتها . فحين كانت أمي ، في سنواتها الأولى ، تُشغَل بثيابها النظيفة بعمل نسائي دقيق ، أو بقراءة كتاب ، كانت تلك الخالة تسعى إلى الجيران لتدرك هناك ما فاتها من الأطفال وترعاهم وتسرح أشعارهم وتحملهم وتطوف بهم كما فعلت ذلك معي من قبل حيناً من الزمان غير قليل . ولم يكن ثمة سبيل إلى إبقائها في المنزل أيام الاحتفالات العامة ، كالتتويجات ، وكانت وهي بعدُ طفلة صغيرة تتلقف النقود المنثورة في أمثال هذه المناسبات ، وكان الناس يروي بعضهم لبعض كيف جمعت ذات مرة قسطاً كبيراً ، وجعلت ترمقه في راحة يدها مسرورة فضربها أحدهم على يدها فضاعت الغنيمة المكتسبة مرة واحدة . ولم تكن بأقل من ذلك معرفة حين صاحت صيحة عنيفة هاتفة بحياة الامبراطور كارل السابع ، خلال لحظة كان الشعب كله فيها صامتاً ، وهي واقفة على حجر صلد وحملته بذلك على أن يرفع قبعته أمامها وأن يشكر لها هذا الاهتمام الجسور على نحو بالغ التفضّل .

وكان كل شيء من حولها في المنزل أيضاً يموج بالحركة ، مفعماً بحب الحياة والمرح ، وقد غدونا ندين لها معشر الأطفال ببعض الساعات المرحة .

وكان ثمة عمة أخرى في ظرف أكثر هدوءاً ولكنه ملائم لطبيعتها ، وكانت متزوجة من القسيس شتارك المعيّن في كنيسة القديسة كاترينا . وكان يعيش وحيداً جداً وفقاً لعقليته وطبقته ، ويملك مكتبة جميلة .

وههنا تعرفت أول مرة على هومير ، وذلك في ترجمة نثرية ، على النحو الذي توجد عليه في الجزء السابع في « المجموعة الجديدة لأغرب أقاصيص الرحلات » التي يتولاّها السيد فون ليون ، تحت عنوان « وصف هومير لغزو مملكة طروادة » ، مزينة بصور تتمثل فيها روح المسرح الفرنسي . وقد أفسدت عليّ هذه الصور طاقة التخيل إلى درجة أنني ظللت زمناً طويلاً لاأستطيع أن أتمثل الأبطال الهوميريين إلاّ في صورة هذه الشخصيات . على أن الأحداث ذاتها أعجبتني على نحو لايوصف ، إلاّ أنني كنت آخذ على العمل بشدة أنه لم يروِ لنا خبراً عن غزو طروادة ، وأنه ينتهي هذه النهاية المبتورة بموت هكتور . وقد أحالني عمي الذي أعربت له عن هذا العيب ، إلى فرجيل ، الذي لبّى مطلبي بصورة كاملة .

ومن المفهوم بصورة تلقائية أننا كنا ، معشر الأطفال ، نتمتع أيضاً ، إلى جانب ساعات التعليم الأخرى ، بتعليم ديني مستمر متدرّج . ومع ذلك فلم تكن البروتستانتية الكنسية التي كانوا ينقلونها إلينا في الحقيقة إلاّ نوعاً من الأخلاق الجافة . ولم يجر التفكير بمحاضرة خصبة من الناحية الفكرية ولم يكن الدرس يستطيع أن يلبّي حاجة الروح ولا حاجة القلب . ولذلك نجمت أشكال من اعتزال الكنيسة القانونية ، فنشأ الانفصاليون ، والتقويّون ، وأصحاب (هِرْن هوت) ، و (الهادئون في البلاد) ، وسوى ذلك مما ألف الناس أن يسمّوا هذه المذاهب ويَسِموها ، ولكنها كانت جميعاً تقتصر على مجرد الرغبة في الاقتراب من الإله ، ولاسيما عن طريق ذات المسيح اقتراباً أكثر مما كان يبدو أنه متاح لها تحت صيغة الديانة العامة .

وكان الغلام ما يفتأ يسمع الناس يتحدثون عن هذه الآراء ووجهات النظر لأن كلاً من رجال الدين ورجال الدنيا كانوا يشتركون في حسناتها وسيئاتها . أما المعتزلون بدرجة أكثر أو أقل فكانوا هم الأقلية دائماً ، ولكن طريقتهم في التفكير كانت تجتذب الناس بأصالتها وحرارتها ، ومثابرتها واستقلالها . وكان الناس يروي بعضهم لبعض عن هذه الفضائل ومظاهرها أقاصيص شتى . وكان من المعروف منها بصورة خاصة سمكري تقيّ حَسِب أحد معاصريه أنه يعيّره بسؤاله : عمّن تراه يكون في الحقيقة قسيس اعترافه . ويجيب ذاك في مرح وثقة بسلامة قضيته ، قائلاً : « إن لي قسيس اعتراف وجيهاً جداً ، إذ أنه ليس بأقل شأناً من قسيس اعتراف الملك داوود » .

وربما أحدث هذا وأمثاله أثره في الغلام ودفعه إلى وجهات نظر مماثلة . وحسبه أنه انتهى إلى فكرة اقترابه بصورة مباشرة من رب الطبيعة الكبير ، من خالق السموات والأرضين والقائم بأمرهما ، ذلك الذي كانت تظاهرات غضبه السابقة قد أنساه إياها منذ عهد طويل جمال العالم والخير المتعدد الجوانب الذي نُصيبُه فيه ، غير أن الطريق إلى ذلك كان فريداً جداً .

وكان الغلام قد تمسّك بصورة مطلقة بالركن الأول من أركان الإيمان . فالله الذي كان في علاقة مباشرة بالطبيعة ، وهو يعترف بها عملاً من لَدُنه ويحبها ، هذا الرب كان يبدو له أنه هو الرب الحقيقي ، الذي يمكن بلاريب أن يدخل مع الإنسان ، كما يدخل مع كل من عداه ، في علاقة أكثر دقة ، وهو يُعنى بالانسان مثلما يُعنى بحركة النجوم وتقلّبات النهار والفصول ، وبالنباتات والأنعام . وكانت

بعض المواضع في الإنجيل تفيد هذا على نحو صريح ، ولم يكن الغلام يستطيع أن يضفي على هذا الكائن شكلاً ، فكان يلتمسه في مخلوقاته وأراد أن يقيم له هيكلاً على طريقة العهد القديم تماماً.. فكان يفترض أن منتجات الطبيعة تمثل العالم بصورة مجازية ، وأن تشتعل شمعة فوق هذه المنتجات وأن تشير إلى النفس البشرية المتطلّعة إلى خالقها ، والآن تُنْتَقى أفضل الدرجات والنماذج من المواد الطبيعية الموجودة ، والآخذة في الازدياد بطريق المصادفة . أما كيف كان من الممكن ترتيب طبقات أمثال هذه المواد ، وإقامة بنيانها ، فذلك ما كان يشكل الآن الصعوبة الوحيدة.. وكان للوالد حمّالة نوتة جميلة مطلية بالأحمر وعليها أزهار ذهبية في صورة هرم رباعيّ الأضلاع له درجات مختلفة ، كانوا يرونه مريحاً جداً لفرق العزف الرباعية ، على الرغم من أنها قلّما كانت تُستعمَل في الفترة الأخيرة ، واستولى عليها الغلام وجعل يشيد بنيان ممثلي الطبيعة درجة فدرجة ، بعضهم فوق بعض ، حتى بدا الأمر ممتعاً حقاً وذا دلالة كافية . وكان يفترض الآن أن تقام الصلاة الأولى للربّ في وقت مبكر من شروق الشمس ، إلاّ ان الكاهن الفتى لم يكن على وفاق مع نفسه بصدد الطريقة التي ينبغي أن يتم بها إحداث اللهب الذي كان لابدّ أيضاً أن يصدر عنه رائحة ذكية في الوقت نفسه . وأخيراً وُفِّق إلى خاطرة ، وهي أن يجمع بين كلا الأمرين ، وذلك بأن حصل على شموع بخور صغيرة لاتعطي لهباً بل بصيصاً من وهج تنتشر معه أذكى عبير . بل إن هذا الاحتراق اللطيف وانتشار البخور كان أكثر تعبيراً عما يختلج في النفس من اللهب الصريح . وكانت الشمس قد اشرقت منذ زمن طويل ، ولكن المنازل المجاورة كانت تغطّي الشرق . وأخيراً ظهرت فوق الأسطحة . وتناول

الغلام على الفور عدسة حارقة وأشعل شموع البخور المنتصبة على القمة في طبق من الخزف ، ونجح كل شيء على الوجه المنشود ، وكانت الصلاة كاملة ، وظل الهيكل قائماً زينةً للحجرة التي أُفسِح له مجال فيها ، في البيت الجديد . ولم يكن كل امريء يرى فيه إلاّ مجموعة من المواد الطبيعية الحسنة التزويق ، غير أن الغلام كان يعرف ما يكتمه معرفة أفضل . وكان يتوق إلى تكرار ذلك الاحتفال . وكان من سوء الحظ أن وعاء الخزف لم يكن في متناول اليد حين طلعت الشمس الأكثر ملاءمة . ووضعت شموع البخور على السطح العلويّ لحمّالة النوتة مباشرة ، وأوقدت ، وكانت الصلاة عظيمة إلى درجة أن الكاهن لم يلاحظ أيَّ ضرر ألحقه قربانه إلاّ بعد أن لم يعد من الممكن تداركه . وذلك أن الشموع كانت قد مسّت بنارها الطلاء الأحمر والأزهار الذهبية الجميلة بطريقة شنعاء ، وخلّفت وراءها مواطيء أقدامها السود التي لاتمّحي . ولقي الكاهن الفتى من ذلك أشدَّ الحرج . على أنه عرف كيف يغطي الأذى بأكبر الدرجات ذات الأبّهة ، إلاّ أن الجرأة على تقدمات جديدة كانت قد زايلته . ويكاد المرء يجنح إلى النظر إلى هذه المصادفة على أنها نذير وتحذير يفيدان كيف تكون الرغبة في التقرّب إلى الله على مثل هذه الطرق خطرة على الاطلاق .

الكتــاب الثاني

وكان كل ما جرى سرده حتى الآن يشير إلى ذلك الظرف السعيد المريح الذي كانت البلاد تمرّ به في أثناء سلام طويل . غير أنه ما من مكان يستمتع فيه المرء بمثل هذا العصر الجميل ، بارتياح أكبر مما يكون في المدن التي تعيش وفقاً لقوانينها الخاصة ، والتي تعد كبيرة بما يكفي لتتسع لكمية مرموقة من المواطنين وحسنة الموقع على نحو يغنيهم بالتجارة والحركة . ويجد الغرباء رزقهم في دخولهم فيها وخروجهم منها ؛ ويضطرون إلى إسداء المنفعة لتحصيل المنفعة . وإذا كانت امثال هذه المدن تهيمن على منطقة واسعة فانها تستطيع على نحو أوسع أن تحدث أثرها في الرفاه الداخلي ، لأن علاقاتها باتجاه الخارج لا تلزمها بمشاريع أو إسهامات باهظة التكاليف .

وعلى هذه الطريقة انصرمت بالقياس إلى أهالي فرانكفورت سلسلة من السنوات السعيدة أثناء طفولتي . ولكني لم أكد أسلخ عامي السابع في الثامن والعشرين من آب ١٧٥٦ ، حتى نشبت بُعيد ذلك على الفور تلك الحرب ذات الشهرة العالمية التي قُدّر لها أيضاً أن تكون ذات أثر كبير في السنوات السبع التالية من حياتي . وكان فريدريك الثاني ملك بروسيا قد أغار بستين ألف رجل على سكسونيا . وبدلاً من إعلان مُسبَق للحرب أعقب ذلك بيان من إنشائه هو ذاته يتضمّن الأسباب

التي دفعته إلى مثل هذه الخطوة الهائلة ، وبرّرتها له . أما العالم الذي وجد نفسه مطلوباً منه ألاّ يكون متفرجاً فحسب ، بل أن يكون حَكَماً أيضاً ، فقد انقسم على الفور إلى حزبين . وكانت أسرتنا صورة المجموع المتكامل .

فأما جدّي الذي كان قد حمل خيمة التتويج فوق فرانتس الأول بحكم كونه القاضي المحلّف لفرانكفورت ، كما تلقى من الامبراطورة سلسلة ذهبية ثقيلة عليها صورتها ، فكان مع بعض أبناء حميه وبناته في الجانب النمساوي . وأمّا والدي الذي عُيِّن من قبل كارل السابع مستشاراً امبراطورياً واهتم بمصير هذا الملك التعيس اهتماماً قلبياً ، فكان يميل بالشطر الصغير من العائلة ضد بروسيا . وما أسرع ما تكدّر صفو اجتماعاتنا التي كانت تتصل بغير انقطاع منذ سنين عديدة ، في كل يوم أحد . والآن فحسب اتخذت الاختلافات المألوفة بين المتصاهرين قالباً لها كانوا يستطيعون أن يعبّروا عن ذواتهم من خلاله . وجعل القوم يتنازعون ويتشاجرون ، ويخلدون إلى الصمت ، وينفجرون . وغدا الجدّ الذي كان في العادة مرحاً هادئاً لين العريكة ، نافد الصبر . وعبثاً كانت النسوة يحاولن إخماد النار . وبعد بعض المشاهد المزعجة لبث أبي خارج الجماعة أول الأمر . وغدونا الآن نطرب في المنزل للانتصارات البروسية دون أن يكدّر صفونا مكدّر . وكانت الانتصارات يتم الإعلان عنها في العادة من قبل تلك العمة المتحمسة بتهليل كبير . وكان لابد لكل اهتمام آخر أن يتنحّى جانباً أمام هذا الاهتمام . وقد قضينا بقية العام في إثارة مستمرة . وكان احتلال درسدن ، واعتدال الملك في البداية ، وأوجه التقدم التي كانت بطيئة ولكنها

ثابتة ، والانتصار عند لوفوزيتس ، وأسْر السكسونيين ، كل هذه كانت انتصارات كثيرة لحزبنا بالقدر ذاته . وكل ما كان يمكن إيراده لمصلحة الخصم كان يتعرض للإنكار أو يُستَصغَر شأنه ، ولما كان أفراد العائلة المعارضون يفعلون الشيء ذاته ، فإنهم لم يكونوا يستطيعون أن يلقى بعضهم بعضاً في الشارع بدون أن تنشب منازعات ، كما في « روميو وجولي » .

وعلى هذا فقد كنت أنا أيضاً ذا روح بروسية ، أو ذا روح فريتسيّة (١) بتعبير أصح ، فما كان يعنينا من أمر بروسيا ؟ وإنما كانت شخصية الملك العظيم هي التي تفعل فعلها في كل النفوس . وكان صدري ينشرح مع والدي لانتصاراتنا ، وكان يسرني جداً أن أنسخ أغاني النصر ، وكنت أكاد أطرّب أكثر من ذلك لأغاني التهكم على حزب الخصم مهما كانت الأبيات ركيكة .

ولما كنت الحفيد الأكبر وابن المعموديّة فقد كنت أتناول الطعام منذ طفولتي في كل يوم أحد عند جدّيَّ : وكانت هذه ساعاتي الأكثر متعة بين ساعات الأسبوع كله . ولكن ما عدت أسيغ لقمة الآن ، لأني كنت مضطراً إلى أن أسمع التشنيع على أبطالي بأفظع طريقة . إذ كانت تهبّ ههنا ريح أخرى ، وكان يتردّد إيقاع آخر في المنزل ، وتقلّص ميلي إلى جدّيَّ ، بل توقيري لهما . ولم يكن يجوز لي أن أذكر شيئاً من ذلك عند والديّ ، فأمسكت عنه بدافع شعوري الخاص ، وكذلك لأن أمي سبق لها أن حذرتني . وبذلك انكفأت على نفسي ، ومثلما

---

(١) نسبة إلى فريتس ، وهو تحريف عامي لاسم فريدريش ، ملك بروسيا .

« المترجم »

غدت رحمة الله عندي موضع الشبهة إلى حد ما ، بعد زلزال لشبونة ، بدأت الآن أرتاب ، بسبب فريدريك الثاني ، في عدالة الجمهور . وكانت نفسي ميالة بطبيعتها إلى التبجيل . وكان الأمر يقتضي هزّة كبرى لدفع إيماني بأي شيء نبيل إلى الاهتزاز على أن مما يؤسف له أن الناس كانوا يوصوننا بالأخلاق الفاضلة ، وبالسلوك المهذب لا من أجل ذاتهما ، بل من أجل الناس . وكان يقال دائماً : ترى ما عسى أن يقول الناس . وكنت أحسب أن الناس لابد ان يكونوا أناساً عدولاً ، ولابد أن يعرفوا أيضاً كيف يقدرون الأشياء جميعاً ، وكل شيء على حدة . غير أني شهدت النقيض الآن . فهذه اعظم المكتسبات وأجلاها تتعرّض للطعن والعداوة ، وتلك أجلّ الأعمال تتعرض للتشويه والاستهانة بلاريب ان لم تتعرّض للجحود وقد انتاب مثل هذا الظلم الرجلَ الوحيد الذي يتعالى عن كل معاصريه بصورة جليّة ، والذي كان يبرهن ويثبت في كل يوم ما هو قادر عليه ، ويصدر هذا ، لا عن العامة ، بل عن رجال ممتازين ، وهم الذين كان لابد لي أن اعدّ جدي وأعمامي منهم بلاريب . أمّا أن من الممكن أن توجد أحزاب ، وأما أن الغلام نفسه كان ينتمي إلى حزب فذلك ما لم يكن الغلام يحمل عنه تصوراً ما ، بل كان أقرب كثيراً إلى الإيمان بأنه على حق ، وأنه يحقّ له أن يعلن أن تفكيره هو الأفضل ، طالما أنه ، يقدر ، هو وأمثاله في الفكر ، ماريا تيريزا ، وجمالها ، وسائر المزايا الحسنة ، وطالما أنهم لم يكونوا بعد ذلك يأخذون على الامبراطور فرانتس مجوهراته وشغفه بالمال ، أيضاً ، وأما أن الجراف داوْن (١) عرف بالتغفيل أحياناً، فذلك ما كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون الإجابة عنه .

---

(١) لقب يعادل الكونت بالفرنسية . « المترجم »

ولكني إذا نظرت الآن في الأمر بصورة أدّق ، وجدت هنا بذرة اللامبالاة بالجمهور ، بل ازدراء الجمهور الذي لازمني ردحاً من حياتي ولم يكن من الممكن تسوية الأمر إلاّ بالتروّي وبالثقافة . ويكفي أن ملاحظة الجور الحزبي كانت ، منذ تلك الأيام بالغة الإزعاج ، بل مخرّبة بالقياس إلى الفتى إذ عوّدته أن ينأى عن الأفراد المحبوبين الذين يحظون بالتقدير . على أن الوقائع والأحداث الحربية التي ما فتئت تتعاقب لم تدع للأحزاب راحة ولا سكينة وكنا نجد راحة تبعث على الضيق في إثارة تلك الشرور المتصوَّرة والمنازعات التعسفيّة من جديد دائماً في صورة مستحدثة ، وزيادة حدتّها ، ومضينا على هذا النحو يعذّب بعضنا بعضاً إلى أن احتل الفرنسيون فرانكفورت بعد ذلك ببضع سنوات وحملوا إلينا الإزعاج الحقيقي في بيوتنا .

وعلى الرغم من أن أكثر الناس كانوا يتخذون من هذه الأحداث الهامة ذات الأثر البعيد مجرد تسلية عاطفية فقد كان هناك أيضاً آخرون أدركوا جانب الجدّ في تلك الأيام حقاً ، وساورهم الخوف من أن ينفتح مسرح الحرب ، لدى مشاركة فرنسا ، في مناطقنا أيضاً . وجعلوا يمسكوننا ، معشر الأطفال ، في البيوت أكثر مما كانوا يفعلون حتى الآن ، ويحاولون أن يشغلونا ويسلّونا بطرق شتى . ومن أجل هذه الغاية أعيد نصب مسرح العرائس الذي خلفته الجدّة ، وأُعدّ على شكل يجعل المتفرجين يقعدون في حجرتي ذات الجمالون ، على حين يشغل الأفراد الممثلون والموجهون ، وكذلك المسرح نفسه ، مكاناً ومجالاً في حجرة مجاورة ، اعتباراً من خط المنظر الأمامي . وقد اكتسبت ، بالمحاباة الخاصة ، أي بالسماح لهذا الغلام تارة ، ولذاك تارة أخرى ،

بالدخول متفرجاً ، كثيراً من الأصدقاء في البداية . غير أن الضجيج الذي جبل عليه الأطفال ، لم يدعهم وقتاً طويلاً يظلون متفرجين صابرين ، فكانوا يفسدون التمثيل ، وكنا نضطر إلى انتقاء جمهور من الصغار يمكن السيطرة عليه بالنظام في جميع الأحوال ، عن طريق المربيّات والخادمات . وكنا قد حفظنا المسرحية الرئيسية الأصلية التي كانت فرقة العرائس مبنية عليها في الحقيقة ، عن ظهر قلب . وكنا نخرجها في البداية وحدها ، أيضاً ، على سبيل الحصر . وسرعان ما أدى هذا وحده إلى إرهاقنا ، فغيّرنا الستائر وزخارف (الديكور) ، وتجاسرنا على مسرحيات مختلفة ، كانت بلاريب ، مفرطة في الاتساع بالقياس إلى مسرح صغير كهذا .

وعلى الرغم من أننا بهذا الاعتداد بالنفس قد فرّطنا فيما كنا خليقين أن ننهض به حقاً ، وقضينا عليه البتّة آخر الأمر ، فان هذه التسلية والعمل الطفوليين قد حققا عندي ، بطريقة متعددة الجوانب جداً ، مراناً وتنمية للقدرة على الابتكار والتصوير والطاقة التخيلية والتقنية معينة على نحوٍ ما كان ليحدث بطريق آخر في مثل هذا الوقت القصير ، وفي مجال ضيق كهذا ، ومع إنفاق يسير كهذا .

وكنت قد تعلمت التصرّف بالفرجار والمسطرة في وقت مبكر إذ كنت أطبق كل الدروس التي كانت تلقى علينا في الجغرافية ، على الجانب العملي . وكانت أشغال الورق تستطيع أن تشغلني إلى حد كبير . ومع ذلك فلم أقف عند حدود الأجسام الهندسية ، عند الصناديق الصغيرة ونحو هذه الأشياء ، بل جعلت أبتدع منازل صغيرة ذات حدائق كانت

تزيّن بالأعمدة الجدارية والسلالم الحرّة (١) ، والأسطحة المستوية . ومع ذلك فلم يتحقق منها إلاّ القليل .

وفي مقابل ذلك كنت أكثر مثابرة إلى حد بعيد في تجهيز غرفة لإعداد الممثلين بمساعدة خادمنا ، وهو خياط بحكم المهنة ، وكان يفترض في تلك الغرفة أن تستخدم لمسرحياتنا وتراجيدياتنا التي كنا نحب إخراجها بأنفسنا بعد أن شببنا عن طوق العرائس . وكان أترابي يُعدّون لأنفسهم مثل هذا التجهيزات حقاً، وكانوا يرونها في مثل جمال تجهيزاتي وجودتها غير أني لم أكتف بتجهيز حاجات شخص واحد ، بل كنت أستطيع تجهيز عدد من أفراد الجيش الصغير بمتطلبّات شتى ، وبذلك جعلت من نفسي بالقياس إلى محيطنا الصغير شيئاً يزداد ضرورة على نحو مطّرد . أمّا أن مثل هذه الألعاب كانت تشير إلى ضروب من التحزّب والمشاجرات واللكمات ، كما كانت تتخذ في العادة ، بالمنازعات ،والاستياء ، نهاية مفزعة ، فذلك أمر يمكن تصوره . وفي مثل هذه الحالات كان بعض الرفاق المعينين بذاتهم يقفون إلى جانبي في العادة ، وكان آخرون يقفون في الجانب المقابل على الرغم من وجود بعض التبدّل في الحزبين . وقد انسحب غلام وحيد ، أود أن أسميه بيلادس ، مرة واحدة فحسب ، من فريقي ، اذ أثاره الآخرون ، ولكنه لم يُطِق أن يواجهني مواجهة الأعداء دقيقة واحدة ، وتصالحنا في غمرة كثير من الدموع ، وأقمنا على الإخلاص عهداً طويلاً .

---

(١) درجات لا تستند إلى الجدران المجاورة لها .

« المترجم »

وكان في وسعي أن أسعد هذا كما أسعد غيره من الطيّبين سعادة فائقة حين كنت أقص عليهم حكايات ، وكانوا يحبون بوجه خاص أن أتحدث بلسان شخصي الخاص ، ويجدون سروراً عظيماً في أنني لقيت مثل هذه الأشياء العجيبة وأنا رفيقهم ، ولم يكن هناك مع ذلك أي اشتباه في تمكني من إيجاد الزمان والمكان لمثل هذه المغامرات ، إذ كانوا يعرفون حق المعرفة ما كان يشغلني ، وإلى أين كنت أغدو وأروح . ولم يكن بأقلّ من ذلك ضرورةً ، فيما يتصل بهذه الأحداث ، الأماكنُ التي إن لم تكن من عالم آخر فقد كانت ، بلاريب ، من منطقة أخرى ، وكان المفروض أن كل شيء قد حدث اليوم فحسب ، أو بالأمس . ولذلك فلابدّ أنهم كانوا يخدعون أنفسهم أكثر مما كنت أستطيع أن أتهكّم عليهم ، ولو أنّي لم أتعلّم شيئاً فشيئاً . وبحسب فطرتي ، أن أعالج هذه الشخصيات الوهمية ، لما ظلت هذه البدايات التلفيقية ، بلاريب ، بغير نتائج سيئة بالقياس إليّ

ولو تأمّل المرء هذا الدافع بدقة تامة لنازعته الرغبة الى التعرف على ذلك الصلف الذي يعبر فيه الأديب ذاته عن أشد الأمور بعداً عن الصدق ،تعبيراً مقنعاً ويطالب كل امريءٍ أن يَعُدَّ حقيقياً كلّ ما أمكن أن يظهر له ، أي للمبتكر ، حقيقياً بأية طريقة .

على أن كل ما تمّ سرده هنا بصورة عامة ، وعلى سبيل التأمل ، ربما يبدو ، من خلال المثال ، من خلال النموذج ، أكثر عذوبة وتجسيداً . ولذلك أضيف مثل هذه الحكاية التي مازالت تطيف بمخيّلتي ، وفي ذاكرتي ، إذ كنت كثيراً ماأضطر إلى تكرارها على أترابي .

باريس الحديد(1)

حكاية للفتيات

رأيت في المنام منذ عهد قريب ، عشيةَ عيد العنصرة ، كأنني أقف أمام مرآة ، وأعالج الملابس الصيفية الجديدة التي أوصى باعدادها لي الوالدان العزيزان بمناسبة العيد . وكانت الحُلّة تتألف ، كما تعلمون ، من حذاء من الجلد الخالص له إبزيمان كبيران فضيان ، وجوربين لطيفين قطنيين ، وملابس داخلية سود من النسيج الصوفي ، ورداء من نسيج الماعز له كُراتٌ مذهّبة . أما صِدارها المتخذ من النسيج المذهّب فقد تم تفصيله من صدار عرس أبي . وكنت قد حاقت وتزينت بالمساحيق ، وكانت خصلات شعري تنتصب عند رأسي كالأجنحة الصغيرة . غير أنني لم استطع أن أفرغ من ارتداء الملابس ، لأنني كنت أظل أخطيء في تناول قطعة من الملابس مكان أخرى ، ولأن القطعة الأولى كانت ما تفتأ تسقط عن جسدي حين كنت أفكر بارتداء الثانية . وفي غمرة هذا المأزق الكبير تقدّم مني رجل شاب جميل ، وحيّاني تحية

---

(1) باريس هو الفتى الجميل في الأسطورة اليونانية.

« المترجم »

متناهية في الودّ ، فقلت : « أهلاً بك ، ومرحباً ! وانه ليسرني كل السرور أن أراك ههنا » ، فردّ ذلك الرجل قائلاً : « وهل تعرفني ؟ » وكان جوابي الباسم على النحو ذاته : « أنت عطارد ، رسول الآلهة ، ولطالما رأيتك مرسوماً في الكتب » — فقال ذلك الرجل : « إنه أنا ، وقد أرسلتني الآلهة إليك بمهمة لها شأنها . ألا ترى هذه التفاحات الثلاث ؟ » ومدّ يده إليّ ، وأراني ثلاث تفاحات ، لم يكن يستطيع الإمساك بها إلاّ بشق النفس ، وكانت رائعة في جمالها كما كانت رائعة في كِبَرها . وكانت الأولى حمراء اللون ، والأخرى صفراء ، والثالثة خضراء ، ولم يكن بدٌّ للمرء أن يحسبها حجارة كريمة صبها صانعها في صورة ثمار . وهممت بتناولها ، غير أنه ارتدّ إلى الوراء وقال : « لابد لك أن تعلم أولاً أنها ليست لك ، وانما ينبغي لك أن تعطيها الشبان الثلاثة الأكثر جمالاً في المدينة ،وسوف يجد كل منهم ، كما قُسِمَ له ، عروساً كما يتمنّى أن تكون العروس ، فخذهنّ ، وأَحْسِن تصريفَ أمورك ! وقال ذلك مودعاً وهو يضع التفاحات في يديّ المبسوطتين ، وقد بَدوْنَ لي وكأنما ازددن حجماً . ورفعتهنّ على أثر ذلك إلى الأعلى ، صوب الضوء ، ورأيتهن شفافات تماماً ، ولكنهن سرعان ما تطاوَلْن مشرَئِبّاتٍ طولاً ، وتحوّلن إلى نسوةٍ جميلاتٍ ، ثلاث ، في قامة العرائس المعتدلات ، وكانت أثوابهنّ بلون التفاحات السابقات . وكذلك جعلن يدرجن رويداً رويداً على أصابعي متعاليات وحين همَمْتُ أن أمسكهن لأحتفظ بواحدة منهن على الأقل كنّ قد أصبحن سابحات في الهواء بعيداً ، في الأعالي ، بعيداً ، حتى ما عاد في العين منهن إلاّ الذكرى . ووقفت هناك وقد أخذني العجب والجمود تماماً ، وكانت يدايَ ما تزالان ممتدتين إلى الأعلى ، وكنت أنظر إلى

أصابعي ، وكأنما كان عليها شيء يستوجب النظر إليه ، غير أني أبصرت بغتة فتاةً فائقة الحسن ترقص حول رؤوس أصابعي ، وهي أصغر من تلك ، غير أنها فائقة الظرف والمرح ولأنها لم تَطِرْ بعيداً ، شأن الأخريات ، بل مكثت ، وجعلت تظهر وهي ترقص على هذه الأُنملة تارة ، وعلى تلك تارة أخرى ، جيئة وذهاباً ، أخذت أرمقها حيناً وقد أخذني العجب . ولكن لما كانت قد ظفرت باعجابي إلى حد فائق ، فقد اعتقدت أن في وسعي أن أقبض عليها آخر الأمر ، وحسبت أن لديّ من البراعة ما يكفي للإنقضاض عليها ؛ ولكني شعرت في هذه اللحظة بضربة على رأسي سقطت على أثرها مغشياً عليَّ تماماً ، ولم استفق من هذه الغيبوبة إلا وكان الوقت قد حان لأرتدي ملابسي وأذهب إلى الكنيسة .

وفي أثناء العبادة كنت أستعيد في نفسي تلك الصور بما فيه الكفاية ، وكذلك على مائدة جدّي حيث كنت أتناول طعام الغداء ، وعند العصر أردت زيارة بعض الأصدقاء ، سواء لأدعهم يرونني في ثيابي الجديدة ، والقبعة تحت إبطي ، والحسام على جنبي ، أم لأنني كنت مديناً لهم بالزيارة . فلم أر أحداً في البيت . ولما سمعت أنهم ذهبوا إلى الحدائق فكّرت باللحاق بهم ، وقضاء الأمسية على نحو ممتع . وقادني طريقي إلى الساحة المسوّرة ، وبلغت المنطقة التي تحمل بحق اسم « جدار السوء » ذلك لأن الأمر هناك يدعو للريبة . وسرت ببطء شديد ، وجعلت أفكر في معبوداتي الثلاث ، ولاسيما في الحورية الصغيرة ، وكنت أدع أصابعي في بعض الأحيان مرفوعة ، آملاً أن تتلطّف بالعودة إلى الرقص عليهما . وبينما كنت مسترسلاً في هذه الأفكار ، إذا أنا ألمح ، ناحية اليسار في الجدار باباً صغيراً لم أكن أذكر أني رأيته قط ، وبدا منخفضاً ، ولكن القنطرة

المدبّبة فوقه كانت خليقة أن تدع أطول الرجال يمر من خلالها . وكانت القناطر والجدران قد نحتها الحجّار والمثّال بالإزميل في أحسن زخرف . ولكن الباب نفسه كان أحرى أن يجتذب انتباهي . إنه خشب أسمر عريق في القدم ليس فيه إلاّ القليل من الزخرفة ، ضُرِبت عليه صفائح صغيرة من المعدن منقوشة على نحو رفيع وعميق ، لم أستطع أن أشبع إعجابي بمجموعها الورقيّ الذي كانت أكثر الطيور طبيعيةً تحطّ فيه . ومع ذلك فان ما بدا لي أكثر الأمور اثارة للاستغراب أنه لم يكن يُرى ثقبٌ لمفتاح ، ولا مزلاج ، ولا مِقْرعة باب . وخمّنت من ذلك أن هذا الباب لاينفتح إلاّ من الداخل.ولم أكن مخطئاً: لأنني حين تقدمت منها لأتقرّى الزخارف باللمس ، انفتح باتجاه الداخل ، وظهر رجل كان في ثيابه شيء من الطول والاتساع والغرابة ، كما كانت لحية وقورة تغشّي ذقنه ، مما جعلني أميل إلى أن أعدّه يهودياً ، وكأنما أدرك أفكاري فرسم إشارة الصليب المقدس مبيّناً لي بذلك أنه مسيحي كاثوليكي صالح — وقال بصوت وتعبير ودّيين : « أيها السيد الشاب ، كيف جئت إلى هنا ، وما تصنع الآن ؟ » فأجبت : « أنا في عَجَبٍ من عمل هذا الباب ، لأني لم أر بعدُ مثيلاً له قط . وإنه لخليق أن يوجد قطعاً صغيرةً في المجموعات الفنيّة للعشّاق » . فأجاب عندئذ بقوله : « إنه ليسرني أن تحبوا مثل هذا العمل ، على أن الباب أجمل كثيراً بعدُ من الداخل فتقدموا ان كان يعجبكم » . ولم يكن مزاجي على ما يرام بصدد هذه المسألة . وذلك أن ثياب البوّاب العجيبة ، والعزلة ، وشيء آخر لاأدري ما هو ، بدا كأنه معلّق في الهواء ، كل ذلك كان يقبض صدري . فلبثت حيناً بحجة تأمل الجانب الخارجيّ وقتاً أطول ، وجعلت أُخالِس النظر في هذه الأثناء إلى الحديقة : ذلك لأن ما انفتح أمامي إنما كان حديقة . ورأيت وراء الباب مباشرة مكاناً

واسعاً ظليلاً ، وزيزفونات هرمة تبعد كل منها عن الأخرى مسافة نظامية ، تغطيه تماماً بأغصانها المتشابكة . بحيث تستطيع أكبر الجماعات عدداً أن تستجمّ تحتها في أشدّ حرارةٍ للنهار ، ولم أكد أطأ العتبة حتى عرف الشيخ كيف يغريني بالتقدم خطوة خطوة . على أنني لم أكن أقاوم في الحقيقة أيضاً : لأنني كنت أسمع في كل حين أنه لاينبغي لأمير أو سلطان في مثل هذه الحال أن يسأل قط هل يوجد ثمة خطر . أوَأحمل حسامي على جنبي وما يكون لي مع ذلك أن أتغلّب على الشيخ إذا ماأراد أن يكشف عن عداوته ؟ فتقدمت منه مطمئناً كل الاطمئنان ، وأغلق البواب الباب فانطبق بهدوء بالغ حتى إني لم أكد أشعر بانطباقه . وجعل يعرض عليّ الآن الزخرفة الملائمة للداخل والتي هي في الواقع أغنى فناً إلى حد بعيد ، ويشرحها لي . وقد أظهر لي مع ذلك نية حسنة بوجه خاص . فلما استكانت نفسي بذلك كل الاستكانة ، تركته يستأنف قيادتي إلى المكان الظليل عند الجدار الذي كان يمتد دائرياً ، ووجدت عنده بعض ما يدعو إلى العَجَب . وكُناتٌ فيها أصداف ومرجان ولها درج معدني ، مزخرفة بطريقة فنية ، كانت تصب الماء الغزير من أشداق السَمَنْدَل المائيّ في أحواض من المرمر ، وقد أقيمت بين ذلك أعشاش للطير ، ورقاع مسوَّرة أخرى كانت السناجب تتواثب فيها ، وخنازير البحر تعدو جيئة وذهاباً ، وكل ما يمكن للمرء أن يتمنّى من المخلوقات الظريفة . وكانت الطير تصدح وتغنّينا ونحن نخطو إلى الأمام ، والزرازير تثرثر بأشد الكلام جنوناً : فكان الواحد منها يصيح : « باريس ، باريس » ، والآخر : « نرسيس ، نرسيس » بكل الوضوح الذي يقدر تلميذ المدرسة على النطق به . وكان يبدو على الشيخ أنه ينظر إليّ دائماً نظرة الجدّ بينما كانت الطير تصيح هذا الصياح ، ولكني لم أتظاهر بأني لاحظت ذلك ، كما أنه لم

يكن لديّ بالفعل وقت للانتباه إليه : ذلك لأنني استطعت أن أعرف أننا كنا داخلين في الدائرة ، وأن هذا المكان الظليل كان في الحقيقة دائرة كبرى تضم دائرة أخرى أكثر أهمية منها كثيراً . وكنا قد وصلنا بالفعل أيضاً إلى الباب الصغير من جديد ، وبدا كأن الشيخ يريد أن يدعني أخرج ، ولكن عينايَ ظلتا مصوبتين إلى سور ذهبيّ كان يبدو أنه يحيط بوسط هذه الحديقة الرائعة ، ووجدت فرصة لملاحظته في طريقنا بما فيه الكفاية ، على الرغم من أن الشيخ كان يعرف دائماً كيف يردّني إلى الجدار ، فيجعلني بذلك بعيداً جداً عن الوسط . فحين انطلق الآن إلى الباب الصغير قلت وأنا أنحني له : « لقد أحسنت إليّ أعظم الإحسان ، وذلك ما يجعلني أرغب في أن أجرؤ على التقدم برجاء آخر قبل أن أغادركم ، فهل تأذنون لي في أن أشاهد عن كثب ذلك السور الذهبي الذي يبدو أنه يضم قلب الحديقة في دائرة فسيحة جداً ؟ » . وردّ ذلك الشيخ : « حباً وكرامة ولكن لابدّ لكم عندئذ أن تمتثلوا لبعض الشروط » . فسألت مسرعاً : « مِمَّ تتألف ؟ » ، فقال : « يجب أن تدعوا قبعتكم وحسامكم هنا ، ولايجوز لكم أن تفلتوا من يدي بينما أصحبكم » فأجبت قائلاً : « حباً وكرامة » ، ووضعت قبعتي وحسامي على أول مقعد حجري صادفته ، وعلى الفور تناول بيمناه يُسرايَ ، وشدّ عليها ، وقادني بشيء من الشدة قُدُماً إلى الأمام ، فلما بلغنا السور تبدّل عجبي دهشة : إذ لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا قط . فعلى قاعدة عالية من المرمر كان يقف عدد لايحصى من الرقباء الأوائل وجنود العصابات قد اصطف بعضهم إلى جانب بعض ، تجمع بينهم ذوائبهم المزيّنة بزينة غريبة ، ويشكلون دائرة كاملة ، ونظرت من خلال الفُرُجات ورأيت وراءها مباشرة ماء يجري عذباً يحيط به المرمر من كلا الجانبين يتيح في أعماقه الصافية

رؤية عدد كبير من السمك الذهبي والفضي ، يتحرك جيئة وذهاباً ، مبطئاً تارةً ، ومسرعاً تارة أخرى ، زرافات حيناً ووحداناً حيناً أخر . ووددت الآن لو أطلَلْت ببصري من فوق القناة أيضاً لأطلع على طبيعة الوضع في الحديقة فرأيت ما أغَمّني كثيراً ، وهو أن الماء على الطرف المقابل كان محاطاً بسور مماثل ، وكان ذلك بطريقة فنية بحيث يكون مقابل كل فرجة من هذا الجانب مكان ملائم لرقيب أول أو جندي عصابة ، وأن المرء لايستطيع إذا أخذت الزخارف الأخرى بعين الاعتبار ، أن ينفذ ببصره من خلالها مهما يتخّذ لنفسه من أوضاع . على أن الشيخ كان فوق ذلك يمنعني ، وهو الذي كان مايزال قابضاً عليّ ، حتّى ماعدت أستطيع التحرّر منه . وازداد فضولي في هذه الأثناء تجاه كل مارأيت ، شيئاً فشيئاً ، واستجمعت شجاعتي لأسأل الشيخ أو لا يستطيع المرء أيضاً أن يأتي إلى هناك — فأجاب ذلك الشيخ : « ولِمَ لا » ، ولكن بشروط جديدة » . فلما سألته عن هذه الشروط ،بيّن لي أنه لابدّ لي أن أغيّر زيّي ، وكنت راضياً بذلك جدّاً ، فعاد بي إلى الجدار وهو يقودني إلى قاعة صغيرة نظيفة عُلِّقت على جدرانها بعض الملابس التي كان يبدو عليها أنها تضاهي في مجموعها الأزياء الشرقية ، وغيّرت زيّي بسرعة ، وسَلّك شعري المعفّر بالمساحيق تحت شبكة ملوّنة بعد أن نفض عنه الغبار على نحو أفزعني ووجدت نفسي الآن أمام مرآة كبيرة ، وسيماً للغاية في تنكّري وأعجبني ذلك أكثر منه حين كنت في ثياب أيام الأحد ، وقمت بأداء بعض التعبيرات والقفزات ، كما رأيتها عند الراقصين في مسرحية المعارض وفي أثناء هذا نظرت في المرآة وأبصرت بطريق المصادفة صورة مخدع موجود ورائي ، وقد تدلّت على أرضيته البيضاء ثلاث حبال خضر قصيرة قد ضُفِر كل منها بطريقة لم يكن من الممكن

أن أتبيّنها عن بعد . فانفتَلْتُ لذلك على عقبَيّ مسرعاً ، وسألت الشيخ عن المخدع كما سألته عن الحبال القصيرة . فأنزل ، بكل لطف ، واحداً منها وعرضه عليّ . وكان حبلاً من حرير أخضر ذا قوّة معتدلة ضفرت كلتا نهايتيه خلال جلد أخضر مزدوج مثقّب بالمقص على نحو أعطاه مظهراً كأنما هو أداة لاستعمال ليس بالمرغوب فيه جداً . وبدت لي مسألة مثيرة للريبة ، فسألت الشيخ عن الدلالة ، فأجابني بطلاقة وسماحة : إنما هذا لأولئك الذين يستغلون الثقةَ التي يعدّ القومُ ههنا على استعداد لمنحها . وعلق الحبل من جديد في مكانه ، وطلب في الوقت نفسه أن أتبعه : لأنه لم يكن يمسك بي في هذه المرة، وعلى ذلك مشيت إلى جانبه حرّاً .

على أن فضولي الأعظم كان الآن هناك حيث كان يفترض أن يكون الباب وأن يكون الجسر ، لاختراق السور ، ولعبور القناة ، لأنني لم يسبق لي أن استطعت العثور على أمثال هذه الأشياء . ولذلك جعلت أتأمل السور الذهبي بدقة شديدة حين كنا نتجه إليه مسرعين . ولكن الرعب تملكني على الفور . ذلك لأن الرماح والنبال والمطارد (١) وجنود العصابات كانت آخذة في التطاحن والعراك ، وقد انتهت هذه الحركة الغريبة بأن مالت كل الرؤوس المدبّبة بعضها على بعض ، وكأن جحفلَيْن من العصر القديم مسلّحَيْن بالبلطات كانا يهمّان بالانقضاض أحدهما على الآخر . وكان التشويش على العين ، والقعقعة على الأذن ، لايكادان يُطاقان ولكن تلك اللحظة كانت مباغتة إلى حد لانهاية له حين غطّوْا

---

(١) جمع المطرد ، وهو سلاح قديم يتألف من ذراع في رأسه رمح وفأس حرب .

« المترجم »

دائرة القناة وهم راقدون تماماً ، وشكلوا أروع جسر يستطيع المرء أن يتصوره ، إذ كان ينبسط أمام ناظري أكثر الممرّات الحداثقيّة تلويناً ، وكان ينقسم إلى أحواض من الزرع متداخلة كانت تشكل ، إذا ماتأملها المرء معاً ، متاهةً من الزينات . ولها جميعاً أُطُر خضر من نبات خفيض كثيف النموّ لم أره قط ، ولها جميعاً أزهار ، ولكل قسم لون مختلف وكانت وهي كذلك ، منخفضةً وعلى الأرض ، تسمح بمتابعة مسقطها الأفقي المرسوم من قبل ، بسهولة . وقد تملّك هذا المنظر الممتع الذي استمتعت به في بريق الشمس المكتمل ناظريَّ بصورة كاملة ، ولكني كنت لاأكاد أعرف أين ينبغي لي أن أضع قدمي ، لأن الطرق المُتَلوية كانت مفروشة بالرمل الأزرق بغزارة متناهية فكان الرمل يبدو وكأنه يشكل على الأرض سماءً قاتمة أو سماءً في الماء . وكذلك مضيت وعينايَ مصوبَّتان إلى الأرض ، حيناً من الزمن إلى جانب قائدي ، إلى أن عرفت أخيراً ، أنه كان يقوم في وسط هذه الدائرة من الأحواض والأزهار دائرةٌ كبيرة من السَرْو أو من أشجار نوع من الحور لم يكن المرء يستطيع أن ينفذ ببصره من خلالها ، لأن الأغصان الأدنى كانت تبدو وكأنها تنبثق من الأرض ، وساقني قائدي مع ذلك إلى ذلك الوسط مباشرة دون أن يدفع بي إلى الطريق التالي مباشرة ، ويالها من مفاجأة لي حين رأيت أمامي ، وأنا أدخل دائرة الأشجار الباسقة ، قاعةَ الأعمدة في مبنى جميل من مباني الحديقة ، وبدا كأنَّ له إطلالة ومداخل مماثلة على الجوانب الأخرى ، ولكنني فُتِنت ، إلى جانب هذا النموذج من فن العمارة ، بموسيقا سماوية كانت تنبثق من المبنى ، وصرت أعتقد حيناً أني أسمع عوداً ، وحيناً آخر جُنْكاً ، وقيثارة تارة ، وعزفاً شديداً فوق ذلك تارة أخرى ، مما لم يكن يتفق مع أيٍّ من هذه الآلات الثلاث . وسرعان

ماانفتح الباب الذي اتجهنا إليه بعد مسّ رفيق من الشيخ ، ولكن ما كان أعظم دهشتي حين أشبهت البّوابة التي برزت ، بصورة كاملة تماماً ، الفتاة الظريفة التي كانت قد رقصت على أناملي في الحلم ، وحيتني كما لو كنا متعارفين من قبل ، ورجتني أن أدخل . وتخلّف الشيخ . ومشيت معها خلال ممّر قصير مقبّب مزخرف زخرفة جميلة ، إلى القاعة الوسطى التي اجتذب نظري ارتفاعها الرائع على نمط الكنائس الأسقفيّة ، وأثار عجبي . ومع ذلك فلم تستطع عيني أن تمكث هناك طويلاً ، إذ استنزلتها بالإغراء مسرحية فاتنة . فعلى سجادة تحت وسط القبة تماماً كان يقعد ثلاث من النسوة في مثلث ، يلبسن ثلاثة ألوان مختلفة ، فالأولى حمراء ، والأخرى صفراء ، والثالثة خضراء ، وكانت المقاعد مذهّبة ، والسجادة حوضاً من الأزهار كاملاً . وكان بين أذرعهن الآلات الثلاث التي استطعت تمييزها في الخارج : ذاك لأنهن أمسكن عن العزف إذ كدّره عليهن وصولي . — — وقالت الوسطى التي كانت تجلس متجهة بوجهها إلى الباب ، في ثوب أحمر ومعها الجُنُك : « مرحباً بك ! » ، اجلس هنا إلى أليزته ، وأصغ إن كنت عاشقاً للموسيقا . ورأيت الآن فحسب أنه كان يقوم في الأسفل بشكل عرضاني مقعد صغير طويل من مقاعد الحجرات رقدت عليه آلة مندولين . وتناولتها الفتاة الظريفة وقعدت وسحبتني إلى جانبها . وجعلت الآن أتأمّل السيدة الثانية ، على يميني ، وكانت ترتدي الثوب الأصفر . وفي يدها قيثارة . ولئن كانت تلك العازفة على الجُنُك مرموقة القوام ذات ملامح وجه كبير ، وكان سلوكها ينمّ عن المهابة والجلال ، فقد كان في وسع المرء أن يلاحظ في عازفة القيثارة مخلوقاً ظريفاً مرحاً يتسم بالخفّة . وكانت شقراء نحيلة على حين كان يزين صاحبتها تلك شعرٌ بنيّ داكن . على أن تعدد الجوانب والتناغم

في موسيقاها لم يستطيعا أن يمنعاني أن أتأمل الآن الجميلة الثالثة أيضاً ، في ثوبها الأخضر : وكان لعزفها على العود عندي شيء مؤثر وذو وقع غريب في الوقت ذاته . وكانت هي تلك التي كانت تبدو أكثرهن التفاتاً اليّ ، وكانت تبدو كأنها توجه عزفها إليّ ، إلاّ أن أمرها عُمّي عليّ : لأنها كانت تبدو لي رقيقة حيناً ، عجيبة حيناً آخر ، صريحة تارة ، عنيدة تارة أخرى ، كلما بدّلت تعبيرات وجهها وعزفها . وكانت تبدو حيناً كأنها تريد أن تؤثّر في عواطفي ، وحيناً كأنها تريد أن تعابثني . ومع ذلك فما كان لها ، مهما اتخذت من مواقف ، أن تظفر بي : ذلك لأن جارتي الصغيرة التي كنت أجالسها ومِرْفقي على مِرْفقها ، كانت قد استحوذت عليّ تماماً . وحين كنت ألمح في تلك السيدات الثلاث بوضوح تام عرائس حلمي وألوان التفّاحات ، أدركت حقاً أنه لم يكن لديّ سبب يدعو إلى الإمساك بهن . لقد كان أحبَّ إليّ أن أمسك بالصغيرة الظريفة لولا أن الضربة التي سدّدتها إليّ في الحلم أصابتني في الصميم تماماً . وكانت تسلك حتى الآن بآلة المندولين سبيل الهدوء التام ، ولكن حين أمسكت سيدتاها أمرتاها أن تقدم بعض المقطوعات المرحة على أفضل وجه ، ولم تكد تفرغ من عزفٍ شديدٍ لبعض الألحان الراقصة ، حتى وثبت في الأعالي ، وصنعتُ صنيعهمَا ، وجعلت تعزف وترقص واجتاحتني الرغبة في مواكبة خطواتها ، وجعلنا نعرض نوعاً من حفلة الباليه المصغّرة ، التي بدت السيدتان راضيتين بها ، ذلك لأننا لم نكد نفرغ حتى أمرتا الصغيرة أن ترفّه عني حيناً بشيء جيد إلى أن يأتي طعام العشاء .

وكنت قد نسيت بلاريب أنه يوجد في العالم شيء آخر خارج هذا الفردوس . وقادتني أليزته على الفور عائدة بي في الممرّ الذي كنت قد جئت منه ، وكان لها على الجانب منه حجرتان مجهزتان تجهيزاً حسناً ،

ووضعت في الحجرة التي كانت تسكنها برتقالاً وتيناً ودرّاقاً وعنباً ، واستمتعت بثمار البلدان الأجنبية كما استمتعت بثمار الشهور القادمة بشهية عظيمة ، وكانت الحلوى فائضة ، وأترعت قدحاً من البلّور الصقيل بالخمر المزبدة : غير أني لم أكن في حاجة إلى الشراب ، لأنني كنت قد أنعشت نفسي بالفاكهة بما يكفي — وقالت : « الآن نريد أن نلعب ، وقادتني إلى الحجرة الأخرى . وبدأ الحال هنا كما يكون في سوق عيد الميلاد ، ولكن أحداً لم ير قط مثل هذه الأشياء النفيسة الرائعة في كشك عيد الميلاد . فكان هناك كل أنواع الدمى وأثواب الدمى ، وتجهيزات الدمى ، مطابخ ، وحجرات للسكن ، وحوانيت ، وألعاب مفردة بأعداد لاتحصى . وطافت بي على كل الخزائن الزجاجية : إذ كانت كل الأعمال الفنية محفوظة في مثل هذه الخزائن . غير أنها سرعان ما أقفلت الخزائن الأولى وقالت : « هذا ليس لك ، أنا أعرف ذلك حق المعرفة ، ولكننا قد نجد هنا موادّ بناء وجدراناً وأبراجاً ، ومنازل وقصوراً وكنائس لتشكيل مدينة كبرى ، ولكن هذا لايسليني ، فنحن نريد أن نلجأ إلى شيء آخر ممتع لك ولي على السواء » — وأخرجت بعد ذلك بعض الصناديق التي لمحت فيها فريقاً من المحاربين الصغار قد رُصف بعضه فوق بعض ، وكنت مضطراً إلى الإقرار على الفور بأني لم أر قط شيئاً جميلاً كهذا . ولم تدع لي وقتاً لأتأمل بالتفصيل عن كثب ، بل تأبّطت واحداً من الصناديق ، وتناولت الآخر . وقالت : « نريد أن نذهب إلى الجسر الذهبي ، فهناك يمكن اللعب على أفضل وجه بالجنود : والشرطة تعطي على الفور التوجيه حول كيفية وضع الجيشين أحدهما إزاء الآخر » . وكنا قد وصلنا إلى الأرضية الذهبية المترنّحة ، وسمعت الماء تحتي يخرّ ، والأسماك تتلاطم ، بينما جثوت على ركبتي لأنصب خطيّ ، وكان

كله من الفرسان ، كما رأيته الآن . وجعلت تفخر بامتلاكها ملكة الأمازون قائدة لجيشها الأنثوي . أمّا أنا فوجدت أخيل وكوكبة من الفرسان الإغريق جدّ مهيبة . وواجه الجيشان أحدهما الآخر ، ولم يكن في وسع أحد أن يرى شيئاً أجمل من هذا ، إذ لم يكونوا فرساناً برسوم مستوية مسطّحة من الرصاص ، كفرساننا ، بل كانوا رجالاً وخيولاً ، لها استدارة وتجسيد ، قد صيغت أدقّ صياغة ، ولم يكن في وسع المرء أيضاً أن يدرك كيف كانوا يحافظون على توازنهم : لأنهم كانوا يقفون وحدهم دون أن يكون لهم لوحة بمثابة موطيء قدم .

وكنا قد شاهد كل منا الآن جيشه باغتباط عظيم حتّى أعلنت إليّ عن الهجوم ، وكنا قد وجدنا أيضاً مدفعية في صناديقنا ، وكانت هذه بالأحرى علباً ملأى بكرات من العقيق المصقول جيداً . وكان يفترض ألاّ يكون ذلك بأقوى مما هو ضروري لإسقاط قطع اللعبة ، إذ كان يفترض ألا يلحق أذى بقطعة منها . وانطلق القصف المدفعي الآن بصورة متبادلة . وفي البداية كان يحدث أثراً يبعث على سرور كل منا ، ولكن حين لاحظت خصمي أنني كنت أسدّد تسديداً أفضل منها ، وأنني قد أحظى بالنصر الذي يتوقف على الغلبة في عدد الباقين وقوفاً ، قامت بالمزيد من التقدم وكان لرَمْيها الأنثوي النجاح المرغوب أيضاً ، فأطاحت بطائفة من أفضل قواتي ، وكانت كلما احتججت ازدادت حماسة . وقد أثار هذا استيائي آخر الأمر ، وأعلنت أني سأردّ بالمثل . على أنني لم أتقدم بالفعل أيضاً فحسب ، بل جعلت أرمي ، ساخطاً ، رمياً أعنف كثيراً ، إذ لم تلبث أن تطايرت طائفة من قطع القنطور (١) الصغيرة الخاصة بها

---

(١) Kentaur مخلوق خرافي عند الإغريق أعلاه إنسان وأسفله حصان .

« المترجم »

إرَبَاً ، ولم تلاحظ هي ذلك في غمرة حماستها ، ولكنني وقفت متحجّراً من الدهشة حين التأمت القطع الصغيرة المهشّمة من جديد من تلقاء نفسها وعادت قطع الأمازون والخيل متكاملة وانبعثت فيها الحياة كاملة أيضاً في الوقت ذاته ، وجلست في عَدْوِها الخَبَب ، من الجسر الذهبي ، تحت الزيزفونات ، وجعلت تعدو بسرعة البرق جيئة وذهاباً ، متلاشية آخر الأمر في الجدار ، على نحو لاأعرفه ، وما كادت خصمي الجميلة تلاحظ هذا حتى أجهشت بالبكاء والعويل بصوت عال ، وصاحت قائلة إنني قد ألحقت بها خسارة لا تعوّض وهي أكبر كثيراً مما يمكن التعبير عنه ، غير أنني سرّني ، وأنا الذي كنت مغيظاً ، أن أسبّب لها شيئاً من الألم ، ورميت بطائفة أخرى مما تبقّى لديّ من كرات العقيق ، كالأعمى ، بعنف ، بين حشد جيشها ، وكان من سوء الحظ أني أصبت الملكة التي كانت حتى الآن مستثناة في لَعِبنا النظامي ، فتطايرت إرباً ، كما تحطّم أيضاً أعوانها الأقربون ، ولكنهم عادوا إلى الالتئام بسرعة من جديد وولّوا الأدبار كالأوائل ، وجعلوا يعدون خَبَباً في مرح شديد دائرين تحت الزيزفونات ثم تلاشوا في الجدار .

وجعلت خصمي توبخني وتكيل لي السباب . أما أنا فقد انحنيت ذات مرة في مسيري لألتقط بعض كرات العقيق التي كانت تتدحرج حول الرماح الذهبية . وكانت رغبتي الحانقة أن أبيد جيشها بأسره . أما هي فلم تكن بالكسولة إزاء ذلك بل انقضّت عليّ ، وصفعتني صفعة جعلت رأسي يطنّ . أما أنا ، الذي سمعت دائماً أن صفعة من فتاة ينبغي أن يُردّ عليها بقبلة فظّة ، فقد أمسكت بها من أذنيها ، وقبلتها مراراً ، غير أنها أطلقت صرخة بلغ من حدتها أنها أفزعتني أنا ، فأرسلتها تنطلق وكان هذا من حظي ، إذ أنني لم أكن أعرف في هذه اللحظة ما انتابني . فقد

أخذت الأرض تهتزّ وتهدر من تحتي . ولاحظت بسرعة أن الأسوار عادت إلى الحركة من جديد، غير أني لم يكن لديّ وقت للتفكير ، ولا كنت مستطيعاً أن أثبّت قدميّ لأهرب ، وجعلت أخشى أن أُطْعَن بالرماح في كل لحظة ، لأن جنود العصابات والحراب التي انتصبت كانت تمزّق أثوابي . وحسبي أنني لاأعرف ما جرى لي ، إذ فقدت السمع والبصر ، وعدت إلى رشدي من غيبوبتي ، ومن رعبي ، على قاعدة شجرة زيزفون ألقى بي عليها السور الهائج. ومع الاستيقاظ استيقظت أيضاً ضغينتي التي ازدادت زيادة عنيفة بعدُ ، حين تناهى إلى سمعي من الجهة المقابلة سخريات خصمي وضحكاتها ، وهي التي بدا أنها بلغت الأرض ، على الجانب الآخر ، وهي أحسن حالاً مني إلى حد ما ، ولذلك وثبت ، وحين رأيت من حولي الجيش الصغير مع قائده أخيل ، وهم الذين جرفهم السور الهائج معي إلى هنا ، مبعثراً ،أمسكت أولاً بالبطل ، ورميته على شجرة ، وأعجبني التئامه وهربه الآن على نحو مضاعف لأن متعة الإيذاء تعدّ من أظرف المناظر في العالم ، وكنت أوشك أن ألحق به كل الإغريق ، حين جعل الماء ينبثق نحوي دفعة واحدة بصوت كالصفير من كل حدب وصوب ، من الحجارة والجدران ، ومن الأرض والأغصان ويضربني كالسوط ، حيثما اتجهت ، طولاً وعرضاً ، واخترق البلل ثوبي الخفيف بصورة كاملة خلال وقت قصير ، بل كان قد تمزّق ، ولم أتلكأ في نزعه عن جسدي تماماً ، ونفضت الخفين عن قدميّ ، وهكذا إهاباً بعد آخر ، بل إني وجدت ، مع النهار الدافيء ، أن من الممتع جداً أن أتعرّض لحمّام من الأشعة كهذا . وجعلت أتمشّى الآن . عارياً تماماً ، بوقار ، بين هذه المياه المستعذبة ، وحسبت أنني أستطيع أن أقيم على ذلك وقتاً طويلاً . وهدأت ثائرتي ، ولم أكن آمل أكثر من مصالحة مع خصمي

الصغيرة . ومع ذلك فقد غاضت المياه في مثل لمح البصر ، ووقفت الآن مبلّلاً على أرض تخلّلها البلل . على أن حضور الشيخ الذي ظهر بغتة أمامي لم يكن بحال من الأحوال بالأمر المستحسن ، وَوَدِدْتُ لو أستطيع أن أستتِر على الأقل ، حيث لاأستطيع الاختفاء وجعلني العار ، ورعدة البرد ، والرغبة في التدثّر إلى حد ما ، أمثل شخصية تبعث على الأسى إلى الحد الأقصى . واستغل الشيخ اللحظة لينهال عليّ بأشد أشكال التوبيخ وصاح قائلاً : « ماالذي يمنعني أن أتناول أحد الحبال الخضر ، وأنهال بها على ظهرك ، إن لم أضعها على عنقك ! » . وتلقيت هذا الوعيد بمنتهى الاستياء ، وصحت قائلاً : « ألا فاحذر من أمثال هذه الكلمات ، بل من أمثال هذه الأفكار ، وإلاّ كنت أنت وسيداتك من الخاسرين ! » — فسأل مدافعاً : « ومن عساك تكون حتى يُباحَ لك أن تتكلم هذا الكلام ؟ » فقلت : « حبيب الآلهة الذي يرجع إليه عثور تلك النسوة على أزواج وجهاء ، وتمتعهن بحياة سعيدة ، أو تركه إيّاهن في ديرهن السحري يُمتنَ من الحرمان ويأتي عليهن الدهر » . فارتد الشيخ بضع خطوات إلى الوراء ، وسألني مندهشاً متفكّراً : « ومن أفضى إليك بهذا » فقلت : ثلاث تفاحات ، بل ثلاث جواهر » ، وصاح قائلاً : « وأي مكافأة تبغي ؟ » ، فرددت قائلاً : « هذه المخلوقة الصغيرة ، قبل كل شيء ، هذه التي وضعتني في هذا الظرف المشؤوم ، فخرّ الشيخ على الأرض بين يديّ دون ان يتفادى الأرض التي مازالت طرية طينيّة ، ثم انتصب واقفاً بدون ان يتبلّل ، وأخذني من يدي بمودة ، وقادني الى تلك القاعة ، وألبسني من جديد ببراعة ، وسرعان ما غدوت من جديد حسن الهندام حليقاً كما في أيام الأحد من قبل ، ولم ينبس البواب بكلمة بعدُ ، ولكنه استوقفني قبل أن أتجاوز العتبة ودلّني على بعض الأشياء على الجدار

المقابل فوق الطريق وهو يشير في الوقت نفسه إلى الباب الصغير في الخلف ، وفهمت عنه ، فقد كان يريد أن أطبع الأشياء في ذهني لأعثر على الباب الصغير من جديد بمزيد من اليقين ، وهو الباب الذي انطبق ورائي بغتة . وجعلت أذكر لنفسي الآن ما كان يواجهني حقاً . وكانت أغصان أشجار جوز عريقة في القدم تبرز متدلية فوق جدار عال ، وتغطي بصورة جزئية الإطار الحجري الذي كان ينتهي به . وكانت الأغصان تبلغ لوحة حجرية كنت أستطيع أن أتبيّن إطارها المزخرف ، غير أنني لم أكن أستطيع أن أقرأ نقشها . وكانت ترتكز على رَفْرَف حجري مزخرف لمشْكاة كانت فيها نافورة مزخرفة بصورة فنية تصب الماء من جفْنة إلى جفْنة ، في حوض كبير كان يشكل ما يشبه الغدير الصغير ويتلاشى في الأرض . فكانت النافورة والنقش وأشجار الجوز ، كل ذلك يقوم عمودياً بعضه فوق بعض ، وكنت أريد أن أرسمه كما رأيته .

والآن يمكن للمرء أن يتصور كيف أنفقت هذا المساء وبعض الأيام التالية وماأكثر ماردّدت لنفسي هذه الأقاصيص التي كنت لاأكاد أصدقها بنفسي . وحين أتيح لي ذلك على أي وجه عدت مسرعاً إلى « جدار السوء » لأبعث الحياة على الأقل في تلك المعالم القائمة في ذاكرتي ، ولأتأمل الباب الصغير الممتع ، ولكن ما أثار دهشتي العظمى أنني وجدت كل شيء متغيراً . لقد كانت أشجار الجوز تبرز حقاً فوق الجدار ، ولكنها لم تكن تنتصب قريباً بعضها إلى بعض على نحو كثيف . وكان ثمة لوحة مثبّتة في الجدار أيضاً ، غير أنها تبعد عن الأشجار كثيراً ناحية اليمين ، بغير زخرفة ، وبنقش قابل للقراءة ، وكان ثمة مشكاة فيها نافورة بعيداً إلى اليسار ، غير أنها لاتقارن بتلك

التي رأيتها على الإطلاق ، حتى اضطررت تقريباً إلى الاعتقاد بأن المغامرة الثانية كانت حلماً كالأولى ، إذ لايوجد من الباب الصغير أي أثر على الاطلاق ، على أن الشيء الوحيد الذي يعزيّني هو ملاحظة أن تلك الأشياء الثلاثة يبدو أنها تغيّر مكانها على الدوام ، ذلك لأنني اعتقد أني لاحظت ، بعد الزيارة المتكررة لتلك المنطقة ، أن أشجار الجوز تتقارب شيئاً فشيئاً وأن اللوحة والنافورة تبدوان ، كذلك ، كأنهما تتقاربان . ويبدو ، إذا توافقت كل الأشياء من جديد ، أن الباب أيضاً سيكون مرئيّاً ، وسوف أعمل مافي وسعي لأستأنف المغامرة من جديد ، أما أن أستطيع أن أسرد عليكم ماجرى لي من بعد أو أن يُحظَر ذلك عليّ صراحة فذلك ما لاأستطيع قوله .

وقد لقيت هذه الحكاية التي كان أترابي يطمحون إلى التأكد من حقيقتها بحماسة ، إعجاباً كبيراً ، فكانوا يزورون المكان المشار إليه ، كلٌّ على حدة ، دون أن يبوح بذلك لي أو للآخرين ، ووجدوا أشجار الجوز ، واللوحة والنافورة ، غير أنها كانت على الدوام متباعدة بعضها عن بعض : وكما أقرّوا آخر الأمر ، لأن الناس في تلك السنين لم يكونوا يحبون أن يكتموا سراً . ولكن النزاع يبدأ من هنا فحسب . فأمّا الأول فكان يؤكد : أن الأشياء لم تتزحزح من بقعتها ، وأنها ظلت دائماً متباعدة بعضها عن بعض بالقدر ذاته . وأما الثاني فكان يزعم أنها كانت تتحرك ، ولكنها كانت تتباعد . وكان الثالث متفقاً مع هذا حول النقطة الأولى الخاصة بالحركة ، ولكن أشجار الجوز واللوحة والنافورة كانت تبدو له بالأحرى آخذة في التقارب . وكان الرابع يزعم أنه رأى شيئاً أكثر اثارة للاستغراب ، أي أن أشجار الجوز

في الوسط ، ولكن اللوحة والنافورة على الجانبين المقابلين كما بينتُ . أمّا أثر الباب الصغير فقد تباينوا فيه أيضاً . وقدموا لي بذلك مثالاً مبكراً على أن الناس يمكن أن يحملوا عن مسألة بسيطة كل البساطة ، يسيرة المناقشة ، أشد وجهات النظر تعارضاً ويجزموا بها . وحين رفضت استئناف حكايتي بعناد تتابع الإقبال على هذا الجزء الأول كثيراً ، وجعلت أحاذر أن أغيّر كثيراً من الظروف والملابسات ، وبفعل تجانس قصتي بدّلتُ الأسطورة في نفوس المستمعين إليّ ، حقيقةً .

وكنت فوق ذلك ميّالاً إلى الأكاذيب والتحريف ، على أني لم أكن بحال من الأحوال طائشاً على الإطلاق ، بل الأحرى أن الجدّ الداخلي الذي كنت أنظر به منذ وقت مبكر ، إلى نفسي وإلى العالم ، كان يتجلى أيضاً في مظهري . وكان يؤخذ عليّ بصورة ودية في كثير من الأحيان ، وعلى سبيل التهكم في كثير من الأحيان أيضاً ، وقارٌ معيّن تميّزت به ، ذلك لأنني على الرغم من أنني لم أكن أفتقر إلى الأصدقاء الطيبين المختارين فقد كنا مع ذلك الأقلية دائماً في وجه أولئك الذين كانوا يجدون المتعة في إغرائنا بالعبث الفجّ ، وكانوا بلاريب ، يوقظوننا في كثير من الأحيان بفظاظة شديدة من تلك الأحلام الأسطورية المغرورة التي كنا نذوب فيها ، أنا باختراعي ، وأترابي بمشاركتهم ، بسرور فائق . على أننا عرفنا الآن مراراً أن المرء لديه من الأسباب مايدفعه بالأحرى إلى أن يخشَوْشِن بدلاً من الانغماس في خفض العيش والمباهج الخيالية ، ليحتمل الشرور التي لابدّ منها ، أو ليتصدّى لها بصورة فعّالة مؤثرة .

وكان من التمارين الخاصة الرواقيّة (١) التي كنت أقوم بها

(١) الرواقية مذهب فلسفي معروف يقوم على مبدأ احتمال الألم .

« المترجم »

بصورة جديّة على قدر ما تتسع له إمكانية غلام ، ضروب التحمّل للآلام الجسدية . إذ كان معلمونا يعاملوننا في الغالب معاملة غير ودية وغير بارعة ، بالضربات واللكمات التي كنا نزداد إزاءها تصلّباً أكثر مما كان العصيان أو رد الفعل مستهجنين في الحد الأقصى . ويستند كثيراً جداً من نكات الأحداث على تنافس في مثل هذه الضروب من التحمّل ، ومثالها : أن يتضارب القوم على سبيل التناوب باصبعين أو بكامل اليد إلى درجة تخدّر الأعضاء أو أن يحتملوا ، في ألعاب معيّنة ، الضربات التي يدينون بها ، برزانة أكثر أو أقلّ ، وألاّ يسمح المرء لنفسه بأن يُضلّل ، في المصارعة والمضاربة ، بخدَع أنصاف المغلوبين ، وأن يكتب المرء الألم الناجم عن معابثة ، بل أن يسلك سبيل اللامبالاة إزاء الدغدغة والقرص الذين يُشغَل بهما الأحداث كثيراً فيما بينهم . وبذلك يتمتع المرء بمزيّة عظيمة لاتنتزع من قبل الآخرين بسرعة كبيرة .

ولما كنت ، مع ذلك ، قد اتخذت من مثل هذا القهر للألم مايشبه المهنة ، فقد تفاقمت صفاقات الآخرين ، ومثلما لاتعرف القسوة الفجّة حدوداً فقد عرفت كيف تخرجني عن حدودي ، وسأروي حالةً بدلاً من كثير : كان المعلم قد غاب ساعة ، وكنا ، معشر الأطفال ، نتسلّى تسلية مهذبة حقاً مادمنا مجتمعين معاً ، ولكن حين انصرف عني الطيّبون عندي، بعد أن انتظروا طويلاً بما يكفي، وبقيت أنا مع ثلاثة من الأشرار ، فكّر هؤلاء بتعذيبي ، وإلحاق العار بي ، وطردي . وكانوا قد تركوني لحظة في الغرفة ، ثم عادوا ومعهم عصيّ اتخذوها من مكنسة حطموها على عجل ، وأدركت نيتهم ، ولما كنت أعتقد أن نهاية الحصة قريبة ، فقد قررت في نفسي ، على سبيل الارتجال ،

ألاّ أقاوم ، إلى حين قرع الجرس ، وأخذوا على أثر ذلك ، في جَلْد ساقيَّ ، وبطنَّيْ ساقيَّ ، بأقسى صورة ، وبغير رحمة ، ولم أحرك ساكناً . ولكني سرعان ماشعرت أنني قد أخطأت في حسابي ، وأن مثل هذا الألم يطيل الدقائق كثيراً ، وكان سخطي يزداد مع الصبر ، فانقضضت ، مع أول ضربة جرس ، على ذلك الذي كان أقلّهم غفلةً عني ، بيديَّ في شعر قفاه ، وطرحته ، على الفور ، أرضاً بأن دفعت بركبتي في ظهره . أما الآخر ، الأصغر والأضعف ، الذي هاجمني من الخلف ، فقد سحبته بذراعي من رأسه ، وكدت أخنقه بيدي بأن ضغطتّه عليّ . والآن بقي الأخير ، ولم يكن بالأضعف ، ولم يكن باقياً لديّ إلاّ اليد اليسرى للدفاع عن النفس . غير أني أمسكت به من ثيابه ، وبلفتة بارعة من جانبي ، وبلفتة متعجّلة من جانبه ، طرحته أرضاً ، وجعلت أصدم وجهه بالأرض ، ولم يقصروا في العضّ والهرش والوطء . ولكن لم يكن هناك إلاّ الانتقام في ذهني وفي جوارحي . ومع تلك المزية التي كنت أتمتع بها جعلت أضرب الرأسين أحدهما بالآخر مراراً . ورفعوا عقيرتهم آخر الأمر بصراخ مرعب ، وسرعان مارأينا أنفسنا محاطين بسكان المبنى ، وشهدت لي العصيُّ المتناثرة هنا وهناك ، وساقاي اللذان جرّدتهما من الجوربين بسرعة وتم الاحتفاظ بحق العقوبة ، وأطلقوا سراحي من المبنى . غير أنني أعلنت أنني إذا ما تعرضت لأدنى إهانة في المستقبل فسأقلع عيني هذا أو ذاك ، وسأخلع أذنيهما إن لم أخنقهما بيديّ .

وعلى الرغم من أن هذه الحادثة نسيها القوم بسرعة ، بل جعلوا يتضاحكون منها ، كما يحدث عادة في أمور الأطفال ، فقد كانت مع ذلك هي السبب في أن هذه الساعات الدرسيّة المشتركة أصبحت

أندر ، وانقطعت في النهاية تماماً . وعلى ذلك فقد عدت كما كنت من قبل ، أقتصر على البيت ، حيث كنت أجد في أختي كورنيليا ، التي تصغرني عاماً واحداً فحسب ، نديمة تجد قبولاً على نحو مطرد في الزيادة .

ولكني لاأريد أن أدع هذا الموضوع دون أن أسرد بعض القصص الأخرى حول بعض المنغّصات التي لقيتها من قبل أترابي : لأن هذا هو بالفعل جانب العبرة في مثل هذه الأخبار المتصلة بالأخلاق ، وهو أن يلمّ الإنسان بما جرى للآخرين ، وأن يلمّ أيضاً بما يمكن أن يتوقعه من الحياة ، وأنه مهما يحدث من أحداث فعليه أن يعلم أن هذا إنما يحدث له بحكم كونه إنساناً لا بحكم كونه سعيداً أو تعيساً بوجه خاص . وإذا لم تُجدِ مثل هذه المعرفة كثيراً في اجتناب الشرور فمن المفيد جداً مع ذلك أن نجد أنفسنا في الظروف التي تعلمنا أن نحتملها ، بل أن نتغلب عليها .

وثمة ملاحظة عامة أخرى تجد مكانها الصحيح ههنا ، وهي أن انبثاق الأطفال من الطبقات ذات التهذيب يظهر تناقضاً كبيراً جداً ، وأعني ذلك التناقض المتمثل في أنهم يتلقون تحذيراً وتوجيهاً من أبويهم ومعلميهم يقضي بسلوك سبيل الاعتدال والفهم ، بل العقلانية ، وألاّ يسببوا ألماً لأحد بدافع العبث أو الاستعلاء ، وأن يكبتوا كل الانفعالات المستهجنة التي قد تتطوّر فيهم ، ولكن ما يناقض ذلك الآن أن هذه المخلوقات الصغيرة تضطر ، بينما تكون مشغولة بمثل هذا التمرين ، إلى أن تعاني من الآخرين مايؤخذ عليها ويستهجن إلى حد بعيد ، وبذلك تدخل المخلوقات البائسة في مأزق بين الحالة الطبيعية وبين الحضارة يبعث على الأسى الشديد ، وتثور ثائرتها إما بطريق المكر ، وإما بطريق

العنف ، تبعاً للشخصيّة ، حين تكون قد ملكت زمام نفسها حيناً من الزمان .

والأحرى أن يدفع العنف بالعنف ، ولكن الطفل السليم الطويّة قلّما يعرف كيف يواجه السخرية والإرادة الخبيثة . وإذا كنت قد تمكنت من وقف تصرفات رفاقي إلى حد كبير كهذا ، فانني لم أكن مع ذلك قد ارتفعت بحال من الأحوال إلى مستوى مطاعنهم وتجريحهم . لأن من يدافع عن نفسه في مثل هذه الأحوال لابدّ له أن يخسر دائماً ؛ فقد كانت هناك أيضاً هجمات من هذا النوع يردّ عليها بقوة جسدية على قدر ما كانت تُستَفَزُّ إلى الغضب ، أو كانت تثير تأملات عجيبة في نفسي ، ماكانت عندئذ لتظل بغير نتائج . وكان أصحاب المقاصد السيئة يحسدونني فيما يحسدونني ، أيضاً ، على أنني كنت معجباً بنفسي ، في وضع تهيّأ للعائلة من وظيفة جدي العمدة : ذلك لأنه حين كان ينتصب هناك في صورة الأول بين أقرانه فان هذا لم يكن له مع ذلك أيضاً أدنى أثر على ذويه . وحين بدا ذات مرة ، بعد انعقاد جلسة لمحكمة الزمارين ، أنني أتخيّل بعيْد ذلك ، أنني رأيت جدي في وسط مجلس العُمَد أعلى درجة من الآخرين ،تحت صورة الامبراطور ،كأنه متربع على العرش،وقال أحد الغلمان ساخراً إنه كان ينبغي لي فعلاً أن أنظر إلى الجانب الأبويّ من جدي ، مثلما ينظر الطاووس إلى قدميه ، إذ كان جدي قيّم العلف في محطة رعي ، وماكان ليدعي قط حقاً في العروش والتيجان وأجبت بأن ذلك لايعيبني بحال من الأحوال ، لأن روعة مدينتنا الأم وجلالها يتمثلان في أن كل المواطنين يحق لهم أن يُعدّوا متساوين فيما بينهم وأن عمل كل واحد منهم يمكن أن يكون من حيث نوعه مثمراً وشريفاً . غير أن مايؤسفني

أن هذا الإنسان الطيب قد قضى نحبه منذ عهد طويل . لأن نفسي تاقت في كثير من الأحيان إلى التعرّف عليه شخصياً ، وتأملت صورته كثيراً من المرات بل زرت قبره واستمتعت على الأقل بالنقش على النصب التذكاري البسيط لحياته المنصرمة ، ذلك النصب الذي غدوت مديناً له بنصيبي . على أن شريراً آخر هو أكثرهم مكراً انتحى بذلك الأول جانباً ، وهمس بشيء في أذنه ، وكانا ما يفتآن ينظران إليّ مع ذلك نظرة ساخرة ، وسرعان ما أخذ قلبي يغلي من الغيظ وطلبت إليهما أن يتحدثا بصوت عال — فقال الأول : « وماعسى أن يكون بعدُ إذا أردت أن تعرف ؟ » ، فهذا الفتى هنا يقول إنك قد تسعى هنا وهناك ، وتبحث طويلاً ، قبل أن تعثر على جدّك — فهددتهما بما هو أعنف إذا لم يفصحا عما في نفسيهما بصورة أوضح ، فروَيا على أثر ذلك حكاية زعما أنهما سمعاها عن والديهما ، وهي أن أبي ابن رجل نبيل ، وأن ذلك المواطن النبيل قد ترك الناس يرونه مستعداً للحلول محل الأب من الناحية الظاهرية ، وبلغ من وقاحتهما أن يسوقا حججاً شتى ، ومنها ، على سبيل المثال ، أن ثروتنا تنحدر من جانب الجدة فحسب ، وأن سائر الأقرباء الفرعيين الذين كانوا يقيمون في فريدبرج وسواها يعدّون في حكم عديمي الثروة ،وسوى ذلك من أمثال هذه الحجج التي تستمد وزنها من مجرد الخبث . فأصغيت إليهما بأكثر مما كانا يتوقعان من الهدوء ، لأنهما كانا قد انتصبا واقفين في وثبة للهرب ، حين هممت بالإمساك بشعرهما ، ولكنني رددت ببرود تام قائلاً : « وقد أكون راضياً بذلك أيضاً ، فالحياة جميلة إلى درجة تجعل المرء يستطيع أن ينظر نظرة اللامبالاة التامة إلى من عليه أن يدين بها له . ذلك لأن هذا في نهاية الأمر مكتوب ، بلا ريب ، من عند الله الذي نستوي بين يديه جميعاً ، فتركا المسألة هذه المرة تمرّ بسلام ، إذ لم يكن في وسعهما

أن يحيرا جواباً ، واستؤنف اللعب من جديد ، وهو الذي يظل بين الأطفال دائماً وسيلة مجرَّبة للمصالحة .

ولكن هذه الكلمات الحقودة لقحتني بنوع من الداء الخلقي الذي اتصل سريانه بهدوء . ولم يكن ليسوءني على الإطلاق أن أكون حفيد أي سيد نبيل ، وان لم يكن ذلك بأكثر الطرق مشروعية . وكانت طاقتي الحدسية تقفو هذا الأثر ، واستثيرت مخيلتي ، واستُنهِضَت حدة الذهن عندي ، وشرعت الآن في البحث في مهمات تلك الطاقات ، فوجدت ، واكتشفت أسباباً جديدة للاحتمالية . وكنت قلّما أسمع الناس يتحدثون عن جدّي ، سوى أن صورته كانت معلّقة مع صورة جدتي في حجرة الاستقبال في المنزل القديم ، وقد حفظت كلتاهما بعد بناء المنزل الجديد في حجرة علوية ، ولابد أن جدّتي كانت سيدة جميلة جداً ومعادلة لزوجها في العمر . وكنت أذكر أيضاً أنني رأيت في حجرتها صورة منمنمة لسيد وسيم في البزة الرسمية ، بنجومه وأوسمته ، وقد اختفت بعد موتها ، مع كثير من الأمتعة الصغيرة الأخرى خلال بناء البيت الذي قلِب كل شيء فيه . وكنت أشيّد لنفسي صرح مثل هذه الأشياء ، وبعض الأشياء الأخرى في رأسي الطفولي ، وأروض ، في وقت مبكر بما يكفي ، تلك الموهبة الشعرية الحديثة التي تعرف كيف تكتسب مشاركة العالم المتحضّر كله عن طريق الربط القائم على المغامرة بين أهم ظروف الحياة البشرية .

ولمّا كنت لا أجرؤ على الإفضاء بمثل هذه الحالة إلى أحد ، أو على مجرد السؤال عنها عن بعد ، فانني لم أقصر في النشاط الداخلي النفسي من أجل الاقتراب من المسألة قدر الإمكان . وذلك أنني كنت قد سمعت

من يؤكد جازماً كل الجزم أن الأبناء في العادة كثيراً ما يشابهون الآباء أو الأجداد مشابهة حاسمة . وكان لعدد من أصدقائنا ، ولاسيما صديق العائلة المستشار شنايدر ، أيضاً ، ارتباطات تجارية مع كل الأمراء والسادة المجاورين الذين كان لعدد غير قليل منهم ممتلكاتهم على الراين وعلى الماين ، وفي المجال القائم بين هذين ، سواء في ذلك الحاكمون منهم أم ذريتهم ، والذين كانوا يشرّفون وكلاءهم المخلصين ، برعاية خاصة ، بصُوَرهم ، وقد جعلت الآن أتأمل هذه الصور التي كنت أراها منذ الصبا مراراً على الجدران ، باهتمام مزدوج لأرى أوَ لأستطيع أن اكتشف شبهاً مع والدي أو حتى معي ، الأمر الذي أصاب من النجاح المفرط ما لايمكن أن ينتهي بي إلى يقين، إذ كانت عيون هذا حيناً ، وأنف ذاك حيناً آخر ، هي التي يبدو أنها تدلني على قرابة ، وهكذا كانت هذه المعالم تغدو بي وتروح بصورة مضلِّلة . وعلى الرغم من أنني اضطررت على الفور ، بالنتيجة ، إلى النظر إلى هذا المأخذ على أنه أسطورة فارغة ، فقد ظل الانطباع موجوداً لديّ مع ذلك ، ولم يكن في وسعي أن أكفّ عن تفحّص مجموع صور هؤلاء السادة الذين ظلت صورهم ماثلة في خيالي بوضوح شديد ، واختبارها من وقت إلى آخر ، بهدوء ، فيما بيني وبين نفسي ، وإنه لمن الحق أن كل ما يمّد الإنسان بالقوة الداخلية في اعتداده بنفسه ، ويتملّق غروره الخفيّ ، يعدّ مرغوباً عنده بدرجة يبلغ من علّوها أنه لايسأل بعدُ ، ترى هل يمكن أن يبلغ به هذا بأية طريقة كانت ، إلى الشرف أم إلى العار .

ولكني أوثر ، بدلاً من أن أورد ههنا تأملات جادة ، بل زجْرية ، أن أصرف النظر عن تلك العصور الجميلة . فمن عساه يقدر على أن يتحدث عن خصب الطفولة برصانة . فنحن لانستطيع أن ننظر إلى المخلوقات

الصغيرة التي تتقلّب من حولنا نظرة أخرى سوى نظرة الاستمتاع ، بل نظرة الإعجاب لأنها تعَدُ في أكثر الأحيان بأكثر مما تنطوي عليه ، ويبدو كأن الطبيعة تتهكم علينا في جملة مقالب ساخرة تدبّرها لنا ، وهي تُبرِز نفسها هنا أيضاً بوجه خاص تماماً . فالأعضاء الأولى التي تهبها للأطفال في الدنيا إنما تتماشى مع الحالة المباشرة الأولى للمخلوق ، وهي تستخدم من أجل الأغراض الأولى ذاتها ، بأبرع طريقة ، ودونما فن ، وبتواضع . فالطفل ، إذا ما نظرنا إليه في حد ذاته ، ومع أقرانه ، وفي علاقاته التي تتناسب مع طاقاته ، يبدو مفهوماً ومعقولاً ، بحيث لايعلو عليه شيء . وهو في الوقت ذاته مطواع ، مرح ، بارع ، إلى درجة أن المرء لايمكن أن يتمنّى له تدريباً وراء ذلك. ولو أن الأطفال تابعوا نموّهم على النحو الذي يتجلّوْن به لظفرنا بعبقريات خالصة . ولكن النمو ليس بمجرّد التطور . فالأجهزة العضوية المختلفة التي تشكّل الإنسان الواحد ينبثق بعضها عن بعض ، ويتبع بعضها بعضاً ، ويتحوّل بعضها إلى البعض الآخر ، ويزيح بعضها بعضاً ، بل يبتلع بعضها بعضاً ، بحيث لايكاد يمكن العثور على أثر لبعض القدرات ، وبعض تظاهرات الطاقة ، بعد وقت معين . وإذا كان للملَكات البشرية على الإجمال اتّجاه حاسم أيضاً ، فلابد أن يصعب على أكبر العارفين وأكثرهم خبرة أن يتنبأ بها على سبيل اليقين سلفاً ومع ذلك ففي وسع المرء ان يلاحظ فيما بعد ما كان يشير الى شيء مستقبلي .

ولذلك فلست أفكر بحال من الأحوال أن أختتم في هذه الفصول الأولى أقاصيص صباي كلها ، بل الأحرى أنني سأعود فيما بعد إلى التقاط بعض الخيوط ومتابعتها ، وهي تلك التي انسحبَت ، دون وعي ، على السنين الأولى . ولكن لابد لي أن ألاحظ هنا ماهية التأثير الأقوى الذي مارسته أحداث الحرب شيئاً فشيئاً على عقليّاتنا وعلى طراز حياتنا.

ويقف المواطن الهادىء من أحداث العالم الكبرى في علاقة عجيبة : فهي في بُعدها تثيره وتبعث فيه الاضطراب . وهو لايستطيع أن يمتنع عن حكم أو مشاركة ، حتى ولو لم تمسّسْه . وسرعان ما ينحاز إلى حزب تحدّده له شخصيته أو بواعثه الظاهرية . وإذا ما زحفت نحوه مصائر بالغة الجسامة ، وتبدّلات فائقة الأهمية ، ظل يلازمه في بعض حالات الإزعاج الظاهري ذلك الاستياء الداخلي الذي يضاعف السوء ويزيد من حدته في الغالب ، ويقضي على الخير الذي مازال ممكناً . حينئذ يضطر إلى أن يعاني من الأصدقاء والأعداء حقاً ، وكثيراً مايعاني من أولئك أكثر مما يعاني من هؤلاء ، وهو لا يعرف ، كيف ينبغي له أن يحقق ميله ويحافظ عليه ، ولا كيف يحقق مزيّته ويحافظ عليها .

على أن عام ١٧٥٧ الذي قضيناه بعدُ في هدوء منزلي كامل ، عشناه بصرف النظر عن هذا ، في اضطراب نفسيّ عظيم . وربما لم يكن هناك عام آخر أغنى من هذا بالأحداث . فالانتصارات ، وجلائل الأعمال ، والكوارث وأعمال إعادة البناء ، كانت تتعاقب ، وتتداخل ، وتبدو آخذة في التفاقم . ولكن شخصية فريدريك كانت تلوح دائماً ، وكذلك اسمه ، ومجده ، عالياً بعد هنيهة . وكانت حماسة أولئك الذين يُكبرونه تتعاظم وتزداد حيويّة على نحو مطرد . وكانت كراهية أعدائه تزداد مرارة . ولم يكن اختلاف الآراء الذي كان يفصم عرى العائلات نفسها ، بالقليل الحظ في الاسهام في زيادة الفرقة بين المواطنين الذين كانوا من قبل متنابذين بطرق شتّى . ففي مدينة مثل فرانكفورت ، حيث تقسم ثلاثة من الأديان السكان إلى ثلاث كتل غير متساوية ، وحيث لايستطيع إلاّ القلائل من الرجال ، حتّى من الحاكمين ، أن يصلوا إلى السلطة ، كان لابد أن يوجد بعض الموسرين والمتعلمين الذين ينطوون على أنفسهم ،

ويصوغون لأنفسهم بالدراسات والهوايات حياة خاصة منعزلة . ولابد أن يكون الحديث في الوقت الحاضر وفي المستقبل عن أمثال هؤلاء ، إذا أراد المرء أن يتمثل خصائص المواطن الفرانكفورتي في ذلك الزمان .

وكان والدي قد قرّر بمجرد عودته من رحلاته ، وحسب عقليته الخاصة ، أن يتولى إحدى الوظائف الثانوية ، وأن يؤدي مثل هذه الوظيفة بغير عوائد ، وذلك لكي يجعل من نفسه قادراً على خدمة المدينة ، إذا سُلِّمت إليه بغير اقتراع . وكان يعتقد ، حسب عقليته ، وتبعاً للتصور الذي كان يحمله عن نفسه ، وضمن شعوره بارادته الطيبة ، أنه يستحق مثل هذا الامتياز الذي لم يكن ، بلاريب ، قانونياً ، ولا موافقاً للعُرْف . ولذلك فحين رُفِض التماسه تملّكه الغيظ والاستياء ، وأخذ على نفسه العهد ألا يقبل قط أية وظيفة ، ولكي يجعل ذلك غير ممكن هيّأ لنفسه صفة مستشار امبراطوري ، وهي صفة كان العمدة وأكبر المحلفين سناً يحملونها لقباً خاصاً من ألقاب الشرف . وبذلك جعل من نفسه ندّاً لأعاظم الناس وماعاد في وسعه أن يبدأ من الأسفل . وقد قاده السبب المحرض نفسه أيضاً إلى خطبة الابنة الكبرى للعمدة ، مما أدى إلى استبعاده ، من هذه الناحية أيضاً ، من المجلس البلدي . وغدا الآن من المعتزلين الذين لايشكلّون قط عصبة فيما بينهم ، فهم يظلون في عزلةٍ كلٌّ منهم عن الآخر مثل عزلتهم تجاه المجموع ، بل تزداد تلك العزلة حين يتم في هذا الإنزواء تكوّن الجانب الخصوصيّ في الشخصية بصورة تزداد شدة باطراد . وربما كان والدي قد صاغ لنفسه ، في أسفاره ، وفي العالم الحر الذي رآه ، تصوّراً لنمط من أنماط الحياة أكثر أناقة وتحرراً مما كان يحتمل أن يكون مألوفاً بين مواطنيه . والحق أنه كان يجد بينهم أسلافاً ورفاقاً .

ويعد اسم أوفنباخ معروفاً ، إذ عاش قاض محلّف من آل أوفنباخ في تلك الأيام بسمعة حسنة، وسبق له أن كان في إيطاليا ، وقد اجتهد في الموسيقا بوجه خاص، وكان يغني بصوت عذب من مقام (التينور) ، ولمّا كان قد جلب معه مجموعة جميلة من المواد الموسيقية ، فقد كانت تقام عنده حفلات موسيقية وموشّحات دينية . ولمّا كان في هذا المقام يغني بنفسه ويشجع الموسيقيين فقدوجد الناس في ذلك شيئاً لايليق بمنزلته تماماً ، وكان الضيوف المدعوّون ، وكذلك سائر المواطنين يستبيحون لأنفسهم بعض التعليقات الفكاهية في هذا الصدد .

ثم إني أذكر باروناً يدعى فون هيكل ، وهو نبيل غنيّ ، كان متزوجاً ولكن لم يكن له أولاد ، وكان يقطن منزلاً جميلاً في زقاق انطونيوس مجهزاً بكل التجهيزات الخاصة بحياة لائقة ، وكان يمتلك لوحات زيتية جيدة ونقوشاً وعاديّات ،وبعض الأشياءالأخرى ،مما يتراكم لدى الجمّاعين والهواة . وكان يدعو الأعيان من حين إلى آخر إلى طعام الغداء ، وكان محسناً بطريقة خاصة حذرة ، إذ كان يكسو الفقراء في بيته ، ولكنه يحتفظ بأسماهم القديمة ، ولم يكن يناولهم صدقة أسبوعية إلاّ بشرط أن يتقدموا إليه في تلك الأثواب المهداة كل مرة بنظافة وهندام ؛ واني لأذكره على نحو غامض فحسب في صورة رجل ودود جيد الاطلاع ؛ غير أني أذكر بمزيد من الوضوح مزاده الذي كنت أشهده من البداية إلى النهاية ، وأشتري بالمزاد بأمر من والدي حيناً ، وبدافع من نفسي حيناً آخر ، بعض الأشياء التي مازالت موجودة ضمن مجموعاتي .

وفي وقت أسبق ، لم أكد أشهده بعينيّ ، حقق يوهان ميخائيل فون ليون في العالم الأدبي ، وكذلك في فرانكفورت ، سمعة لها شأنها . ولم يكن من مواليد فرانكفورت ، بل استوطنها ، وتزوج أخت جدتي

تيكستور ، وهي من مواليد لِنْدهام . وبمعرفته بعالم البلاط والدولة وتمتّعه بالنبالة المتجدّدة ، حقق اسماً كانت لديه الجرأة على الزجّ به في أوجه النشاط المختلفة التي كانت تظهر في الكنيسة والدولة . وكتب رواية « دوق ريفيرا » ، وهي رواية تهذيبية ،يتبيّن مضمونها من العنوان الثاني « أو الرجل الشريف في البلاط » .ولقي هذا العمل قبولاً حسناً ، لأنه كان يطالب أهل البلاط أيضاً ، حيث لايسود إلاّ الذكاء ، بالأخلاق . وهكذا وفّر له عمله الإعجاب والسمعة . وكان من المفترض في عمل آخر له أن يكون بالمقابل خطراً عليه ،فقد كتب « الدين الوحيد الحق » ، وهو كتاب كان يقصد به الدعوة إلى التسامح ، ولاسيما بين اللوثريين والكالفينيين . وفي هذا الصدد دخل في نزاع مع اللاهوتيين . وكتب الدكتور بينر ضده بوجه خاص في جيسِّن . وردّ فون ليون ، واشتد النزاع وغدا شخصياً . وحفزت المتاعب الناجمة عن ذلك ، المؤلف إلى قبول وظيفة الرئيس في لِنْجنٍ التي عرضها عليه فريدريك الثاني الذي اعتقد أنه تعرّف فيه على رجل متنوّر لايناويء ألوان التجديد التي كانت قد ازدهرت كثيراً في فرنسا ، وهو متحرر من الأحكام المسبقة . أما مواطنوه السابقون الذين فارقهم على شيء من الجفوة ، فزعموا أنه ليس راضياً هناك ، بل إنه لايمكن أن يكون راضياً ، لأن مكاناً مثل لِنْجنٍ لايجوز أن يقارن بفرانكفورت بحال من الأحوال . وكان أبي يشك أيضاً في سلوك الرئيس ويؤكد أن الخال الطيب كان يحسن صنعاً لو أنه لم يشتبك مع الملك لأن الاقتراب من الملك خطر على الإطلاق ، مهما يكن المرء سيداً ممتازاً آخر الأمر . ذلك لأن الناس قد رأوا بالفعل كيف تم القبض على فولتير المشهور بصورة فاضحة بناء على التماس فرايتاج المقيم البروسي في فرانكفورت ، على ما كان له من قبل من حظوة

عالية ، إذ كان ينظر إليه على أنه أستاذ الملك في الشعر الفرنسي . ولم يكن الأمر يفتقر في مثل هذه المناسبات إلى الملاحظات والأمثلة من أجل التحذير من دوائر البلاط وخدمة السادة ؛ الأمر الذي كان الفرانكفورتيّ الأصيل لايكاد يملك تصوّراً عنه .

وأود أن أذكر رجلاً ممتازاً ، هو الدكتور أورث ، باسمه فحسب ، إذ ليس عليّ أن أقيم هنا لأولي الفضل من أهل فرانكفورت نصباً تذكارياً ، بل الأحرى ألاّ آتيَ على ذكرهم إلاّ بمقدار ما كان لسمعتهم أو لشخصيتهم في السنين الأولى بعض التأثير عليّ . كان الدكتور أورث رجلاً غنياً ، وكان يعدّ أيضاً من أولئك الذين لم يشتركوا قط في السلطة ، على الرغم من أن معلوماته ونظراته كانت خليقة أن تؤهّله لذلك . وقد أصبحت الآثار الألمانية ، ولاسيما الفرانكفورتيّة ، مدينةً له بصورة بالغة جداً . فقد حرّر الحواشي على كتاب : « عصر الاصلاح الفرانكفورتي » ، وهو عمل جُمعت فيه لوائح الأنظمة الأساسية لحاضرة المملكة . وقد اجتهدت في دراسة الفصول التاريخية من هذا الكتاب في سنوات صباي .

أمّا فون أوكسِنْشتاين ، أكبر أولئك الإخوة الثلاثة الذين ذكرتهم فيما سبق على أنهم جيراننا ؛ فلم يكن خلال حياته يلفت النظر ، إذا تناولنا أسلوبه الانزوائي ، غير أنه لفت النظر بعد موته ، إذ خلّف وصية تقضي بأن يشيّع إلى مثواه في الصباح الباكر ، بهدوء ، وبغير موكب ولا حاشية ، من قبل العمّال . وتمّ الأمر . وأثار هذا الحدث في المدينة ، حيث كان الناس يعتادون الجنائز ذات الأبّهة ، ثائرة الناس ودهشتهم إلى حد كبير ، إذ ثار في وجهه كل أولئك الذين كان لهم في مثل هذه

المناسبات عادات متعارَف عليها . ولكن النبيل الشهم وجد أتباعاً في كل الطبقات وعلى الرغم من أن الناس كانوا يسمّون أمثال هذه الجنازات بالأوكسينشتاينيّة على سبيل التهكم ، فإنها ازدادت مع ذلك ، لصالح بعض الأسر غير الموسرة . وجعلت الجنائز الفخمة تتلاشى بصورة مطّردة . وإنما أورد هذه الحالة لأنها تمثل إحدى الأعراض المبكرة لتلك العقليات المتصلة بالتواضع والمساواة ، التي صدرت عن عليّة القوم بطريقة ما ، وانتهت إلى آثار مباغتة للغاية .

وكذلك لم يكن يفتقدُ هواة القديم ، إذ كان يوجد خزائن للصور الزيتية ، ومجموعات للنقوش ، ولكن الطرائف الوطنية كانت تُلْتَمس ويجري تخزينها بنشاط على نحو خاص . وكان يجري البحث عن اللوائح الإدارية وصكوك الانتداب القديمة في حاضرة المملكة ، وهي التي لم تكن قد نظمت في مجموعة ، مطبوعة ومكتوبة ، ويتم تنسيقها بعناية حسب تسلسلها الزمني ، ويتم حفظها تراثاً للقانون والعرف الوطنيين ، بصورة مهيبة . وكذلك كان يتم جمع صور الفرانكفورتيين التي كان يوجد منها عدد كبير ، وكانت تشكل قسماً خاصاً في الخزائن .

ويبدو أن أبي قد اتخذ من أمثال هؤلاء الرجال قدوة له بصورة مطلقة . فلم تكن تنقصه أية سمة من السمات التي يتسم بها المواطن الأصولي ذو السمعة المرموقة . وقد قام أيضاً بتنسيق ممتلكاته من كل نوع بعد أن شيّد منزله ، إذ كانت تُصنّف وتنظّم مجموعة ممتازة من الخرائط الصادرة عن دار شينْك وغيرها من المنشورات الجغرافية الممتازة في تلك الأيام ، وتلك اللوائح الإدارية وصكوك الانتداب المذكورة آنفاً ، وتلك الصور ، وخزانة من البنادق القديمة ، وخزانة من الأقداح والأكواب والكؤوس

البندقانية الطريفة . والمواد الطبيعية ، وأشغال العاج والبرونزيـّات ، ومئات الأشياء الأخرى . ولم أكن أقصّر في كل وقت في التماس بعض المهمات التكليفية في المزادات الطارئة من أجل زيادة الموجودات .

ولابد لي أن آتي على ذكر عائلة هامة ، سمعت منذ أول أيام صباي بكثير من الطرائف عنها ، كما شهدت من بعض أعضائها أنفسهم بعض الأمور العجيبة وكانت هذه عائلة سِنْكِنْبِر ج . أما الأب الذي ليس لديّ ما أقوله عنه إلاّ القليل ، فكان رجلاً موسراً ، وكان له ثلاثة أبناء تميزوا جميعاً بغرابة أطوارهم ، وأمثال هؤلاء لايحظون بالقبول على أفضل وجه في مدينة محدودة ، حيث لاينبغي لأحد أن يتميّز بسلوكه ، لافي الخير ولا في الشر ، وفي أكثر الأحيان تكون ألقاب التهكم والحكايات الغريبة التي تعلق بالذاكرة زمناً طويلاً ، ثمرة مثل هذه الغرابة في الأطوار . وكان الأب يسكن عند ناصية حارة الأرانب التي كانت تحمل هذا الاسم من شارة المنزل التي كانت تمثل أرنباً واحداً ان لم تمثل ثلاثة . ومن أجل ذلك كان الناس يسمون هؤلاء الإخوة الثلاثة بالأرانب الثلاثة فحسب ، وذلك هو اللقب الساخر الذي لم يتخلّصوا منه زمناً طويلاً . ولكن مثلما تنبيء السجايا العظيمة عن نفسها في كثير من الأحيان في الصبا عن طريق شيء غريب وغير لائق . فقد حدث ذلك هنا أيضاً . فأما أكبرهم فهو الذي كان فيما بعد مستشار البلاط الامبراطوري المعروف وصاحب المجد الكبير فون سِنْكِنْبِرْج وأما الثاني فدخل إدارة البلدية ، وكشف عن مواهب ممتازة ، ولكنه أساء استعمالها بطريقة متناهية في البراعة ، بل بطريقة فاضحة ، وهي ان لم تكن تلحق الضرر بمسقط رأسه فلاريب أنها تلحق الضرر ، بزملائه بالنتيجة . وأما الأخ الثالث ، وهو طبيب

ورجل يتسم باستقامة عظيمة ، ولكنه كان لايمارس عمله إلاّ قليلاً ، وفي بيوت النبلاء ، فكان يحافظ دائماً ، وإلى آخر مرحلة من عمره ، على شيء غريب في مظهره . فكان دائماً أنيقاً جداً في ثيابه ، ولم يكن الناس يرونه قط في الشارع إلاّ بالحذاء والجوربين والشعر المستعار المجعّد الحسن التزويق ، وقبعته تحت ذراعه ، وكان سريع المشي وكان له مع ذلك تذبذب غريب في طريقه بحيث يكون حيناً على هذا الجانب من الطريق ، وعلى ذلك الجانب حيناً آخر ، وكان يشكل خطاً متكسّراً في مشيته . وكان المهرجون يقولون إنه يحاول بهذه الخطوة المنحرفة أن يحيد عن طريق أرواح الموتى التي قد تلاحقه إذا كان على خط مستقيم ويقلد أولئك الذين يخافون من التمساح . ولكن كل هذا الهزل وبعض اللغط الضاحك تحول آخر الأمر إلى توقير له حين قدّم مسكنه المرموق ، بساحته وحديقته وكل ما يتصل به في جادة ايشنْهايم إلى مؤسسة طبية ، حيث أقيم إلى جانب منشأة المستشفى المختص بمواطني فرانكفورت وحدهم ، حديقة نباتية ، ومسرح للتشريح ، ومختبر كيميائي ، ومكتبة مرموقة ومسكن للمدير ، بطريقة ما كان يحق لأية أكاديمية أن تخجل منها

وثمة رجل نابغ آخر لم يكن لشخصيته من الأثر المهم جداً عليّ مثل ماكان لتأثيره في جيرانه ، ولكتاباته ، وكان هذا كارل فريدريش فون موزَر الذي كان اسمه يتردد دائماً في منطقتنا بسبب نشاطه الوظيفي . وكان هذا أيضاً يمتاز بسمة أخلاقية أساسية اجتذبته حتى إلى أولئك الذين يسمّون بأهل التقوى ، لأن نقائص الطبيعة البشرية كانت تدفعه في بعض الأحيان إلى الإنجاز حقاً . وهكذا أراد أن يدخل ، مثلما يفعل فون ليون ، على حياة البلاط ، وكذلك على الحياة الوظيفية ، معالجة

أكثر اتصالاً بالضمير . وكان العدد الكبير من بلاطات الحكام الألمانية الصغيرة يمثل جمعاً من السادة والخدم كان السادة فيه يطالبون بالطاعة المطلقة والآخرون يريدون أن يعملوا ويخدموا تبعاً لقناعاتهم . ومن هنا نشأ صراع خالد ، وتغيّرات وانفجارات سريعة ، لأن الآثار الناجمة عن التصرّف المطلق في المجال الصغير تتم ملاحظتها وتغدو مخربة على نحو أسرع بكثير مما يحدث في المجال الكبير . وكان كثير من الأسر مديناً ، كما صدر كثير من تصاريح البيع الامبراطورية ، ووجدت أسر أخرى نفسها عاجلاً أو آجلاً على الطريق ذاته . حيث كان الخدم يحصلون على المزايا بغير ضمير ، أو يجعلون أنفسهم غير مقبولين ويعرضون أنفسهم للكراهية إذا كانوا ذوي ضمير . وكان موزر يريد أن يُحدِثَ أثرَه من حيث هو رجل دولة وإداريّ وعادت عليه هنا موهبتُه الموروثة ، والمدرّبة إلى درجة المهنة ، بنتيجة حاسمة . ولكنه كان يريد أيضاً وفي الوقت نفسه أن يسلك سبيل الانسان والمواطن ، وألاّ يهدر مكانته المعنوية إلاّ بأقل مقدار ممكن . وتصوّر كتبه : « السيد والخادم » و « دانييل في أخدود الأسد » و « الآثار التذكارية » إلى حد كبير ، الوضع الذي لم يكن يشعر أنه يعذبه حقاً ، ولكنه كان يضيق به ذرعاً . وهي تشير جميعاً إلى تبرّم بظرف لايستطيع المرء أن يرضى بأحواله ولايستطيع مع ذلك أن يتخلّص منه .ومع هذا الأسلوب في التفكير والإحساس كان لابد له بالطبع أن يبحث مراراًعن وظائف جديدة لم تكن براعته الفائقة تقصّر به عندها ، وإني لأذكره رجلاً حلو المعشر حاضر البديهة، ورقيقاً مع ذلك

ومع ذلك كان اسم كلوبشتوك أيضاً يحدث فينا أثراً كبيراً على البعد . ففي البداية كان الناس يعجبون كيف أن رجلاً ممتازاً كهذا يمكن أن يحمل هذا الاسم الغريب ، ومع ذلك فسرعان ما ألف الناس ذلك ،

وماعادوا يفكرون بمعنى هذه المقاطع اللفظية . ولم أكن قد وجدت في مكتبة والدي إلاّ الأدباء السالفين ، ولاسيما أولئك الذين كان نجمهم وشهرتهم يتصاعدان شيئاً فشيئاً في زمانه ، وكان كل هؤلاء ينظمون الشعر في قافية ، وكان والدي يعد القافية أمراً لامندوحة عنه في الأعمال الشعرية . وكان كاينتس ، وهاجيدورن ودرولنجر وجيللّرت وكرويتس وهاللّر ينتظمون صفّاً في مجلدات جميلة من الجلد الخالص ، وانضم إلى هؤلاء كتاب نويكِرْش « تيليماخ » ، وكتاب كوب « القدس المحرَّرة » ، وترجمات أخرى . وكنت قد قرأت مجموع هذه المجلدات منذ الطفولة بنشاط ، قراءة كاملة ، واستظهرت أجزاءً منها ، ومن أجل ذلك كنت أُدعى في كثير من الأحيان لتسلية القوم . وعلى النقيض من ذلك انفتح على أبي عصر مزعج حين تحوّلت ، بفعل كتاب « المهدي المنتظر » لكلوبشتوك ، أشعارٌ لم تكن تبدو له أشعاراً ، إلى موضوع للإعجاب العام . وكان هو نفسه يحاذر أن يقتني هذا الكتاب ، ولكن صديق عائلتنا المستشار شنايدر ، هرّبه ، ودفعه إلى أمي ، وإلى الأطفال .

وكان كتاب « المهدي المنتظر » قد أحدث انطباعاً قوياً في هذا الرجل ذي النشاط الجمّ الذي كان قليل القراءة ، فور ظهوره ، إذ كانت هذه المشاعر التقيّة التي عُبِّر عنها بصورة طبيعية جداً وكانت مع ذلك مطهّرة على نحو فائق الجمال ، وهذه اللغة العذبة ، وإن كان المرء يعدّها مجرد نثر متناغم ، قد استحوذت آخر الأمر على الرجل الإداري الجاف استحواذاً جعله يعد الأناشيد العشرة الأولى ، وهذه هي موضوع الحديث في الحقيقة ، أروع كتاب ممتع ، ويقرأ هذا قراءة كاملة ، مرة كل سنة لنفسه بهدوء في أسبوع الجمعة الحزينة الذي كان يعرف كيف يحرر نفسه فيه من كل الأعمال ، وينعش نفسه بذلك على مدى السنة كلها . وفي البداية فكر في

الإعراب عن أحاسيسه لصديقه القديم ، غير أنه وجد نفسه مذهولاً للغاية حتى اضطر أن يطّلع على نفور لاشفاء له من عمل ذي مضمون ممتع إلى هذا الحد ، من أجل شكل ظاهري لاشأن له كما كان يبدو له ولم يقصّر في تكرار الحوار حول هذا الموضوع ، كما يمكن تصور ذلك بسهولة ، ولكن كلا الفريقين كانا يتباعدان على نحو مطرد ، وكان ثمة مشاهد عنيفة . ورضي الرجل السمح آخر الأمر أن يسكت عن كتابه المفضل لئلاّ يخسر صديقاً من أصدقاء الصبا وحساءً جيداً في أيام الآحاد .

على أن اتخاذ الأنصار هو الرغبة الأكثر طبيعيّةً عند كل إنسان . وماأعظم مالقي صديقنا من جزاء في الخفاء حين اكتشف في سائر العائلة صدوراً منشرحة لقدّيسه إلى هذا الحد ، وإذا النسخة التي كان يحتاجها أسبوعاً في العام فحسب تقدَّم إلينا فيما بقي من الزمان . وكانت أمي تخفيها ، وكنا نحن الأخوة نستولي عليها أيّانَ استطعنا لنحفظ غيباً ، في ساعات الفراغ ، ونحن مختبؤون في أيّ ركن من الأركان ، أكثر المواضع إثارة ، ولنحتفظ في ذاكرتنا بوجه خاص ، بأرقّ المواضع وأعنفها بأقصى سرعة ممكنة . وكنا نتسابق على تلاوة حلم بوريتاس،وتقاسمنا الحوار العنيف اليائس بين الشيطان وأدراميليش اللذين طرحا في البحر الأحمر . وجاء الدور الأول من نصيبي ، على أنه الأكثر عنفاً ، وتولت أختي الدور الآخر على أنه أرقّ قايلاً . أما اللعنات المتبادلة فكانت فظيعة حقاً ولكنها عذبة الجرْس ، لاتجاوز شفاهنا . وكنا ننتهز كل فرصة . لنتبادل التحية بهذه التعبيرات الجهنمية .

وفي مساء يوم من أيام السبت في الشتاء ـ وكان والدي يحلق لدى النور دائماً ليستطيع في يوم الأحد أن يرتدي ثيابه باكراً وبصورة مريحة ،

متوجهاً إلى الكنيسة ــ وكنا جلوساً على كرسي ذي مساند وراء المدفأة ، ونحن نغمغم ، بينما كان الحلاّق يفرش الصابون ، بلعناتنا المتعارف عليها ، بهدوء شديد . ولكن كان لابدّ لأدراميليش أن يمسك بالشيطان بيدين من حديد : فشدَّت أختي وثاقي بعنف ، وجعلت تتلو ، بهدوء كاف في الحقيقة ، ولكن بحماسة متصاعدة :

أغثني ! إني أضرع إليك ، بل أصلي إذا كنت تبغي ذلك ،

أصلّي لك صلاة هائلة ، أيها المنحطّ ، أيها المجرم الأسود ، أغثني ، فاني أعاني ألم الموت الخالد المنتقم !

فقد كنت من قبل أستطيع أن أكرهك كراهية حارة ضارية !

أما الآن فما عدت قادراً على ذلك ! وهذا أيضاً شقاء أليم !

وكان كل شيء قد سار على نحو لابأس به ، ولكنها صرخت عالياً ، بصوت مفزع ، الكلمات التالية :

أوّاه ! يالي من مسحوق ! . .

وارتعد الحلاق الطيب ، ودلق حوض الصابون على صدر أبي ، فكانت فتنة عظيمة ، وأُجرِيَ تحقيق صارم ، ولاسيما بالنظر إلى الكارثة التي كان يمكن أن تحدث لو أن الرجلين كانا منهمكين في الحلاقة . ولكي نصرف عن أنفسنا شبهة العبث اعترفنا بأدوارناالشيطانية،وكانت المصيبة التي سبّبها أبيات البحر السداسي أكثر جلاءً من أن يشدّد المرء النكير عليها ويلعنها.

وكذلك يألف الأطفال والناس تحويل العظيم والسامي إلى لعبة ، بل إلى ألعوبة شيطانية ، وأنّى لهم ، بغير ذلك ، أن يحتملوه و يطيقوه !

الكتـاب الثالث

وأصبح عيد رأس السنة في ذلك الوقت ، بفعل التبادل العام للتهاني الشخصية ، باعثاً قوياً للحياة في المدينة . وكان من لايسهل عليه الخروج من البيت في العادة ، يطرح عليه أحسن ثيابه ليتأدّب مع أهل الفضل والأصدقاء ويتودّد إليهم هنيهة من الزمان . أما نحن الأطفال فكان الاحتفال في منزل الجد في هذا اليوم متعة لنا مطلوبة إلى أقصى حد . فمع أولى ساعات الصباح الباكر يكون الأحفاد قد احتشدوا هناك ، ليستمعوا إلى الطبول والمزامير واليراعات والأبواق والقرون ، كما يصدح بها العسكريون وموسيقيو البلدية وكل من عداهم ، وكانت هدايا رأس السنة توزَّع من قبل الأطفال على المهنئين الأقل عدداً ؛ وحين يتقدّم النهار كان الوجهاء يزدادون عدداً . ففي البداية كان يظهر الخواصّ والأقرباء ، ثم صغار الموظفين الرسميين ، ولم يكن سادة المجلس البلدي أنفسهم يقصّرون في السلام على عمدتهم ، وكان عدد مختار منهم يستضاف في المساء في حجرات كانت قلما تفتح على مدى العام كله . وكان لقوالب الكاتو ، والكاتو بالبسكويت ، والمرصبان ، والنبيذ الحلو أعظم السحر عند الأطفال ، وكان يضاف إلى ذلك أن العمدة ومعه رئيسا البلديتين كانا يتلقيان من بعض المؤسسات شيئاً من الفضيّات في كل عام ، وكانت

هذه توزع على سبيل التكريم ، بين الأحفاد وآباء المعموديّة بحسب تدرّج معين . ولم يكن ينقص هذا العيد شيء من التفاصيل الصغيرة التي تجعل أكبر الأعياد في العادة عيداً رائعاً .

وأقبل يوم رأس السنة عام ١٧٥٩ ، جذاباً ممتعاً لنا معشر الأطفال كالأعياد السالفة ، مثيراً للهواجس ، حافلاً بالنُذُر عند من هم أكبر سناً . وكان الناس قد ألفوا في الحقيقة استعراضات الفرنسيين . وكانت تحدث كثيراً وعلى نحو متواتر ، ولكنها كانت على أشد ماتكون تواتراً في الأيام الأخيرة من العام المنصرم وحسب التقاليد القديمة لحاضرة المملكة كان حارس البرج الرئيسيّ ينفخ في البوق مادامت هناك قوات تتقدم . وفي يوم رأس السنة هذا أبى أن يكفّ على الإطلاق ، فكان هذا آية على أن أرتالاً من الجيش أكبر عدداً كانت تتحرك من جوانب عديدة . وبالفعل كانوا يجوسون أيضاً في قطع كبيرة في هذا اليوم ، خلال المدينة . وجرى الناس ليروهم وهم يمرّون بهم ، وكان الناس فيما عدا ذلك قد ألفوا أن يتجوّل أولئك في مسيرتهم بأرتال صغيرة ، ولكن هؤلاء كانوا يزدادون شيئاً فشيئاً دون أن يستطيع القوم منعهم أو يريدوه . ويكفي أنه في الثاني من كانون الثاني توقف طابور بعد أن كان وصل عن طريق ساكسنهاوزن ، ماراً بالجسر من خلال (فارجاسّه) إلى الحرس الأمنيّ وتغلّب على القيادة الصغيرة التي كانت تقوم بمهمته واستولى على الدورية المذكورة ، ومضى في طريقه نزولاً ، وبعد مقاومة يسيرة اضطر الحرس الرئيسيّ إلى الاستسلام . وفي اللحظة ذاتها تحولت الشوارع الآمنة إلى مسرح للحرب . وهناك أقامت القوات وعَسْكَرَت إلى أن تم تأمين مأوى لها عن طريق الإيواء النظاميّ .

وقد ظل هذا العبء المفاجيء الذي لم يُسمَع بمثله منذ كثير من السنين يرزح تحت ثقله الفادح المواطنون الراغدون ، ولم يكن من الممكن أن يكون أثقل مما كان على والدي الذي كان يفترض فيه أن يقبل في منزله الذي لم يكد ينتهي بناؤه سكاناً عسكريين غرباء وأن يُخلِيَ لهم غرفَهُ الفخمة المزوّقة المقفولة في أكثر الأحيان ، وأن يعرّض مادأب على تنظيمه وضبطه بدقة بالغة ، لعَسَفِ الغرباء . وكان مقدَّراً له ، وهو ذو الروح البروسيّة على أية حال ، أن يرى نفسه الآن محاصراً في حُجُراته من قبل الفرنسيين : فكان هذا أكثر مايمكن أن يلقاه إثارة للأسى وفقاً لأسلوب تفكيره ولو أنه كان في وسعه مع ذلك أن ينظر إلى المسألة نظرة أهون : مادام يحسن الحديث بالفرنسية ، وكان يستطيع أن يتصرّف في الحياة بكرامة وكياسة ، لجاز أن يوفّر على نفسه وعلينا بعض ساعات الكدر . إذ أنزلوا عندنا ممثل الملك الذي كان عليه أن يفصل في الحوادث المدنيّة والمنازعات بين الجنود والمدنيين وقضايا الديون ومنازعاتها فحسب ، على الرغم من كونه شخصية عسكرية . وكان هذا هو الدوق تورانك ، من مواليد جراس في البروفانس القريبة من أنتيب ، وكان طويل القامة نحيلاً ، مشوّه الوجه تشويهاً شديداً بالبثور ، له عينان سوداوان ناريّتان ، يتسم بسلوك نبيل متماسك . بل إن مجرد دخوله كان خيراً لسكان المنزل . وكان القوم يتحدثون عن الغرف المختلفة التي ينبغي أن يسلّم جزء منها ، ويظل جزء آخر للعائلة . وحين سمع الدوق بذكر غرفة للصور الزيتية جعل يلتمس أن يتفقّد الصور بصورة عابرة على الأقل ، بالشموع ، إذ كان الوقت مساءً . وكان يجد في هذه الأشياء متعة فائقة . وكان يظهر غاية التهذيب تجاه والدي الذي كان يصحبه . وحين سمع أن معظم الفنانين مازالوا على قيد الحياة ، وأنهم يقيمون في فرانكفورت وفيما جاورها .

أكّد أنه لا يرغب في شيء أكثر من أن يتعرّف عليهم في أقرب وقت ممكن ، ويكلفهم بأعمال .

ولكن هذا التقارب من جانب الفن لم يقدر أيضاً على تغيير عقلية والدي ، ولا أن يعدّل شخصيته ، فلم يكن يعترض على ما لا قِبَل له بمنعه . ولكنه كان يظل على بُعدٍ لا تأثير معه . وكان كل ما يجري من حوله من أمور خارجة عن المألوف ، لا يطاق عنده ، حتى في أدّق الصغائر .

وكان سلوك الدوق توراناك في أثناء ذلك انموذجياً،فلم يكن يريد حتى أن يسمرّ خرائطه على الجدران لكيلا يفسد السجاجيد الجديدة ، وكان رجاله بارعين هادئين ، نظاميين ، ولكن قلما كان يخيّم الهدوء عنده طوال النهار وشطراً من الليل ، وكان كل مشتكٍ يتبع الآخر ، وكان المعتدلون يؤتى بهم ثم يرسلون من جديد ، ويؤذن بالدخول الضباط ومعاونيهم ، وكثيراً ما كان الدوق فوق هذا يبسط مائدته لكل طارق في كل يوم : فقد كان يوجد في المنزل المتوسط الحجم ، المجهزّ لعائلة فحسب ، والذي لم يكن فيه إلاّ دَرَج واحد فحسب ينفذ إلى كل الطوابق وهو غير موصَد ، حركة وعجيج كما يكون في خليّة نحل ، على الرغم من أن كل شيء كان يجري باتزان ورصانة وصرامة .

وكان من حسن الحظ أن وجد وسيط بين صاحب المنزل المتبرِّم الذي يزداد في كل يوم تعذيباً لنفسه بداء موهوم ، وبين نزيلٍ عسكري حسن النية حقاً ، بالغ الجد والدقة ، وهو رجل مترجم لطيف ، وسيم ، بدين ، مرح ، كان من أهالي فرانكفورت ، يتقن الحديث بالفرنسية ، ويتقن التلاؤم مع كل شيء ولا يعالج المنغّصات الصغيرة إلاّ بهزله .

وعن طريق هذا بسطت أمي للدوق وضعها مع الظَرْف النفسي لزوجها . وقد عرض القضية بذكاء بالغ ، من المنزل الجديد الذي لم يكتمل تجهيزه بعد ، إلى العزلة الطبيعية للمالك ، واشتغاله بتربية أسرته ، وكل ما يمكن أن يقال سوى ذلك ، ليثير هواجسه ، حتّى أن الدوق الذي كان يفخر أعظم الفخر ، وهو فيما هو فيه ، بأعلى درجات العدالة والنزاهة والسلوك الشريف آلى على نفسه أن يسلك هنا أيضاً سلوك الساكن النموذجي وقد حافظ على ذلك بالفعل خلال إقامته هناك بضع سنوات ، في ظروف شتى ، على نحو ثابت لايتزعزع .

وكان لأمي بعض الإلمام بالإيطالية ، وهي اللغة التي لم تكن بالغريبة عن أيّ واحدٍ من العائلة ، ولذلك قررت على الفور أن تتعلّم الفرنسية . وكان ذلك هدفاً وهب من أجله المترجم كل لحظة مُقْتَطعة من وقت فراغه لنديمته ، إذ كانت قد عمدت له طفلاً في هذه الظروف العاصفة ، وغدا الآن يشعر بميل مضاعف إلى المنزل زائراً ونديماً . (لأنه كان يقطن في الجانب المقابل من الشارع مباشرة) ، وكان يعلّمها قبل كل شيء تلك العبارات التي كان عليها أن تتلوَها بصورة شخصية على الدوق ، وهو الأمر الذي أصاب أفضل النجاح . وكان الجهد الذي تبذله سيدة المنزل في عمرها ذاك يرضي الدوق . ولما كانت شخصيته تنطوي على شيء من حدة الذهن المتسمة بالمرح ، فقد كان يسرّه أن يمارس أيضاً قدراً من التودّد الرصين ، ونجم عن ذلك أوثق الصلات ، وقد أتيحَ للنديمين أن يصلا إلى ما يريدان .

ولو كان من الممكن ، كما سبق القول ، إدخال السرور على قلب الأب لما كان لهذا الظرف المتغيّر إلاّ القليل من الوطأة . وكان الدوق

يتحلّى بأشد ضروب الإيثار صرامة ، فكان يرفض حتى الهدايا التي يقتضيها منصبه ، وكان أقل المقادير الذي يمكن أن يبدو مشابهاً للرشوة ، يُرَدُّ بغضب ، بل مع عقوبة ، وكان رجاله يؤمَرون ألاّ يكلّفوا صاحب المنزل أدنى التكاليف . وفي مقابل ذلك كانت الحلوى والفاكهة تُغدَق علينا نحن الأطفال إغداقاً وفي هذه المناسبة يجب عليّ ، لكي أعطي تصوّراً عن براءة تلك العصور ، أن أذكر أن أمي كدّرت صفونا ذات يوم إلى حد كبير بأن أراقت المثلجات التي أرسلوها إلينا من المائدة ، إذ بدا لها أن من المستحيل أن تحتمل المعدة ثلجاً حقيقياً ، وإن كان يتخلّله السكر بعدُ إلى حد كبير .

وفيما عدا هذه الطيبات التي غدونا نستمتع بها مع ذلك شيئاً فشيئاً استمتاعاً جيداً تماماً ، وتعلمنا احتمالها ، كان يبدو لنا معشر الأطفال أن من المريح أيضاً للغاية أن نتحلّل من مواعيد الدرس الدقيقة والتربية الصارمة بعض التحلل . وتفاقم مزاج والدي السيء ، ولم يكن يستطيع أن يستسلم إلى ما لابدّ منه . وما أشدّ ما أضنى نفسه ، ووالدتي ونديمها ، وأعضاء المجلس البلدي ، وكل أصدقائه ، ليتخلّص من اللدوق فحسب ! وعبثاً كان القوم يصوّرون له أن وجود رجل كهذا في المنزل ، في الظروف السائدة هو خير حقيقي ، وأن تبدّلا دائماً سوف يُعقِب انتقال الدوق ، وسيكون عندئذ بين ضباط أو أناس من العامّة ، ولم تثبت عنده حجة من هذه الحجج . وكان الحاضر يبدو له شيئاً لايطاق ، حتى بلغ سخطه من السوء ما لايمكن أن يُعرَف له مزيد يمكن أن يتلوه .

وعلى هذا النحو تعرّض نشاطه للشلل ، وكان قد ألِف أن يوجهه إلينا بصورة رئيسية . أما ما كان يكلفنا به فما عاد يطالبنا به بالدقة المألوفة

وجعانا نلتمس إشباع فضولنا ، على قدر ما كان يبدو ممكناً ، بالأشياء العسكرية والأشياء العامة الأخرى ، لا في البيت وحده ، بل في الشوارع أيضاً إذ كان ذلك أسهل ملاءمة طالما أن باب الدار الذي لم يكن يوصد في الليل والنهار كان يحتله الحرس الذين لم يكونوا يحفلون بغدوّ الأطفال المضطربين ورواحهم .

على أن بعض الشؤون التي كان يجري الفصل فيها أمام منصة القضاء الخاصة بممثل الملك كانت تكتسب جاذبية خاصة تماماً من حيث أنه كان يعلق قيمة خاصة على اقتران أحكامه في الوقت ذاته بلفتة فكاهية تتسم بحضور البديهة والمرح . وكان ما يأمر به عادلاً بصورة صارمة ، على أن الأسلوب الذي كان يعبر به عنه كان مزاجيّاً ولاذعاً . وكان يبدو أنه اتخذ من الدوق فون أوسونا انموذجاً له . ولم يكن ينقضي يوم دون أن يروي المترجم هذه النادرة أو تلك لنا ولأمي ليبعث البهجة فينا . وكان هذا الرجل المرح قد اتخذ مجموعة صغيرة من أمثال هذه الأحكام السليمانيّة ، غير أنني لاأتذكر إلاّ الانطباع بصورة عامة ، دون أن أستعيد في الذاكرة شيئاً خاصاً .

وكان القوم يتعرّفون على الشخصية الرائعة شيئاً فشيئاً ، على نحو مطرد في الزيادة . وكان هذا الرجل معتدّاً بنفسه وبخصائصه بأجلى الوجوه . ولما كان قد مرت به أيام معينة غلب عليه فيها الإستياء ووسواس المرض . أو ماينبغي أن يسمى به الشيطان الخبيث ، فقد كان يعتزل الناس في أمثال هذه الساعات التي كانت تتطاول في بعض الأحيان إلى أيام ، في حجرته ، فلا يرى أحداً سوى خادمه الخاص . ولم يكن هناك سبيل إلى دفعه ، حتى في الحالات الحرجة إلى السماح بالدخول عليه . ولكن لاتكاد الروح

الخبيثة تتنحّى عنه حتى يظهر كما كان من قبل دَمِثاً مرحاً نشيطاً .
وكان في وسع المرء أن يستخلص من أحاديث خادمه الخاص سان ـجان ، وهو رجل ضئيل نحيل ، ليّن الجانب في مرح ، أنه سبب في سنوات سابقة مصيبة عظيمة إذ كان يغلب عليه هذا المزاج وأنه ينوي الآن أن يحترس احتراساً جدّياً من أمثال هذه الانحرافات ، وهو في مثل هذا المنصب البالغ الأهمية المعرَّض لأنظار العالم كله .

ومنذ الأيام الأولى لوجود الدوق استُدعِيَ مجموع الرسامين الفرانكفورتيين ، مثل هيرت وشوتس وتراوتمان ونوتناجل ويونكر ، إليه ، فعرضوا صورهم الناجزة ، راقتنى الدوق لنفسه ماكان ممكن البيع ، وأُخلِيت له حجرتي الوضيئة الجميلة ذات الجمالون في السقيفة وحولت فوراً إلى مكتب ومرسم ، لأنه كان ينوي تشغيل كل الفنانين ، ولاسيما زيكاتس في دارمشتات الذي كانت ريشته تروق له ولاسيما في ضروب التصوير الطبيعية والبريئة ، إلى حد كبير ، موسماً كاملاً .
فاستجلب جملة مقاييس كل الحجرات والمكاتب ، ثم تداول مع الفنانين في أقسام الجدار ، وحدّد حجم الصور الزيتية البارزة التي يجب إنجازها تبعاً لذلك ، والتي كان من المفترض ألاّ يحيط بها إطار ، بل تثبّت على الجدار في صورة أجزاء من بساط ، ومضى العمل الآن بنشاط ، وتولى زيكاتس مشاهد ريفيّة ، حيث أصاب نجاحاً رائعاً تماماً في العجائز والأطفال الذين صوّرهم وفقاً للطبيعة مباشرة ، ولكن الفتيان ماكان لِيُوفّق فيهم بالقدر ذاته إذ كانوا في معظم الأحيان مفرطين في النحول ، وأخفق في النساء لنقيض تلك العلة . وذلك أنه لما كان قد اتّخذ زوجاً له شخصية قصيرة بدينة ، طيبة ولكنها غير مستحسنة ، ولم تكن تسمح له بنموذج

سواها ذاتها ، فقد امتنع عليه الإتيان بشيء مُستحسَن . كما أنه كان فوق ذلك مضطراً إلى تجاوز مقاييس شخصياته . لقد كانت أشجاره تتسم بالصدق ، ولكنها كانت عملاً زخرفياً تافهاً من ورق الأشجار . وكان تلميذاً لبرنكمان الذي لم يكن ثمة ما يعاب على ريشته في اللوحات الزيتية المرسومة على الحامل المدرّج .

وربما كان شوتس ، رسام المناظر الطبيعية ، يجد نفسه في أفضل أحواله في هذه المسألة . فقد كان يتحكم التحكم الكامل في مناطق الراين ، وكذلك في الايقاع الشمسيّ الذي يبعث فيها الحياة في الفصل الجميل من السنة ، ولم يكن اعتياده بالبعيد كل البعد عن العمل بمقياس أكبر ، وهناك أيضاً لم يقصّر في التنفيذ ولا في الوضع . وقدم صوراً بهيجة جداً .

أما تراوتمان فكان ينجز على طريقة رامبراندت بعض معجزات البعث الواردة في العهد الجديد ، ويبعث اللهيب ، إلى جانب ذلك ، في قرىً وطواحين ، وقد خُصِّص له ، أيضاً ، كما استطعت أن ألاحظ من المساقط العمودية الخاصة بالحجرة ، مكتب خاص . وكان هيرت يرسم بعض غابات البلوط والزان الجيدة . وكانت قطعانه جديرة بالثناء . أما يونكر الذي كان يألف تقليد الهولنديين الأكثر تعلقاً بالتفاصيل ، فلم يكن يستطيع أن يكون إلاّ أقلّهم تلاؤماً في هذا الأسلوب القائم على الجمع واللصق . ومع ذلك فقد كان يطمئن إلى تزيين بعض الأقسام بالأزهار والثمار ، مقابل أجر جيد .

ولما كنت قد تعرفت على كل هؤلاء الرجال منذ أيام الصبا الأولى ، وزرتهم في كثير من الأحيان في ورشاتهم ، وكان الدوق يحتمل وجودي حواليه بسرور . فقد كنت أشهد المهمّات والمشاورات والطلبات ،

وكذلك عمليات التسليم . وكنت أبيح لنفسي ، ولاسيما حين يجري تسليم الرسوم التخطيطية والتصميمات، أن أعرب عن رأيي بصورة جيدة . وكنت قد اكتسبت منذ وقت سابق ، عند هواة الصور الزيتية ، ولاسيما في المزادات ، التي كنت أشهدها بنشاط ، شهرة في معرفتي كيف أقول على الفور ماذا تصوّر أية لوحة تاريخية ، وأن أقول الآن إنها مأخوذة من التاريخ التوراتيّ أو من التاريخ الدنيوي ، أو من الأساطير . وحين لم أكن أصيب معنى الصور الرمزية دائماً فقلّما كان يوجد أحد يفهمها على نحو أفضل مني . وكذلك كنت قد حفّزتُ الفنانين في كثير من الأحيان على أن يصوروا هذا الموضوع أو ذاك وكنت استخدم هذه المزايا في الوقت الحاضر استخداماً ينطوي على المتعة والحب . ومازلت أذكر أنني دبّجت مقالاً مُسْهَباً وصفت فيه اثنتي عشرة صورة كان يفترض أنها تصوّر قصة يوسف ،وقد تم أخذ شيء من ذلك بعين الإعتبار .

وبعد هذه الأعمال التي هي جديرة بالثناء قطعاً بالقياس إلى غلام ، أريد أن آتيَ على ذكر أمر شائن صغير جرى لي ضمن محيط الفنانين هذا ، وذلك أنني كنت على معرفة حقة بكل الصور التي كان القوم قد جلبوها إلى تلك الغرفة شيئاً فشيئاً . ولم يكن فضولي الصبيانيّ يدع شيئاً دونما رؤية أو بحث . ووجدت ذات مرة وراء المدفأة الجدارية علبة صغيرة سوداء ، فلم أتوان في البحث عما يكمن في داخلها ،وبدون أن أتروّى في الأمر وقتاً طويلاً ، أبعدت المزلاج . وكانت الصورة المتضمنة فيها من النوع الذي ليس من عادة المرء أن يصرف عينيه عنه ، بلاريب وعلى الرغم من أنني تأهبت على الفور لاعادة إدخالها فانني لم أستطع الفراغ من ذلك بالسرعة الكافية . فدخل الدوق وضبطني ، وقال وعليه سيماء ممثل الملك : « من

سمح لك بفتح هذه العلبة الصغيرة ؟ » ولم يكن لديّ الكثير مما أجيب به ، ونطق بالعقوبة بجد بالغ قائلاً : « لن تدخل هذه الحجرة ثمانية أيام » . وأدّيت الحناءة وخرجت . ثم اني امتثلت لهذا الأمر على أدقّ صورة ، حتى تذمّر من ذلك زيكاتس الطيب الذي كان يعمل ، كذلك ، في الحجرة . وبلغ بي الامتثال المنطلق من إساءة صغيرة ، ما جعلني أضع لزيكاتس قهوته التي كنت آتيه بها في العادة ، على العتبة ، إذ كان يضطر عندئذ إلى أن ينهض من عمله ويأتي بها ، وكان هذا يقع من نفسه موقعاً سيئاً للغاية ، حتى لقد كاد يُكْرِبني .

ولكن يبدو لي من الضروري الآن أن أشير بمزيد من التفصيل ، وأبيّن كيف كنت أتدبّر أمري ، في أمثال هذه الحالات ، في اللغة الفرنسية ، التي لم أتعلمها أبداً ، على نحو مريح بصورة أكثر أو أقل . وقد أفادني هنا أيضاً تلك الموهبة الفطرية ، وهي أنني كنت أستطيع أن أحيط بسهولة بجرس اللغة وإيقاعها ، وماعدا ذلك من خصائصها الخارجية . وكان كثير من الكلمات معروفاً لديَّ من اللاتينيّة ، على أن الإيطالية كانت تتيح لي المزيد ، وهكذا كنت استخلص بالإصغاء كلام كثير جداً من الخدم والجنود والحرس والزوّار ، في وقت قصير ، حتى كنت أستطيع ، وإن لم أكن أتدخّل في الحديث ، أن أصيب نجاحاً مع ذلك في أسئلة وأجوبة مفردة ، على الأقلّ . ولكن هذا كله لم يكن إلاّ قليلاً في مقابل المزية التي عاد عليَّ بها المسرح . وكنت قد تلقيت من جدي بطاقة مجانية كنت استخدمها ، خلافاً لإرادة والدي ، وبمساندة من أمي ، في كل يوم . فكنت أجلس هنا الآن أمام مسرح غريب ، وأنتبه إلى الحركة والتعبير الخطابي الإيمائيّ كثيراً ، على حين كنت لاأفهم إلاّ القليل أو لا أفهم شيئاً مما كان يجري به الحديث هناك في الأعلى ، ولا أستطيع أن

أحصل على تسليتي إلاّ من التمثيل التعبيري الإيمائي وإيقاع الكلام .
أما الملهاة فكان فهمي لها أقلّ مايكون الفهم ، لأن الحديث فيها كان سريعاً وكان يدور حول أمور الحياة العامة الّتي كانت تعبيراتها غير معروفة لدي على الاطلاق . أما المأساة فكان ورودها قليلاً ، على أن الخطوة الموزونة والأسلوب الإيقاعي في البحر السداسيّ ، وعموم التعبير ، كل ذلك جعلها أكثر إدراكاً في كل خطوة. ولم ألبث طويلاً حتى تناولت راسين الذي صادفته في مكتبة أبي . وجعلت أتلو القطع على الأسلوب المسرحيّ كما كان يدركها جهاز السمع عندي وجهاز النطق المتصل به، على وجه بالغ الدقة ، بحيوية كبيرة، دون أن أستطيع بعدُ أن أفهم حديثاً كاملاً ضمن سياقه . بل استظهرت مواضع كاملة وجعلت أنشدها ، مثل ببغاء مدرّب ، وكان ذلك أهون عليّ مما كان قبلاً حين كنت قد اعتدت أن استظهر المواضع التي تعدّ غير مفهومة في الغالب بالقياس إلى الطفل ، في التوراة ،و أن أرتّلها بنغمة الوعّاظ البروتستانت . وكانت الملهاة الفرنسية المنظومة شعراً محبوبة جداً في تلك الأيام ، وكانت مسرحيات ديتوش ، وماريفو ، ولاشوسّية، ترد كثيراً ، ومازلت أذكر بوضوح بعض الشخصيات المتميّزة . أما مسرحيات موليير فقد بقي منها قدر أقلّ في ذهني. وأمّا ماكان الأكثر انطباعاً في نفسي فكان مسرحية « هيبرّمنيسترا — Hypermnestra » لِـ (ليميير) التي قدمت بعناية من حيث كونها مسرحية جديدة ، وعرضت مراراً . وكان الانطباع المتناهي في ظُرْفه هو ذلك الذي تركه في نفسي « عرّاف القرية» و « روز وكولاس » و « آنيت ولوبان » . وإني لأستطيع أن أستعيد في ذهني الغلمان والبنات بشرائطهم وحركاتهم ، حتى الآن ، ولم يلبث الأمر طويلاً حتى تحرّكت في نفسي الرغبة في أن أنظر إلى نفسي وأنا على المسرح

وقد سنحت لي من أجل ذلك بعض الفرص. وذلك أنني لما كنت لاأصبر دائماً على سماع المسرحيات كلها إلى النهاية ، وأقضي بعض الوقت في الممّرات ، وكذلك أمام الباب في فصل السنة اللطيف حيث كنت أمارس مع الأطفال الآخرين في مثل سني ألعاباً شتى ، فقد انضم إلى صحبتنا غلام جميل مرح كان ينتمي إلى المسرح . وكنت قد رأيته في بعض الأدوار الصغيرة ، وان كان ذلك بصورة عَرَضية فحسب . وكان في وسعه أن يتفاهم معي على أفضل الوجوه ، إذ عرفت كيف استعمل فرنسيتي معه ، فوطّد صلته بي ، إذ لم يكن ثمة غلام في سنه ومن أمته في المسرح، أو في أي مكان آخر قريب ، وكنا نخرج معاً خارج أوقات المسرح ، ولم يكن يدعني في هدوء حتى في أثناء العروض . وكان من أظرف الملفّقين الصغار ، يتحدث حديثاً ساحراً بغير انقطاع ، ويعرف كيف يكثر جداً من الحديث عن مغامراته ومنازعاته وطرائفه الأخرى ، حتى أنه كان يسليني تسلية غير عادية ، وتعلمت منه ، فيما يتصل باللغة والتعبير ، عن طريق هذه الأشياء ذاتها ، في أربعة أسابيع أكثر مما يستطيع المرء أن يتصور ، وبحيث لم يعرف أحد كيف وصلت مرة واحدة بما يشبه الالهام ، إلى اللغة الأجنبية .

وكان يأخذني معه ، منذ أيام تعارفنا الأولى ، إلى المسرح ، ويذهب بي، بصورة خاصة، إلى غرف الممثلين ، حيث يقيم الممثلون والممثلات فيما بين الفصول ، ويرتدون ثياباً ويخلعون أخرى . ولم يكن المكان بالملائم ولا بالمريح ، إذا كانوا قد حشروا المسرح في صالة للحفلات الموسيقية ، فلم يكن هناك وراء خشبة المسرح أقسام خاصة للممثلين . ففي غرفة جانبية جدّ كبيرة كانت تستخدم من قبل لحفلات العزف كان يجتمع كلا الجنسين معاً في معظم الأحيان ، وكان يبدو أنهم أقلّ خجلاً فيما بينهم

أنفسهم منهم أمامنا معشر الأطفال حين لم تكن الأمور تجري دائماً على خير مايرام تهذيباً لدى ارتداء الثياب أو تغييرها . ولم تكن مثل هذه الأشياء قد وقعت لي قط ، ومع ذلك فسرعان ما وجدتها بحكم التعوّد والزيارة المتكررة ، طبيعية تماماً .

ولم يطل بي الوقت حتى نما عندي اهتمام خاص واستثنائي . وذلك أن الفتى ديرون ، كما أريد أن أسمي الغلام الذي اتصلت علاقتي به على الدوام ، كان ، فيما عدا تلفيقاته ، فتىً ذا أخلاق فاضلة وسلوك لطيف حقاً . وقد عرّفني على أخته التي كانت أكبر منا بضع سنوات ، وكانت فتاة ظريفة للغاية حسنة القوام ذات تكوين أصوليّ ، ولون أسمر ، وشعر أسود وعينين سوداوين . وكان سلوكها كله يتسم بشيء من الهدوء ، بل الحزن . وحاولت بكل طريقة أن أظفر باعجابها ، غير أني لم أستطع أن ألفت انتباهها إليّ . وتبدو البنات الصغيرات متقدمات على الفتيان الصغار بمدى بعيد جداً . وهنّ يسلكن حين ينظرن إلى الفتى الذي يوجه إليهن ميله الأول ، سلوك العمّات والخالات ، ولم تكن لي علاقة مع أخٍ أصغر .

وفي بعض الأحيان ، حين كانت الأم تقوم بالتجاريب أو تشهد حفلاً ، كنا نجتمع معاً في مسكنهم ، لنلعب أو نتسلّى . ولم أكن أغدو إليهم قط دون أن أناول الجميلة زهرة ، أو فاكهة أو أي شيء آخر ، وكانت تتقبّل ذلك في كل وقت بأسلوب حسن جداً في الحقيقة ، وتشكر لي بغاية التهذيب ، غير أني لم أكن أرى نظرتها الحزينة تنجلي عن مرحٍ قط ، ولم أجد أثراً يدل على أنها كانت ، فيما عدا ذلك ، تلقي إليّ بالاً . واعتقدت آخر الأمر أنني اكتشفت سرّها . فقد عرض لي الفتى وراء

سرير أمه الذي كان مزيّناً بالستائر الحريرية ، صورة بالباستيل ، صورة رجل وسيم ، وعلّق في الوقت نفسه بإيماءة خبيثة قائلاً : « هذا ليس بالوالد في الحقيقة ، ولكنه في مثل منزلة الوالد تماماً . ولكن بينما كان يمجّد هذا الرجل ، ويروي بعض الأشياء على طريقته مستفيضاً متبجّحاً كنت أعتقد أنني قد توصّلت إلى معرفة أن الابنة كانت تنتمي إلى الأب حقاً ، ولكن كلا الطفلين الآخرين ربما كانا ينتميان إلى صديق العائلة . وفسّرت لنفسي الآن مظهرها الحزين ولم أزدد إلاّ حبّاً لها .

وقد أعانني الميل إلى الفتاة على احتمال مناورات الأخ الذي لم يكن يلتزم حدوده دائماً ، وكان عليّ أن أتحمّل في كثير من الأحيان الأقاصيص ذات الخيال الجامح عن مآثره ، وكيف كان يعرّض نفسه للهزيمة في كثير من الأحيان بدون أن يريد مع ذلك إيذاء الآخر ،وأن كل شيء إنما كان يحدث من أجل الشرف ، وأنه كان يعرف دائماً كيف يجرّد خصمه من السلاح ثم يصفح عنه بعدها ، بل إنه كان يتقن إسقاط السلاح من يد الخصم إتقاناً بلغ منه أنه وقع ذات مرة في حرج كبير ، حين طوّح بحسام خصمه على شجرة عالية حتى ماعاد القوم يستطيعون أن يظفروا به بسهولة من جديد .

على أن ما هوّن عليّ زياراتي للمسرح جداً أنّ بطاقتي المجانية الصادرة من يد العمدة كانت تفتح الطريق إلى كل مكان ، أي حتى إلى مقاعد مقدمة المسرح ، وكانت هذه منخفضة جداً على الطراز الفرنسي ، تحفّ بها المقاعد من كلا الجانبين ، ويحدّها حاجز منخفض ، مشيّدة في سلاسل عدة بعضها وراء بعض . وذلك على نحوٍ لاترتفع معه المقاعد الأولى عن المسرح إلاّ قليلاً . وكان المكان كله يعد من أماكن الشرف الخاصة ؛

ولم يكن يستخدمه إلاّ الضباط ، على الرغم من أن قرب الممثلين يلغي ، لأقول كل وهم ، بل كل فائدة . بل إنني شهدت كذلك بأم عيني ذلك الاستعمال أو الاستغلال الذي أثقل فولتير على نفسه له وكانوا ، إذا غُصَّت الدار في وقت التجوال ، وطمح الضباط المرموقون إلى مكان الشرف ذاك ، حين يكون في العادة مشغولاً من قبل ، يضعون في العادة بعض الصفوف من المقاعد الطويلة أو الكراسيّ في الصالة ، على خشبة المسرح ذاتها ، ولم يكن يبقى للأبطال والبطلات إلاّ أن يفضي بعضُهم إلى بعض بأسرارهم بين البزّات الرسمية والأوسمة ، وقد رأيت مسرحية « هيبرّمنيسترا Hypermnestra » ذاتها تقدم في مثل هذه الظروف .

ولم يكن الستار يسدل بين الفصول . وأنا أذكر بعدُ تقليداً آخر ، كان لابدّ أن أجده لافتاً للنظر جداً ، إذ كان ما يجانب الفن في ذلك شيئاً لايطاق عندي البتة ، بحكم كوني فتى ألمانياً أصيلاً . وذلك أن المسرح كان يعد أعظم المقدسات . وكان لابد للتشويش الطاريء عليه أن يعد أهلاً لأن يُستَنْكَر على الفور من حيث كونه جريمة بحق مقام الجمهور . وكان اثنان من جنود المشاة يقفان من أجل ذلك في كل المسرحيات الهزلية ، بصورة علنية تماماً ، عند كلا جانبي الستارة الخلفية ، وكانا شاهدين على كل مايجري في أعمق أعماق أسرة المسرح . ولمّا كان الستار لايجري إسداله بين الفصول ، كما قلنا ، فقد كان ينطلق اثنان من أولئك القوم مع بداية الموسيقا ، بحيث يتقدمان بصورة مباغتة تماماً من وراء الكواليس أمام ذينك الجنديين اللذين ينسحبان عندئذ برزانة . وإذا كان مثل هذا الإجراء مناسباً حقاً لاجتناب كل ما يسميه الناس في المسرح وهماً ، فان هذا مما يلفت النظر بصورة أكبر ، طالما أن هذا كان يحدث في عصر

يطالب فيه المسرح بالطبيعيّة الأكثر طبيعيّة ، وفقاً لمبادىء ديدرو وأمثلته ، ويُعلّن الخداع الكامل هدفاً حقيقياً للفن المسرحي. ومع ذلك فقد كانت المأساة متحررة من مثل هذا الإجراء البوليسي العسكري ، وكان أبطال العصر القديم يتمتعون بالحق في حراسة أنفسهم بأنفسهم ، إذ كان جنود المشاة المذكورون يقفون في هذه الأثناء وراء الكواليس قريبين بدرجة كافية .

وكذلك أريد أن أذكر أيضاً أنني شاهدت « رب البيت » لديدرو و « الفلاسفة » لباليسّو ، ومازلت أذكر جيداً في المسرحية الأخيرة شخصية الفيلسوف الذي يمشي على أربع ، ويقضم رأساً من الملفوف النّيء .

ومع ذلك فلم يكن في وسع كل هذا التنوع المسرحيّ أن يحبسنا معشر الأطفال ، دائماً في دار التمثيل ، فكنا نلعب في الطقس الجميل أمامها وقريباً منها ونرتكب حماقات شتى لم تكن تناسب على وجه الخصوص مظهرنا في أيام الآحاد والأعياد بحال من الأحوال : ذلك لأننا كنا نظهر ، أنا وأمثالي، حينئذ في ثياب كتلك التي رآني بها القوم في تلك الحكاية ، متأبّطاً قبعتي ومعي خنجر صغير زُيّنت قبضته بأنشوطة حريرية كبيرة . وذات مرة ، وبعد أن كنا قد مارسنا شقاوتنا حيناً من الزمان ، ودخل بيننا ديرون ، خطر بباله هذا أن يؤكد لي أنني أهنته، ولابد لي أن أرضيَه . ولم أكن أفهم ببساطة أيّ حافز حفزه ، ولكني قبلت تحدّيه ، وهممت أن أمتشق حسامي ، ولكنه أكّد لي أن العرف يقضي في مثل هذه الحالات بأن يذهب المرء إلى أماكن خالية ليستطيع تسوية القضية على نحو مريح بصورة أكبر . ومن أجل ذلك توجهنا إلى ماوراء بعض الصوامع ، واتخذنا الوضع اللازم . وجرت المبارزة بطريقة مسرحية نوعاً ما ، فكانت النصال

تُصَلْصِل ، وكانت الطعنات تذهب طائشة ، ولكنه ظل في حمّى الفعل معلّقاً ذؤابة حسامه على أنشوطة قبضتي ، فاخترقها بثقب ، وأكّد لي أنه قد حقق الآن أكمل ألوان الرضى : ثم عانقني ، وذلك بطريقة مسرحية حقاً على النحو ذاته ، وذهبنا إلى أقرب مقهى ، لنستجمّ من اضطراب نفسينا بكأس من شراب اللوز ، ولنعقد رابطة الصداقة على نحو لم يزدد إلاّ وثوقاً .

وثمة مغامرة أخرى وقعت لي في دار التمثيل أيضاً ، وان كان ذلك في وقت لاحق ، أريد أن أرويها في هذه المناسبة . وذلك أنني كنت جالساً بهدوء مع اترابي في الصالة ، وكنا نشاهد باستمتاع رقصة منفردة كان يقدمها فتى وسيم في مثل عمرنا تقريباً ، وهو ابن استاذ للرقص فرنسيّ متجول ، بكثير من البراعة والرشاقة ، وكان يلبس ، على طراز الراقصين ، صُدَيريّاً قصيراً ضيقاً من الحرير الأحمر يشبه قمصان العدّائين ، إذ كان ينتهي برداء منفوش فضفاض قصير كان ينساب حتى ركبتيه ، وكنا قد أَوْلَينا مع الجمهور كله ، هذا الفنان الناشيء إعجابنا حين خطر لي على نحو لا أعرفه ، أن اقوم بتأمّل أخلاقي ، فقلت لمرافقي : « ماأجمل ماكانت أناقة هذا الفتى ، وما أحسن ما تميّز به ، ومن يدري في أي حضن دَنِس عساه يبيت هذه الليلة ! — وكان الناس جميعاً قد نهضوا ، إلاّ أن الجمهور لم يدعنا نتقدّم بعدُ ، وقد اتفق أنّ امرأة كانت تجلس بجانبي ووقفت الآن تزاحمني ، كانت هي أم هذا الفنان الصغير التي شعرت من جرّاء تفكيري باهانة شديدة ، وكان من سوء حظي أنها كانت تعرف الألمانية بما يكفي لتكون قد فهمتني ، وقد تحدثت بها بالقدر الذي كان ضرورياً لتستطيع أن توبخني ، وقد حطّت من مكانتي بقوة ، قائلة من عسايَ أكون ليكون لديّ سبب للشك في عائلة هذا الفتى وفي ثراء

هذا الإنسان الحَدَث ، وان لها على كل حال أن تعدّه في مثل صلاحي ، وربما هيأت له مواهبه حظاً ما كان لي أن أسمح لنفسي بأن أحلم به ، وقد ألقت عليّ هذه الموعظة التكفيرية في غمرة الزحام ، ولفتت الواقفين من حولنا الذين كانوا يتصورون أنني أتيت بالعَجَب العُجاب من الإساءات . ولمّا لم يكن في وسعي أن أعتذر ،ولا أن ابتعد عنها ، فقد كنت في وضع حرج حقاً . وحين أمسكت لحظة قلت ، دون أن أفكر في شيء بهذا الصدد : « والآن فيمَ هذا الضجيج ؟

وعلى أثر هذه الكلمات بدت السيدة كأنها أصيبت بالخرس . فنظرت إليّ ، وابتعدت عني بمجرد أن غدا ذلك ممكناً فحسب إلى حد ما . ولم أتابع التفكير في كلماتي إلاّ أنها لفتت نظري بعد بعض الوقت . حين اعتلّ الغلام بدلاً من أن يتيح لنا رؤيته مرة أخرى ، وكان ذلك في الحقيقة اعتلالاً خطيراً جداً . أمّا أنه مات فذلك ما لاأستطيع قوله .

وكان لأمثال هذه الإرهاصات ، عن طريق كلمة نُطِق بها في غير وقتها ، بل نُطِق بها بغير براعة ، مكانة مرموقة عند القدماء ، وإنما يظل من الأمور التي تلفت النظر إلى أقصى الحدود أن أشكال الإيمان والخرافة ظلت هي ذاتها دائماً عند كل الشعوب ، وفي كل العصور .

على أن التسلية الدائمة لم تكن تُفتَقد منذ اليوم الأول لاحتلال مدينتنا ولاسيما بالقياس إلى الأطفال والأحداث . فكانت المسارح والحفلات الراقصة والمواكب والاستعراضات تجتذب اهتمامنا وهي غادية رائحة ، وكانت الأخيرة بوجه خاص تزداد بصورة دائمة ، وكانت حياة الجنود تبدو لنا مرحة ممتعة تماماً ...

وقد أتاحت لنا إقامة الملازم الملكي في بيتنا مزية رؤية كل الشخصيات الهامة في الجيش الفرنسي شيئاً فشيئاً ، وأن نتأمل بصورة خاصة أولئك الأوائل الذين وصل إلينا اسمهم عن طريق الشهرة . وهكذا كنا نرى من السلالم ، وبسطة السلّم ، كما نرى من القاعات ، على نحو مريح جداً ، القادة الكبار يمرّون عندنا . وأنا أذكر قبل كل شيء الأمير سوبيز ، سيداً وسيماً لطيف المعشر . ولكني أذكر بأقصى الوضوح المارشال فون بروجايو ، رجلاً شاباً ، ليس بالطويل ولكنه ذو بنية حسنة وحيوية ، ينظر فيما حوله نظرة تنطوي على حدة الذهن ، ويتسم بالرشاقة .

وكان كثير التردد على ممثل الملك ، وكان الناس يلاحظون أن الحديث يتناول أموراً هامة . ولم نَكَد ، في الفصل الأول من الإقامة، نجد أنفسنا في هذا الظرف حتى كان قد شاع بصورة غامضة خبر مفاده أن الحلفاء يزحفون ، وأن الدوق فرديناند ، دوق براونشفايج ، قادم لإخراج الفرنسيين من الماين . ولم يكن القوم يحملون أفضل تصوّرٍ عن هؤلاء الذين لم يكونوا يستطيعون أن يفخروا بنجاح حربي خاص ، وكان القوم يعتقدون منذ موقعة روسباخ أنه يجوز لهم أن يحتقروهم . أما الدوق فرديناند فكان القوم يثقون به أعظم الثقة . وكان كل ذوي الروح البروسية ينتظرون بشوق تحريرهم من الوزر الجاثم حتى ذلك الوقت . وكان والدي أكثر مرحاً إلى حد ما ، وأمي مهمومة . وكانت ذكية بما يكفي ليتبيّن لها أن الشرّ الضئيل الحاضر يمكن أن يتبدّل بسهولة ، خطباً كبيراً . ذلك لأنه تبيّن بوضوح بالغ أن القوم لن يتصدّوا للدوق ، بل سينتظرون هجوماً قرب المدينة . أما هزيمة الفرنسيين ، وأما الهرب ، وأما الدفاع عن المدينة ، فما كان ذلك ليكون إلاّ لتغطية الانسحاب ،

وللاحتفاظ بالجسر ، وكان القصف والنهب . وكل شيء ، ماثلاً في المخيّلة المستثارة ، يثير القلق عند كلا الحزبين . أما أمي التي كانت تستطيع أن تحتمل كل شيء إلاّ القلق ، فالتمست من المترجم أن يبلغ الدوق بمخاوفها ، وكانت تتلقى في مثل هذه الحالات الجواب المألوف ، هو أنه ينبغي لها أن تكون هادئة تماماً ، وأنه ليس هناك ما يُخشى منه ، وأن عليها أن تلزم السكينة آخر الأمر ، وألاّ تتحدث إلى أحد عن هذه المسألة .

وكان مزيد من القوات يجوب المدينة ، وعرف الناس أنها كانت تتوقف عند بيرجن . وكان المجيء والذهاب ، والغدوّ على الخيل والعَدْو ، يزداد باطراد ، وكان بيتنا في اضطراب ليل نهار . وفي هذه الأيام رأيت المارشال بروجليو ، وكان طلق الأسارير دائماً ، وهو ذاته دائماً ، يستوي تعبيره وسلوكه تماماً بين هذه المرة والمرة الأخرى . وقد سرّني فيما بعد أن أجد الرجل الذي كانت شخصيته قد تركت انطباعاً حسناً جداً ومستديماً ، يذكر في التاريخ ذكراً مجيداً .

وكذلك أقبل أخيراً يوم الجمعة الحزينة ، بعد أسبوع الجمعة الحزينة المضطرب ، في عام ١٧٥٩ . وكان ثمة هدوء كبير ينبيء عن العاصفة الوشيكة . وكان محظوراً علينا معشر الأطفال أن نخرج من البيت ، أما الوالد فلم يكن يقرّ له قرار ، وكان يخرج من البيت . وبدأت المعركة ، وصعدت إلى أعلى سطح ، حيث كان محظوراً عليّ أن أرى المنطقة في الحقيقة ، ولكني كنت أستطيع أن أسمع دويّ المدافع والنيران المتجمّعة من البنادق الصغيرة ، بصورة جيدة . وبعد بضع ساعات رأينا الأمارات الأولى للمعركة في سلسلة من العربات التي كان يمر بها جرحى في أشكال

شتّى من التشوّهات والمظاهر الباعثة على الأسى ، رويداً ، أمامنا ، ليتم ادخالهم في دير ليبفراوِن المتحول إلى مستشفى عسكري . وعلى الفور انبعثت في نفوس المواطنين الرحمة ، وجعلوا يقدمون البيرة ، والخمر والخبز والمال إلى أولئك الذين كانوا مايزالون قادرين على أن يتقبّلوا شيئاً ، ولكن حين علم القوم بعد بعض الوقت بأن ثمة جرحى وأسرى من الألمان ضمن هذا الموكب ، لم يكن التعاطف يعرف حدوداً ، وبدا كأن كل امرىء يود لو يتجرّد عن كل شيء مما يملك من المتاع المريح لكي يقف إلى جانب مواطنيه :

وكان الأسرى مع ذلك علائمَ معركة غير موفقة بالنسبة إلى الحلفاء . وقد كانت لدى والدي ، وهو المطمئن بجزبيّته كل الاطمئنان ، إلى أن الحلفاء سيظفرون ، الجرأة الحماسية على الذهاب للقاء المنتصرين المأمولين ، دون أن يفكّر في أن الطرف المدحور لابدّ له أن يمر به أولاً في هربه . وتوجّه أولاً إلى حديقته ، أمام باب فريد برج ، حيث وجد كل شيء وحيداً ساكناً ، ثم تجاسر على المضي إلى مرج بورنهايم ، حيث لاح لعينيه بسرعة المنسحبون وعمال عربات التموين المتفرّقون الذين كانوا يتندّرون باطلاق النار على صُوى الحدود ، حتى كان الرصاص المُلَعْلِع يدويّ من فوق رأس المتجوّل الفضوليّ . ولذلك رأى أن من الأصوب أن يعود أدراجه ، وعلم بعد بعض الأسئلة ماكان خليقاً بدويّ النيران أن يَجْلوَه له ، وهو أن كل شيء كان يسير في صالح الفرنسيين ، وأنه لم يكن من الممكن تصوّر أي تراجع . وحين أتى المنزل ، والسخط يملؤه ، خرج عن طوره المألوف تماماً لدى رؤية مواطنيه الجرحى والأسرى . وأوعز هو أيضاً بتقديم بعض التبرعات إلى المارّين في الموكب ، ولكن كان من

المفروض ألاّ يتلقاها إلاّ الألمان ، وهو الأمر الذي لم يكن ممكناً ، لأن القدر كان قد دهم الأصدقاء والأعداء معاً .

أما الوالدة ، ونحن معشر الأطفال الذين كنا من قبل نعلّق الآمال على كلمة الدوق ، وقد قضينا من أجل ذلك يوماً هادئاً للغاية ، فكنا مسرورين سروراً فائقاً ، وكان عزاء أمي مضاعفاً ، إذ تلقت في الصباح ، حين استقرأت الطالع في « صندوق كنوزها الصغير » ، بوخزة إبرة ، جواباً يبعث على الاطمئنان جداً ، سواء بالقياس إلى الحاضر أم بالقياس إلى المستقبل . وتمنينا لأبينا إيماناً مماثلاً ، وروحاً مماثلة ، وتملقناه قدر ماستطعنا ، وجعلنا نرجو منه أن يتناول شيئاً من الطعام الذي كان أعرض عنه طوال النهار ، ورفض ملاطفاتنا ، وكل متعة ، وتوجه إلى حجرته ، ولم يتكدر صفو سرورنا في أثناء ذلك ، فقد انحسمت المسألة ، وعاد ممثل الملك الذي كان في هذا اليوم . خلافاً لعادته . على صهوة جواده ، آخر الأمر ، إذ كان وجوده في البيت أكثر ضرورة من ذي قبل . ووثبنا تِلْقاءَه وقبّلنا يديه ، وأظهرنا له سرورنا . وبدا أن هذا أعجبه كثيراً ، فقال بمودة أكثر مما عُرِف عنه : « خيراً ! ، وأنا أيضاً مسرور من أجلكم ، أيها الأطفال الأعزاء ! » . وأمر على الفور أن تُقدَّم إلينا الحلوى والنبيذ الحلو ، وأفضل شيء على الإطلاق ، وانطلق إلى حجرته يحيط به جمع كبير من ذوي المطالب الملّحة والالتماسات .

وتناولنا الآن وجبة صغيرة لذيذة ، ورثينا للأب الطيب الذي لم يكن يحب أن يَشْركَنا فيها ، وأَلْحَفنا على الوالدة أن تستدعيه إلينا ، غير أنها كانت تعرف حقاً ، وهي أذكى منّا ، كم كانت مثل هذه الأعطيات خليقة أن تزعجه . وفي هذه الأثناء كانت قد أعدّت شيئاً

من العشاء وكانت تودّ لو تبعث إليه بنصيب منه في حجرته . ولكنه ماكان ليحتمل مثل هذه الفوضى ، ولا في أشد الحالات شذوذاً ، وبعد أن نُحيّت الهدايا الحلوة جانباً ، حاولوا إقناعه بالنزول إلى غرفة الطعام المعتادة وأخيراً قَبِل أن يتحرك، على مضض ، ولم نكن نقدّر أي وبال سبّبناه له ولأنفسنا . كان السلّم ينبسط حراً عبر المنزل بأكمله ، مفتوحاً على كل الأبهاء. وكان لابد للأب ، حين ينزل ، أن يمرّ بحجرة الدوق مباشرة . وكان بهوُه غاصاً بالناس حتى ان الدوق قرّر أن يخرج ، لكي ينجز كثيراً من الأمور في وقت واحد ، وقد حدث هذا، ويا للأسف ، في اللحظة التي كان فيها الوالد نازلاً ، وأقبل عليه الدوق طلق الأسارير ، وحياه ، وقال : « سوف تهنئوننا وتهنئون أنفسكم لأن هذه المسألة الخطيرة قد انقضت على هذا النحو الموفّق » ، وأجاب أبي مُحنَقاً : « كلاّ ، أبداً ، بل وددت لو ذهبتم إلى الشيطان ، ولو كان عليّ أن أذهب معكم » . وأمسك الدوق لحظة ، ثم ثار مغضباً وهو يصيح : « سوف تدفع ثمن هذا ، وما كنت لتلحق مثل هذه الإهانة بالقضية العادلة ، وبي ، عبثاً ! »

وكان أبي قد انطلق نازلاً في هذه الأثناء ، وقعد إلينا ، وبدا أكثر إشراقاً من ذي قبل وشرع في الأكل ،وسررنا لذلك ولم ندر بأية طريقة حرجة أطرح هذا الهمّ عن قلبه .واستدعيت أمي بُعَيْد ذلك ، ووجدنا متعة كبيرة في التحدث إلى أبينا عمّا أكرمنا به الدوق من ضروب الحلوى . ولم تعد الأم . وأخيراً دخل المترجم ، وباشارة منه بعثوا بنا إلى الفراش وكان الوقت متأخراً ، وأطعنا بسرور . وبعد ليلة نمناها بهدوء علمنا بالحركة العنيفة التي كانت قد هزّت المنزل مساء الأمس .فقد أمر ممثل الملك على الفور بأن يساق أبي إلى المخفر . وكان المرؤوسون يعرفون جيداً أنه لاسبيل إلى معارضته ، ومع ذلك فقد استحقوا في بعض الأحيان

الشكر حين تردّدوا في التنفيذ . وكان النديم المترجم الذي لم يفارقه حضور الذهن قط ، يعرف كيف يبعث فيهم هذه الروح على أشد ما تكون حيوية . وكان الصخب على كل حال عظيماً بحيث يختفي التردّد من تلقاء ذاته ويجد مبرّراً . وكان قد استدعى أمي وصنع صنيع من يلقي بمساعدة في يدها لعلّها تحصل على مجرد تأجيل عن طريق التوسّلات والتَشَكّي . وأسرع هو نفسه صاعداً إلى الدوق الذي كان قد انسحب إلى الحجرة الداخلية على الفور في تمالك عظيم لأعصابه ، وآثر أن يدع العمل الملّح يتعثّر لحظة من الزمان ، على أن يشبع روح الجرأة الشريرة التي ثارت في نفسه ذات مرة ، بامريءٍ بريء ، ويتخذ قراراً يعود بالضرر على مكانته .

وقد كرّر علينا النديم البدين الذي كان مزهوّاً بالنجاح السعيد ، خطاب المترجم للدوق ، وتوجيه دفّة مجمل الحديث ، مرات كانت كافية لأستطيع أن أدوّنها بصورة جيدة من الذاكرة .

وكان المترجم قد تجاسر على فتح المكتب ، والدخول ، وكان ذلك سلوكاً مكروهاً إلى أقصى الحدود ،وزعق الدوق في وجهه غاضباً : « ماذا تريد ؟ أغرب عن وجهي ! هنا لايحق لأحد أن يدخل ، إلاّ القديس جان »

وأجاب المترجم : « إذاً فلتعدّوني القديس جان ، لحظة من الزمان » .

« هذا أمر يقتضي مخيلة جيدة .

إليكَ عني ! »

« سيدي الكونت ، لقد حبتك السماء بموهبة عظيمة ، وإلى هذه أتوجّه بندائي » .

« أتحسب أنك تتملقني ! لاتصدق أنك ستنجح في هذا » .

« لقد أوتيت الموهبة العظيمة ، ياسيدي الكونت ، موهبة الاصغاء . حتى في لحظات العاطفة الجيّاشة ، وفي لحظات الغضب ، إلى مقاصد الآخرين » .

« بلى ، بلى ! وليس حديثي إلاّ عن المقاصد التي أصغيت إليها وقتاً أطول مما ينبغي ، وإني لأعلم علم اليقين أن الناس هنا لايحبوننا ، وأن هؤلاء المواطنين ينظرون إلينا شزراً »

« ليس كلهم ! »

« بل كثير جداً منهم ! ماذا تريد هذه المدن ، وهذه الحواضر ، أن تكون ؟ لقد رأت امبراطورها ينتخب ويتوّج ، وحين يتعرّض هذا لخطر السقوط على يد غاصب وخسارة بلاده ، بالتعرض لعدوان ظالم ، وحين يجد ، لحسن الحظ حلفاءً أوفياء يبذلون أموالهم ودماءهم من أجله ، فإنهم لايريدون أن يحملوا العبء الضئيل الذي يصيبهم من جانبهم ، وهو إذلال عدّو المملكة » .

« لاريب أنكم تعرفون هذه المقاصد منذ عهد طويل ، وقد صبرتم عليها وأنتم أهل الحكمة ، على أن الأمر لايعدو العدد الضئيل ، إنهم قلّة بهرتها سجايا العدوّ المتألقة ، التي تقدرونها أنتم أنفسكم من حيث كونكم رجالاً ممتازاً ، ليسوا إلاّ قلة ، وأنكم لتعلمون ذلك ! » .

« بلى ، قد عرفت ذلك منذ عهد طويل ، وصبرت عليه ، وإلاّ لما تجاسر هذا على أن يتفوّه في أهمّ اللحظات ، بمثل هذه الإهانات في وجهي ، وربما ودّ كثير منهم لو يعاقبوا في شخص ممثلهم هذا الجسور . وأن يذكروا مالابد لهم أن ينتظروه » .

ولكن رويدَك ، ياسيدي الكونت ! »

« في مسائل معينة لايستطيع المرء أن يتصرف بسرعة مفرطة »

« مهلةً قصيرة فحسب »

« ياجاري . أتحسب أنك تغريني بخطوة خاطئة ، ماكان لك أن تنجح في هذا »

« لاأريد اغراءك بخطوة خاطئة ، ولا أن أصدّك عن خطوة خاطئة ، فقرارك قرار عادل ، وهو يليق بالفرنسي ، بممثل الملك ، ولكن لتذكر أنك أيضاً الكونت تورانك »

« ماكان لهذا أن يسهم بصوته هنا »

« وقد يحسن بنا أن نستمع إلى الرجل الطيب أيضاً »

« ولكن ، ماعساه يقول ؟ »

« إنه خليق أن يقول : سيدي ممثل الملك ، لقد صبرتم طويلاً على الكثير جداً من المشبوهين ، الساخطين الذين لايحسنون شيئاً ، إلاّ أنهم لم يكونوا يسيؤون إليك فوق ما تحتمل ، ولاريب أن هذا قد أساء إساءة بالغة ، وليكن لمنتصر على نفسك ، ياسيدي ممثل الملك ! وسوف يثني عليك كل امريء ويمتدحك »

« أنت تعلم أني أستطيع أن أحتمل دُعاباتك في بعض الأحيان ، ولكن لاتستغلّن حسنَ ظني . أوَ يكون هؤلاء الناس عُمياً كلّ العمى ؟ ولو أننا خسرنا المعركة ، في هذه اللحظة فما عسى أن يكون مصيرهم ؟

فنحن نقاتل على الأبواب ، ونغلق المدينة ، ونتوقف ، وندافع عن أنفسنا لنغطي انسحابنا فوق الجسر . أو تحسب أن العدو كان خليقاً أن يظل مكتوف الأيدي ؟ إنه ليقذف بالرمّانات وبكل مافي يديه ، وهم يوقدون النار حيثما يستطيعون . وهذا المالك للمنزل هنا ، ماذا يريد ؟ في هذه الحجرات ، هنا ، انفجرت الآن رصاصة نارية ، وأعقبتها أخرى ، في هذا الحجرات التي وَقَيْتُ سجاجيدها البِكّينيّة الملعونة ، واستحييْتُ أن أسمِّر خرائطي فيها ! لقد كانوا خليقين أن يقضوا اليوم كله جاثين على ركبهم »
« وكم واحداً فعل هذا ؟ »

« لقد كانوا خليقين أن يدعوا لنا بالخير ، وأن يقابلوا القادة والضباط بشارات الشرف وعلائم الابتهاج ، والعامة المنهكين بالإنعاش . وبدلاً من هذا يفسد عليَّ سمُّ هذه الروح المتحزِّبة أجمل لحظات حياتي ، بل أسعدها ، وهي التي اكتسبتها بالكثير من الهموم والجهود ! »

« إنها لروح متحزِّبة ، ولكنكم لن تحققوا بمعاقبة هذا الرجل إلاّ زيادتها . ولسوف يصرخ أولئك المماثلون له في وجهكم ، على أنكم طاغية ، بربري ، وسوف يعدون شهيداً من عانى من أجل القضية العادلة ، وحتّى أولئك المختلفون روحاً ، والذين هم الآن خصومه ، لن يروا فيه سوى أخ في الوطن ، وسيرثون له ، وبينما يرونكم محقاً ، يجدون مع ذلك أنكم تصرفتم تصرفاً مفرطاً في القسوة » .

« لقد أصغيت إليك أكثر مما ينبغي ، فبادر إلى الخروج ! » .
« إذاً فاسمعوا بعدُ هذا فقط ! فكّروا في أن ما يمكن أن يقع لهذا الرجل ، ولهذه الأسرة ، هو أفظع الفظائع . فلم يكن لديكم سبب يدعو إلى الارتياح حيال النية الطيبة لرب البيت ، ولكن ربة البيت بادرت

إلى مجاملتكم في كل رغباتكم ، وكان الأطفال ينظرون إليكم على أنكم عمّهم . وبهذه الضربة الواحدة سوف تدمرون السلام والسعادة في هذا المنزل إلى الأبد . أجل ، بل إنني أستطيع حقاً أن أقول إن القنبلة التي تسقط في البيت ما كانت لتلحق به من ألوان الدمار ما هو أكبر من ذلك . لقد أعجبت بكم في كثير جداً من الأحيان في رباطة جأشكم ، يا سيدي الكونت ، فامنحوني الفرصة هذه المرة ، لأهيم بكم حباً . إن المحارب الشريف هو الذي يعدّ نفسه في بيت العدو ضيفاً . ولا عدوّ هنا ، وإنما هو تائه ، فانتصروا على نفسكم ، ولسوف يكون هذا مجداً خالداً لكم ! » .

وأجاب الكونت بابتسامة : « إذاً فسينتهي هذا الأمر نهاية رائعة » .

وأجاب المترجم : « إنما هي نهاية طبيعية تماماً ، فحسب . وأنا لم أبعث بالسيدة والأطفال ليرتموا على قدميكم ، لأني أعلم أن مثل هذه المشاهد تبعث على الانزعاج لديكم ، ولكني أريد أن أصف لكم السيدة والأطفال ، كيف يشكرون لكم ، أريد أن أصفهم ، كيف يتحدثون طوال حياتهم ، عن يوم موقعة بِرْجنٍ ، وعن شهامتكم في هذا اليوم ، وكيف سيروون ذلك للأولاد ولأولاد الأولاد ، وكيف سيتمكنون من بعث الاهتمام بكم في نفوس الأجانب أيضاً ، فما كان لحدث من هذا الطراز أن يطويه النسيان ! » .

« ما أنت ببالغٍ جانب الضعف عندي ، أيها المترجم . أما المجد اللاحق فما تعودت أن أفكر فيه ، فهذا للآخرين ، لا لي . ولكن ما يهمني أن أفعل الصواب في اللحظة الحاضرة ، وألاّ أفرّط في واجبي ، وألاّ أضيّع شيئاً من شرفي . لقد أفرطنا في صياغة الكلام ، فانطلق الآن ، وتلقّ شكر الناكرين للجميل ، الذين عفوت عنهم ! » .

ولم يستطع المترجم . إذ بوغت بهذا المخرج السعيد وتأثّر به ، أن يتمالك دموعه ، وهمّ بتقبيل يدي الكونت ، ولكن الكونت ردّه ، وقال بحزم وجدٍّ : « أنت تعلم أني لا أستطيع أن أحتمل مثل هذا ! » وبهذه الكلمات خرج إلى البهو ليعالج الأمور الملحّة وليستمع إلى رغبات كثير جداً من المنتظرين . وعلى هذا النحو سُوِّيَت المسألة ، واحتفلنا في الصباح التالي ، مع بقايا هدايا الحلوى من الأمس ، بتجاوز شرٍّ أسعدنا الحظ بالنوم عنه .

أما أن المترجم قد تحدث بحكمة بالغة ، أو صوَّر لنفسه المشهد على هذا النحو فحسب ، كما ألف الناس أن يفعلوا وفقاً للسلوك الحسن الموفّق ، فذلك ما لاأريد البتّ فيه . على أنه لم يلجأ ، على الأقل ، في إعادة سرده للقصة ، إلى التغيير قط . وحسبه أن هذا اليوم بدا له أحفل أيام حياته بالهموم ، مثلما كان أحفل أيام حياته بالمجد .

وأما كيف كان الكونت يرفض آخر الأمر رفضاً شديداً كل الشكليّات الزائفة ، وأنه لم يقبل قط لقباً لايستحقه ، وكيف كان في ساعات مرحه ظريفاً على الدوام فذلك ما تشهد به واقعة صغيرة .

وذلك أن رجلاً نبيلاً كان ينتمي إلى أهالي فرانكفورت الغامضين المنعزلين اعتقد أنه لابد له أن يشكو من الإيواء في منزله ، فجاء بشخصه ، وعرض المترجم عليه خدماته ، غير أن ذلك الرجل حَسِب أنه ليس في حاجة إليه ، فتقدم إلى الكونت بانحناءة مهذبة ، وقال : « صاحب السعادة ! » ، فرد عليه الكونت بانحناءة كما ردّ عليه بلقب صاحب السعادة فبُهِتَ من هذا التوقير ولم يعتقد إلاّ أن اللقب أقلّ مما ينبغي له ، فانحنى انحناءة أكثر انخفاضاً ، وقال : « مونسنيور ! » وقال الكونت بكل جد :

« سيدي ، فلنمسك عن المضي في هذا الطريق ، وإلاّ أمكننا الوصول بسهولة حتى إلى صاحب الجلالة » – ووقع الآخر في أشد أشكال الحرج ولم يحر جواباً . أما المترجم الذي كان يقف بعيداً إلى حد ما وكان مطلعاً على المسألة ، فقد كان على جانب من الخبث يكفيه لكي لايتأثر ، غير أن الكونت استأنف قائلاً ، بمرح عظيم : « ماسمك ، مثلاً ، يا سيدي » . وأجاب ذلك الرجل : « شبا نْجِنْبِرْج » ، وقال الكونت : « وأنا أدعى تورانك ، فماذا تريد من تورانك ، يا شبا نجنبرج ، والآن لنجلس ، ولنسوّ المسألة على الفور » .

وهكذا سويت المسألة على الفور على نحو أرضى ذلك الرجل الذي سميته هنا شبا نجنبرج ، إلى حد كبير ، على أن القصة لم تروَ فحسب ، منذ المساء نفسه ، من قبل المترجم الشامت ، في محيط عائلتنا ، بل قدّمت بكل التفاصيل والحركات التعبيرية .

وبعد أمثال هذه الضروب من البلبلة والاضطرابات والأزمات سرعان ما استتب الأمن السابق والانطلاق اللذيْن تعيش بهما الأحداث ، من يوم إلى يوم ، بمجرد أن تستقيم الأحوال . وكان ولَعي بالمسرح يتنامى مع كل عرض . ولم أكن أفوِّت أمسية ، على الرغم من أنني كنت أضطر إلى أن أحتمل ضروب التقريع من والدي كلما جلست بعد المسرحية إلى مائدة الأسرة الآخذة في تناول الطعام ، وتبلّغت بمجرد بعض البقايا : إذ كان يقول إن المسرح لافائدة منه البتة ، ولايمكن أن يفضيَ إلى شيء . وكنت في مثل هذه الحال استحضر في العادة كل الحجج ، وكل حجة تتوفّر للمدافعين عن التمثيل حين يقعون في محنة كمحنتي . على أن الرذيلة مع السعادة ، والفضيلة مع الشقاء ، أعيدتا

آخر الأمر إلى التوازن من جديد عن طريق العدالة الشعرية . وكنت أخصّ بالذكر الأمثلة الجميلة حول الخطايا التي لقيت العقوبة ، « الآنسة سارة سامبسون » ، و « تاجر لندن » بصورة بالغة الحيويّة ، ولكني كنت أسوق بالمقابل الأمثلة الأقصر حين كان يوجد في اللائحة « مقالب سكابين » وأمثالها ، وكنت أضطر أن أنحي على نفسي باللائمة للرائحة التي يحسها المرء لدى الجمهور حيال مقالب الأجراء ذوي المكائد ، وحول النجاح الجيد لحماقات الأولاد ، ولم يقنع كلا الطرفين صاحبه . ولكن سرعان ما رضي والدي عن المسرح ، حين رأى أنني تقدمت في اللغة الفرنسية بسرعة لا تصدق .

على أن البشر مجبولون على نحو يجعل كل امريء يؤثر أن يتولى بنفسه العمل الذي يرى الناس يؤدونه ، سواء أكانت لديه البراعة أم لم تكن لديه . وكنت قد أنجزت على نحو سريع مجمل منهاج المسرح الفرنسي ، وكانت عدة مسرحيات ترد مرة ثانية أو ثالثة ، وكان يخطر أمام عيني وفي ذهني كل شيء ، من أرقى التراجيديات إلى أكثر ضروب التمثيل المُعاد ابتذالاً ومثلما تجرأت وأنا طفل على تقليد تيرينتس (Terenz) فقد كان من الأجدر بي ألاّ أقصر وأنا غلام في تكرار الأشكال الفرنسية أيضاً بحسب قدرتي وعجزي ، بدافع ملّح أكثر حيوية إلى حد بعيد . وقد قُدِّمت في تلك الأيام مسرحيات نصفها أسطوريّ ونصفها مجازيّ رمزيّ بذوق بيرون ، وكان فيها شيء من المحاكاة الساخرة ، وقد لقيت كثيراً من الإعجاب . وقد أعجبتني بوجه خاص هذه العروض : الأجنحة الصغيرة الذهبية لمتقلب مرح ، وصاعقة جوبيتر المقنّع ، ودانا الماجنة ، أو ما يمكن أن يكون اسمَ

جميلةٍ كانت الآلهة تزورها ، ان لم تكن راعية أو صيّادة ، كانت الآلهة تتنزّل عليها . ولما كانت أمثال هذه العناصر تطنّ في رأسي من « تحولات » أوفيد و « البانتيؤون الأسطوري » لبوميه ، بصورة شديدة التواتر ، فانني سرعان ما ألّفت مثل هذه المسرحية في خيالي ، وهي مسرحية لاأستطيع أن أقول عنها إلاّ أنها ذات مشهد ريفيّ ، ولكن لم يكن ينقصها مع ذلك بنات الملك ، ولا الأمراء ، ولا الآلهة . وكان عطارد بوجه خاص حيّاً في ذهني إلى درجة أنني كنت على وشك أن أقسم أني رأيته بعينيّ .

وقد عرضت نسخة أنجزتها بصورة نقيّة جداً ، على صديقي ديرون فتقبّلها بلباقة خاصة تماماً ، وببشاشة المتفضّل حقاً ، وتصفّح المخطوط بصورة عابرة ، وأشار إلى بعض الأخطاء اللغوية عندي ، ووجد بعض الأحاديث أطول مما ينبغي أن تكون ، ووعد أخيراً بأن ينظر في العمل في وقت الفراغ الملائم نظرة أدقّ ويصدر حكمه عليه . ولدى سؤالي المتواضع هل يمكن تقديم المسرحية للعرض ، أكّد لي أن هذا ليس بالمستحيل أبداً ، وأن كثيراً من الأشياء يتوقف على الظرف المواتي ، وأنه سيدافع عني من كل قلبه ، إلاّ أنه لابد للمرء من أن يحفظ المسألة طيّ الكتمان ، لأنه فاجأ بنفسه الادارة ذات مرة بمسرحية من إعداده ، وقد كانت خليقة، بلاريب، أن تعرض لولا أنهم اكتشفوا في وقت مبكّر أكثر مما ينبغي أنه هو المؤلف ، ووعدته بكل صمت ممكن ، وجعلت أرى في ذهني عنوان مسرحيّ مثبتاً بحروف كبيرة على نواصي الشوارع وفي الساحات .

وبمقدار ما كان الصديق طائشاً آخر الأمر بدت له فرصة تمثيل دور الأستاذ مرغوبة للغاية ، فقرأ المسرحية باهتمام إلى النهاية ؛ وعلى حين جلس إليّ ليغيّر بعض الأمور الصغيرة ، قام في أثناء الحديث بقلب المسرحية كلها رأساً على عقب ، بحيث لم يبق حجر على حجر . وجعل يشطب ويضيف ، ويحذف شخصية ، ويستبدل بها أخرى ، وجملة القول إنه تصرّف بأشد ألوان العسف جنوناً في العالم ، حتى وقف شعر رأسي . وكان توهّمي بأنه لابد أن يفهم آخر الأمر قد تركني أتيح له ذلك : ذلك لأنه كان كثيراً ما حدثني من قبل حديثاً بالغ الاسهاب عن الوحدات الثلاث عند أرسطو ، وعن نظاميّة المسرح الفرنسي ، وعن المعقولية وتناغم الأبيات الشعرية وكل ما يتصل بذلك ، حتى كان لابد لي أن أرى أنه ليس مطلعاً فحسب ، بل متضلّعاً . وكان يوبّخ الانكليز ويزدري الألمان ، وجملة القول إنه ألقى عليّ مجمل المعزوفة الخاصة بالكتابة المسرحية والتي كان لابد لي أن أسمعها مكررة في حياتي في كثير جداً من الأحيان .

وأخذت معي ، كما فعل الفتى في الحكاية الأسطورية ، شهادة ميلادي الممزقة ، إلى البيت ، وجعلت أحاول إعادة صياغتها من جديد ، ولكن عبثاً . ولكن لمّا كنت لاأستطيع أن أتخلّى عنها تماماً ، فقد أوعزت إلى كاتبنا باعداد نسخة نظيفة من مخطوطي الأول بعد تغييرات طفيفة ، وقدمتها بعد ذلك إلى والدي ، وبلغت بذلك أنه ظل يتركني حيناً من الزمان بعد الفراغ من المسرحية أتناول طعامي بهدوء .

وقد جعلتني هذه التجربة غير الموفقة كثير التفكير . وصرت أريد الآن بوجه خاص أن أتعرّف على هذه النظريات ، وهذه القوانين التي

يعتمد عليها كل الناس ، والتي كانت قد أصبحت في نظري مشبوهة بصورة خاصة بسوء سلوك أستاذي المتطاول ، من ينابيعها بصورة مباشرة ، ولم يكن ذلك في الحقيقة عسيراً عليّ ولكنه غدا مجهداً وقرأت أولاً لكورني « مقالة في الوحدات الثلاث » وتبيّن لي من خلال ذلك كيف يريد الناس أن يبلغوا هذه ، أمّا لماذا كانوا يطلبونها على هذه الصورة ، فذلك ما لم يتضّح لي بحال من الأحوال ، على أن ما كان أشد الأمور سوءاً هو أنني وقعت في بلبلة أكبر حين تعرّفت على المنازعات حول « السيد » وقرأت المقدمات التي اضطر فيها كورني وراسين إلى الدفاع عن نفسيهما في وجه النقاد والجمهور . ورأيت هنا على الأقل ، وبأشدّ ما يكون الوضوح ، أنه ما من إنسان كان يعرف ماذا يريد ، وأن مسرحية مثل « السيد » التي أحدثت أروع الأثر ، كان ينبغي بصورة مطلقة أن تعلن رديئة بأمر كاردينال قادر على كل شيء ، وأن راسين ، معبود الفرنسيين الذين كانوا يعيشون في أيامي ، والذي أصبح الآن معبودي أيضاً (لأني كنت قد تعرفت عليه على نحو أوثق حين أوعز المستشار فون أولنشلاجر (٤) بتقديم مسرحية « بريتانيكوس » من قبلنا معشر الأطفال ، حيث كان من نصيبي دور نيرون) ، أقول إن راسين لم يكن يستطيع أن يتدبّر أمره ، في عصره أيضاً ، لا مَع عشّاقه ولا مع حكّام فنه . وبفعل هذا كله غدوت أكثر بلبلة من ذي قبل ، وبعد أن عذّبت نفسي وقتاً طويلاً بهذا الحديث جيئة وذهاباً ، وهذه الثرثرة النظرية من القرن الماضي ، اطرّحتها جانباً بخيرها وشرها ، وكنت أزداد تصميماً على نبذ كل هذه الأسمال عني كلما ازددت يقيناً أنني ألاحظ أن الكتاب أنفسهم ، أولئك الكتاب الذي أخرجوا أشياء رائعة ، كانوا حين يأخذون في الحديث عن ذلك ، وحين يريدون

أن يبينوا أساس سلوكهم ، وأن يدافعوا عن أنفسهم ، وأن يعتذروا ، ويجمّلوا ، لم يكونوا يصيبون النقطة الصحيحة . ومن أجل ذلك أسرعت إلى الموجود بصورة حية ، وجعلت أزور المسرح بنشاط أكثر إلى حد بعيد ، وأقرأ قراءة أكثر وجدانية ومثابرة ، حتّى بلغ من مواظبتي أنني درست في هذا الوقت راسين وموليير بصورة كاملة ، وجزءاً كبيراً من كورني (٥) .

وكان ممثل الملك ما يزال يقطن بيتنا ، ولم يكن قد غيّر شيئاً من سلوكه ، ولاسيما تجاهنا ، إلاّ أنه كان يلاحظ ، وقد عرف المترجم كيف يزيد هذا وضوحاً بعدُ ، أنه ما عاد يصرف أمور دائرته بطلاقة الوجه ، ولا بالنشاط كما كان في البداية ، على الرغم من أنه ما زال يلتزم الاستقامة والاخلاص ذاتهما . وذلك أن طبيعته وسلوكه اللذين كانا ينبئان عن اسبانيّ أكثر مما ينبئان عن فرنسي ، وألوان مزاجه التي كانت مع ذلك ضمن المؤثرات التي أثّرت في عمله ، وصلابته تجاه الظروف ، وتوفّز أعصابه تجاه كل ما يمس شخصه ، كل هذه الأمور معاً كان من شأنها بلاريب أن تدخله في صراع مع رؤسائه . وأضيف إلى ذلك أنه جرح في مبارزة نشبت في مسرح ، وأخذ الناس على ممثل الملك أنه أتى عملاً مستهجناً بنفسه وهو الرئيس الأعلى للشرطة . وكان في وسع هذا كله ، كما قلت ، أن يسهم في حمله على أن يعيش حياة أكثر عزلة وربما جعل هذا سلوكه هنا وهناك أقل نشاطاً .

وفي هذه الأثناء كان قد تم تسليم قدر كبير من الصور الزيتية المطلوبة . وكان الكونت تورانلك ينفق ساعات فراغه في تأمل هذه الصور ، إذ كان يوعز بتسميرها في الغرفة المذكورة ذات الجمالون .

صفاً صفاً ، بعضها إلى جانب بعض ، بصورة تزداد عرضاً أو ضيقاً ، بل كان يسمرها بعضها فوق بعض إذ كان يفتقر إلى المكان ، ثم ينتزعها من جديد ويدرجها . وكان يعاد البحث من جديد في الأعمال الفنية ، وكان يُسَرّ للمواضع التي كان يعدها ناجحة ولكن لم يكن يعدم تمنيات برؤية هذا أو ذاك قد أنجز على غير هذا النحو .

وقد نجم عن ذلك عملية جديدة وعجيبة تماماً . وذلك أن أحد الرسامين كان عمله أفضل ما يكون في الأشخاص ، والآخر في الخط الأرضي من اللوحة وخط الفرار (١) من اللوحة ، والثالث في الأشجار ، والرابع في الأزهار ، وعلى ذلك فقد انتهى الكونت إلى فكرة هل يستطيع المرء أن يوحّد هذه المواهب في الصور ويُخرِج ، على هذه الطريقة ، أعمالاً كاملة . وقد أنجزت البداية بأن أوعز بأن يُضاف على منظر طبيعي ناجز رسم قطعانٍ جميلة . ولكن لمّا كان المكان الملائم لذلك غير موجود دائماً ، ولم يكن من المهم عند رسّام الحيوان زيادة بضعة خراف أو نقصها ، فقد أصبح أكثر المناظر الطبيعية في نهاية الأمر أضيق مما ينبغي . وكان على رسام البشر الآن أن يضيف الرعاة أيضاً وبضعة متجوّلين ، وكان هؤلاء من جديد يبدون كأن بعضهم أخذ على بعضٍ أنفاسه ، وكان القوم يعجبون كيف أنهم لا يختنقون جميعاً في أكثر المناطق خلُوّاً ، ولم يكن في وسع المرء قطّ أن يتنبّأ ما سوف تكون عليه المسألة ، وكانت إذا انتهت لاترضي . واستاء الرسامون . فقد كانوا يربحون في الطلبات الأولى على حين كانوا يخسرون في

---

(١) تقسم اللوحة في عرف أهل الإختصاص إلى ثلاثة أقسام جبهية : خط الأرض وخط الأفق وبينهما خط الفرار . « المترجم »

هذه الأعمال اللاحقة ، على الرغم من أن الكونت كان يدفع بسخاء بالغ من أجل هذه أيضاً . ولما كانت الأجزاء المتداخلة بعضها في بعض ، والتي أسهم فيها عديدون في صورة واحدة ، لاتحدث مع كل الجهد ، أثراً مستحسناً ، فقد اعتقد كلٌّ منهم أن عمله قد أفسده وقضى عليه عمل الآخرين . ومن أجل ذلك قلّما كان يخلو الأمر من أن يختصم الفنانون في ذلك ، وأن يدخلوا في عداء لاسبيل معه إلى مصالحة . وكان يتم إنجاز أمثال هذه التغييرات ، أو بالأحرى ، الإضافات ، في المرسم المذكور ، حيث كنت أظل وحدي تماماً مع الفنانين ، وكان يسلّيني أن أختار من الدراسات ، ولاسيما من الحيوانات ، هذا الحيوان المفرد أو ذاك ، وهذه المجموعة أو تلك ، وأقترحها للقريب أو البعيد ، وكان القوم يستجيبون إلي في هذا الصدد عن قناعة ، أو مجاملة .

وإذاً فقد وقع المشتركون في هذا العمل في أقصى ضروب اليأس ولاسيما زيكاتس (١) ، وهو رجل مريض بالوهم جداً ، منطوٍ على نفسه ، كان يمتاز في الحقيقة بين الأصدقاء ، بسبب مزاجه المرح الذي لاينسى ، بأنه أفضل الجلساء ، ولكنه حين كان يعمل كان يريد أن يعمل وحده ، منكفئاً على نفسه ، وحراً كل الحرية . وكان على هذا الآن ، حين يتحرر من الواجبات الثقيلة ، ويكون قد أنجزها بأعظم نشاط ، وبأشد ما كان يقدر عليه من ألوان الحب حرارة على الدوام ، أن يسافر مرات متوالية من دارمشتات إلى فرانكفورت ، إمّا ليغيّر شيئاً في صوره الخاصة ، وإما ليجمع ويثبّت صوراً لغيره ، أو حتى ليدع صوره تتحوّل عن طريق رجل ثالث، وبمساندة منه، إلى صور ذات بقع ملوّنة وكان استياؤه يزداد ، وكانت مقاومته حاسمة، وكان في حاجة إلى جهود أكبر من جانبنا ــ لنوجه هذا النديم ــ إذ غدا هو أيضاً نديماً ــ

تبعاً لرغائب الكونت . وما زلت أذكر أنه حين كانت الصناديق جاهزة لتعبئة مجموع الصور بحسب النظام الذي يمكن به أن تحزم إلى مكان ارسالها إلى المغلّف ببساطة ، أقول إنه لم يكن مطلوباً عندها إلاّ عمل تكميلي صغير ، ولكن لابدّ منه ، ولكن لم يكن من الممكن دفع زيكاتس إلى المجيء إلى الجانب الآخر . وكان قد أدّى ، بالطبع ، أفضل ما يقدر على أدائه ، آخر الأمر ، إذ صوّر العناصر الأربعة (١) في الأطفال والفتيان ، بحسب حياتهم ، في قطع مجتزأة مكبّرة ، وبذل أقصى الجهد ، لا في الأشخاص فحسب ، بل في الأعمال الجانبية التابعة . وكانت هذه مسلّمةً ، مدفوعة الأجر ، وقد اعتقد أنه قد فرغ من هذه المسألة إلى الأبد . ولكن كان عليه الآن أن يأتي من جديد لتوسيع بعض الصور التي كانت مقاييسها قد أُخِذت أصغر مما ينبغي إلى حد ما ، بقليل من ضربات الفرشاة . وقد اعتقد أن في وسع امريء آخر أن يفعل ذلك ، وكان قد تأهّب لعمل جديد ، وأبى القدوم . وكانت الشحنة أمام الباب ، وكان مازال عليه أن يجفّفها . وكان أي تأخّر يسبب الحرج . وهمّ الكونت ، في يأسه ، أن يأتي به بالقوة العسكرية . وكنا نتمنى جميعاً أن نرى الصور مشحونة . ولم نعلم آخر الأمر إلاّ أن النديم المترجم قعد في عربة وجاء بالرجل الجموح مع زوجته وأطفاله ، وقد أطلق الكونت سراحه بعد أن استقبله استقبالاً حاراً ، وأحسن رعايته ، وأغدق عليه الهبات آخر الأمر .

وبعد الصور المشحونة خيّم سلام كبير في المنزل ، وتم تنظيف الحجرة ذات الجمالون في السقيفة وأعطيت لي . أمّا والدي فلم يستطع ، وهو يرى الصناديق تُشحَن ، أن يقاوم رغبته في أن يرسل في طلب الكونت . إذ أنه على قدر ما كانت نزعة الكونت تتطابق مع نزعته .

كان لابد لأبي أن يقرّ عيناً بأن يرى مبدأه القائل برعاية أساتذة الفن الأحياء ، يجري تطبيقه من قبل غنيّ على نحو مثمر جداً ، وكان من الممكن بالقدر ذاته أن يدغدغ مشاعره أنّ مجموعته قد أعطت حافزاً هيّأ لعدد من الفنانين الطيبين في وقت عصيب كسباً مرموقاً للغاية : ولكنه كان يشعر مع ذلك بذلك النفور من الغريب الذي اقتحم عليه منزله ، وهو نفور ما كان ليظهر حقاً في تصرفاته . إنما ينبغي للمرء أن يتيح للفنانين العمل ، ولكن لاينبغي له أن ينزل بهم إلى مستوى رسامي السجاجيد . وينبغي للمرء أن يكون راضياً بما يؤدونه حسب قناعتهم ومقدرتهم وان لم تكن نفسه مرتاحة إليه من أعماقها ، وألاّ يجادل ولا يُحَرِّج دائماً ، وعلى الإجمال فلم يكن يوجد موقف ثابت ، بصرف النظر عن جهد الكونت الخاص المتحرر . ولم يكن والدي يزور تلك الحجرة إلاّ حين يكون الكونت جالساً إلى المائدة ، وأنا أذكر مرة وحيدة تجاوز فيها زيكاتس حدوده وأثار طلبُه رؤيةَ هذه الصور عاصفةً في البيت ، حتى التقى أبي والكونت وأظهرا أمام هذه الأعمال الفنية إعجاباً مشتركاً لم يكونا يستطيعان أن يظهراه كلٌ منهما حيال الآخر .

وإذاً فلم تكد العُلب والصناديق تبارح المنزل حتى استؤنف العمل الذي سبق التمهيد له ولكنه انقطع ، وهو العمل على إخراج الكونت . وكانوا يسعون بالالتماسات إلى الظفر بالعدالة ، وبالرجاء إلى الإنصاف ، وبالنفوذ إلى استمالة القوم . وانتهوا بذلك آخر الأمر إلى أن اتخذ السادة المسؤولون عن الايواء قراراً بأن يغيّر الكونت مسكنه ، وأن يعفى منزلنا في المستقبل من الإيواء بالنظر إلى العبء الذي احتمله منذ بعض

السنين ، بغير انقطاع ، ليلاً ونهاراً . ولكن ينبغي ، من أجل إيجاد حجة ظاهرية في هذا الصدد ، قبول مستأجرين في الطابق الأول ذاته الذي كان يحتله حتى الآن ممثل الملك ، مما يجعل الإيواء من جديد في حكم المستحيل . على أن الكونت الذي ما عاد يحس باهتمام خاص بمنزلنا بعد انفصاله عن لوحاته الحبيبة ، كما كان يأمل على كل حال أن يُستدعى ويُنقل ، احتمل ، بغير معارضة ، طلبَ مسكنٍ جيد آخر وفارقنا بسلام وبصورة طوعية . ثم إنه سرعان ما غادر المدينة بعد ذلك وأسندت إليه مسؤوليات مختلفة على مراحل ، على أن ذلك لم يكن باعثاً للرضى عنده ، كما كان الناس يسمعون . وكان في هذه الأثناء يستمتع برؤية تلك اللوحات التي تولّى أمرها بنشاط فائق ، والتي جاء بها إلى قصر أخيه (١) بصورة موفّقة . وقد كتب بضع مرات ، وكان يبعث بالمقاييس يوعز إلى الفنانين الأكثر شهرة بنسخ أشياء مختلفة . وفي النهاية ما عدنا نسمع عنه شيئاً سوى أن الناس دأبوا ، بعد عدد من السنين على توكيد أنه مات في جزر الهند الغربية (٢) ، وهو حاكم لإحدى المستعمرات الفرنسية .

* * *

الكتـاب الرابع

وعلى الرغم من كثرة ما سببت لنا الإقامة الفرنسية من إزعاج فقد كنا أكثر اعتياداً لها من ألاّ نفتقدها ، ومن ألاّ يبدو البيت لنا معشر الأطفال ميتاً . ثم إنه لم يكن مقدَّراً لنا أن نعود من جديد إلى الوحدة العائلية الكاملة . وكان قد جرى الحديث عن مستأجرين جدد . وبعد شيء من الكنس والمسح والصقل وتلميع الأرضية والتبييض والطلاء أعيد إصلاح الدار من جديد بصورة كاملة . وانتقل إلينا رئيس الديوان (١) ، موريتس مع أهله ، وهم أصدقاء أعزاء لوالديّ ، وكان هذا الحقوقيّ البارع ورجل الأعمال يرعى الشؤون القانونية لعدد من صغار الأمراء والأدواق والأشراف ، ولم يكن من مواليد فرانكفورت . ولم أره قط إلاّ مشرق الأسارير ظريفاً ، مكبّاً على ملفّاته . وكانت زوجته وأطفاله يتسمون بالرقة والهدوء والدماثة . والحق أنهم لم يزيدوا بيتنا أنساً ، لأنهم كانوا يظلون وحدهم . ولكن كان هناك هدوء ، بل سلام عائد لم نستمتع به دهراً طويلاً . وعدت إلى السكن في حجرتي بالسقيفة التي كانت أشباح الكثير من الصور الزيتية تحوم حواليّ فيها أحياناً ، وكنت أحاول أن أطردها بالأعمال والدراسة .

وكان مستشار السفارة ، موريتس (٢) ، وهو أخ لرئيس الديوان ، يتردد منذ الآن كثيراً على منزلنا ، وكان أقرب إلى رجال الدنيا ، ذا

قامة مهيبة ، وكان مع ذلك ذا سلوك ظريف رشيق . وكان هو أيضاً يتولّى شؤون شخصيات مختلفة من ذوي المكانة ، وكان يحتكّ بأبي كثيراً بمناسبة التفليسات وبدواعي اللجان الامبراطورية . وكان كلاهما يقدّر الآخر كثيراً ، ويقفان معاً إلى جانب الدائنين ، ولكن كان لابد لهما أن يعرفا ما يثير استياءهما في العادة ، وهو أن أكثرية الوكلاء في مثل هذا الشأن دأبت على الانحياز إلى جانب المدينين . وكان مستشار السفارة يسرّه أن يدلي بمعلوماته ، وكان من هواة الرياضيات ، ولمّا كانت هذه المادة لاترد البتّة في مسار حياته الراهن ، فقد كان يستمتع بمساعدتي على التقدم في هذه المعلومات . وبذلك وصلت إلى حالة مكّنتني من معالجة رسومي الهندسية بدقة أكثر من ذي قبل ، والاستفادة من تعليم معلم للرسم كان يدربنا الآن ساعة في كل يوم ، بصورة أفضل .

وكان هذا الرجل الشيخ الطيب (١) مجرد نصف فنان بالطبع . وكان علينا أن نخطّ خطوطاً ، ونؤلّف بينها ، حيث يفترض أن ينشأ عنها عيون وأنوف ، وشفاه وآذان ، بل وجوه ورؤوس كاملة آخر الأمر . ولكن لم يكن يُراعى في ذلك لاشكلٌ طبيعيّ ولاشكل فنيّ . وكنا نُعذّب حيناً من الزمان بهذا الخلط الملتبس بين الهيئات البشرية ، واعتقد الأهل أنهم قد دفعوا بنا آخر الأمر إلى الأمام بعيداً جداً حين كُلِّفنا بمحاكاة ما يسمى انفعالات ليبران (٢) ، ولكن هذه الصور التشويهية لم تدفع بنا إلى الأمام . فجنحنا الآن إلى المناظر الطبيعية ، وإلى كسوة الشجر (٣) وإلى كل الأشياء التي تظل تمارس في التعليم المألوف بغير نتيجة وبدون منهج . وأخيراً وصلنا إلى المحاكاة الدقيقة ونظافة الخطوط بدون أن نحفل فوق ذلك ، بقيمة الأصل أو بنكهته .

وفي صدد هذا المطمح كان الوالد يبادرنا بطريقة انموذجية . ولم يكن قد رسم قط من قبل ، ولكنه لم يرد أن يتخلّف حين كان أبناؤه يمارسون هذا الفن ، بل أراد أن يعطيهم ، حتّى في سنّه هذه مثالاً يبيّن كيف ينبغي لهم أن يتصرّفوا في صباهم . فكان ينسخ بضعة رؤوس للرسام بيازيتّا (٤) ، بأوراقه المعروفة ، في مجموعات ثُمانيّة صغيرة ، بقلم الرصاص الانكليزي ، على أرقّ ورق هولندي ، ولم يكن يراعي في ذلك أقصى درجات النظافة في المعالم فحسب ، بل كان يقلّد التظليل في النقوش بأدق طريقة ، وذلك بيد خفيفة ، وبهدوء بالغ ، إذ لم يكن يحدث توقفاً في أوراقه لأنه كان يريد أن يتجنّب الحِدّة ومع ذلك فقد كانت بالغة الرقة والتجانس . وقد بلغ من نشاطه الدائم الذي لايعتريه الكلال أنه أنجز رسم كل المجموعة المرموقة تبعاً لكل أرقامها ، على حين كنا نحن معشر الأطفال نقفز من رأس إلى آخر ، ولانختار إلاّ ما يعجبنا .

وفي هذا الوقت تم تطبيق المبدأ الذي كان موضع التشاور منذ عهد بعيد وهو تعليمنا الموسيقا (١) . على أن الحافز الأخير إلى ذلك يستحق في الحقيقة بعض الذكر . أمّا أنه كان ينبغي لنا أن نتعلم البيانو فقد كان ذلك أمراً مفروغاً منه . غير أننا كنا في نزاع دائم حول اختيار الأستاذ . وفي النهاية أدخل ذات مرة بطريق المصادفة حجرة أحد أترابي الذي كان يتلقى حصة من حصص البيانو وأجد المعلم رجلاً بالغ الظرف تماماً ، إذ اتخذ لكل إصبع من اليمين واليسار لقباً يبيّن به ، بأظرف أسلوب ، متى ينبغي أن يستعمل . وكذلك تسمّى الأصابع السود والبيض تسمية مجازية . بل ان الألحان ذاتها

تظهر بأسماء رمزية . ثم يعمل مثل هذا الفريق الملوّن بمتعة كبيرة ، متداخلاً بعضه في بعض . ويبدو أن العزف على الأصابع وتوقيع اللحن يغدوان سهلين ومتجسّدين . وبينما يُستثار التلميذ بأفضل ضروب الفكاهة ، يسير كل شيء أيضاً بأجمل طريقة .

ولم أكد أبلغ البيت حتى توسّلت إلى والديَّ أن يأخذا الأمر الآن مأخذ الجد وأن يقدما إلينا هذا الرجل الذي لاينسى ، أستاذاً للبيانو . وترددا بعض التردد ، واستعلما عنه . ولم يسمعا في الحقيقة شيئاً مستهجناً عن المعلم ، ولكنهما لم يسمعا أيضاً شيئاً مستحسناً بصورة خاصة . وكنت قد سردت لأختي كل التسميات المضحكة ، وكنا لانكاد نستطيع انتظار الدرس ، في هذه الأثناء ونجحنا في سعينا إلى أن يقبل الرجل .

وبدأت قراءة النوتات أولاً . وحين لم يرد في ذلك فكاهة جعلنا نعلل النفس بالأمل في أننا حين ننتقل إلى البيانو ونصل إلى الأصابع ، فستجد الروح الفكاهية منطلقها ، ولكن كان يبدو أنه لا الإصبع ، ولا وضعيّة الاصبع يتيحان فرصة لشيء من هذا القبيل . وظلت الأصابع السود والبيض كذلك جافّة كالنوتات بعلاماتها فوق السطور وفيما بينها ، ولم يسمع بحرف واحد لا عن الرجل بطول الإبهام ولا عن القضيب المؤشر ، ولا عن الإصبع الذهبي ، وقلّما كان الرجل يبدّل ملامح وجهه في تعليمه الجاف ، مثلما كان يفعل من قبل في الفكاهة مع الموضوع الجاف . وجعلت أختي تنحي عليّ باللائمة المتناهية في مرارتها ، لأنني خدعتها ، واعتقدت بالفعل أن الأمر لايعدو أن يكون اختراعاً منّي . ولكني كنت أنا نفسي مخدَّراً ولم أكن أعلم أكان الرجل يؤدي عمله على نحو أصولي بالدرجة الكافية : ذلك لأنني كنت ما أزال أنتظر أن تظهر النكات السابقة . وأعلِّل أختي من يوم إلى آخر ، ولكنها ظلت مفتقدة . وما كنت لأستطيع ان افسر لنفسي هذا اللغز قط لولا أن شيئاً كالمصادفة حله .

وذلك أن أحد أترابي دخل ، في وسط الحصّة ، وانفتحت مرة واحدة كل قنوات ينبوع الفكاهات الفوّار ، وانبعثت مرة واحدة عُقَل الأصابع والقضبان المؤشرة ، والدّبّاب ولوحة الشطرنج ، كما اعتاد أن يكنّي عن الأصابع . و بالفويئات و الجويئات ، كما اعتاد ، مثلاً أن يسمي العلامتين F و G ، بالفُوَيْئات والجُوَيْئات ، كما كان يسمي العلامات (في) و (جي) ، وجعلت قنوات هذا الينبوع تصنع من ذلك أعجب الأقزام . ولم يكن صديقي الصغير يفارقه الضحك ، وكان يسرّه أن يستطيع المرء أن يتعلم كل هذا القدر بمثل هذه الطريقة المضحكة . وأقسم ألاّ يدع أبويه يقرّ لهما قرار إلى أن يقدما إليه مثل هذا الرجل الممتاز معلّماً .

وهكذا انفتح لي ، حسب مبادىء نظرية جديدة في التربية ، الطريق إلى فنّيْن في وقت مبكر بدرجة كافية ، وذلك بمجرد الحظ ، لا عن اقتناع بأن موهبة فطرية يمكن أن تدفع بي إلى الأمام في هذا الصدد . وكان والدي يزعم أنه لابد لكل امرىء أن يتعلم الرسم ، ومن أجل ذلك كان يمجّد بصورة خاصة الامبراطور مكسيميليان الذي يقال إنه أمر بهذا على نحو صريح . على أنه كان يحملني على ذلك بجدٍّ أكثر مما كان يحملني على الموسيقا التي كان بالمقابل يوصي بها أختي بالدرجة الأولى ، بل كان يكرّس لها عدا ساعات تعليمها وقتاً كبيراً من النهار على البيانو .

ولكني كنت كلما ازددت اندفاعاً إلى العمل بهذه الطريقة ازددت رغبة في ممارستها ، بل كانت ساعات الفراغ ذاتها تستعمل لأشغال طريفة شتّى . وكنت أشعر منذ أول أيامي بدافع إلى البحث تجاه الأشياء

الطبيعية ؛ وكان الناس في بعض الأحيان يفسّرون بالاستعداد للقسوة أن يعمد الأطفال إلى مثل هذه الأشياء التي لعبوا بها حيناً من الزمان وعالجوها على نحو يختلف من حين إلى آخر ، إلى تقطيع أوصالها وتمزيقها وتفتيتها في آخر الأمر ، ومع ذلك فقد اعتاد الفضول أيضاً أن يكشف بهذه الطريقة عن الرغبة في أن يعرف كيف تترابط مثل هذه الأشياء ، وكيف تبدو من الداخل . وأنا أذكر أني كنت وأنا طفل أتلف الأزهار بالقطف لأرى كيف كانت الوريقات تنغرس في الكأس ، أو أنتف ريش الطيور ، لألاحظ كيف كانت الريشات تنغرس في الجناحين . ولاريب أنه لالوم على الأطفال في هذا طالما أن الباحثين في الطبيعة أنفسهم يعتقدون أنهم يتعلمون بطريق التفكيك والفصل أكثر مما يتعلمون بطريق الجمع والضمّ ، وعن طريق القتل أكثر مما يتعلمون عن طريق الإنعاش .

وكان لابدّ لحجر مغناطيسي مغلّفٍ بحافظة (١) ، مخيطٍ ضمن قماش قرمزي مزخرف جداً ، أن يشهد أيضاً ذات يوم مفعول مثل هذا الحب للبحث . ذلك لأن هذه الجاذبية الخفية التي لم يكن يمارسها تجاه قضبان الحديد الصغيرة الملائمة له فحسب ؛ بل كانت فوق ذلك من نوع يجعلها تستطيع أن تشتدّ قوةً ، كانت تحمل وزناً يتعاظم من يوم إلى يوم ، وقد اندفعت في إعجابي بهذه المزيّة إلى درجة أنني لبثت زمناً طويلاً أرتضي مجرد النظرة المندهشة إلى مفعولها . ولكنني اعتقدت آخر الأمر أنني قد وصلت إلى بعض الإيضاحات الأكثر تفصيلاً حين فصلت الغلاف الخارجي . وقد حدث هذا دون أن أفيد منه علماً ؛ لأن الحافظة العارية لم تعلمني مزيداً ، فنَضَوْتُ هذه أيضاً ، وتلقيت الآن الحجر العاريّ بيدي ، ولم يكن يعتريني الكلال من القيام بتجاريب

شتى ببرادة الحديد وإبر الخياطة . على أن ذهني الناشيء لم يخرج من ذلك بطائل سوى بعض الخبرة المعقدة . ولم أعرف كيف أعيد تركيب هذه التركيبة كلها ، وتناثرت الأجزاء ، وفقدت الظاهرة البالغة الأهمية (٢) على الفور ، مع الجهاز .

ولم أكن بأسعد حظاً في تركيب آلة كهربائية (٣) . وذلك أن صديقاً للعائلة صادف صباه الأيام التي كانت الكهرباء فيها تشغل كل العقول ، كان كثيراً ما يحدثنا كيف كان يتمنى وهو غلام لو حاز على مثل هذه الآلة ، وكيف راعى الشروط الرئيسية وحقق نتائج كبيرة بالاستعانة بمغزل يدوي قديم وبعض قطع الزجاج الطبية . ولما كان يسرّه أن يعيد علينا ذلك ، ويكثر منه ، ويعلمنا مع ذلك علم الكهرباء بصورة عامة فقد وجدنا ، معشر الأطفال ، هذه المسألة قابلة للتصديق جداً ، وجعلنا نعذّب أنفسنا بمغزل يدوي قديم ، وبعض قطع الزجاج الطبية ، زمناً طويلاً ، دون أن نستطيع تحقيق أدنى مفعول . وتمسّكنا على الرغم من ذلك ، بهذا الإيمان ، وسررنا سروراً بالغاً حين كان بين الطرائف الأخرى في وقت المعرض فنون سحرية وفنون من ألعاب الجيب ، وكان مع ذلك آلة كهربائية تؤدي أعمالها الفنية التي كانت في ذلك الزمان شائعة جداً ، كالمغناطيسية .

وكان سوء الظن تجاه التعليم العام يزداد من يوم إلى يوم ، وكان الناس يلتمسون الأساتذة الخصوصيين ، ولما كانت الأسر المنفردة لاتستطيع احتمال النفقات فقد تجمّعت عدة أسر لبلوغ هذا القصد ، غير أن الأطفال قلما كان يحتمل بعضهم بعضاً ، ولم يكن للشابّ سلطة كافية . وبعد أن تواتر الاستياء كثيراً لم يكن هناك إلاّ حالات انفصال

تنطوي على الحقد ، ولذلك فلا عجب في أن الناس جعلوا يفكرون في مؤسسات أخرى كان يفترض أن تكون أكثر ثباتاً بمقدار ما هي أكثر نفعاً .

وقد انتهى القوم إلى فكرة إنشاء فنادق عائلية عن طريق الضرورة التي كان كل امريء يحس بها ، وهي أنه لابد من تعليم اللغة الفرنسية ونقلها إلى الأجيال بصورة حيّة . وكان أبي قد ربّى شاباً كان يعمل عنده خادماً عادياً وخادماً شخصياً وأميناً للسر ، وكان على الإجمال كل شيء بالقياس إليه ، وكان هذا ، واسمه بْفايل (١) ، يتقن الحديث بالفرنسية ويفهمها فهماً عميقاً ، وبعد أن تزوج ، وكان لابد لأولياء نعمته أن يؤمنوا له مركزاً مضموناً ، وقعوا على فكرة الإيعاز إليه بانشاء فندق عائلي جرى توسيعه شيئاً فشيئاً فتحول إلى مؤسسة تعليمية صغيرة كانوا يعلّمون فيها كل ما هو ضروري ، بل كانوا يعلمون في آخر الأمر اللاتينية واليونانية . وكانت الروابط التجارية في فرانكفورت تتيح الفرصة لأن يُعهَد بالفرنسيين والانكليز الشباب إلى هذه المؤسسة ليتعلموا الألمانية ويستكملوا ثقافتهم فيما عدا ذلك . وقد نهض بفايل ، الذي كان رجلاً في أفضل سنيّ عمره ، يتمتع بأعجب ضروب الطاقة والنشاط ، بعبء هذا كله على نحو جدير بالثناء جداً ، ولما كان لايشبع قط من العمل ، فقد كان يزجّ بنفسه في بعض المناسبات ، في الموسيقا ، إذ كان لابد له أن يؤمّن لتلاميذه أستاذاً في الموسيقا . وكان يمارس العزف على البيانو بهمة بلغ منها أنه صار يعزف بسرعة كبيرة عزفاً بارعاً وسليماً تماماً وهو الذي لم يسبق له قط أن لمس إصبعاً للبيانو . وكان يبدو أنه تقبّل مبادىء والدي التي تقول

إنه لاشيء يمكن أن يبعث البهجة في نفوس الأحداث ويثير همتهم مثل أن يعلن المرء نفسه ، في سنوات معينة ، تلميذاً من جديد ، وأن يحاول في سن ٍ يصعب على المرء فيها جداً أن يكتسب مهارات جديدة ، أن يحرز مع ذلك ، بالجد والمثابرة ، قصب السبق على الأحداث ، وهؤلاء هم المتمتعون بمزيد من الحُظوَة من قبل الطبيعة .

وعن طريق هذا الميل إلى العزف على البيانو تهيّأ لبفايل مدخل إلى الآلات الموسيقية ذاتها ، وبينما كان يأمل أن يؤمّن أفضلها ، دخل في علاقات مع فريدريتشي في جيرا التي كانت آلاتها الموسيقية ذات شهرة واسعة عريضة ، فأخذ عدداً منها في حالة صالحة للاستعمال ، وغدا يستمتع الآن بأن يرى عدة أجهزة بيانو كبيرة ، لاجهازاً واحداً ، تقام في مسكنه ليتمرّن عليها ويُسمِع الناس .

وكذلك أدخلت حيوية هذا الرجل إلى بيتنا أيضاً ممارسة أكبر للموسيقا . وظل أبي معه على علاقة جيدة دائمة حتى في النقاط المثيرة للجدل . كما تم تدبير بيانو كبير لنا أيضاً من قبل فريدريتشي ، وكنت قلّما أمسّه إذ كنت ألزم بياني ، على أنه تحوّل إلى عذاب كبير لأختي ، إذ كان عليها أن تعكف على تمارينها مَزيداً من الوقت في كل يوم قياماً بحق الآلة الجديدة ، حيث كان يقف إلى جانبها أبي مشرفاً ، وبفايل قُدوَةً وصديقاً عائلياً مشجّعاً .

وثمة هواية خاصة لأبي سبّبت لنا معشر الأطفال كثيراً من الإزعاج . وكانت هذه تربية دود القز (١) التي كان يرى لها نفعاً كبيراً إذا ماانتشرت بصورة أعمّ . وقد جاءه الحافز الأول إلى ذلك من بعض معارفة في

هاناوْ حيث كان القوم يمارسون تربية الدود بعناية كبيرة . ومن هناك كانت البيوض ترسل إليه في الوقت المناسب ، وبمجرد أن تظهر أشجار التوت أوراقاً كافية كانوا يدعونها تفقس ، وينتظرون المخلوقات التي لاتكاد ترى ، بعناية كبيرة ، وكانت منصّات ورفوف قد نصبت في حجرة بالسقيفة لتتيح لها مزيداً من المجال والرعاية : لأنها كانت تنمو بسرعة ، وكانت بعد الانسلاخ الأخير تجوع جوعاً شديداً لايكاد المرء يستطيع معه أن يؤمن لها ما يكفيها من الأوراق لتغذيتها : أجل فقد كان لابد من تقديم العلف إليها نهاراً وليلاً لأن كل شيء يترقف على ألاّ تفتقر في وقت ما إلى الغذاء حيث يفترض أن يحدث فيها التحوّل الكبير الرائع . فاذا ماكان الطقس ملائماً أمكن للمرء بالطبع أن ينظر إلى هذا العمل على أنه تسلية ممتعة ، ولكن إذا حلّ البرد حتى عانت منه أشجار التوت فقد حلّت محنة كبيرة . ولكن الأمر كان يزداد إزعاجاً حين ينزل المطر في الفترة الأخيرة ، لأن هذه المخلوقات لاتستطيع أن تحتمل الرطوبة على الإطلاق ، وعلى هذا كان لابد من مسح الأوراق المبلّلة وتجفيفها بعناية ، وهو الأمر الذي لايمكن أن يتم دائماً بهذه الدقة . ولهذا السبب ، أو ربما لسبب آخر كانت تظهر أمراض شتى بين القطعان فتكتسح المخلوقات البائسة بالآلاف . وكانت العفونة الناجمة عن ذلك تثير رائحة كرائحة الطاعون حقاً ، ولما كان لابد للمرء أن يبعد الميتة والمريضة ويعزلها عن السليمة لمجرد إنقاذ بعضها فقد كان ذلك في الواقع عملاً ثقيلاً ومنفّراً إلى أقصى الحدود ، وكان يهيء لنا معشر الأطفال ساعات فظيعة .

وبعد أن قضينا ذات عام أجمل أسابيع الربيع والصيف في انتظار دود القزّ كان علينا أن نساعد أبانا في عمل آخر لم تكن وطأته علينا بأقل من ذاك على الرغم من أنه أكثر بساطة ، وذلك أن المناظر الرومانية (١) التي ظلت بضع سنين معلّقة على الجدران في البيت القديم تحفّ بها قضبان سود من أعلاها ومن أسفلها ، كانت قد اصفرّت جداً بفعل الضوء والغبار والدخان ، وأصابها قدر غير قليل من الكُدْرَة والشحوب . ولما كانت مثل هذه القذارة غير مسموح بها في البيت الجديد فقد زادت قيمة هذه الصور عند أبي ، بابتعاده الطويل عن المناطق المصوّرة . ذلك لأن أمثال هذه التصاوير تفيدنا في إنعاش الانطباعات المتلّقاة منذ أمد قريب ، وفي بعث الحياة فيها ، وهي تبدو لنا ضئيلةً أمام هذه وفي معظم الأحيان مجرد بديل بائس . وإذا ما انطفأت ، في مقابل ذلك ، ذكرى الصور الأصيلة بصورة مطردة الزيادة حلّت التصاوير المأخوذة عنها محلّها دونما شعور وتغدو عزيزة علينا مثلما كانت تلك الصور ، ويكتسب ما ازدريناه في البداية تقديرنا وإيثارنا . وهذا مآل كل التصاوير ، ولاسيما صور الأشخاص . فليس من السهل أن يرضى المرء عن صورة معاصرة ، على حين يكون كل خط من خطوط الظلال لأحد الغائبين أو حتى الراحلين ، على مايرام .

وجملة القول أن أبي كان يريد ، وهو في غمرة هذا الشعور بتبذيره حتى الآن ، أن يرى تلك النقوش وقد أعيدت صياغتها قدر الإمكان . وكان من المعروف أن هذا ممكن عن طريق القَصْر . وكانت هذه العملية المثيرة للقلق دائماً مع الأوراق الكبيرة ، تجري في ظروف غير مواتية إلى حد بعيد . ذلك لأن الرفوف الكبيرة التي كان يجري عليها ترطيب

النحاس الذي يغشّيه الدخان وتعريضه للشمس ، كانت تنتصب في مواجهة نوافذ السقيفة ، في ميازيب السطح ، وهي مستندة إلى السطح ، وكانت لذلك معرّضة لبعض الحوادث . وكانت المسألة الرئيسية في هذا الصدد أنه لايجوز قط أن يجفّ الورق ، بل كان لابد من المحافظة على رطوبته دائماً . وقد توليت هذه الوظيفة أنا وأختي ، حيث انتهت بنا قعدة البيت التي كانت في العادة محبّبة جداً ، إلى أن تكون من أشد ألوان العذاب ، وذلك بسبب الملل ونفاذ الصبر والانتباه الذي لم يكن يتيح لنا تسلية . وعلى كل حال فقد تم تنفيذ المسألة وعَمِل المُجلِّد الذي كان يبسط كل ورقة على الورق المقوّى ، مافي وسعه لترميم الحوافّ الممزّقة هنا وهناك باهمالنا ، واصلاحها ، وضمّت مجموع الأوراق في مجلّد واحد ، وتم انقاذها هذه المرة .

ولكيلا يفوتنا معشر الأطفال شيء من أفانين الحياة وألوان الدرس المختلفة ، كان لابد في هذا الوقت بالذات ، أن يتقدم إلينا أستاذ في اللغة الانكليزية (١) التزم بأن يعلّم كلَّ امريءٍ من أولئك الذين ليسوا بالأغرار تماماً في اللغات ، اللغةَ الانكليزية في أربعة أسابيع ، وأن يبلغ به إلى المدى الذي يستطيع عنده أن يتولى أمره بنفسه وكان يتقاضى أجراً معتدلاً ، ولم يكن يحفل بعدد التلاميذ في الحصة الواحدة . وقرر أبي على الفور أن يقدم على التجربة . وأخذ يتلقّى الدرس معي ومع أختي على يد الأستاذ السريع ، وكانت الحصص تُؤَدّى بأمانة ، كما لم يكن هناك تقصير في المراجعة ، وتجاوزنا الأسابيع الأربعة ببعض التمارين الأخرى ، وفارَقَنا الأستاذ وفارقْناه بسرور . ولما كان أقام في المدينة مدة أطول ، ووجد كثيراً من الزبائن ، فقد كان يختلف إلينا من حين إلى آخر ليتفقّد أحوالنا ويساعدنا وهو ممتنّ لنا إذ كنا من أوائل أولئك الذين محضوه الثقة ، وفخورٌ بأنه يستطيع أن يتخذ منا أنموذجاً للآخرين .

ونتيجة لهذا أبدى أبي اهتماماً جديداً بأن تظل الانكليزية تحتل مكانة لائقة في سلسلة الاشتغال باللغات . على أني أقر بأنه كان ممّا يثقل عليّ بصورة مطردة أن أتخذ الحافز لأعمالي من هذا الكتاب النحوي أو مجموعة الأمثلة حيناً ، ومن ذاك حيناً آخر ، ومن هذا المؤلف تارة ، ومن ذاك تارة أخرى ، وأن أرتّب حصتي من الموضوعات مع الساعات على الفور في بطاقات . ولذلك انتهيت إلى فكرة إلغاء كل شيء واخترعت رواية فيها ستة اخوة (١) إلى سبعة ، ابتعد بعضهم عن بعض ، وتفرقوا في أرجاء الأرض ، وهم يتبادلون الأخبار عن أحوالهم وأحاسيسهم . فالأخ الأكبر يروي بلغة ألمانية جيدة أموراً وأحداثاً شتّى من رحلته . وترد الأخت عليه بعد قليل ، بأسلوب الخادمة ، ببضع نقاط وجمل قصيرة ، مثلما كتبت بعد ذلك «زيجفارت (٢)» تقريباً ، ثم ترد بُعيْد ذلك على الأخوة الآخرين بما لديها مما ترويه عن الأحوال المنزلية من ناحية ، وعن شؤون القلب من ناحية أخرى . وثمة أخ يدرس اللاهوت ، ويكتب بلغة لاتينية تقليديّة جداً يضيف إليها في بعض الأحيان تذييلاً باللغة اليونانية . وبالطبع فقد كانت المراسلة الانكليزية من نصيب أخ تالٍ في هامبورج عُيِّن عاملاً في محل تجاريّ ، مثلما كانت الفرنسية من نصيب أخ أصغر استقر في مرسيليا . أما الايطالية فقد ارتضى بها موسيقي في رحلته الأولى في أنحاء العالم ، وأما الأصغر ، وهو نوع من مدلّلي العائلة الفضوليين فكان قد أكبّ على الألمانية اليهودية إذ كانت سائر اللغات منقطعة عنه ، وانتهى بالآخرين إلى اليأس بألغازه المفزعة ، وبوالديه إلى الضحك من خاطرته المستحسنة .

وبحثت لنفسي عن شيء من المضمون لهذا الشكل الرائع وذلك بأن درست جغرافية المناطق التي أقامت فيها المخلوقات التي اخترعتها وأضفت

إلى تلك الأماكن الجافة اختراع جوانب إنسانية شتّى كان لها بعض الصلة بشخصية الأفراد وعملهم . وبهذه الطريقة أصبحت كراريس التمارين عندي أضخم كثيراً ، وسرّ أبي ، وكنت أكثر معرفة بما كان ينقصني من زادٍ خاص ومهارات .

ومثلما كانت أمثال هذه الأشياء إذا مضت في طريقها لاتعرف نهاية ولاحدوداً ، فكذلك كان الحال هنا : لأنني حين كنت أحاول أن اكتسب اللغة الألمانية اليهودية (١) الغريبة وأن أكتب بها بمثل الجودة التي كنت أستطيع بها قراءتها ، وجدت بعد قليل أنني كنت أفتقر إلى معرفة العبريّة التي لايمكن اشتقاق العبرية الحديثة والفاسدة المشوّهة ومعالجتها بشيء من الثقة ، إلاّ منها وبها . ولذلك صارحت والدي بضرورة تعلّم العبرية ، وسعيت بحيوية بالغة من أجل موافقته ، وذلك لأنني كنت أريد هدفاً أسمى . فقد كنت أسمع في كل مكان من يقول إن اللغات الأساسية ضرورية سواء لفهم العهد القديم أم لفهم العهد الجديد . وكنت أقرأ الأخير على نحو مريح تماماً . لأن ما يسمى بالأناجيل والرسائل كان لابدّ له ، لكيلا تظل التمارين في أيام الأحد ناقصة ، أن يُتلى تبعاً لتعاليم الكنيسة ، ويُترجَم ، ويشرح إلى حد ما . وجعلت أفكر في تناول المسألة على هذا النحو أيضاً فيما يتصل بالعهد القديم الذي كان قد صادف بسبب خصوصيته ، هوىً في نفسي ، منذ البداية ، بصورة خاصة تماماً .

على أن أبي الذي لم يكن يرضى أن يقوم بأنصاف الأعمال ، قرر أن يلتمس من عميد مدرستنا الثانوية ، الدكتور البرشت (٢) ، دروساً خصوصية كان يفترض أن يواظب على إعطائي إياها في كل أسبوع

إلى أن أكون قد ألممت بما هو الأكثر ضرورة في مثل هذه اللغة البسيطة ، لأنه كان يأمل في إمكان الفراغ منها خلال نصف الوقت اللازم للانكليزية على الأقل ، ان لم يكن ذلك في مثل سرعتها .

وكان العميد البرشت من أكثر الشخصيات أصالة في العالم ، قصيراً ، ليس بالبدين ، ولكنه مربوع القامة ، وهو ضخم ضخامة لا تشوّه قامته . وعلى الجملة فهو إيسوب بثياب الجوقة والشعر المستعار . وكان وجهه الذي يربو على سبعين عاماً يتشح كله بابتسامة تنطوي على السخرية اللاذعة ، إذ تظل عيناه مفتوحتان ، وعلى الرغم من حمرتهما فهما مشّعتان دائماً ، تنبئان عن حدة الذهن . وكان يقطن الدير القديم ، دير الحُفاة ، مقرّ المدرسة الثانوية . وكنت أزوره طفلاً ، في صحبة أبويّ ، أحياناً . وكنت أجتاز الدهاليز الطويلة المظلمة ، والكنائس الصغيرة المحوّلة إلى حجرات استقبال ، والمكان المتقطع بسلالمه وزواياه بسرور يشوبه الفزع . وكان يمتحنني دون أن يشقّ عليّ ، كلما رآني ، ويثني عليّ ويشجعني . ورآني ذات يوم أثناء تغيير المسكن ، بعد الإمتحان العلني ، متفرجاً خارجياً بينما كان يوزع الجوائز الفضية في الأخلاق والاجتهاد ، وكنت أقف غير بعيد من منصته . وكان يطيب لي أن أنظر بشوق بالغ إلى الغِرارة الصغيرة التي كان يسحب منها قطع النقد التزينيّة ، ولوّح لي بيده ، ونزل درجة وناولني قطعة فضية من هذا النقد ، وكان سروري عظيماً على الرغم من أن الآخرين رأوا مثل هذه الهدية إلى غلام ليس من المدرسة شيئاً خارجاً عن كل نظام . ولكن الشيخ الطيب لم يكن يعنيه شيء من ذلك ، وهو الذي كان يقوم بدور الرجل الغريب الأطوار بصورة مطلقة ، على نحو يلفت النظر ; وكانت

له سمعة طيبة جداً من حيث كونه من رجال التعليم ، وكانت له دراية بمهنته ، وان كانت السن لا تتيح له بعدُ أن يمارس مثل هذه المهنة ، ولكنه كان يشعر بالمعوّقات من ناحية الظروف الخارجية أكثر مما يشعر بها من ناحية وَهْنهِ ، ولم يكن ، كما عرفت من قبل ، يرتاح إلى مجمع الكرادلة ، ولا إلى التلاميذ الجوّالين ، ولا إلى رجال الدين ، ولا إلى الأساتذة أيضاً . وكان يدع لطبيعته التي تميل إلى الانتباه الى الأخطاء والنقائص وإلى السخرية ، مجال الانطلاق الحر ، سواء في البرامج أم في الأحاديث العلنية . ومثلما كان لوسيان الكاتب الوحيد الذي يقرؤه ويقدّره ، فقد كان يضفي على كل ما يقول ويكتب توابل من الأخلاط اللاذعة .

وكان من حسن حظ أولئك الذين لم يكن راضياً عنهم أنه لم يكن يتوجه إلى غرضه قط بصورة مباشرة ، بل كان يسدّد بمجرد الإشارات والإيماءات والشواهد الكلاسيكية والأقوال المأثورة من الكتاب المقدس ، نحو النقائص التي كان ينوي أن يؤاخذ بها . وكانت تلاوته الشفهية مزعجة (وكان يلقى كلماته مكتوبةً في كل حين) وغير مفهومة ، وكانت فوق كل هذا ، تتقطّع بالسعال أحياناً ، وبالضحك الأجوف الذي يرتجّ له البطن في كثير من الأحيان ، إذ كان من عادته أن يقرن ذلك بالإعلان عن المواضع اللاذعة . ووجدت هذا الرجل الغريب دمثاً ليّن العريكة حين أخذت في تلقي دروسي على يديه . فكنت أذهب إليه مساء كل يوم في الساعة السادسة ، وكنت أحسّ ارتياحاً خفيّاً حين كان مصراع الباب ينطبق ورائي ، وكان عليّ الآن أن أجتاز دهليز الدير الطويل الموحش . وكنا نجلس في مكتبته إلى منصة مكسوة بقماش مشمّع . ولم يكن يفارقه كتاب اوسيان المقروء كثيراً جداً .

وعلى الرغم من كل النوايا الطيبة لم أكن أصل إلى غرضي بغير مدخل تمهيديّ . ذلك لأن معلمي لم يكن يستطيع أن يكبت تعليقات ساخرة معينة حول ما يراد من وراء اللغة العبرية في الحقيقة . وكنت أكتم عنه مقصدي حيال الألمانية اليهودية ، وأتحدث عن الفهم الأفضل للنص الأساسي . عند ذلك كان يبتسم ، ويقول إنني خليق أن أكون مسروراً إذا تعلمت مجرد القراءة . وقد ضايقني هذا فيما بيني وبين نفسي ، واستجمعت كل انتباهي حين وصل الأمر إلى الحروف . ووجدت أبجدية تماشي الإغريقية تقريباً ، وكانت أشكالها سهلة الفهم ، ولم تكن تسمياتها بالغريبة عني في أكثر الأحوال . وكنت قد فهمت هذا وحفظته ، وتصورت أن من المفروض الآن أن نتجه إلى القراءة . وكان من المعلوم عندي تماماً أن هذه القراءة تجري من اليمين إلى اليسار ولكن جيشاً جديداً من الحروف والعلامات الصغيرة ظهر دفعة واحدة من نقاط وخطوط صغيرة (١) من كل نوع ، وكان يفترض فيها أن تمثل الحروف الصوتية في الحقيقة ، وهو الأمر الذي تعجبت منه أكثر من ذي قبل ، إذ كان يوجد في الأبجدية الأكبر حروف صوتية ظاهرة . بينما كانت الحروف الصوتية الباقية تبدو مختفية بتسميات غريبة . وكنت أتعلّم أيضاً أن معشر اليهود كانوا يكتفون ، ماداموا في ازدهار ، بتلك العلامات الأولى حقاً ، وأنهم لم يعرفوا طريقة أخرى في الكتابة والقراءة . وقد كنت الآن خليقاً أن أمضي بسرور بالغ على هذا الطريق القديم والأكثر راحة كما بدا لي ، ولكن شيخي أعلن بشيء من الحزم أنه لابد للمرء أن يتصرف بحسب قواعد اللغة ، وكما يلائمها ، على النحو الذي صيغت عليه ، وأن القراءة بغير هذه النقاط والخطوط مهمة بالغة الصعوبة ولا يمكن أن ينهض بها إلاّ العلماء والمدرّبون إلى أقصى الحدود .

وإذاً فقد كان لابد لي أن أروض نفسي على التعرف على هذه المعالم الصغيرة أيضاً ، ولكن المسألة كانت تزداد اختلاطاً عليّ بصورة مطردة . إذ كان من المفترض الآن أن يبطل عمل بعض العلامات الأصلية في محلّها بطلاناً مطلقاً ، لكيلا تظل العلامات الصغيرة المتولّدة بعدها بغير طائل . ثم كان عليها أن تشير ذات مرة من جديد إلى نَبْسَة خافتة ، ثم إلى صوت ينبعث من الحنجرة يزداد حدة أو ينقص ، وسرعان ما تُستعمل مجرّدَ مرتكَز أو قاعدة . ولكن في النهاية ، حين أصبح المرء يعتقد أنه قد ألمّ بكل شيء حقاً ، أحيل بعض العلامات المفردة ، الكبيرة والصغيرة على السواء ، على التقاعد ، حتى كان على العين أن تعمل دائماً كثيراً جداً وعلى الشفة أن تعمل قليلاً جداً .

وعلى حين كان ينبغي لي الآن أن أنقل بالحديث المتلعثم ما كان معروفاً لديّ من قبل من حيث مضمونه ، في لهجة رطانة أجنبية ، حيث كان يوصّيني توصية لايستهان بها ، بخَنْخَنَةٍ وقَرْقَرَةٍ معيّنتين لاسبيل إلى بلوغهما ، خرجت عن الموضوع خروجاً تاماً بصورة مؤكدة ، وجعلت أستمتع ، بطريقة صبيانية ، بالأسماء الغريبة لهذه العلامات المتراكمة . فكان ثمة أباطرة وملوك ودوقات يسيطرون في صورة نبرات هنا وهناك ، ويسلّونني تسلية ليست بالقليلة . ولكن هذه الفكاهات السطحية سرعان ما فقدت سحرها أيضاً . ومع ذلك فقد كنت مصوناً عن الأذى ، حتى ان مضمون الكتاب كان يتجلّى لي بصورة أكثر حيوية لدى القراءة والترجمة والمراجعة والاستظهار . وكان هذا في الحقيقة هو ما كنت أطلب إلى سيدي الشيخ أن يَجلُوَه لي . وذلك لأن تناقضات المنقول مع الواقعيّ والممكن كانت عندي لافتة للنظر

جداً . وكنت قد وضعت أساتذتي الخصوصيين في موقف حرج عن طريق الشمس التي كانت ثابتة عند جيبون (١) والقمر الذي كان ثابتاً في وادي عجلون ، إذا صرفت النظر عن أشياء أخرى من المؤكد أنها غير معقولة ومتناقضة . وقد أثير كل شيء من هذا القبيل الآن . بينما كنت أشتغل بالعهد القديم على سبيل الحصر لأتمكن من العبرية ، ولم أدرس هذا العهد القديم دراسة شاملة بترجمة لوثر ، بل بالصياغة الحرفية المطبوعة إلى جانبه ، والعائدة إلى سيباستيان شميد (١) ، والتي كان والدي قد أمنها لي للتو . وهنا بدأت دروسنا مع الأسف ، ينتابها الخلل ، فيما يتصل بالتمارين اللغوية . وكانت القراءة والشرح والنحو والنسخ ومذاكرة الكلمات : قلما تستغرق نصف ساعة كاملة . وذلك لأنني بدأت على الفور في التوجه إلى جوهر المسألة ، على الرغم من أننا كنا مازلنا متحيّرين ، في السفر الأول ، سفر موسى ، في مناقشة أمور شتى كانت ماثلة في ذهني من الكتب اللاحقة . وفي البداية كان الشيخ الطيب يحاول أن يردّني عن أمثال هذه الانحرافات عن الموضوع . ولكن هذا بدا في النهاية أنه يسلّيه هو نفسه . وكان ، على حسب طريقته ، لايفارقه السعال والضحك . وعلى كثرة ما كان يحترس من الإفضاء إليّ ببيان يمكن أن يفضحه ، فان إلحاحي لم يهدأ ، إذ كنت أهدف إلى الإفضاء بشكوكي أكثر مما كنت أهدف إلى معرفة حلّها . وعلى هذا كنت أزداد نشاطاً وجرأة على نحو مطرد ، حيث كان يبدو أنه يبرّر فعلي بسلوكه . ولم أستطع في آخر الأمر أن أفوز منه بطائل ، سوى أنه كان يزعق مرة بعد أخرى قائلاً ، مع ضحكته التي يرتجّ لها بطنه : « ولد مجنون ! صبي مجنون ! » .

وربما بدت له في هذه الأثناء همتّي الطفولية التي كانت تجوب كل صفحات الكتاب المقدس طولاً وعرضاً ، جديّةً إلى حد بعيد بلاريب ، وجديرة ببعض العون ولذلك أحالني بعد بعض الوقت إلى الكتاب المقدس الانكليزي الكبير (٢) الذي كان جاهزاً في مكتبته . والذي جرى فيه تأويل المواضيع الصعبة والمثيرة للهواجس بطريقة مفهومة وذكية . وقد اكتسبت الترجمة ، بالجهود الكبيرة لعلماء اللاهوت الألمان مزايا على الأصل . وكان يتم إيراد الآراء المختلفة ، ويجرّبون في النهاية نوعاً من التوسّط يمكن معه ثبات مكانة الكتاب الذي هو أساس الدين ، وثبات العقل البشري ، كلٌّ منهما إلى جانب الآخر ، إلى حد ما . وكنت كلما بادرته في نهاية الحصة بأسئلة وشكوك تقليدية ، أشار إلى المخزن وكنت آتي بالمجلّد ، ويدعني أقرأ ، ويقلّب في كتاب لوسيان ، وحينما كنت أدلي بملاحظاتي على الكتاب ، كان ضحكه المعتاد هو كل ما يرد به على حدّة ذهني . وفي أيام الصيف الطويلة كان يدعني جالساً طالما كان في وسعي أن أقرأ ، وكنت في بعض الأحيان وحدي ، واستمر الأمر حيناً إلى أن سمح لي بأن آخذ مجلداً بعد الآخر إلى البيت .

وقد يتوجه الانسان حيثما يريد ، وقد يأتي من الأعمال ما يأتي ، ولكنه سيعود دائماً إلى ذلك الطريق الذي رسمته له الطبيعة ذات مرة . وهذا ما جرى لي أيضاً في الحالة الراهنة . فقد انتهت بيَ الجهود من أجل اللغة ، ومن أجل مضمون الكتب المقدّسة ذاتها آخر الأمر ، إلى أن انبثق تصوّر أكثر حيوية في مخيّلتي عن تلك البلاد الجميلة التي يكثر الثناء عليها وعمّا يحيط بها ويجاورها ، وكذلك عن الشعوب والأحداث التي أسبغت الروعة على تلك البقعة من الأرض على مدى آلاف السنين .

وكان مقدّراً لهذا المجال الصغير أن يشهد منشأ الجنس البشري ونموّه ، إذ يفترض أن الأنباء الأولى والوحيدة عن أقدم التواريخ (١) قد وصلتنا من هناك . وأن مثل هذا المكان كان يلوح في مخيلتنا ذاته ، بسيطاً وقابلاً للاستيعاب ، مثلما كان متعدد الجوانب وملائماً لأروع الهجرات وعمليات الاستيطان . فهنا ، بين أربعة أنهارٍ مسمّاة ، كان يوجد للانسان الفتي مجالٌ معزولٌ عن كل الأرض الصالحة للسكن صغيرٌ فائق الجمال وكان مقدّراً له أن يطوِّر ههنا قدراته الأولى . وهنا كان مقدّراً له فا في الوقت ذاته أن يصيبه القدر الذي قُسِم لكل ذريته ، وأن يفقد سكينته حين تطلّع إلى المعرفة . وضاع الفردوس ، وازداد البشر ، وازدادوا سوءاً . على أن الآلهة (٢) التي كانت لم تألف بعد شقاوات هذا الجنس نفد صبرها وأبادته من الأساس . ولم تتهيّأ النجاة من الطوفان العام إلاّ للقليل ولم يكد هذا الطوفان المروِّع ينقضي حتى كانت أرض الوطن المعروفة تلوح من جديد لأنظار الناجين الشاكرين . وكان نهران من الأنهار الأربعة ، هما الفرات ودجلة ، ما يزالان يجريان في سريرهما ، وظل اسم الأول باقياً ، أما الآخر فبدا أن مجراه يدلّ عليه ، ولم تكن الآثار الأدق ليُعثَر عليها بعد هذا الانقلاب الكبير . وانطلق الجنس البشري المتجدد من هنا مرة ثانية ، ووجد الفرصة ليقتات ويشتغل بكل الأساليب . وكان أكثر ما اشتغل به جمع قطعان كبيرة من الحيوانات المستأنسة من حوله ؛ والانتقال بها إلى كل الأصقاع .

وسرعان ما اضطرّت هذه الطريقةُ في الحياة ، وكذلك ازدياد القبائل ، الشعوبَ إلى أن ينأى بعضها عن بعض . ولم تستطع أن تقرر على الفور أن تدع أقرباءها يرحلون إلى الأبد ، فانتهت إلى فكرة بناء

برج عالٍ كان يقصد منه أن يدلّهم على طريق العودة من بعيد . ولكن هذه المحاولة أخفقت ، شأن الطموح الأول . ولم يكن مقدّراً لهم أن يكونوا في الوقت نفسه سعداء أذكياء ، كثيرين عدداً ومجتمعين ، فأضلّتهم الآلهة ، وعُطِّل البناء ، وتفرّق البشر ، وكان العالم مأهولاً ولكنه منقسم على نفسه .

ولكن بصرنا واهتمامنا يظلان على الدوام معلّقَيْن بهذه البقاع . وفي النهاية ينطلق من هنا مراراً أبٌ لقبيلة كان من حسن حظه أن طبع ذريته بطابع حاسم ووحدها بذلك على مدى العصور الخالدة ، في أمة كبيرة متماسكة على تقلّبات القدر وتبدل الأصقاع .

فمن الفرات يهاجر ابراهيم نحو الغرب ، لاتنقصه الاشارة الإلهية ، ولاتضع الصحراء عقبة حاسمة في مسيرته ، ويصل إلى الأردن ، ويعبر النهر ، ويتكاثر نسله في ربوع فلسطين الجنوبية الجميلة . وكانت هذه البلاد قد احتلت من قبل وغُصّت بالسكان ، وكان يخترق الجبال غير المفرطة في الارتفاع ، والصخريةَ المجدبة ودِيانٌ مروية كثيرة صالحة للزراعة ، وكانت تتناثر على هذه المساحة مدن وبقاع ومستوطنات منفردة على سفوح الوادي الكبير الذي كانت مياهه تتجمّع في نهر الأردن ، وكانت البلاد مأهولة جداً والأرض عامرة جداً ، ولكن العالم كان ما يزال كبيراً بقدر كاف ، ولم يكن الناس إلى هذا القَدْر معنيّين ، ومحتاجين ، وناشطين من أجل التحكم في كل ما يحيط بهم ، وكان يمتد بين تلك الممتلكات أماكن فسيحة كبرى كانت قطعان الرعاة تستطيع أن تتنقّل فيها على نحو مريح . وفي مثل هذه الأماكن يستقر ابراهيم وأخوه لوط معه ، ولكنهما لا يستطيعان المُكث طويلاً

في مثل هذه الأماكن ، إذ أن تركيب البلاد التي يتناقص سكانها تناقصاً سريعاً جداً ، ولا تحافظ منتجاتها قط على التوازن مع الحاجة تسبب مجاعة على نحوٍ مباغت ، ويعاني المهاجر مع ابن الوطن الذي ضيّق عليه قوته بوجوده العارض . ويرتحل كلا الأخوين الكلدانيين إلى مصر . وهكذا يرتسم أمامنا على نحو مسبق المسرحُ الذي كان مقدّراً له أن تجري عليه أهم أحداث العالم في بضعة آلاف من السنين . فنحن نجد الأرض مأهولة من دجلة إلى الفرات ، ومن الفرات إلى النيل ، ونرى في هذا المجال رجلاً معروفاً تحبه الآلهة ، وقد غدا ذا قيمة بالقياس إلينا ، يغدو ويروح بقطعانه وأمتعته ويزيدها في أجل قصير أكبر الزيادة ، ويعود الأخوان ، ولكنهما يقرران ، وقد حنكتهما المحنة التي صمدا لها ، أن ينفصلا ، ويمكث كلاهما في الحقيقة في أرض كنعان الجنوبية ، ولكن بينما يظل ابراهيم في الخليل تجاه سهل مرج ابن عامر وينتقل لوط إلى وادي سدوم الذي كان من الممكن ومن الواجب أن يبدو لنا ، إذا كانت مخيلتنا جريئة بما يكفي ، فردوساً ثانياً ، إذ يعطي للأردن مصرفاً من تحت الأرض ، من أجل اكتساب أرض جافة بدلاً من بحيرة الاسفلت الحاضرة . وذلك بالأحرى لأن سكان هذا الوادي يدعوننا نستنتج ، وقد شاع عنهم أنهم أهل تخنّث وانتهاك للحرمات ، أنهم كانوا يحيَوْن حياة رخيّة رغدة ، ويسكن لوط بينهم ، ولكن في عزلة عنهم .

ولكن الخليل ، وسهل مرج ابن عامر يبدوان لنا في صورة المكان الذي يتحدث فيه الرب إلى ابراهيم ، ويعده بكل البلاد التي يمكن أن يمتد إليها بصره في جهات الدنيا الأربع . وسوف نضطر إلى أن نصرف النظر

مراراً عن هذه البقاع الهادئة ، وعن هذه الشعوب الرعويّة التي يتاح لها أن تتعامل مع أهل الملأ الأعلى ، وأن تستضيفهم وتقوم ببعض الحوار معهم ، ونفكر في تركيب العالم المجاور الذي لابد أنه كان على الإجمال مشابهاً ، بلاريب ، للتركيب الخاص لأرض كنعان .

فأما الأسر فمتماسكة ، وهي تتحدّ ، ويغدو نمط حياة القبائل محكوماً بالمكان الذي تملكته أو تتملّكه . وعلى الجبال التي تبعث بمياهها إلى دجلة نجد شعوباً محاربة تدلّ منذ وقت مبكر جداً على أولئك الغزاة للعالم والحاكمين له ، وتضرب ، في جملة هائلة بالقياس إلى تلك العصور ، مثلاً رائداً على الأعمال الجليلة المقبلة . وكان كيدور لاوبور ، ملك عيلام يتمتع بنفوذ كبير على حلفائه ، ويحكم زمناً طويلاً ، إذ كان قد فرض الجزية على الشعوب ، حتى نهر الأردن ، منذ اثني عشر عاماً قبل وصول ابراهيم إلى كنعان ، وقد خرجت عليه آخر الأمر ، ويتجهّز للحرب ، ونجدهم فجأة في طريق يبدو أن ابراهيم وصل إلى كنعان عليه ويتم إخضاع الشعوب على الجانبين الأيسر والسفليّ من الأردن ، ويوجه كيدور لاوبور حملته جنوباً نحو شعوب الصحراء ، ثم يتجه شمالاً فينزل ضربة بالعمالقة ، وحين يتغلّب أيضاً على العموريين يصل إلى كنعان ، ويغير على ملوك تل سدوم فيهزمهم ويفرقهم ، ويصعد ، بغنائم كثيرة في اتجاه منابع النهر ، ليوسع حملته المظفّرة حتى لبنان .

وكان بين الأسر والمخطوفين والمسحوبين مع أموالهم أيضاً لوط الذي يشاطر البلاد مصيرها ، حيث يحل ضيفاً ؛ ويسمع بذلك إبراهيم ، وهنا نجد الأب الكبير محاوباً وبطلاً في الوقت نفسه ؛ فهو يجمع عبيده إليه ويقسّمهم جماعات ، ويغير على سلسلة الغنائم المثقلة ، ويثير

الإرتباك في صفوف المنتصرين الذين لم يكونوا يتوقعون عدوّاً في ظهرهم . ويعود بأخيه وأمواله إلى جانب بعض أموال الملوك المقهورين . وبهذه الحملة الحربية القصيرة يكون ابراهيم كمن استولى على البلاد ، فهو يبدو في نظر السكان حامياً ، ومنقذاً ، ويبدو ، بايثاره ، مالكاً ، ويستقبله ملوك الوادي شاكرين له جميله ، ويباركه ميلشيسيديك ، الملك والكاهن .

والآن تتجدد النبوءات عن سلالة لا نهاية لها ، بل تزداد إيغالاً في البعد بصورة مطردة ، إذ يوعَد بمجموع المساحات من الأراضي ، من مياه الفرات إلى نهر مصر ، ولكن الأمور ما تزال تبدو حرجة فيما يتصل بالورثة من فروعه المباشرين ، فهو في الثمانين ، وليس له ابن . أما سارة التي كانت ثقتها بالآلهة أقلّ منه ، فتضيق ذرعاً ، وهي تريد أن تحظى بذرية عن طريق فتاتها ، بحسب تقليد شرقي . ولكن ما تكاد هاجر تأتلف مع ربّ المنزل ، وما يكاد يظهر الأمل في ولد ، حتى يظهر النزاع في البيت ، وتواجد السيدة نزيلة حماها بقدر غير قليل من الشر ، وتفرّ هاجر لتجد وضعاً أفضل عند رهطٍ آخرين ولا تعود بغير اشارة عُلْوِيّة ، ويولد اسماعيل .

ويبلغ ابراهيم الآن التاسعة من العمر ، وما تزال تتكرّر الوعود بذريّة كبيرة ، ومع ذلك يتحقق في النهاية الأمل الطيب لسارة ، وتنجب ولداً يطلق عليه اسم « اسحق » .

وإنما يستند التاريخ في معظمه على التناسل الشرعيّ ، ويضطر المرء إلى متابعة أهم أحداث العالم في أسرار الأسر ، وعلى هذا النحو تعطينا حالات زواج الأجداد حافزاً للتأملات الخاصة . ويبدو كأن الآلهة التي

يطيب لها أن توجه دفة مصير البشر ، قد أرادت أن تصوّر ههنا الأحداث الزوجية من كل نوع فيما يشبه الأنموذج السابق . وذلك أن ابراهيم المتزوج منذ عهد بعيد ، زواجاً لا نسل فيه ، من سيدة جميلة يتهافت عليها الكثيرون ، يجد نفسه في عامه المائة ، زوجاً لسيدتين ، وأباً لابنَيْن ، وفي هذه اللحظة يتكدّر صفو السلام المنزليّ ، وذلك أن سيدتين إحداهما إلى جانب الأخرى ، ومعهما ابنان لأمّيْن ، أحدهما إلى جانب الآخر ، يستحيل أن يحتمل كلٌ منهما الآخر ، ولابد لذلك الطرف الذي تكون الشرائع والأصل والرأي أقلّ مواتاةً له ، أن ينسحب ، ويضطر ابراهيم إلى التضحية بميله إلى هاجر ، وإلى اسماعيل ، ويسرّح كليهما ، وتضطر هاجر أن تسلك الطريق الذي سلكته في هرب طوعيّ ، خلافاً لارادتها الآن ، وكان ذلك ، كما يبدو ، طريق الهلاك للطفل ولها . ولكنّ ملاك الربّ ، الذي ردّها من قبل ينقذها هذه المرة أيضاً ، لكي يكون من اسماعيل شعب كبير أيضاً ، وليتحقق أكثر الوعود قاطبة بعداً عن الاحتمال ، تحققاً يتجاوز حدوده ذاتها .

فثمة والدان في الشيخوخة وولد وحيد مولود في حقبة متأخرة : وهنا ينبغي للمرء بلاريب أن ينتظر آخر الأمر هدوءاً منزلياً ، بل سعادة دنيوية ! ولكن الأمر ليس على هذه الصورة بحال من الأحوال ، إذ أن الملأ الأعلى مازال يعدّ للأب الكبير أشد المحن . ولكننا لا نستطيع الحديث عن هذه المحنةبدون أن نوجه من قبل بعض الملاحظات .

فاذا قُدّر لدين طبيعيّ عام أن ينبثق ، وأن يتطرر منه دين خاص موحى به (١) ، فقد كانت البلدان التي توقفت عندها مخيلتنا حتى الآن ، ونمط الحياة ونوع البشر أكثر ما تكون ملاءمة لذلك ، ونحن

على الأقل لانجد أن شيئاً على هذا القدر من الملاءمة والوضوح قد ظهر في العالم كله ، إذ أن الدين الطبيعي إذا افترضنا أنه منبثق بصورة مسبقة في النفس البشرية ، يقتضي كثيراً من إرهاف الفكر . ذلك لأنه يقوم على الإيمان بعناية إلهية عامة توجه النظام الكوني على الإجمال . وأن الديانة الخاصة ، الديانة الموحى بها من قبل الآلهة إلى هذا الشعب أو ذاك لتجرّ معها الاعتقاد بعناية إلهية خاصة يَعِد بها الكائن الالهيّ بشراً معينين مخصوصين بالعناية وأسراً وقبائل وشعوباً ، ومثل هذه الديانة يبدو أن من العسير أن تتطور من داخل الانسان ، إذ أنها تقتضي النقل ، والتأصّل واليقين العائد إلى عصر موغل في القدم .

ولذلك فمن الجميل أن تصور الرواية اليهودية الرجال الأوائل تماماً ، أولئك الذين يثقون بهذه العناية الالهية الخاصة ، أبطالاً في العقيدة يتبعون كل وصية من وصايا ذلك الكائن العُلْويّ الذين يقرون بالولاء له بمثل الطاعة العمياء التي لايعتريهم معها الكلال إذ ينتظرون إنجازات بشائره .

ومثلما يضع الدين الخاص القائم على الوحي الأساس للمفهوم القائل إن المرء يمكن أن يكون أكثر حظوة لدى الآلهة من امريء آخر ، فانه ينبثق أيضاً بصورة متميزة عن تميز الظروف . لقد كان البشر الأوائل يبدون متقاربين بعضهم من بعض ولكن أشغالهم سرعان ما فصلت بعضهم عن بعض . وكان الصياد أكثرهم حرية ، وعنه تطور المحارب ، والحاكم . أما الطرف الذي كان يزرع الأرض ويلتزم بالأرض ويشيد المساكن والأهراء ليحتفظ بما اكتسب ، فكان في وسعه أن يعدّ نفسه شيئاً له شأنه لأن ظرفه كان يعد بالاستمرار والأمان . أما الراعي فقد كان يبدو أنه قد أصاب ، في مقابل ذلك ، الظرف الأكثر انطلاقاً

ورحابة مثلما أصاب الملك الذي لاتحده حدود ، ووصل ازدياد القطعان إلى ما لانهاية له وكان المجال الذي يفترض أن يغذيها يتسع من كل الجوانب . ويبدو أن هذه الطبقات الثلاث كان ينظر بعضها إلى بعض باديء ذي بدء نظرة السخط والازدراء . ومثلما كان الراعي وبالاً في نظر الحضري فقد كان هذا ينعزل عنه من جديد . ويغيب الصيادون عن عيوننا في الجبال ، ولا يعودون من جديد إلى الظهور إلاّ غزاةً .

وكان الآباء الأوائل ينتمون إلى طبقة الرعاة . وكانت طريقة حياتهم في بحر الصحارى والمراعي تمنح عقولهم الاتساع والحرية ، وكانت قبة السماء التي يسكنون تحتها ، بكل نجومها الليلية ، تمنح مشاعرهم السموّ ، وكانوا يحتاجون أكثر من الصياد النشيط البارع ، وأكثر من الفلاح الآمن المدبّر لأموره ، ساكن المنازل ، ذي الإيمان الذي لا يتزعزع ، إلى أن يصحبهم ربٌّ في ترحالهم ، وأن يزورَهم ، ويهتم بأمورهم ، ويوجّههم وينقذهم .

وسنضطر إلى ملاحظة أخرى حين ننتقل إلى التسلسل التاريخيّ . فمهما بدا لنا دين الآباء الأوائل انسانياً وجميلاً وواضحاً فان ملامح من الجموح والقسوة تتخلّله ، وهي ملامح يمكن للمرء أن يأمن غائلتها أو ينغمس فيها .

أما أن تنطفيء غلة الحقد بالدم ، بموت العدو المقهور ، فذلك طبيعي ، وأما أن يبرم المرء الصلح في ميدان المعركة ، بين صفوف القتلى ، فذلك أمر يمكن تصوره . وأما أن يعتقد المرء أنه يوطد تحالفاً عن طريق الحيوانات المذبوحة فذلك ما ينبثق مما سبق . وأما أن يستطيع المرء أن يتقرّب من الآلهة التي لم يكن ينظر إليها أبداً إلاّ على أنها طرف

أو مناويء أو مساند ، بالأشياء المقتولة ، وأن يسترضيها بذلك ويستميلها فتلك تصورات ليس للمرء أن يعجب منها أيضاً . ولكن لنبق عند الأضحيات ، ولنتأمّل الأسلوب الذي كانت تقدم به في ذلك العصر الموغل في القدم . وعندئذ نجد عادة غريبة مستنكرة تماماً بالقياس إلينا ، ويبدو أنها مأخوذة من الحرب أيضاً ، وهي أنه كان لابد من قطع الحيوانات المضحّى بها من كل نوع ، ومهما كان ما قدِم منها كثيراً ، نصفين بالبلطة ، وأن يوضع النصفان على كلا الجانبين . وكان يوجد في الطريق بينهما أولئك الذين كانوا يريدون أن يعقدوا عهداً مع الإله .

ويتخلّل ذلك العالم الجميل ، بصورة عجيبة وحافلة بالنُذْر ، سمة فظيعة أخرى ، وهي توجب الموت على كل من يوقَف أو يُنْذَر ، ويبدو أنها أيضاً عادة من عادات الحرب منقولة إلى حالة السلام . إذ يُهدّد سكان المدينة التي تدافع عن نفسها بالقوة بمثل هذا النَذْر ، ويتحوّل حالها ، بعاصفة أو نحو ذلك ، ولا يدعون شيئاً على قيد الحياة ، ولاسيما الرجال خاصة ، وفي بعض الأحيان يتقاسم المصير ذاته النساء والأطفال ، بل الماشية أيضاً ، ويتم نَذْر أمثال هذه الضحايا للآلهة على نحو مستعجل وخرافيّ ، وبصورة محددة أو غير محددة ، وعلى هذا النحو تسفك دماء أولئك الذين يود المرء أن يحقن دماءهم ، بل من يليهم ، من أطفالهم في هذه الحالة ، قرابين تكفيرية في مثل هذا الجنون .

ومنذ الآن تتوالى المشاهد العائلية ذات الجوانب المتعددة ، ومازال ابراهيم يعتزل السكان اعتزالاً صارماً . ولمّا كان اسماعيل ، وهو ابن مصرية ، قد تزوج ابنة من هذه البلاد ، فان من الواجب أن يتزوج اسحق الآن رفيقة من دمه ، مكافئة له .

ويبعث ابراهيم بعبدٍ له إلى بلاد الرافدين ، إلى أقربائه الذين خلّفهم هناك ، ويصل أليعازر الذكي بدون أن يتبيّنه أحد ، ولكي يأتي بالزوجة الملائمة إلى الدار يختبر بلاء الفتيات الحسن عند الينبوع ، فيستسقي لنفسه ، ودونما دعوة تسقي ريبيكا جماله أيضاً ، فيعطيها الأعطيات ويخطبها ، فلا تمتنع عليه ، فيسوقها إلى بيت سيده ، وتُزوَّج من اسحق . وهنا أيضاً لابد من انتظار الذرية وقتاً طويلاً ، ولا ترزَق ريبيكا النسلَ إلاّ بعد سنوات من الاختبار ، على أن ذلك الصراع نفسه ، الذي نشب في زواج ابراهيم الثنائي بين الوالدتين ، ينشب هنا في والدة واحدة . وذلك أن غلامين يتنازعان في قلب الأم ، فهما يتجلّيان بوضوح : أما أكبرهما فنشيط قويّ ، وأما الأصغر فرفيق ذكيّ ، ويغدو ذاك الأثيرَ عند والده ، وأما هذا فيغدو الأثير عند والدته . ويستمر الصراع الذي يبدأ منذ الولادة على نحو دائم ، من أجل المكانة الأولى ، وعيصو مطمئن لا يبالي بمزية المولود الأول التي وهبها له القدر . أما يعقوب فلا ينسى أن أخاه يزاحمه . وبتربصّه لكل فرصة لاكتساب المزية المرغوبة ينتزع من أخيه حق المولود الأول ويستأثر ببركة الأب ، ويحقد عيصو ويسرفي نفسه العزم على قتل أخيه ، ويفرّ يعقوب ليجرّب حظه في بلاد أجداده .

والآن يظهر للمرة الأولى في مثل هذه العائلة النبيلة عضو لايتورّع عن الوصول بالذكاء والمكر إلى المزايا التي أبتها عليه الطبيعة والظروف . لقد لوحظ في أحيان كثيرة بما يكفي ، وقيل صراحة ، أن الكتب المقدسة لاتريد أن تقدم إلينا أولئك الآباء الأولين وسائر الرجال المستأثرين بالحظوة لدى الرب على أنهم صور للفضيلة بحال من الأحوال ، فهؤلاء أيضاً بشر تتباين شخصياتهم أشد التباين فيهم نقائص وعيوب شتّى ،

ولكن ثمة سمة رئيسية لايجوز أن تُفتَقد في أمثال هؤلاء الرجال الجديرين بعناية الرب ، ألا وهي الاعتقاد بأن الله يتقبّلهم ويتقبّل أتباعهم بقبول حسن .

ثم إن الدين العام ، الدين الطبيعيّ ، لايحتاج في الحقيقة إلى عقيدة ، لأن الإيمان بأن هناك كائناً عظيماً ، مبدعاً ، منظّماً ، مدبّراً ، يكمن وراء الطبيعة تقريباً ، ليمكّننا من إدراكه ، مثل هذا الإيمان يفرض نفسه على كل امريء من الناس ، بل إنه حين يدع خيط الإيمان الذي يوجهه في الحياة ، يفلت من يديه في بعض الأحيان ، فانه سوف يستطيع أن يلتقطه من جديد على الفور بلاريب ، وفي كل مكان . على أن الأمر يختلف كل الاختلاف في حالة الديانة الخاصة التي تعلن لنا أن ذلك الكائن العظيم يتقبل فرداً من الأفراد ، أو قبيلة ، أو شعباً ، أو أرضاً ، بصورة حاسمة وبطريقة تفضيليّة . وهذه الديانة تقوم على إيمان لابد أن يكون من النوع الذي لا يتزعزع إذا لم يكن يراد له أن تتعرض للدمار من الأساس . وكل شك ازاء مثل هذا الدين يعد قاتلاً له . وقد يعود المرء إلى الاقتناع ولكنه لايعود إلى الإيمان . ومن هنا كانت المحن التي لانهاية لها ، والتريّث في إنجاز الوعود المكرّرة كثيراً ، وهي الوعود التي توضح بها كفاءة الإيمان عند أولئك الآباء الأولين تحت أشد الأضواء سطوعاً .

وبهذا الإيمان يلتحق يعقوب بسِربِه أيضاً ، ولئن لم يستهوِنا فهو يستهوينا بحبه الدائم الذي لايتزعزع ، لراحيل الذي يخطبها بصورة ارتجالية . وكان مقدّراً له أن تتطوّر فيه البشرى بشعب لا يُسبَر غورُه ، تطوراً كاملاً أول مرة ،وأن يرى حواليه كثيراً من الأولاد ، ولكن كان مقدّراً له أيضاً أن يعاني ،من خلالهم ، ومن خلال أمّهاتهم بعض المآسي .

ويظل يعمل في الخدمة سبع سنوات من أجل الحبيبة فلا ينفد صبره أو يتوانى . وكان حموه الذي يحاكيه ، في الروح ، بما يكفي ليعدّ كل وسيلة إلى الغرض مشروعة ، يخادعه ويدينه بما صنع لأخيه . ويجد يعقوب زوجة لايحبها بين ذراعيه ، وفي الحقيقة يعطيه لابان الحبيبة فوقها بعد وقت قصير ليهدىء ثائرته ، ولكن بشرط سبع سنوات جديدة من الخدمة ، وهكذا ينجم استياء عن استياء ، فالزوجة غير المحبوبة مخصبة ، اما المحبوبة فلا تنجب اولاداً ، وهذه تريد مثل سارة ، أن تكون أمّاً عن طريق أمَة ، ولكن تلك الزوجة تضنّ عليها بهذه المزّية أيضاً ، وتسوق هي أيضاً أمَةً إلى زوجها . ويغدو الأب الأوّل الطيب الرجلَ الأكثر تعرّضاً للعذاب في العالم . فثمة أربع نساء ، وأبناءٌ ثلاثةٍ منهن ، ولا ولدَ من الحبيبة ! وأخيراً يسعد الحظ هذه أيضاً ، ويولد يوسف ، نتاجاً متأخراً لحب متناه في حرارته ، وانقضت سنوات خدمة يعقوب الأربعة عشر ، ولكن لابان لا يريد أن يستغني فيه عن الخادم الأول المتناهي في إخلاصه ، ويعقدان شروطاً جديدة ، ويقتسمان القطعان ، ويحتفظ لابان بذوات اللون الأبيض ، الأكبر عدداً ، ويرتضي يعقوب ذوات البقع التي هي كالنفاية .

وربما يود امرؤٌ أن يتساءل لماذا أسرد هنا هذه الأقاصيص المعروفة على نطاق عام ، والمعاد سردها وتفسيرها في كثير جداً من الأحيان مع التفصيل والتكرار . وقد يكون جواب هذا أنني ما كنت لأعرف كيف أصوّر بطريقة أخرى كيف قدت ، في حياتي اللاهية ، وفي تلعثمي المتقطع ، بحشد ذهني ومشاعري في نقطة لأبلغ بها إلى تأثير هادىء ، لأنني لا أقدر على أن أصف بطريقة أخرى السلام الذي كان يحيط بي (١) ، حتى حين كانت الأمور في الخارج على نحو وحشي

وعجيب . وحين كانت مخيّلة عاملة أبداً ، كتلك التي يمكن أن تقدم تلك الأسطورة شاهداً عليها ، تروح وتغدو بي هنا وهناك ، وحين كان خليط الخرافة والتاريخ ، والأسطورة والدين يهدد بتشويش فكري ، كان يطيب لي أن أفزع إلى تلك البقاع الشرقية ، فكنت استغرق في أسفار موسى الأولى وأجد نفسي هناك بين قبائل الرعاة المنتشرة ، في أشد ألوان العزلة وفي أعظم ألوان الأنس .

على أن هذه المشاهد العائلية ترينا الآن ، في الختام ، قبل أن تتلاشى في تاريخ لليهود ، شخصية أخرى يمكن أن تصادف هوى لدى الشباب خاصةً ، بآمالهم وتصوّراتهم ، بصورة لطيفة للغاية ، ألا وهي شخصية يوسف سليل الحب الزوجي المتناهي في حرارته . فهو يبدو لنا هادئاً صافياً ، وهو يتنبّأ لنفسه بالمزايا التي يفترض أنها ترفعه فوق أسرته فبعد أن يقع في المصيبة عن طريق إخوته يظل في الرق مهذّباً وأصولياً ، ويقاوم أخطر الإغراءات ، ويخلّص نفسه عن طريق التنبؤ ، ويرتقي إلى مراتب الشرف العليا على قدر استحقاقه ، ويظهر في البداية أمام مملكة كبرى ، ثم أمام ذويه ، ذا نجدة وجدوى ، وهو يحاكي جدّه ابراهيم في سكينته وعظمته ، وجدّه اسحق في هدوئه واستسلامه ، وهو يمارس روح المهنة المأخوذة عن أبيه على نطاق كبير : فما عادت هي القطعان التي يثمّرها المرء ليحميه أو لنفسه ، وإنما هي الشعوب بكل ممتلكاتها ، الشعوب التي يعرف كيف يتعامل معها نيابةً عن ملك . وان هذه القصة الطبيعية لـلطيفة للغاية ، إلاّ أنها تظهر مفرطة في القصر ، وان المرء ليحس بدافع إلى أن يرسمها لنفسه ، في ذهنه ، على نحو مفصّل .

ولم يكن مثل هذا الرسم التوراتي للشخصيات والأحداث غير المبيّنة إلاّ في خطوط عريضة، غريباً عن الألمان بعدُ ، وكانت شخصيات العهدين القديم والجديد قد اكتسبت من خلال كلوبشتوك (١) كياناً رقيقاً مرهف الحسّ كان ملائماً إلى حد كبير للغلام كما كان ملائماً لكثير من معاصريه ، ولم ينته إليه إلاّ قليل من أعمال بودمر (٢) من هذا النوع ، أو لم ينته إليه شيء ، ولكن « دانييل في أخدود الأسد (٣) » لموزر ، أحدثت أثراً كبيراً في النفس الفتيّة . وههنا يصل رجل من رجال الأعمال والبلاط صافي الذهن من خلال بعض الهموم والمتاعب إلى مراتب سامية ، وكان وَرَعه الذي كان الناس يهددونه بالدمار عن طريقه ، قد أصبح من قبلُ ومن بعدُ درعه وسلاحه . وكانت معالجة قصة يوسف (٤) موضوعاً للتمنيات بالنسبة إليّ منذ عهد بعيد ، غير أن الصيغة لم تواتِني في اللحظة المناسبة وبصورة خاصة لأنني لم أكن أعرف نوعاً من بحور الشعر يلائم مثل هذا العمل ، ولكني وجدت الآن المعالجةَ النثرية مريحة جداً ، وانصرفت بكل همتي إلى المعالجة فحاولت أن أعزل الشخصيات وأرسمها ، وأن أجعل من القصة البسيطة القديمة ، عن طريق إدخال أحداث عرضية وأقاصيص ثانوية ، عملاً جديداً قائماً بذاته ، ولم أفكر فيما لايستطيع الأحداث بالطبع أن يفكروا فيه ، وهو أن المضمون ضروري لذلك ، وأن هذا لايمكن أن ينبثق فينا إلاّ من خلال الوعي الناشيء عن المعاناة ذاتها . وعلى الإجمال فقد جسّدت لنفسي كل الأحداث حتى أدق التفاصيل ، وجعلت أسردها فيما بيني وبين نفسي بحسب التسلسل على أدق وجه .

على أن ما سهّل عليّ هذا الأمر جداً كان ظرفاً هدّد بأن يجعل هذا المؤلّف فائق الضخامة . وذلك أن رجلاً شاباً كثير الكفاءات أصيب بالعته بفعل الإجهاد والغرور ، كان يسكن بحكم كونه قاصراً في منزل أبي ، ويعيش مع العائلة بهدوء ، وكان شديد الهدوء ، منطوياً على نفسه ، وكان يتسم بالقناعة والتهذيب حين يُترك ليتصرّف على طريقته المعتادة . وكان هذا قد كتب كراريسه الجامعية بعناية كبيرة . واكتسب خطّاً سريعاً مقروءاً . وكان أحب الأشغال إليه الكتابة ، وكان يسرّه أن يُعطى شيئاً لينسخه ، ولكن كان يسره أكثر من ذلك أن يُملي الناس عليه ، لأنه كان يشعر بنفسه وكأنه انتقل إلى سنواته الجامعية السعيدة . أما والدي الذي لم يكن يكتب بخط يدوي سريع ، والذي كانت كتابته صغيرة الحرف مهزوزة ، فما كان ليتمنّى شيئاً وراء ذلك . ولذلك فقد دأب ، حين يتولّى أعمالاً لخاصة نفسه أو لغيره ، على أن يملي على هذا الشاب في العادة بضع ساعات من النهار . ولم أكن أجد الأمر أقلّ راحة حين كنت أرى ، في أوقات الاستراحة ، كل ما يخطر ببالي بصورة عابرة يثبّت على الورق بخط غيري . ونمت موهبة الاختراع والمحاكاة عندي بسهولة الإدراك والحفظ .

ولم أكن بعدُ قد قمت بعمل كبير كتلك القصيدة التوراتية الملحمية – النثرية ولكنه كان وقتاً هادئاً للغاية ، ولم يكن في وسع شيء أن يصرف مخيلتي عن فلسطين ومصر . وهكذا كانت مخطوطتي تزداد انتفاخاً في كل يوم بينما كانت القصيدة تَمثُل على الورق ، قطعة فقطعة ، كما كنت أرويها لنفسي وكأنني أتحدث إلى الهواء . ولم يكن هناك إلاّ أوراق قليلة في حاجة إلى إعادة كتابتها من حين إلى آخر .

وحين تمّ الكتاب، وقد تم بالفعل على نحو أثار دهشتي، خطر ببالي أن هناك بعض القصائد من السنين السابقة لم يكن يبدو لي الآن أيضاً أن فيها مأخذاً ، وكانت خليقة ، إذا كتبت على ورق بقياس ورق قصيدة « يوسف » ، أن تشكل مجلداً ظريفاً للغاية من قياس الربع (الكوارتو) ، وفي وسع المرء أن يعطيها عنوان « قصائد مختلفة » وقد راقني هذا إلى حد كبير لأنني وجدت بذلك فرصة لتقليد كتّاب معروفين ومشهورين ، بهدوء . وكنت قد أنجزت عدداً لابأس به من القصائد الأناكريونيّة * التي كنت أكتبها بيسر بالغ بسبب سهولة المقطع العروضي وسهولة المضمون ، ولكن لم يكن يجوز لي أن أقبلها لأنها كانت تفتقر إلى القافية ، وكنت أود بلاريب أن أعرض على أبي قبل كل شيء شيئاً مستحسناً ، وقد بدا لي أن من الأحرى أن تحل محلها هنا قصائد غنائية روحانية ، كنت قد حاولت بأمثالها تقليد « يوم الحساب » لإلياس شليجر (١) ، بهمة عالية . وقد لقيت قصيدة غنائية بمناسبة الاحتفال برحلة المسيح إلى الجحيم (٢) استحساناً كبيراً من والديّ وأصدقائي ، وقد أتيح لها أن تروق لي أنا عدداً من السنين وكنت أدرس بنشاط ما يسمى بالنصوص الكنسيّة للقطع الموسيقية لأيام الآحاد التي كان لابد من طبعها في كل مرة ، وكانت بالطبع ضعيفة جداً . وكان من حقي أن اعتقد بلاريب ، أن النصوص العائدة إليّ ، والتي كنت قد أنجزت عدداً منها بحسب الأسلوب المقرّر ، تستحق بالقدر ذاته أن تلحّن وتُرتّل للترفيه عن روّاد الكنيسة . وكنت أنقل هذه وعدداً من أمثالها منذ أكثر من عام بخط يدي ، لأنني تحرّرت

(*) نسبة إلى الشاعر الإغريقي اناكريون Anakreon . « المترجم »

عن طريق هذا التمرين الخصوصي من قواعد معلّم الكتابة . والآن تم تحرير كل شيء ووضعه في نظام جيد ، ولم يكن الأمر في حاجة إلى كبير إقناع من أجل رؤية هذه الأشياء منسوخة من قبل ذلك الشاب الذي يهوى الكتابة بصورة نظيفة ، فأسرعت بذلك إلى المجلّد ، ولما ناولت أبي بُعَيد ذلك المجلّد النظيف شجّعني ، باعجابٍ خاص ، على أن أقدم كل عام مثل هذا المجلد الرُبْعيّ (الكوارتو) ، وكان يزيده إيماناً بما يصنع أنني كنت أقوم بذلك كله فيما يسمى بالساعات الإضافية الهامشية . .

وثمة ظرف آخر كان يزيد في تعلّقي بهذه الدراسات اللاهوتية أو التوراتية على نحو أصح . وذلك أن رئيس الوعّاظ ، يوهان فيليب فريزينيوس (٣) وهو رجل دمث ، ذو مظهر جميل مرموق ، كان يحظى بالتوقير من قبل طائفته ، بل من قبل المدينة كلها ، من حيث كونه كاهناً انموذجياً وخطيباً جيداً ، لأنه جابه جماعة الأخوة ، ولم تكن سمعته على مايرام عند الأتقياء المعتزلين ، واكتسب عند الجمهور الشهرة وما يشبه القداسة ، في مقابل ذلك ، عن طريق إدخال جنرال زنديق مصاب إصابة قاتلة ، في حظيرة الإيمان ، وقد مات هذا ، وعلى الفور أعلن خليفته بليت (١) ، وهو رجل ضخم ، وسيم ، نبيل كان يتمتع مع ذلك بموهبة التعليم أكثر مما يتمتع بموهبة التسلية ، نوعاً من المنهج الدينّي يريد أن يقدمه في مواعظه ضمن سياق منهجيّ معيّن . وكنت قد لاحظت من قبل ذات مرة هذا التقسيم حين كنت اضطر إلى الذهاب إلى الكنيسة ، وكان في وسعي أن أفاخر من حين إلى آخر بتلاوة كاملة للغاية لموعظة من المواعظ . ولمّا كان يدور الآن بعض النقاش

في الطائفة حول رئيس الوعّاظ الجديد وماله وما عليه ، وكان كثير منهم يأبى أن يثق ثقة خاصة في مواعظه التعليمية المعلن عنها ، فقد عزمت على أن أكتب بعناية أكبر ، وهو الأمر الذي وُفّقت إليه أكثر مما وفقت حين قمت ببعض المحاولات على مقعد مريح جداً للاستماع ، ولكنه متوارٍ في النهاية . وكنت في غاية الانتباه والخفّة ، وفي اللحظة التي قال فيها : آمين ، أسرعت خارجاً من الكنيسة ، وأنفقت بضع ساعات في املاء ما أثبتُّه على الورق وفي الذاكرة ، بسرعة حتى أني استطعت أن أقدم الخطبة المكتوبة قبل المائدة . وكان والدي فخوراً جداً بهذا النجاح ، وكان لابد لصديق العائلة (٢) الذي أقبل إلى المائدة ، أن يشاطرنا بسرور . وكان هذا على كل حال مواتياً لي إلى أقصى الحدود لأنني كنت قد تمكنت من كتابة الأثير « المسيح المنتظر » تمكناً جعلني أستطيع ، في زياراتي المتكررة له ، من أجل الإتيان بمجموعة البصمات لمجموعة شعاراتي ، تلاوةَ مقاطعٍ كبيرة حتى أن عينيه كانتا تغرورقان بالدموع .

وفي يوم الأحد التالي استأنفت العمل بالنشاط ذاته ولما كانت آلية هذا العمل تسلّيني تماماً فانني لم أكن أفكر فيما كنت أكتب وأحفظ . وربما ظلت هذه الجهود على حالها إلى حد كبير في الربع الأول من السنة ، ولكن حين اعتقدت آخر الأمر ، بحكم غروري أنني ما عدت أجد إيضاحاً خاصاً عن التوراة ذاتها ، ولا نظرة أكثر حرية في العقيدة ، بدا لي الغرور الضئيل الذي كان يجري إشباعه في هذا المجال ، باهظ الثمن إلى درجة أكبر من أن استأنف العمل بالنشاط ذاته . وكانت الخطب التي كانت أول الأمر كثيرة الأوراق ، تزداد ضموراً باطراد ، وقد كنت خليقاً أن أمسك عن هذا الجهد تماماً آخر الأمر لولا أن والدي

الذي كان يحب الكمال قد بلغ بي ، بالكلام الطيب والوعود ، أنني صبرت إلى يوم الأحد الأخير بعد العَنْصَرة ، على الرغم من أنه لم يكن يوجد مسجلاً في الختام أكثر من النص ، والعرض ، والتقسيم إلى أوراق صغيرة .

على أن والدي كان له عناد خاص فيما يتصل بالإنجاز . فكان كل ما شُرِع فيه ذات مرة يجب تنفيذه إلى النهاية ، حتى ولو تجلّى في هذه الأثناء ما هو مزعج وممّل وباعث على الاستياء ، بل ما هو غير مُجدٍ ، بصورة واضحة فيما بُدِيءَ به . وكان يبدو كأن الإنجاز يبدو له الغرضَ الوحيد والمثابرة هي الفضيلة الوحيدة وكان علينا إذا شرعنا في أماسيّ الشتاء الطويلة في قراءة كتاب في محيط العائلة ، أن نمضي فيه إلى النهاية ، ولو تولاّنا اليأس جميعاً منه ، ولو كان هو نفسه أول من يأخذ في التثاؤب . ومازلت أذكر شتاءً كهذا ، حيث كان علينا أن نتناول كتاب باورز « تاريخ البابوات » (١) ، وكانت حالة مفزعة ، لا يمكن أن يَرِد فيها إلاّ القليل أو لاشيء من تلك الشؤون الكنسية ، مما يستطيع أن يخاطب الأطفال والأحداث . وقد تبقّى في ذهني من تلك التلاوة ، في هذه الأثناء ، وعلى الرغم من كل اللامبالاة ، وكل النفور ، ما بلغ من كثرته أنني كنت على استعداد لاستعادة شيء من ذلك في العصور اللاحقة .

ومع كل هذه الشواغل والأعمال الغريبة التي كانت تتوالى بعضها وراء بعض بسرعة لايستطيع المرء معها أن يفكر أتراها كانت ممكنة ومجدية ، فان الغرض الرئيسي لم يغب عن عينيْ والدي . لقد كان يسعى إلى أن يحيط بذاكرتي ويلمَّ شتاتها ، ويوجهها إلى الموضوعات القانونية ،

ولذلك أعطاني كتاباً صغيراً ، في صورة كتاب مبادىء الدين المسيحيّ لـ « هوبّه » (٢) وقد جرى إعداده تبعاً للشكل والمضمون الموجودين في كتاب « المؤسسات » ، وسرعان ما حفظت الأسئلة والأجوبة غيباً ، وصرت أستطيع أن أمثل معلّم الديانة المسيحية كما أستطيع أن أمثل المبتديء في تعلّمها . ومثلما كان من التمارين الرئيسية في التعليم الديني في تلك الأيام أن يكشف المرء عن مواد معينة في الكتاب المقدس بأبرع طريقة فقد رُئِيَ هنا أيضاً أن من الضروري التعرف بصورة مماثلة على كتاب مجموعة القوانين (١) التي سرعان ما أصبحت خبيراً بها على أكمل صورة ، كما تناولنا كتاب (ستّروفه) (٢) الموجز في القانون ، ولكن الأمر لم يمض بهذه السرعة هنا ، إذ كانت صيغة الكتاب غير ملائمة تماماً للمبتديء بحيث يستطيع أن يتدبّر أمره بنفسه ولم تكن طريقة والدي في التدريس متحررة بحيث يمكن لها أن تروقني .

وقد تبين لنا بوضوح شديد ، لامن خلال ظروف الحرب التي كنا نجد أنفسنا فيها منذ بضع سنين ، بل من خلال الحياة المدنية ذاتها ، ومن خلال قراءة القصص والروايات ، أن هناك حالات كثيرة جداً تسكت فيها الشرائع ولا تسعف الفرد الذي يمكنه عندئذ أن يرى كيف يخرج من الأزمة . وكنا الآن قد ترعرعنا وكان علينا بحسب العادة أن نتعلم أيضاً ، إلى جانب أشياء أخرى ، المبارزة وركوب الخيل ، للدفاع عن أنفسنا بين الحين والحين ، ولكيلا يكون لنا ، ونحن على الخيل ، مظهر المبتدئين . أما ما يتصل بالنقطة الأولى فقد كان مثل هذا التمرين ممتعاً جداً لنا ، لأننا كنا نعرف قبل عهد طويل كيف نهيء لأنفسنا قضباناً من شجر البندق ، ونتخذ واقيات للأكفّ مضفورة ، بصورة نظيفة ، من شجر الصفصاف ، لحماية اليد . وقد أتيح لنا الآن

أن نضيف إلى ذلك نصالاً فولاذية حقاً ، وكان الصليل الذي يحدثه بذلك بالغ الحيوية .

وكان يوجد في المدينة معلّمان للمبارزة (٣) ، ألمانيّ أكبر سناً وأكثر وقاراً يمارس عمله بالطريقة الصارمة والبارعة ، وفرنسي كان يسعى إلى اكتساب مزيته بالكرّ والانسحاب ، وبالضربات الخفيفة العابرة التي تصحبها بعض الصيحات على الدوام ، وكانت الآراء منقسمة حول الأسلوب الأفضل . وقد أعطيت الفرقةُ الصغيرة التي قدِّر لي أن أتلقّى دروسي معها ، للفرنسيّ ، وسرعان ما تعوّدنا التقدم والتراجع والحَيَدان والانسحاب ، وإطلاق العقيرة مع ذلك ، على الدوام ، بالصيحات التقليدية . ولكن عدداً من معارفنا كانوا قد توجهوا نحو معلم المبارزة الألماني وجعلوا يتمرنون على نقيض ذلك مباشرة ، وقد أدت هذه الأساليب المختلفة لمعالجة تمرين على هذا الجانب من الأهمية ، واقتناع كل واحد بأن معلّمه هو الأفضل ، إلى انقسام فعليّ بين الفتيان الذين كانوا في سن واحدة تقريباً . وكانت مذاهب المبارزة توشك أن تثير اشتباكات خطيرة كل الخطر ، لأن النزاع كان يحتدم بالكلمات احتداماً يكاد يعدل في شدته المبارزة بالنصال ، ولكي يوضع في النهاية حدٌّ لهذه المسألة ، أقيمت مباراة في المبارزة بين كلا المعلمين لا أحتاج إلى وصفها بالتفصيل ، وكان الألماني منتصباً في وِقْفَةٍ كالجدار ، منتبهاً إلى مزيّته ، وقد عرف كيف يجرّد خصمه المرّة بعد المرة من سلاحه بموالاة الضرب العنيف وعقد النصال (١) . وقد زعم هذا أن

(١) يقصد بذلك مطابقة صفحة نصل السلاح على صفحة سلاح الخصم وبالتالي انتزاع السلاح من اليد بالضغط العنيف .

ذلك ليس بالبرهان ، واستأنف حركاته المرنة ، يحبس على الآخر أنفاسه ، وألحق بالألماني أيضاً بعض الضربات التي كانت خاية ، لو كان الأمر جداً ، أن تبعث به إلى العالم الآخر .

وعلى الإجمال لم يتحقق حسم شيء ، ولا تم تحسين شيء ، إلاّ أن بعضهم التفّوا حول ابن وطنهم ، وكنت أنا بين هؤلاء أيضاً ، ولكني كنت قد أخذت الكثير جداً عن المعلم الأول ، وانقضى من أجل ذلك وقت طويل ريثما استطاع المعلم الجديد أن يقلب عاداتي من جديد ، وكان أقل سروراً بنا نحن المنقلبين إليه منه بتلاميذه الأصلاء .

وسارت الأمور في الفروسية (٢) على نحو أسوأ بالنسبة إليّ . وقد اتفق أن أرسلوني إلى الحلبة في الخريف فكانت بدايتي في الفصل البارد الرطب . وكانت المعالجة المتحذلقة لهذا الفن الجميل منفّرة لي جداً . فكانوا يبدأون الحديث ويختتمونه بشدّ الفخذين . ولم يكن يتهيّأ للواحد منا أن يُقال له أين توجد الخاتمة في الحقيقة ، وهو الأمر الذي يفترض أن كل شيء يتوقف عليه : ذلك لأن القوم كانوا ينطلقون بغير ركاب على الخيل جيئة وذهاباً . وفي النهاية كان التعليم يبدو أنه قائم على مجرد الغش وتوبيخ الطلاب . فاذا ما نسي المرء أن يعلّق اللجام أو يخرجه أو ترك القضيب يسقط ، أو حتى القبعة ، فان كل تقصير ، وكل مصيبة ، كان لابد من دفع ثمنها بالمال ، وكان يتعرض فوق ذلك للضحك ، وقد سبب لي هذا أسوأ مزاج ، وذلك بوجه خاص لأنني وجدت مكان التدريب نفسه لايطاق البتة . وكان المكان الكريه ، الكبير ، الرطب أو المغبّر ، والبرودة ورائحة العفونة ، كل هذه الأشياء معاً كانت تنفرّني إلى أقصى الدرجات ، ولما كان رئيس الحظيرة يعطي

الآخرين ، لأنهم ربما كانوا يرشونه بوجبات الإفطار وسائر الهدايا .
وربما ببراعتهم أيضاً ، أفضل الخيل دائماً ليركبوها ، بينما كان يعطيني
أسوأها وكان يدعني أنتظر طويلاً ، ويجعلني ، كما كان يبدو ، في
المؤخرة ، فقد قضيت أكثر الساعات إثارة للسخط في عمل كان يفترض
فيه أن يكون أكثر الأعمال متعة في الدنيا . أجل ، لقد ظل الانطباع
عن ذلك الزمان ، وعن تلك الظروف ، حياً لديّ بحيث كنت أتجنّب
حلبات الفروسية المغطّاة تجنّب المحاذير ، ولم أكن ألبث فيها إلاّ
قليلاً من اللحظات على الرغم من أنني تعودت بعد ذلك بقليل أن أركب
الخيل بحماسة وجرأة وكنت قلّما أفارق الخيل أياماً وأسابيع . وأخيراً
فقد يحدث في أحيان كثيرة بما يكفي ، أننا حين ينبغي أن تقدّم إلينا
بدايات فن مكتمل ، يتمّ هذا بأسلوب مزعج ومفزع . وقد بيّنت
المباديء التربوية في العصور اللاحقة مدى الاقتناع بما ينطوي عليه ذلك
من الإزعاج والإيذاء ، وبأن كل شيء لابد أن يقدّم إلى الأحداث
بطريقة سهلة ، ممتعة ، مريحة ، وهو الأمر الذي ينجم عنه من جديد
شرور ومساويء أخرى .

ومع دنوّ الربيع أصبحت الأحوال عندنا أكثر هدوءاً من جديد ،
ولئن كنت فيما مضى أجتهد في تأمل المدينة بمبانيها الدينية والدنيوية ،
والعامة والخاصة ، وأجد بوجه خاص أكبر المتعة في القديم الذي كان
ما يزال سائداً في تلك الأيام ، فقد كنت أجتهد في أن أجسّد لنفسي ،
من خلال « حوليات » ليرسْنَر (١) ، ومن خلال الكتب والكراريس
الأخرى الموجودة بين مجموعة أبي الفرانكفورتيّة ، شخصيات العصور
الغابرة ، وهو الأمر الذي بدا لي موفقاً على نحو جيد تماماً بالانتباه الكبير
إلى ما هو متميّز وخاصّ في العصور والعادات والشخصيات الهامة .

وكان يلفت نظري ، بين الآثار القديمة منذ الطفولة ، الجمجمة المنصوبة على برج الجسر ، وهي جمجمة مجرم بحق الدولة صمد لثلاثة أو أربعة . كما تبيّن ذلك الرؤوس الحديدية المدبّبة الحالية ، منذ عام ١٦١٦ ، عبر كل مساويء الزمان والطقس . وكان الناس كلما عادوا من زاكسنهاوزن إلى فرانكفورت يرون البرج أمامهم ، والجمجمة نصب أعينهم ، وكان يسرني أن استمع وأنا بعدُ غلام ، إلى رواية قصة هؤلاء الثوّار ، فيتْمِلْش ورفاقه ، وكيف كانوا ساخطين على السلطة في المدينة ، فثاروا عليها وحاكوا خيوط العصيان ، ونهبوا مدينة اليهود (١) ، وأثاروا منازعات مستنكرة ، ولكنهم وقعوا في الأسر آخر الأمر ، وحكم عليهم ممثلوا الامبراطور بالإعدام ، وكنت معنياً فيما بعد بمعرفة التفاصيل الأدقّ وبالإلمام بما عسى أن يكون عليه هؤلاء القوم . فلما تبيّن لي الآن من كتاب قديم معاصر مزوّد بالرسوم أن هؤلاء القوم قد حكم عليهم بالموت حقاً ولكن كثيراً من أعضاء المجلس البلدي عزلوا أيضاً في الوقت نفسه ، لشيوع ضروبٍ شتى من الفوضى ، وكثيرٍ جداً من الأعمال المنطوية على انعدام المسؤولية ، ولما ألممْتُ الآن بالتفاصيل الأوفى ، وعرفت كيف حدث كل شيء ، رثيت للبشر التعساء الذين يحق للمرء أن ينظر إليهم على أنهم ضحايا جادوا بأنفسهم من أجل دستور مستقبليّ أفضل ، إذ ينسب إلى ذلك الزمان النصّ على إجراء يوجب إسهام أسرة ليمبورج النبيلة القديمة ، وأسرة فراونشتاين المتحدرة من أحد النوادي ، والحقوقيين والتجار والعمال ، في إدارة يجري تكميلها باقتراع معقّد على طريقة مدينة البندقية ، ويحدّ سلطاتها زملاء مدنيون ، ويناط بها القيام بما هو حق ، بدون أن تدع حرية خاصة للظلم .

وكان من الأشياء المنطوية على النُذُر التي ألحّت على الغلام ، وعلى الفتى بلاريب أيضاً ، وبصورة خاصة ، حالة مدينة اليهود ، وكانت تدعى في الحقيقة حارة اليهود ، لأنها كانت لاتكاد تبلغ ما يزيد على شارع وحيد ربما كان في العصور الغابرة محصوراً بين سور المدينة والمقبرة كأنه في خندق . وكان الضيق والقذارة والزحام ونبرة اللغة المزعجة ، كل هذه الأمور كانت تحدث معاً أشد الانطباعات ازعاجاً إذا ما مرّ المرء مروراً عابراً بالبوابة وأطلّ بنظره إلى هناك ، واستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن أجرؤ على الدخول هناك ولم أعد من هناك بسهولة حين تخلصت ذات مرة من مضايقات مثل هذا العدد الكبير من البشر الذين لا يكلّون من المساومة والمطالبة أو العَرْض . وكانت تحوم في الأجواء مع ذلك الحكايات القديمة عن قسوة اليهود على أبناء المسيح ، تلك القسوة التي نراها مصوّرة في « حوليات » جوتفريد بصورة فظيعة ، باعثة على الانقباض بالقياس إلى نفوس الشباب . وعلى الرغم من أن النظرة إليهم قد تحسنت في العصر الحديث فقد كانت اللوحة الساخرة الفاضحة الكبرى التي كانت ما تزال تُرى بصورة جليّة تحت برج الجسر ، على جدار منعطَف تمثلّ إيذاءً لهم ، وعداوة فائقة : وذلك لأنها لم تكن صادرة عن جسارة خاصة ، وإنما أعدت من قبل مؤسسة عامّة .

وقد ظلوا في هذه الأثناء مع ذلك شعب الله المختار ، وكانوا مع كلّ ما حدث ، يتعلّقون بذكرى العصور الغابرة ، وكانوا فوق ذلك أيضاً بشراً بلاريب ، نشيطين ، لطفاء ، بل لم يكن في وسع المرء أن يضن عليهم بالاحترام حتى فيما يتصل بعنادهم في التعلّق بتقاليدهم .

وكانت الفتيات بعد هذا جميلات ، وربما كان يؤلمهن أن يتودّد إليهن فتى مسيحيّ ويجاملهن حين يلقاهن في ميدان الصيادين يوم السبت . ولذلك كنت في غاية الشوق إلى التعرّف على طقوسهم . ولم يهدأ لي بال حتى زرت مدرستهم مراراً ، وشهدت ختاناً ، وزفافاً ، وكوّنت لنفسي صورة عن عيد شكر الحصاد . وكنت ألقى استقبالاً حسناً في كل مكان ، وألقى ضيافة حسنة ، وأُدعى إلى العودة ، إذ كانت الشخصيات ذات النفوذ هي التي تبعث بي إلى هناك أو توصي بي خيراً .

وكذلك كنت ، وأنا القاطن الصغير في المدينة الكبيرة ، أقذف بنفسي من موضوع إلى آخر ، عَوْداً على بدء ، ولم يخلُ الأمر ، في غمرة الهدوء والأمن في المدينة ، من مشاهد مستنكرة . فكان الحريق القريب أو البعيد يذهب بالسلام المنزليّ طوراً ، وكانت الجريمة المكتشفة ، والتحقيق فيها وعقوبتها يبعثن الاضطراب في المدينة أسابيع كثيرة طوراً آخر . وكان لابد لنا أن نكون شهوداً على عمليات إعدام مختلفة (١) ولعل مما يجدر ذكره أنني شهدت احراق كتاب . وكان الأمر يتصل بنشر رواية هزلية فرنسية كانت تراعي جانب الدولة ولكنها لم تكن تراعي جانب الدين ولا الأخلاق . وكان في الواقع ثمة شيء رهيب في شهود توقيع عقوبة على كائن لاحياة فيه ، وكانت الرزم الكبيرة تنفجر في النار ، ويتم تأجيج النار فيها بتحريكها بملاقط الفرن وتُقرَّب من أجل مزيد من التماسّ مع اللهيب ، ولم يطل الأمر كثيراً حتى تطايرت الأوراق المحترمة في الهواء ، وأخذ الجمهور يتلقّفها بشوق . ولم يهدأ لنا بال نحن أيضاً حتى تمكنّا من تحصيل نسخة ، ولم يكن أولئك الذين عرفوا كيف يؤمّنون لأنفسهم المتعة المحظورة على النحو ذاته ،

بالقليلين . بل إن المؤلف لو كان يبتغي الشهرة لما استطاع هو نفسه أن يتدبّر هذا على نحو أفضل .

ومع ذلك فقد كان ثمة بواعث سلمية تبعث بي إلى المدينة جيئة وذهاباً ، فقد كان والدي علمني في وقت مبكر أن أرعى شؤونه الصغيرة ، وكان يكلفني بوجه خاص أن أنبّه العمال (١) الذين كان يشغّلهم ، إذ كانوا في العادة يتوقفون عن العمل عنده وقتاً أطول مما يجوز لهم ، لأنه كان يريد عمل كل شيء بصورة دقيقة ، وقد دأب على تخفيض الأسعار مع الدفع الفوري . وقد وصلت بذلك إلى كل ورشات العمل تقريباً ، ولما كان في طبعي أن أزج بنفسي في شؤون الآخرين ، وأن أتحسّس كل نوع خاصّ من أنواع الحياة البشرية ، وأن أسهم فيه عن طيب خاطر ، فقد قضيت بعض الساعات الممتعة بدافع أمثال هذه المهمّات ، وتعرّفت على أسلوب كل واحد منهم في التصرّف ، وما يترتّب على الشروط التي لابد منها في هذا النمط من الحياة أو ذاك ، من سرور وألم ، ومن أشياء منغّصة أو ملائمة . وبذلك تقربت إلى هذه الطبقة التي تصل ما بين الأدنى والأعلى . ذلك لأنه حين يقف في الجانب الأول أولئك الذين يشتغلون بالمنتجات البسيطة والخام ، وفي الجانب الآخر أولئك الذين يريدون أن يتمتعوا بشيء مصنوع ، فانما يعمل النقابي بعقله ويده على أن يتلقى كلا ذَيْنكَ الطرفين شيئاً من الطرف الآخر ، وعلى أن يتمكن كل طرف من الحصول على رغباته بطريقته . وقد كان نظام الأسرة في كل حرفة ، ذلك النظام الذي يكتسب شكله ولونه من المهنة ، موضوع اهتمامي الهادىء على النحو ذاته ، وهكذا تولّد لديّ الشعور بالمساواة واشتد بأسه ، وهي مساواة

إن لم تكن بين البشر جميعاً فهي بلاريب مساواة بين ظروف البشر جميعاً ، وذلك حين بدت لي الحياة المجردة شرطاً رئيسياً ، وبدا لي كل شيء سواها عرضياً لاشأن له .

ولما كان والدي لا يستسهل أن يسمح لنفسه بنفقة تستهلكها متعة اللحظة على الفور ، إذ قلّما أذكر ، أننا انطلقنا معاً في نزهة ، وتناولنا شيئاً في أحد المقاصف ، فإنه لم يكن في مقابل ذلك يضنّ بتأمين مثل هذه الأشياء التي تمتاز فوق قيمتها الذاتية بمظهر خارجيّ حسن أيضاً . ولم يكن أحد ليتمنّى السلام أكثر منه ، على الرغم من أنه لم يكن يحسّ في الأيام الأخيرة من الحرب بأدنى مضايقة . وفي هذه الأجواء كان قد وعد أمي بعلبة ذهبيّة مطعّمة بالماس تتلقّاها بمجرد إعلان السلام ، وظل القوم يشتغلون بها بضع سنوات على أمل هذا الحدث السعيد . أما العلبة ذاتها ، وكانت كبيرة الحجم ، فقد صنعت في هاناوْ ، وكان يزين الغطاء سلة من الأزهار تحوم فوقها حمامة مع غصن الزيتون . وكان المجال متروكاً للمجوهرات التي كان يفترض أن يوضع جزء منها عند الحمامة ، وجزء عند الأزهار ، وجزء في المكان الذي جرت العادة أن تفتح فيه العلبة . وكان الجواهري الذي عُهِد إليه بالتنفيذ الكامل ، وسُلِّمت إليه الحجارة الضرورية إلى جانب ذلك ، يدعى لاوتنزاك ، وكان رجلاً بارعاً مرحاً ، وكان ، شأن كثير من الفنانين الظرفاء ، قلّما يؤدي ما يؤديه على سبيل الضرورة ، بل دأب على أداء ما يؤديه اعتسافاً وابتغاء مرضاة نفسه . وسرعان ما وضعت الأشكال كما ينبغي أن توضع في رسمها الفنيّ ، على غطاء العلبة ، على شمع أسود ، وتميّزت بذلك تميّزاً جيداً جداً ، ولكنها أبَتْ أن تتحرّر

من الشمع تماماً ، لتبلغ الذهب ، وفي البداية ترك والدي المسألة على هذه الصورة ، ولكن حين أخذ الأمل بالسلام (١) ينتعش على نحو مطرد ، وحين أصبح الناس يريدون في النهاية الاطلاع على الشروط ، ولاسيما تتويج الأرشيدوق جوزيف ملكاً رومانياً ، بصورة أدق ، كان صبر والدي ينفد باطراد ، وكان عليّ أن أزور الفنان المتقاعس بضع مرات في الأسبوع ، بل في كل يوم تقريباً ، وبفعل إلحاحي وإقناعي مضى العمل قدماً على رغم بطئه : وذلك أنه لما كان ذلك العمل من النوع الذي يستطيع المرء أن يأخذ فيه تارة ثم ينفض يده منه تارة أخرى ، فقد كان يوجد دائماً شيء ما يحتل محله ويزيحه جانباً .

وكان السبب الرئيسيّ لهذا السلوك عملٌ كان الفنان قد تولاّه لحسابه الخاص . وكان كل الناس يعرفون أن الامبراطور جوزيف (١) كان ينطوي على ميل عظيم إلى المجوهرات ، ولاسيما الحجارة الملونة . وكان لاوتِنْزاك قد أنفق مبلغاً ضخماً ، كان ، كما تبيّن فيما بعد ، أكبر من ثروته ، على مثل هذه الحجارة الكريمة ، وشرع في تشكيل طاقة من الأزهار منها ، كان مقدّراً فيها لكل حجر أن يبرز بصورة ملائمة ، تبعاً لشكله ولونه ، وأن يشكل المجموع قطعة فنية تستحق أن تظلّ محفوظة في قاعة الكنوز الامبراطورية . وكان بحسب أسلوبه المبني على التسلية قد اشتغل بذلك بضع سنوات ، ولما كان الناس يتوقعون ، بعد السلام المأمول قريباً ، وصول الامبراطور لتتويج ولده في فرانكفورت ، فقد جعل يسرع الآن في إكماله وضم بعضه إلى بعض في النهاية . وكان يستخدم ولعي بالتعرف على أمثال هذه الموضوعات استخداماً بارعاً جداً ، ليسليني في صورة رسول مذكِّر ، وليثنيني عن

عزمي . وكان يحاول أن يعرفني على هذه الحجارة (٢) ؛ وينبهني إلى خصائصها وقيمتها حتى حفظت آخر الأمر غيباً كل تشكيلته ، وكان في وسعي أن أعرضها مُطرياً إياها بمثل العرض الجيد الذي يؤديه هو أمام زبون . ومازال ذلك ماثلاً في ذهني الآن ، وقد رأيت قطعاً للعرض والبهرجة من هذا النوع أكبر قيمة ولكنها ليست بأكثر منها ظُرفاً . وكان يملك فوق هذا مجموعة جميلة أخرى من النحاس ، وأعمالاً فنية أخرى كان يسرّه أن يتسلّى بها . وقد أنفقت لديه كثيراً من الساعات التي لم تكن عديمة الجدوى . وأخيراً ، وحين كان قد حُدد بالفعل موعد المؤتمر في هوبرتنبُرْج ، قام بأداء شيء أخير ، حباً بي ، ووصلت الحمامة مع الأزهار جميعاً في عيد السلام بالفعل إلى يَديْ أمي .

وكنت أتلقى بعض المهمات المماثلة أيضاً ، لمتابعة الصور المطلوبة لدى الرسامين . وكان والدي قد حدّد فيما بينه وبين نفسه تصوّراً قلَّ من كان يتحرر منه ، ومؤدّاه أن الصورة الزيتية المرسومة على الخشب لها مزية كبيرة على الصورة الأخرى التي تحمل على مجرد قماش الكتان . ولذلك كان امتلاك ألواح جيدة من خشب البلوط ، بكل الأشكال ، همَّ والدي الكبير ، إذ كان يعلم حق العلم أن الفنانين الطائشين يعتمدون في هذه الناحية بالذات على النجار . وكانوا يلتمسون أقدم الألواح ، وكان على النجار أن يبدأ عمله بطلاء هذه الألواح بالغراء ، وصقلها وإعدادها ، ثم تظل طوال سنوات محفوظة في حجرة عليا حيث يمكن لها أن تستكمل جفافها ، ثم يُعهَد بها إلى الرسام يونكر (١ الذي يجب أن يصوّر عليها أصيصاً للأزهار مزخرفاً ، مع أهم الأزهار .

تبعاً للطبيعة ، بطريقته الفنية التزيينية . وكان ذلك في الربيع مباشرة ؛ ولم يكن يفوتني أن آتيه بضع مرات في الأسبوع بأجمل الأزهار التي كانت تقع تحت يديّ ، والتي كان يضيفها على الفور أيضاً ، ويؤلف بين مجموع هذه العناصر شيئاً فشيئاً ، بأكثر الطرق أمانة وجدّاً . واصطدت في بعض المناسبات فأرة أتيته بها ، ولما كان له ولع بمحاكاة هذا الحيوان الظريف للغاية ؛ فقد صوّره بالفعل أدقّ تصوير وهو يقرض سنبلة من الحبوب عند قاعدة أصيص الأزهار . وكان يتم تأمين مزيد من أمثال هذه الموضوعات الطبيعية البريئة ، كالفراشات والجنادب ، وتصويرها ، حتى ائتلف من ذلك آخر الأمر صورة نفيسة إلى أقصى الحدود فيما يتعلّق بالمحاكاة والتنفيذ .

ولذلك لم يكن عجبي قليلاً حين أعلن إليّ الرجل الطيب ذات يوم ، حين كان ينبغي أن يسلّم العمل الفني قريباً ، بصورة مفصّلة ، كيف أن الصورة ما عادت تروق له ، وذلك أنها على حين كانت تبدو جيدة بلا ريب في تفاصيلها ، لم تكن حسنة التأليف من حيث الجملة ، لأنها نشأت هكذا شيئاً فشيئاً ، وقد ارتكب هو في البداية خطأً بصريّاً ، وهو أنه لم يصمّم لنفسه على الأقل مخططاً عاماً للضوء والظل وكذلك للألوان يستطيع المرء بموجبه أن ينسّق الأزهار كلاً على حدة . وجعل يراجع معي الصورة التي كانت تنشأ خلال نصف عام قبالة عينيّ ، والتي كانت أجزاء منها تعجبني ، وعرف كيف يقنعني إقناعاً كاملاً فكان ذلك من دواعي كربي . ثم إنه رأى في الفأر المرسوم غلطةً ، إذ قال إن « مثل هذه الحيوانات تحدث عند كثير من الناس تقزّزاً ، وما كان ينبغي أن يوردها المرء هنا حيث يريد المرء أن يثير الإعجاب » .

وكنت أشعر الآن بازدراء حقيقي لهذا العمل الفنّي ، مثلما يحدث لذلك الذي يرى نفسه قد بريء من حكم مسبق فيبدو لنفسه أذكى مما كان كثيراً ، ووافقت الفنان كل الموافقة ، حين أوعز باعداد لوحة أخرى بالحجم ذاته وضع عليها ، بحسب الذوق الذي كان يملكه ، إناءً أفضلَ صياغةً ، وطاقةً من الأزهار منسّقة على نحو أكثر فنّاً ، وعرف أيضاً كيف يختار المخلوقات الهامشية الصغيرة مثلما عرف كيف يوزعها ، بصورة تزيينية باعثة على البهجة . ورسم هذه اللوحة بأقصى العناية ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك بالطبع إلاّ نقلاً عن تلك المرسومة من قبل أو من الذاكرة التي كانت تسعفه حقاً بعد مران طويل جادّ . وانتهت اللوحتان كلاهما الآن . وسررنا بالأخيرة سروراً شديداً ، إذ كانت أكثر فنيّةً حقاً ، وأكثر استهواءً للعيون . وبوغت والدي بقطعتين بدلاً من قطعة ، وتُرِك له الخيار . فوافق على رأينا ، وعلى أسبابه ، ولاسيما حسن النية والهمّة ، ولكنه اختار الأولى بعد أن ظل يتأمّل كلتا الصورتين بضعة أيام ، دون أن يتحدث عن هذا الاختيار بكلام كثير . واستعاد الفنان ، مغضباً ، صورته الثانية التي كان يحسن بها الظن ، ولم يستطع أن يكتم عني ملاحظة مفادها أن اللوحة الجيدة المتّخَذة من البلوط والتي رسمت عليها الصورة الأولى قد أسهم في اختيارها قراري بلاريب .

ولما كنت أعود هنا إلى استذكار فن الرسم فان ثمة مُنْشَأة كبرى تبرز إلى ذاكرتي أنفقت فيها كثيراً من الوقت لأنها كانت تجتذبني وهي ناظرُها ، بوجه خاص . وكانت هذه مصنع القماش المشمّع الكبير الذي كان الرسام نوتْناجل (١) قد أنشأه . وكان فناناً بارعاً ، ولكنه

كان يميل إلى الصناعة أكثر من ميله إلى الفن سواء بموهبته أم بأسلوبه في التفكير . وكان يتم ، في مجال كبير جداً من الساحات والبساتين ، صنع كل أنواع القماش المشمّع ، بدءاً من أخشن أنواعه التي ترفع بالملاوق والتي كانت تستعمل لعربات الأسلحة والاستعمالات المشابهة ، ومروراً بالسّجاجيد التي كانت تطبع عليها الأشكال ، وانتهاء بالأشكال الأرقّ فالأرقّ ، التي كانت تصوَّر عليها الأزهار الصينية والخيالية حيناً ، والطبيعية حيناً آخر . والأشكال البشرية تارة ، والمناظر الطبيعية تارة أخرى ، بفرشاة العمال المهرة . وكان هذا التعدد في الجوانب الذي يمضي إلى ما لانهاية له ، يسلّيني جداً ، وكان شغل هذا العدد الكبير من البشر ، بدءاً من أدنى الأعمال ، إلى تلك الأعمال التي لم يكن في وسع المرء أن ينكر عليها قيمة فنية معينة ، يجتذبني إلى أقصى الحدود . وتعرفت على هذا الجمهور المتمثل في رجال شبان وشيوخ ، يعملون في حجرات كثيرة بعضها وراء بعض ، وأدليت بدلوي بينهم . وكان رواج هذه السلعة قوياً للغاية . فكان كل من يبني في تلك الأيام أو يؤثث مبنىً ، يريد أن يتجهّز مدى حياته ، وكانت هذه السجاجيد ذات القماش المشمع غير قابلة للتلف قطعاً . وكان لدى نوتناجل نفسه من العمل ما يكفيه في إدارة كل هذا ، وكان يجلس في حجرة مكتبه ، يحيط به رؤساء العمّال والمساعدون . وكان يشتغل فيما يبقى لديه من الوقت ، بمجموعته الفنية التي كانت تتألف في الدرجة الأولى من نقوش على النحاس ، كان يتاجر بها مثلما كان يفعل باللوحات ، من حين إلى آخر ، بالفعل . وكان قد تعلّم في الوقت نفسه حب الحفر على المعادن ، فكان يحفر بالمواد الكيميائية ألواحاً مختلفة ، واستمرّ في هذا الفرع من فروع الفن إلى آخر عمره .

ولما كان مسكنه يقع قريباً من بوابة ايشنهايم ، فقد كان طريقي يقودني في العادة ، حين أكون قد زرته ، إلى خارج المدينة ، وإلى الأراضي التي كان والدي يملكها أمام الأبواب . وكانت إحداها بستاناً للفاكهة تستعمل أرضه مرعىً ، حيث كان والدي يسهر على الزراعة اللاحقة للأشجار وسائر ما يفيد في القيام بأود العيش ، بعناية ، على الرغم من أن الأرض كانت مؤجرة . وكان ثمة كرمٌ معتنىً به عناية جيدة جداً يعطيه مزيداً من الشغل ، قبالة بوابة فريدبرج ، حيث كانت تزرع بين سلاسل أشجار الكرمة سلاسل من الهليون بعناية كبيرة ، وتحظى بالخدمة . ولم يكن ينقضي ، في فصل السنة الجيد ، يوم تقريباً ، دون أن يتوجه أبي إلى هناك ، حيث كان يتاح لنا في معظم الأحيان أن نصحبه وكنا نجد المتعة والسرور في ذلك ، من بواكير الربيع إلى أواخر ثمرات الخريف . وتعلمنا الآن معالجة شؤون البساتين (١) ، التي أصبحت في النهاية معروفة ومألوفة لدينا لأنها كانت تتكرّر في كل عام . ولكن قطاف العنب ، بعد بعض ثمار الصيف والخريف ، كان في آخر الأمر هو الأكثر إمتاعاً ، وكان غاية ما نتمنّى . ولذلك فلاعجب أنه مثلما يضفي الخمر ذاته على الأماكن والربوع التي ينمو فيها ويُشرَب ، طابعاً أكثر حريّة ، فان أيام قطاف العنب هذه أيضاً تنشر ، إذ تختتم الصيف وتستهلّ الشتاء في الوقت ذاته ، بهجة لاتصدّق ، فكان المرح والفرح يمتدّ على منطقة بأسرها ، إذ كانت تسمع في النهار الهتافات وإطلاق النار من كل حدب وصوب ، والصواريخ والرصاصات المضيئة في الليل تؤذن هنا طوراً ، وهناك طوراً آخر بأن الناس مازالوا ساهرين في كل مكان ، وهم يودون ، في إنتاجهم ، لو يتسع الزمان

بهذه الاحتفالات قدر الإمكان . على أن الجهود اللاحقة في العصْرِ وأثناء التخسير في القبو كانت تهب لنا في المنزل أيضاً عملاً بهيجاً ، وهكذا كنا في العادة ندخل في الشتاء دون أن نعيَ ذلك حقاً .

وقد كان استمتاعنا بهذه الممتلكات الريفية أكبر من ذلك في ربيع عام ١٧٦٣ ، حين أصبح الخامس عشر من شباط في هذا العام ، بابرام صلح هوبرتسبرج، يوم عيد لنا كان مقدراً للشطر الأكبر من حياتي أن ينقضي في ظل آثاره السعيدة . ومع ذلك فأنا أرى ، قبل أن استأنف خطواتي ، أنني مدين بالإتيان على ذكر بعض الرجال الذين كان لهم أثر بالغ في صباي .

كان فون أولينشلاجر (٢) ، عضو أسرة فراونشتاين قاضياً محلّفاً وصهراً للدكتور أورت (٣) السالف الذكر ، وهو رجل وسيم ، لطيف ، فائق الحيوية ، وكان خليقاً في زيّه الاحتفالي الخاص بالعمدة ، أن يمثل أكثر الأحبار الفرنسيين وجاهة بلاريب ، وكان قد تحوّل بعمله ، بعد دراساته الجامعية،إلى شؤون البلاط والدولة ، ومهد الطريق لرحلاته من أجل هذه الأغراض أيضاً ، وكان يقدّرني بوجه خاص ، ويتحدث إليّ غالباً عن الأشياء التي كانت تستأثر باهتمامه ، وكنت ألازمه حين كان يكتب تفسيره للمرسوم الذهبيّ ، إذ كان يعرف كيف يكشف لي عن قيمة هذه الوثيقة ومكانتها ، بوضوح شديد . ثم إن مخيلتي تعرضت في تلك الأوقات العصيبة المضطربة ، لنكسة ، وذلك لأنني لم أكن أستطيع أن أكفّ عن تمثُّل ما كان يسرده عليّ سرداً تاريخياً ، وكأنه ماثل بين يديّ ، مع رسم كامل للشخصيات والظروف ، بل مع تقديمه في بعض الأحيان بصورة إيمائية ، وهو الأمر الذي سرّه كثيراً ، وكان يحثّني ، باعجابه ، على الإعادة .

وكنت قد اعتدت منذ الطفولة عادة غريبة ، وهي أن أحفظ دائماً بدايات الأسفار والفصول من المجلّد غيباً ، وكان ذلك أولاً في أسفار موسى الخمسة ، ثم في الانياذة ، وفي كتاب « مسخ الكائنات » (*) ، وذلك ماصنعت الآن بالمرسوم الذهبي ،وكنتأحملولي ّ نعمتي في كثير من الأحيان على الابتسام ، حين كنت أصيح فجأة، وبكل ّ الجد ّ (١) :

Omne regnum in se divisum desolabitur: nan Principes ejus facti sunt socii furum) .

« كل مملكة تنقسم على نفسها مصيرها الفناء ، إذ يغدو أولو الأمر فيها شركاء اللصوص » وكان الرجل الذكيّ يهزّ برأسه مبتسماً ، ويقول مطرقاً ساهماً : « أيّ أيام كانت هذه التي كان الامبراطور فيها يدلي إلى أمرائه في مؤتمر كبير للدولة ، بأمثال هذه الكلمات »

وكان فون أولينشلاج على جانب كبير من الظُرف في المعاشرة ، وكان المرء قلّما يرى عنده أصحاباً ، غير أنه كان شديد الميل إلى التسلية القائمة على خفة الروح ، وكان يدفعنا ، معشر الصغار ، إلى عرض مسرحية من حين إلى آخر ، إذ كانوا يرون أن مثل هذا التمرين مفيد للأحداث بوجه خاص ، وقدمنا « كانوت » لشليجل (٢) ، التي كان نصيبي فيها دور الملك ، ونصيب أختي دور إستريشه ، وكان أولفو من نصيب الابن الأصغر للأسرة . ثم تجرّأنا على « بريتانيكوس » إذ كان علينا تحقيق المران على اللّغة أيضاً إلى جانب موهبة التمثيل . وتلقيت دور نيرون ، وأختي دور(١)جريبينا ،والابن الأصغر دور بريتانيكوس (٣) ، وتلقينا من الثناء أكثر مما نستحق ، واعتقد مع

(*) . Metamorphosen

ذلك أننا أدّينا ذلك على وجه أفضل مما أُثنِيَ به علينا . وعلى هذا النحو كانت علاقتي بهذه الأسرة أفضل العلاقات ، وقد غدوت مديناً لها ببعض المتعة والتطوّر الأسرع .

وكان فون راينياك (١) ، وهو من بيت عريق في النبالة ، بارعاً مستقيماً ، ولكنه عنيد ، وكان رجلا نحيفاً أسمر داكناً ، لم أره قط يبتسم ، وقد حلت به مصيبة ، وهي أن ابنته الوحيدة اختطفت من قبل صديق للعائلة ، وجعل يلاحق صهره بأعنف القضايا ، ولما كانت المحاكم بشكليّاتها تأبى أن تستجيب لشهوة الانتقام عنده استجابة كافية ، لا من حيث السرعة ولا من حيث الشدّة ، فقد نابذها بالعداوة ، ونشأت عن المنازعات منازعات ، وعن القضايا قضايا ، فانسحب منكفئاً على نفسه تماماً ، إلى بيته ، وعاش في حجرته السفلية التي كانت رحبة ولكنها باعثة على الكآبة ، لم تدخلها منذ كثير من السنين فرشاة دهّان الجصّ ، وربما لم تدخلها مكنسة خادم إلاّ قليلاً وكان في وسعه أن يحتملني بسرور ، وكان قد أوصاني بابنه الأصغر بصورة خاصة . وكان يرى أقدم أصدقائه الذين كانوا يعرفون كيف يتوجهّون إليه ، وعملاءه ووكلاء دعاواه ، حول المائدة في بعض الأحيان ، ولم يكن يمتنع حينئذ قط عن دعوتي أنا أيضاً ، وكان القوم يأكلون على مائدته طعاماً جيداً جداً ، ويشربون ما هو أفضل من ذلك بعدُ ومع ذلك فقد كان ثمة مدفأة كبيرة تدخّن من خلال شقوق كثيرة فتسبب للضيوف أشد ضروب الإزعاج . وقد تجرأ أحد أقرب المقربين إليه ذات مرة على الإشارة إلى ذلك ، إذ سأل رب المنزل هل يستطيع أن يطيق مثل

هذا الإزعاج الشتاءَ بطوله ، فردّ على ذلك ، بجواب تيمون الثاني (٢)* والمعذّب لنفسه (* *) قائلاً : « ألا فليجعل الله هذا أكبر المصائب التي تعذّبني ! ولم يقتنع إلاّ في وقت متأخر برؤية ابنته وصهره من جديد ، على أن الصهر لم يكن يجوز له أن يظهر من جديد أمام عينيه .

وكان حضوري يحدث أثراً حسناً جداً على هذا الرجل الطيب والتعيس بالقدر ذاته . وذلك لأنه حين كان يسره أن يحادثني ويعلمني بصورة خاصة أحوال العالم والدولة ، كان يبدو كأنه يشعر هو نفسه بالارتياح والانشراح . ولذلك فقد كان الأصدقاء القلائل القدامى يستخدمونني في كثير من الأحيان حين يرغبون في التخفيف من مزاجه العكِر وإقناعه بأي ضرب من ضروب التسلية . وكان يخرج معنا بالفعل أكثر من ذي قبل في بعض الأحيان ، ويشاهد من جديد المنطقة التي لم يكن قد ألقى عليها نظرة منذ كثير من السنين ، فكان يذكر المالكين القدامى ، ويتحدث عن شخصياتهم ، وما جرى لهم ، حيث كان يثبت دائماً أنه امرؤ صارم ، ولكنه يبدو مع ذلك في كثير من الأحيان مرحاً خفيف الروح ، وسعينا الآن إلى أن نصله بأناس آخرين أيضاً فكاد ذلك ينتهي بعاقبة وخيمة .

وكان ثمة سيد يدعى فون مالابارت (١) ، في مثل سنه ، إن لم يكن أكبر منه ، وهو رجل موسر يملك منزلاً جميلاً جداً عند سوق الخيل ويجني موارد جيدة من الممالح . وكان هو أيضاً يعيش في عزلة

(*) انظر مسرحية : تيمون الاثيني لشكسبير ، وهو هنا يرمز إلى عدو البشر .

(* *) حسب عنوان احدى مسرحيات تيرينتس ..

شديدة ، ومع ذلك فقد كان كثيراً ما يكون في الصيف في حديقته أمام بوّابةِ بوكِنْهايم حيث كان يتعهّد ويرعى حوضاً جميلاً جداً من أزهار القَرَنْفُل .

وكان فون راينيك من هواة القرنفل أيضاً . وقد حلّ وقت الإزهار فجدَّت بعض البواعث المفضية إلى الزيارات المتبادلة . ومهّدنا للأمر واجتهدنا في ذلك وقتاً طويلاً إلى أن قرّر فون راينيك أن ينطلق معنا في أصيل يوم من أيام الأحد .وكانت التحية بين كلا السيدين المسنيّن مختصرة جداً ، بل مجرد تحية إيمائية ، وسار القوم بخطوة دبلوماسية حقاً حول أحواض القرنفل الطويلة ، جيئة وذهاباً . وكان الإزهار فائق الجمال حقاً ، وقد شكلت الأشكال والألوان المتميّزة للأزهار المختلفة ، ومزايا إحداها على الأخرى في آخر الأمر ، نوعاً من الحوار الذي بدا أنه يكتسب السمة الودّية تماماً ، وقد ازددنا نحن الآخرين سروراً بذلك حين رأينا أنفس خمور الراين المعتّقة ، في زجاجاتها الصقيلة ، والفاكهة الجميلة ، والأشياء الحسنة الأخرى قد صفّت على المائدة في خميلة مجاورة ، غير أنه لم يكن مقدّراً لنا أن نستمتع بها ، لأن فون راينيك رأى أمامه ، لسوء حظّه ، قَرَنْفُلَةً جميلة جداً قد نكّست رأسها قليلاً ، فتناولها برشاقة ، بسبّابته واصبعه الوسطى ، ورفعها من ساقها باتجاه الكأس ، ورفع الزهرة من الأسفل إلى الأعلى حتى أمكنه أن يتأملها بصورة حسنة . غير أن هذا المسّ الرفيق ملأ المالك غيظاً . وذكّرَ فون مالابارت ، بأدب حقاً ، ولكن مع قدر غير قليل من الفظاظة ، وبصورة أقرب إلى الزهوّ بالنفس بأن « هذا للنظر ، وليس للمّس . وكان فون راينيك قد أطلق الزهرة ولكنه اشتعل ناراً على أثر هذه الكلمة فوراً ، وقال

بجفافه المعتاد ووقاره : ان من شأن الخبير والهاوي بلاريب ، أن يمسّ زهرةً ويتأمّلها على هذا النحو ، وكان يكرر على أثر ذلك تلك الحركة ، ويتناول الزهرة مرة أخرى بين اصبعيه — وأصبح الصديقان العائليان من كلا الجانبين — إذ كان لفون مالابارت صديق لديه أيضاً — في أشد حالات الحرج الآن ، فتركا أرنباً يعدو على أثر الآخر (وكان هذا تعبيرنا ، المأخوذ من مثل ، حين يراد قطع حديث وتحويله إلى موضوع آخر) ولكن ما عاد شيء يجدي فتيلاً ، إذ غدا السيدان المسنّان أصمّين تماماً ، وكنا نخشى في كل لحظة أن يقوم فون راينيلك بتكرار ذلك الفعل ، إذ كان خليقاً أن يمسّنا جميعاً إذا حدث ، وجعل كلا الصديقين العائليين يباعدان بين صاحبيهما ، وذلك بأن لجأ إلى شغل هذين هنا حيناً ، وهناك حيناً آخر . وكان أذكى ما في الأمر أننا تأهبنا آخر الأمر للانصراف ، وهكذا كان علينا ، مع الأسف ، أن نوليّ مائدة ألوان الأطعمة الجذابة ظهورنا ونحن ننظر إليها بدون أن نستمتع بها .

وكان مستشار البلاط (١) هوزجن ، الذي لم يكن من مواليد فرانكفورت ، من أتباع الاصلاح الديني ، وكان بسبب ذلك غير مؤهّل لوظيفة عامة ، حتى ولا للمحاماة التي كان مع ذلك يعرف كيف يمارسها لأن الناس كانوا يمحضونه كثيراً من الثقة على أنه حقوقيّ ممتاز ، تحت توقيع آخر ، وهو مرتاح البال تماماً ، سواء في فرانكفورت أم في محاكم المملكة ، وكان قد بلغ الستين من العمر حين كنت أتلقى دروساً في الإنشاء مع ولده ودخلت بيته عن هذا الطريق . وكانت قامته طويلة ، ولكنه كان طويلاً في غير نحافة ، عريضاً بدون أن يكون بديناً . أما وجهه الذي لم يكن مشوّهاً بالبثور فحسب ، بل كان محروماً

من إحدى عينيه ، فلم يكن الناس ينظرون إليه في أول الأمر إلاّ نظرة المتوجّس . وكان يضع على رأسه الأصلع دائماً قبعة بيضاء تماماً في شكل الجرس ، وقد عقد في أعلاها شريط ، وكانت ملابس نومه المتخذة من الجوخ الهولنديّ أو الدمقس نظيفة للغاية . وكان يسكن صفاً من الحجرات المشرقة جداً والقائمة على أرض مستوية في الشارع المشجّر ، وكانت نظافة بيئته تتماشى مع هذا الإشراق . وكان النظام المتناهي لأوراقه وكتبه وخرائطه يحدث انطباعاً مستعذباً وكان ابنه هاينريش سباستيان (٢) الذي تميز بكتاباته المختلفة في مادة الفن يَعد في صباه بالقليل ، وكان طيباً ولكنه ثقيل ، ولم يكن فظّاً ، ولكنه كان يؤثر أن يسعى بصورة مباشرة ، وبدون ميل خاص إلى التعلّم ، إلى اجتناب حضور أبيه ، إذ كان يستطيع أن يحصل من أمه على كل ما كان يتمنّى . أمّا أنا فقد كنت ، في مقابل ذلك ، أزداد قرباً من الشيخ كلما ازددت معرفة به . ولما كان لايتولّى إلاّ القضايا الهامة ، فقد كان لديه من الوقت ما يكفي ليشغل نفسه ويتسلّى بطريقة أخرى . ولم أكن قد عشت في صحبته طويلاً وسمعت بمذهبه ، حين استطعت أن ألاحظ حقاً أنه يتخذ موقفاً معارضاً للربّ وللعالم . وكان من الكتب الأثيرة لديه كتاب اجريّباً (١) « من أباطيل العلوم » (*) الذي كان يوصيني به على نحو خاص وكان بذلك يدخل الاضطراب الكبير في ذهني الفتيّ حيناً من الزمان ، وكنت أَنْزِعُ ، وأنا في صَفْوِ عيش الصبا ، إلى نوع من التفاؤل ، وكنت قد اصطلحت مع الربّ من جديد إلى حد بعيد ، ذلك لأنني وصلت عبر سلسلة من السنين إلى خبرة

(*) De Vanitate Scientiarum .

مفادها أن هناك مقابل الشر بعض التوازن ، وأن المرء يعيد صياغة ذاته بالفعل متخلّصاً من الشرور ، وأنه ينقذ نفسه من الأخطار، ولا يلقي بنفسه دائماً إلى التَهْلُكة . وكنت أنظر أيضاً إلى ما يعمل الناس ويمارسون على أنه قابل للغفران ، ووجدت بعض ما يستحق الثناء فيما كان سيدي الشيخ يأبى أن يرضى به بحال من الأحوال ، بل إنني لفتُّ نظره ؛ حين وصف لي العالم ذات مرة من جانبه المكفهرّ إلى حد كبير ، إلى أن يتذكّر أن يختتم ذلك بنقطة مرجِّحة .

وكان مرشدي التيموني (*) رياضيّاً أيضاً ، ولكن طبيعته العملية دفعته نحو الميكانيك على الرغم من أنه لم يكن يعمل فيه بنفسه . وقد أوعز بصنع ساعة كانت عجيبة (٣) بالقياس إلى ذلك الزمان على الأقل ، طبقاً لتعليماته ، وكانت تبين ، إلى جانب الساعات والأيام ، حركات الشمس والقمر ، وكان يربطها في العاشرة من يوم الأحد بصورة مبكرة ، كل مرة بنفسه ، وكان يستطيع أن يفعل ذلك على نحو أوْكَد ، إذ لم يكن يخرج إلى الكنيسة قط ، ولم أر لديه أصحاباً أو ضيوفاً قط . ولا أكاد أذكر أني رأيته لابساً ثيابه وخارجاً من المنزل سوى مرتين خلال عشر سنوات .

ولم تكن المحادثات المختلفة مع هؤلاء الرجال بالقليلة الأهمية ، وكان كلٌّ منهم يؤثر فيَّ بطريقته . وكان لي اهتمام بكل واحد منهم يَعدِل اهتمام أولاده به بل يربو عليه في كثير من الأحيان ، وكان كلٌّ منهم يسعى إلى أن يزيد في سروري به كشأنه في ذلك مع ولد عزيز عليه ، إذ كان ينزع إلى أن يصوغ فيَّ مثاله الأخلاقي ، فكان

(*) نسبة إلى تيمون الأثيني الوارد في مسرحية شكسبير المعروفة . « المترجم

أولنشلاجر يريد أن يجعل مني رجلاً من رجال البلاط ، وكان راينيك يريد أن يصوغ مني رجلاً من رجال السلك السياسيّ ، وكان كلاهما ، ولاسيما الأخير ، يحاولان أن يكرِّها إليَّ الشعر والكتابة . وكان هوزجن يريدني تَيَمُّوناً على شاكلته ، ولكنه كان يريدني مع ذلك عالماً حاذقاً من علماء القانون ، وكان ذلك ، فيما يرى ، صنعةً ضرورية ، لكي يستطيع المرءأن يدافع عن نفسه وعمّا يعود إليه، في وجه سفهاء الناس دفاعاً نظامياً، وأن يساند المضطهَد، وأن يستطيع في كل الأحوال أن يكشف للخبيث عن أخطائه، على أن هذه الصنعة ليست بالأمر المستحبّ ولا المُستَحسَن في النهاية.

وكنت إذا التزمت بسرور جانب أولئك الرجال لأستفيد من نصحهم وإشارتهم طالبني فتيانٌ لم يكونوا يُجاوِزونني في العمر إلاّ قليلاً ، بالاقتداء المباشر الدؤوب ، وأذكر هنا قبل كل الآخرين الأخوين شلوسّر (١) وجريسباخ . ولما كنت قد دخلت مع هؤلاء بالنتيجة في علاقة أكثر دقّة دامَتْ كثيراً من السنين بغير انقطاع ، فانني أذكر في الوقت الحاضر أنهم كان يُشادُ بذكرهم في تلك الأيام ، في اللغات والدراسات الأخرى التي تمهّد للطريق الجامعيّ ، ويُتخّذ منهم قدوة ، وأن كل امريءٍ كان لديه توقّع معين مؤدّاه أنهم سيحققون يوماً من الأيام شيئاً غير عاديّ ، في الدولة ، وفي الكنيسة .

أما أنا فقد كان ذهني ينطوي ، بلاريب ، على الخروج بشيء غير عاديّ ، غير أنه لم يكن يتبيّن لي أين عساه يكمن ، ومع ذلك فكما أنّ المرء يفكّر في الأجر الذي قد يحصل عليه أكثر مما يفكر في الفضل الذي ينبغي أن يحظى به ، فانني لاأنكر أنني حين كنت أفكر في سعادة جديرة بالتمني فانما كان هذا يتجلّى لي بأكثر صوره فتنةً في صورة إكليل الغار المضفور زينة للشاعر .

الكتاب الخامس

لكل الطيور طُعْمٌ يوقع بها ، وكل إنسان يهتدي أو يضلّ بأسلوبه الخاص . وقد كانت الطبيعة ، والتربية ، والبيئة ، والعادة ، يَعزِلْنَني عن كل ما هو فظّ ، وعلى الرغم من أنني كنت أتعرّض في كثير من الأحيان للاحتكاك بطبقات الشعب الدنيا ، ولاسيما العمال ، فانه لم ينشأ عن ذلك علاقة حميمة ، وقد كنت في الحقيقة أتمتّع بالجرأة الكافية على القيام بشيء غير عادي ، بل ربما بشيء خطير ، وكنت أشعر أنني مفطور على ذلك في بعض الأحيان ، غير أنني كنت أفتقر إلى الممارسة التي تمكنني من المبادرة إليه والإمساك بزمامه .

وكنت في هذه الأثناء قد تورّطت على نحوٍ مباغتٍ تماماً ، في علاقات أوصلتني إلى ما يقارب الخطر الكبير كل المقاربة ، وأوقعت بي حيناً من الزمان على الأقل في حرجٍ ومحنة . كانت علاقتي السابقة الحسنة بذلك الغلام الذي أسميْته بيلادس (١) من قبل ، قد استمرّت حتى أيام الفتوّة . والحق أننا كنا قلّما يرى أحدنا الآخر . لأن آباءنا لم يكونوا على أحسن ما يرام فيما بينهم . ولكن الهتاف الودّي القديم كان يتعالى دائماً حيثما التقينا . والتقينا ذات مرة في الشوارع المشجّرة التي كانت تتيح نزهة مستعذبة جداً بين البوابتين الخارجية والداخلية لسانت جالن .

ولم نكد نتبادل التحية حتّى قال لي : « مازال حالي مع أشعارك كما كان من قبل ، فاني تلوت تلك التي رويتها لي مؤخراً على بعض الرفاق العابثين فأبى أيٌّ منهم أن يصدق أناك أنت الذي وضعها » . فأجبت قائلاً : « لاتأبه لذلك ، فسوف ننظمها ، ونتسلّى بها ، وليرَ الآخرون في ذلك ما يَرَوْن ، وليقولوا ما هم قائلون » .

وقال صديقي : « ها هو ذا الجاحدُ قد أقبل ، وكان جوابي أن قلت : « فلندع الخوض في هذا الحديث ، فما عسى أن يجدي ذلك ، إذ ما كان لنا أن نخرجه عن دينه » — وقال صديقي : « كلاّ ، بأي حال من الأحوال ، أنا لا أستطيع أن أدعه يمضي في هذا الطريق » .

وبعد محادثة قصيرة متسمة باللامبالاة لم يستطيع الرفيق الصغير الذي يحسن الظن بي أن يتمالك نفسه ، وقال لِذاك بشيء من الحساسية : ههنا الآن الصديق الذي وضع الأشعار الجميلة التي تأبى أنت أن تثق بنسبتها إليه .ورد ذاك بقوله : « لاريب أنه لن يحمل ذلك على محمل السوء ، لأنه شرف نوليه إيّاه بالطبع حين نعتقد أن نظم مثل هذه الأبيات يقتضي من الدراية أبعد كثيراً مما يستطيع هو أن يحوزه هو على حداثة سنه » — ورددت بشيء من اللامبالاة ، ولكن صديقي مضى قائلاً : « لن يكلف إقناعك بذلك كثيراً من الجهد . كلِّفه بأي موضوع كان ، وسيضع لك قصيدة مرتجلة » — ورضيت بذلك ، واتفقنا ، وسألني الثالث هل أجد نفسي أهلاً لإنشاء رسالة غرام جميلة حقاً ، منظومة شعراً ، تكتبها فتاة يافعة خجول إلى فتى لتفضي إليه بهواها ، فأجبت قائلاً : لاشيء أهون عليّ من ذلك ، لو كان معنا مجرد وسيلة للكتابة ، فأخرج ذاك مفكرة جيبه التي كان يوجد فيها قَدْرٌ كبير من الأوراق

البيض ، وجلست أنا على مقعد طويل لأكتب ، وجعلا يسيران في هذه الأثناء جيئة وذهاباً ، ولم تكن عيناهما تغفلان عني . وعلى الفور أحطت بالموقف في ذهني ، وجعلت أصوّر لنفسي كم سيكون الأمر ظريفاً لامحالة ، لو أن أي طفل جميل كان متعلقاً بي ، وأراد أن يكشف لي عن ذلك نثراً أو شعراً . ولذلك بدأت بياني بدون تكلف، وأدّيت ذلك في وزن للمقاطع العروضية يتراوح بين الصيغة الهزلية ذات الوزن المختلّ (١) ، وصيغة القصيدة الغزلية ، مصوّراً ذلك بأشد ضروب البساطة إمكاناً ، وبأقصر وقت ، إلى حد بلغ منه أنني حين تلوت القصيدة الصغيرة على كلَيْهما استحوذت على إعجاب المتشكّك وأخذت بلبّ الصديق ، ولم يكن في وسعي أن آبى على ذلك القصيدةَ حين طلبها ، وذلك بوجه خاص لأنها كانت مكتوبة في مفكرته ، ولأنه كان يطيب لي أن أرى الوثيقة الدالّة على ضروب مقدرتي في يديه . ومضى وهو يعرب عن كثير من التوكيد لإعجابه وشغفه ، ولم يكن يودّ أكثر من أن يلقانا مراراً ، واتفقنا على الرحيل معاً إلى الريف في أجل قريب .

وتمّت نزهتنا التي انضم إليها بعدُ عدد من الشباب من ذلك النوع ، وكانوا أناساً من الفئة الوسطى ، بل كانوا ، إذا شئنا ، من الفئة الدنيا ، الذين لم يكونوا يفتقرون إلى الفهم والذكاء ، وكانوا على جانب من الاطلاع لأنهم دخلوا المدرسة وحصلوا على قدر معين من التعليم . وإنما توجد في المدينة الكبيرة الغنية فروع شتّى من المهن . وكانوا يستعينون على معيشتهم بالكتابة للمحامين ، ودفع أبناء الطبقة الدنيا ، عن طريق التعليم الخصوصي ، إلى مدى أبعد مما كان مألوف الحدوث في المدارس العادية . أما الأولاد الكبار الذين كان يفترض حصولهم

على التثبيت الديني فكانوا يراجعون معهم دروس الديانة ، ثم كانوا يسعون في خدمة بعض السماسرة أو التجار ، ويرفّهون عن أنفسهم عند المساء، ولاسيما في أيام الآحاد والأعياد، بعض الترفيه بطريقة رخيصة.

وفي الوقت الذي كانوا فيه الآن يشيدون أفضل الإشادة برسالتي الغرامية ، وهم في الطريق ، اعترفوا لي بأنهم استخدموها استخداماً مضحكاً جداً : وذلك أنها نسخت بخط مشوّه . ودُسّت ، عن طريق علاقات وثيقة ، إلى شاب مغرور هو الآن على يقين راسخ بأن امرأة سبق أن تودّد إليها مشغوفة به حباً إلى أقصى الحدود ، وهي تلتمس الفرصة للتعرف عليه عن كثب ، وأسرّوا إليّ مع ذلك انه لايود أكثر من التمكن من إجابتها بالشعر أيضاً ، ولكن البراعة لاتتوفر ، لاعنده ، ولاعندهم ، من أجل ذلك ، وذلك ما يحملهم على أن يلتمسوا مني بالحاح أن أصوغ الجواب المرغوب بنفسي .

وقد كانت ضروب التعمية وما تزال ، تسليةً للعاطلين والبشر الذين يمتازون بحدة ذهن تقل أو تكثر ، كما أن المكر القابل للصفح ، وحبّ الأذى القائم على الإعجاب النفس هما متعة أولئك الذين لايستطيعون أن يُشْغَلوا بأنفسهم ولا أن يحدثوا أثراً محمود العاقبة في الاتجاه الخارجيّ . وما من سنّ تخلو تماماً من مثل هذه النزوة . وقد كنا في سنوات الصبا كثيراً ما يمكر بعضنا ببعض ، وكان كثير من الألعاب يستند إلى مثل هذه التعميات والمقالب ، ولم تكن الدعابة الحاضرة تبدو لي أنها تذهب إلى أبعد من هذا ، فوافقت ، وأطلعوني على بعض الأشياء الخاصة التي ينبغي أن يتضمنها الخطاب ، وعُدْنا به جاهزاً إلى المنزل .

وبعد وقت قصير دعيت من قبل صديقي بالحاح للمشاركة في مأدبة مسائية لتلك الزمرة ، وكان العاشق يريد أن يقيمها هذه المرة ، وهو يطلب مع ذلك بصراحةٍ ، الشكرَ للصديق الذي أثبت أنه أمينُ سرٍ شعريٌّ ممتاز للغاية .

ووصلنا معاً متأخرين بدرجة كافية ، وكانت الوجبة أكثر الوجبات بساطة ، أما الخمر فمستساغ ، وأما الحديث فكان يدور كله تقريباً حول ذلك الإنسان الحاضر الذي لم يكن بالطبع كثير النباهة ، والذي لم يكن ، بعد قراءة مكرّرة للرسالة ،بعيداً عن الاعتقاد بأنه كتبها هو بنفسه .

على أن طيب قلبي الطبيعيّ لم يدعني أجد سوى قليل من المتعة في مثل هذه المخادعة ، وسرعان ما أثار تكرار الموضوع ذاته اشمئزازي ، ولاريب أنني كنت خليقاً أن أقضي أمسية باعثة على الاستياء لولا أن ظاهرة مباغتة بعثت فيَّ الحياة من جديد . وكانت المائدة لدى وصولنا جاهزة قد غطيت بغطاء نظيف ، على ما يرام ، ووضع عليها خمر كاف ، وظللنا وحدنا بدون أن نحتاج إلى خدمة ، ولكن حين افتقدنا الخمر آخر الأمر نادى أحدهم الخادم ، ولكن بدلاً من هذه دخلت فتاة ذات جمال غير عاديّ ، بل كانت ، حين يراها المرء في محيطها ، ذات جمال لا يصدّق ، وقالت بعد أن ألقت علينا تحية المساء بطريقة ودّية : « ماذا تطلبون ، فان الخادم مريضة ، طريحة الفراش ، فهل أستطيع خدمتكم ؟ — فقال أحدنا : ينقصنا خمر ، فلو أتيتنا ببضع زجاجات لكان ذلك جميلاً جداً » — وقال الآخر : « افعلي ذلك ، ياجريتشن (١) ، فما هي إلاّ خطوتان » وردت قائلة : « ولِمَ لا ،

وتناولت بضع زجاجات فارغة من المائدة وخرجت مسرعة ، وكان قوامها من الجانب الخلفيّ يكاد يكون أكثر بهاءً . وكانت القلنسوة تستقرّ ظريفةً على الرأس الصغير الذي كان يصله بالقفا والكتفين عنق ضامر فائق الظُرف ، وكان كل شيء فيها يبدو ممتازاً ، وكان في وسع المرء أن يتتبّع القامة كلها بهدوء أكبر ، حين لم تكن العينان الهادئتان الصافيتان والفم الجميل يستأثران بعدُ وحدهما بالانتباه ويشدّانه إليهما . وجعلت ألوم الرفاق على أنهم بعثوا بالطفلة في الليل وحدها ، فضحكوا مني ، وسرعان ما تعزّيت حين عادت : لأن صاحب الحانة كان يسكن على الناصية المقابلة لنا من الشارع — وقال الأول : « اجلسي إلينا مقابل ذلك » ، ففعلت ، ولكن كان من سوء الحظ أنها لم تأت إلى جانبي ، وشربت قدحاً في صحتنا ، وسرعان ما ابتعدت وهي تنصحنا ألاّ نبقى طويلاً معاً ، وألاّ نكون ذوي صخب على الاطلاق : لأن أمي تريد أن ترقد في الفراش ، ولم تكن أمها ، بل كانت أم خادمتنا .

وظلت صورة هذه الفتاة تلاحقني منذ هذه اللحظة في كل الدروب والممرّات ، وكان هذا هو الانطباع الأول الباقي الذي تركه فيَّ مخلوق أنثويّ ، ولما لم يكن في وسعي أن أجد ذريعة لرؤيتها في البيت ، ولا أن أتمكن من البحث عنها ، صرت أذهب ، من أجلها ، إلى الكنيسة ، وسرعان ماًاستطلعت أين تجلس وهكذا كنت أستطيع خلال القدّاس البروتستانتيّ الطويل أن أرتوي من النظر إليها . ولم أكن أجرؤ على مخاطبتها لدى الخروج ، بل كنت أقلّ من ذلك جرأة على مرافقتها ، وكان حسبي من السعادة أن تلاحظني ، وأن يبدوَ أنها ردت على تحيةٍ مني بايماءة . ومع ذلك فما كان ينبغي لي أن أستغني عن سعادة التقرّب

منها ، وقتاً طويلاً . وكان القوم قد حملوا ذلك العاشق الذي غدوت أمينَ سره الشعريّ ، على تصديق أن الكتاب المكتوب باسمه قد تم تسليمه حقاً إلى المرأة وزادوا في الوقت ذاته من حدة توتّر أعصابه إلى أقصى حدّ بحكم أنه لابدّ أن يعقب ذلك الآن جواب عمّا قريب . وكان عليّ أن أكتب هذا الجواب أيضاً ، وجعلت العصبة الشقيّة تلتمس مني عن طريق بيلادس ، بأشد ضروب الإلحاح أن أبذل كل دُعابتي ، واستخدم كل فنيّ حتى تغدو هذه القطعة منمّقة كاملة حقاً .

وأقبلت على العمل فوراً ، والأملُ يراودني برؤية جميلتي من جديد ، وطفقت أصوّر لنفسي الآن كلّ ما هو خليق أن يحملني على أقصى حدود الاغتباط ، لو أن جريتْشنٍ كتبت هذا إليّ ، وصرت أعتقد أنني كتبت كل شيء على هذا النحو ، مستمّداً من هيئتها ، وكيانها ، وسجيّتها ، وروحها حتى أنني لم أستطع مقاومة الرغبة في أن يكون الأمر على هذه الصورة حقاً وغرقت في افتتاني لمجرد التفكير في أنّ شيئاً مماثلاً لهذا قد يكون موجّهاً منها إليّ ، وجعلت أُربك نفسي بنفسي ، إذ رأيت أنني أهوى امرءاً آخر وقد ينجم لي من ذلك بعض السرور وبعض الخطوب ، وبعد أن ذُكِّرت بذلك مراراً ، فرغت من العمل ، ووعدت بالمجيء ولم أقصِّر عن الساعة المحدّدة ، ولم يكن في البيت إلاّ واحد من الفتيان ، وكانت جريتشنٍ جالسة عند النافذة وهي تغزل ، وكانت الأم تغدو وتروح . وطلب إليّ الفتى أن أتلوّها عليه ، ففعلت ، وقرأت قراءة لم تكن خالية من التأثّر ، وأنا أسارق النظر من فوق الورقة ، إلى البُنَيّة الجميلة ، ولمّا اعتقدتُ أنني لاحظتُ اضطراباً معيّناً في كيانها ، وحمرة طفيفة على وجنتيها ،

جعلت أعبّر بصورة أفضل وأكثر حيوية،عما كنت أودّ سماعه منها : والتمس مني القريب الذي كان في كثير من الأحيان يقاطعني بصيحات الإعجاب ، آخر الأمر بعض التغييرات ، وكانت تمسّ بعض المواضع التي كانت بالطبع تتلاءم مع حال جريتشنٍ أكثر مما تتلاءم مع حال تلك المرأة التي كانت تنحدر من عائلة حسنة ، موسرةً ، معروفة في المدينة ، وذات سمعة مرموقة ، وبعد أن بيّن الشاب لي التعبيرات المطلوبة وجاء بوسيلة للكتابة ، واستأذن بالخروج وقتاً قصيراً من أجل حاجة ، ظللت جالساً على مقعد طويل متصل بالجدار وراء المنضدة الكبيرة وأخذت أجرّب التغييرات الواجب أداؤها على لوح الأردواز الكبير الذي يكاد يشغل المنضدة كلها ، بقلم حجري كان يرقد في النافذة على الدوام ، لأن القوم كانوا يحسُبون على هذه المساحة الحجرية ، ويدوّنون أشياء شتى ، بل كان الذاهبون والقادمون يدونون بذلك بعض الملاحظات .

وكنت قد كتبت أشياء مختلفة فترة من الزمان ثم محوتها من جديد ، حين صحت وقد عيل صبري : « لن يستقيم هذا ! » وقالت الفتاة الجميلة بإيقاعٍ رزين : « هذا أحسن ، بل إني وددت لو أنه لايستقيم على الإطلاق ، ولقد كان ينبغي لك ألا تتصدّى لهذه القضايا ، ونهضت عن المغزل ، وألقت عليّ ، وهي تتقدم مني ، نحو المائدة ، موعظة تكفيريّة فيها كثير من العقل والمودّة قائلة : « إن المسألة تبدو دعابة بريئة ، وإنها لدُعابة ولكنها ليست بالبريئة ولقد شهدت عديداً من الحالات التي وقع فيها أحداثنا بسبب مثل هذا الإثم ، في حرج كبير » . ورددت قائلاً : « ولكن ماذا ينبغي لي أن أفعل ، فقد كتبت الرسالة ،

وهم يعتمدون على أنني سوف أغيّرها » فردّت قائلة : « صدّقني ، ولا تغيّرها ، أجل ، استعِدْها ، وخبِّئها ، ثم انطلقْ ، وحاول أن تسويَ المسألة عن طريق صديق ، وأريد أن أقول لك أيضاً كلمة صغيرة في سياق الحديث ، فأنت ترى فتاة مسكينة مثلي ، ومرتبطة بهؤلاء الأقرباء الذين لايرتكبون شراً في الحقيقة ، ولكنهم يقدمون في كثير من الأحيان على بعض الأعمال المتهوّرة ، لقد قاومت ، ولم أنسخ الرسالة الأولى ، كما طلبوا إليّ ، فنسخوها بخطٍ مصطَنع ، وهذا ما يمكن أن يصنعوه أيضاً ، ان لم يكن الأمر خلافاً لذلك ، بهذه الرسالة . وأنتَ الشاب ، المتحدر من أسرة شريفة ، والموسر ، والمستقل ، لماذا تريد أن تدعهم يتخذون منك آلة في قضية من القضايا التي لايمكن ، بلاريب ، أن ينجم عنها شيء من الخير ، وربما نجم عنها بعض الأمور المزعجة لك ؟ » — وأسعدني أن أسمعها تتحدث حديثاً متصّلاً : إذ لم تكن فيما عدا ذلك تنطق إلاّ بكلمات قليلة في الحديث : وازداد تعلّقي على نحو لايصدّق ، وفقدت السيطرة على نفسي ، وأجبت قائلاً : أنا لست مستقلاً بالقدر الذي تعتقدين ، وما عسى أن يجْدي عليّ ثرائي إذا كنت أفتقد أمتع الأمور التي يجوز لي أن أتمنّاها » .

وكانت قد جذبت إليها مسودّةَ الرسالة الشعرية ، وجعلت تقرؤها بصوت بين الارتفاع والانخفاض ، قراءة ظريفة رشيقة للغاية . وقالت وهي تتوقف عند النقاط المتسمة بنوع من البراءة : « هذا حسن تماماً ، غير أن مما يؤسف له أنه ليس مخصّصاً لاستعمال أفضل ، لاستعمال أصيل » — وصحت قائلاً : « لقد كان هذا بالطبع ما تمنيّته جداً ، فما أسعد الحال التي لابدّ أن يكون عليها ذلك الذي يتلقّى من فتاة

يحبها حباً لانهاية له ، مثلَ هذا التوكيد لهواها ! » — فردّت قائلة : « هذا يقتضي كثيراً من الأشياء بالطبع ، ولاريب أن بعض ذلك يغدو ممكناً » . فمضيت قائلاً : « ومثال ذلك ، لو أن امرءاً يعرفك ، ويقدّرُكِ ويمجّدكِ ، ويتوسّل إليك ، عرض عليك مثل هذه الورقة ، ورجا منك بالحاح شديد ، وبالحرارة والمودة الحقيقيتين ، فما عساكِ تفعلين ؟ »
-- ودفعت صوبها بالورقة التي كانت قد دفعت بها نحوي من جديد ، فابتسمت ، وفكّرت لحظة ، وتناولت الريشة ، ووقّعت ، ولم أعرف نفسي من فرط الافتتان ، فوثبتَ وهمَمْتُ بمعانقتها — فقالت : « لاتقبّل ، فهذا شيء مبتذل ، ولكن فلتحب ، إن أمكن ذلك » ، وكنت قد تناولت الورقة ودسَسْتُها ، وقلت : « لاينبغي لأحد أن ينالها ، وهذه المسألة مفروغ منها ! لقد أنقذتِني » ، فصاحت : فلتكمل الإنقاذ الآن ، ولتبادر إلى الخروج قبل أن يأتي الآخرون ، ويزعجوك ويحرجوك » ولم أستطع أن أحرّر نفسي منها ، ولكنها جعلت ترجوني بمودة فائقة وهي تتناول يمنايَ بكلتا يديها وتضغط عليها بحنان . ولم تكن الدموعَ بالبعيدة عني : وحَسِبت أنني رأيت عينيها مخضلّتين ، فأطبقت بوجهي على يديها ، وخرجت مسرعاً ، ولم أجد نفسي في حياتي ، في مثل هذا الارتباك .

على أن نزعات الحب الأولى عند الأحداث الذين يتطرّق إليهم الفساد تتخذ منحىً فكرياً تماماً ، ويبدو أن الطبيعة تريد أن يطلّع أحد الجنسين على ما هو طيّب وجميل في الجنس الآخر اطلاعاً حسيّاً . وعلى هذا النحو انفتح لي أيضاً ، برؤية هذه الفتاة ، ومن خلال تعلّقي بها ، عالم جديد من عوالم الجمال والامتياز ، وقرأت رسالتي الشعرية

مئات المرات ، وجعلت أتأمل التوقيع ، وأقبّله ، وأشدّه على قلبي واستمتع بهذا الاعتراف الجديد بالمحبّة . ولكنني كنت كلما تصاعد افتتاني ازداد ألمي لأنني لم أكن استطيع أن أراها وأكلّمها من جديد : ، ذلك لأنني كنت أهاب لوم الأقرباء وألوان تطفلّهم . ولم أكن أعرف كيف ألقى بيلادس الطيب الذي كان في وسعه أن يقوم بدور الوسيط في هذه المسألة . ولذلك توجهت يوم الأحد التالي إلى نيدرّاد (١) ، التي دأب أولئك الرفاق أن يذهبوا إليها في العادة ووجدتهم بالفعل أيضاً . ومع ذلك فقد أخذني العجب كثيراً إذ أنهم بدلاً من أن يلقوني لقاء المستاء والمجافي ، تلقّوْني بوجه البشاشة ، وكان أصغرهم بالغ المودة بوجه خاص ، وقد تناول يدي وقال : « لقد دبّرت لنا مؤخراً مقلباً خبيثاً ، وقد كنا مستائين منك حقاً . ومع ذلك فقد انتهى بنا إدبارك واختطافك للرسالة الشعرية إلى فكرة حسنة ما كانت لتخطر ببالنا في العادة قط . وذلك أن في وسعك أن تقوم بضيافتنا اليوم من أجل المصالحة ، وستحيط علماً بما يدور في بالنا ، وبما سيكون بلاريب باعثاً لسرورك أيضاً » . وقد وضعتني هذه الكلمة في حرج غير قليل ، إذ لم يكن معي من المال إلاّ ما يكاد يفي بحاجاتي وحاجة صديق من الأصدقاء . أما أن أقوم بواجب الضيافة تجاه جماعة ، ولاسيما جماعة كهذه التي لم تكن تعرف الحدود دائماً في الوقت المناسب ، فذلك ما لم أكن مستعدّاً له بل إن هذا الاقتراح أصابني بمزيد من الدهشة لأنهم كانوا يتمسّكون في العادة باخلاص شديد تماماً ، بأن يدفع كل امريءٍ عن مشروبه ، وضحكوا من حرج موقفي ، ومضى أصغرهم قائلاً : « دعنا نقعد في الخميلة أوّلاً ، ثم تحيط علماً بما وراء ذلك » فقعدنا ، وقال : « عندما أخذت الرسالة الغرامية معاك مؤخراً ، ناقشنا مجمل المسألة مرة أخرى

مناقشة كاملة ، ولاحظنا أننا قمنا ، بصورة عبثيّة تماماً ، أسخطت الآخرين ، وجرّت علينا الخطر ، وبدافع مجرد حب الأذى الباعث على الغيظ ، باساءة استعمال موهبتك ، وقد كان في وسعنا أن نستفيد منها من أجل مصلحتنا جميعاً . انظر ، لديّ هنا طلب لقصيدة زفاف (١) وكذلك طلب اقصيدة تأبين . ولابدّ أن تكون الثانية جاهزة على الفور . أما الأولى فما زال أمامها من الوقت ثمانية أيام ، فان وضعتهما ، وهو الأمر الذي يهون عليك ، سقيتنا مرتين ، ونظل مدينين لك دهراً طويلاً » — وأعجبني هذا الاقتراح من كل الوجوه : لأنني كنت منذ عهد الصبا انظر إلى قصائد المناسبات هذه التي كان عدد منها يجري تداوله أسبوعياً في تلك الأيام ، بل كانت تظهر بصورة خاصة بالعشرات في الأعراس المرموقة ، نظرة فيها حسد معيّن ، لأنني كنت اعتقد أنني أصنع مثل هذه الأشياء ، وبمثل اتقانها ، بل أفضل منها . والآن أتيحت لي الفرصة للظهور ، وبصورة خاصة لرؤية عملي مطبوعاً ، ولم أظهر إعراضاً ، وعرّفني القوم على الشخصيات ، وعلى العلاقات العائلية ، فانتبذت جانباً من المكان ، ووضعت مخططي ، وأنجزت بعض الأبيات . ولكن حين توجهت إلى الجماعة من جديد ، ولم يجتنب القوم الخمر ، بدأت القصيدة تتعثّر ولم أستطع تقديمها في هذا المساء . وقالوا : « ما زال هناك وقت حتى مساء الغد ، ونحن نريد أن نعترف لك فحسب أن الأجر الذي نحصل عليه لقاء قصيدة التأبين يكفي لتأمين أمسية مرحة أخرى غداً ، فتعال إلينا : لأن من المتفق عليه أن تشارك جريتشن أيضاً في الاستمتاع ، وهي التي ساقتنا في الحقيقة إلى هذه الخاطرة » . وكان سروري لايوصف . ولم يكن في ذهني في طريق العودة إلا الأبيات الناقصة بعدُ ، فدوّنت مجمل القصيدة قبل الذهاب إلى النوم ، وبيّضتها

في الصباح التالي بصورة نظيفة جداً . وطال عليّ النهار طولاً لانهاية له ، ولم يكد يحلّ الظلام حتى وجدت نفسي من جديد في المسكن الصغير الضيّق إلى جانب الفتاةالفائقة الجمال .

ولم يكن الفتيان الذين كنت على صلة وثيقة بهم دائماً على هذه الطريقة ، من الرعاع في الحقيقة ، بل كانوا أناساً عاديين . وكان نشاطهم يستحق الثناء ، وكنت استمتع بالإصغاء إليهم حين كانوا يحدثونني عن الوسائل والطرق المعقّدة التي يستطيع المرء بها أن يكسب شيئاً ما . وكان أحبَّ الأمور إليهم أن يحدّثوني عن أناس أغنياء جداً في الوقت الحاضر بدأوا بلاشيء ، وأنّ آخرين من أجراء المحلات التجارية الفقراء جعلوا أنفسهم ضروريين بالقياس إلى سادتهم ، وارتفعوا آخر الأمر إلى مكانة الأصهار ، وأن آخرين سواهم قد قاموا بتوسيع محل صغير للخردوات يبيع الفتيل الكبريتيّ ونحو ذلك ، ورفعوا مكانته حتى ظهروا الآن في صورة تجار ورجال أعمال من الأغنياء . وكان يقال إن عمل السعاة ، والسمسرة ، والقيام بالمهام المختلفة ، وشراء الحاجات للأثرياء العاجزين ، أعمال مُجدية ومُدِرَّة للربح تماماً. وكنا جميعاً نسمع ذلك بسرور ، وكان كلٌ يتصوّر نفسه شيئاً ما ، حين يتصور في اللحظة الراهنة أن ثمة أشياء كثيرة تتوفّر فيه هو نفسه ، لا لكي يحرز تقدماً في الحياة ، بل ليبلغ بعدُ سعادة فائقة . ولكن لم يكن ثمة امرؤ يبدو أنه يخوض في هذا الحديث بصورة جادة أكثر من بيلادس الذي اعترف آخر الأمر بأنه يحب فتاة حباً غير عاديّ وقد عاهدها بالفعل . ولم تكن أحوال والديه الماديّة تعاني من وطأة ذهابه إلى المعاهد العليا . وكان يحدّث أنه استفرغ جهده في الخط الجميل وفي الحساب واللغات الحديثة ،

وأنه يريد الآن أن يسعى قدر طاقته من أجل تلك السعادة المنزلية ، وكان أقرباؤه يثنون عليه من أجل ذلك ، على الرغم من انهم كانوا يأبون أن يقرّوا التعاهد السابق لأوانه مع فتاة ، وكانوا يضيفون انهم لابد لهم أن يعترفوا في الحقيقة بأنه فتى طيب وصالح ، ولكنهم لايرونه مجتهداً ولانشيطاً بالدرجة الكافية لإنجاز شيء غير عاديّ . وكان حين يعرض الآن بالتفصيل ، تبريراً لموقفه ، وما يثق بقدرته على انجازه ، وكيف يفكر بالشروع فيه ، كان الآخرون يُستفزّون أيضاً ، وكان كلٌّ منهم يأخذ في سرد ما يقدر عليه الآن وما يعمله وما يمارسه ، وأي طريق خلفه وراءه ،وما يراه أمامه أولاً . وكان الدور يأتيني في النهاية ، وكان يفترض فيّ الآن أن أصور نمط حياتي وآمالي ، وبينما كنت أفكّر قال بيلادس : « أنا أحتفظ لنفسي بالشيء الوحيد لئلا يتدارَكنا الوقت ، وهو ألاّ يدخل في حسابه المزايا الشكلية الظاهرة لوضعه ، وربما كان من الأفضل أن يروي لنا حكاية كيف سيبدأ حياته لو أنه كان في هذه اللحظة ، هكذا مثلنا ، معتمداً على نفسه تماماً » .

ونهضت جريتشن التي كانت قد استأنفت الغزْل حتى هذه اللحظة ، وجلست كعادتها إلى نهاية المائدة ، وكنا قد أفرغنا بضع زجاجات ، وبدأتُ أنا بسرد قصة حياتي المفترضة بأحسن مزاج فكاهيّ . وقلت : « أنا أشير عليكم باديء ذي بدء بأن تحفظوا لي الزبائن الذين بدأتم أنتم بتوجيههم إليّ ، وحين توجّهون الي شيئاً فشيئاً ما كسبته من مجمل قصائد المناسبات ولا نبدّده في مجرد الشراب ، فعسى أن أصل عندئذ إلى شيء ما . وما ينبغي لكم عندئذ ، إذا تدخلت في صنعتكم تدخّل الفضوليّ ، أن تحملوا ذلك على محمل السوء ، ثم سردت عليهم مالاحظته

حول مهنهم التي كنت أعدّ نفسي قادراً عليها على كل حال . وكان كلٌ منهم قد قدّر ، من قبلُ ، كسبه من المال تقديراً عالياً ، والتمست منهم أن يكونوا عوناً لي أيضاً في تدبير أموري . وكانت جريتشن قد استمعت معنا إلى كل شيء حتى الآن بانتباه شديد ، وكان ذلك في الحقيقة ، في الوضع الذي يلائمها ملاءمة حسنة جداً ، وكان في وسعها الآن أن تصغي أو تتحدث . وكانت تمسك بكلتا يديها ذراعيها المتصالبين أحدهما فوق الآخر وتضعهما على حافة المائدة . وكان في وسعها أن تقعد على هذا النحو طويلاً جداً بدون أن تحرك شيئاً آخر سوى رأسها ، وهو الأمر الذي لم يكن يحدث قط بدون باعث أو معنى ، وكانت قد اشتركت في بعض الأحيان في التحدث بكلمة صغيرة ، وتداركتنا بالكلام في هذا الموضوع أو ذاك حين كنا نتعثّر فيما نهيء من الأحاديث ، ولكنها كانت تعود إلى السكينة من جديد ، وتهدأ كعادتها ، ولم تكن عيناي تغادرانها ، وفي وسع المرء أن يتصور بسهولة أنني ما كنت لأفكّر في خطتي وأعبّر عنها بسهولة بدون أن آخذها بعين الاعتبار ،وكان ميلي إليها يضفي على ما أقول مظهر الحقيقة والإمكان ، حتى لقد خُدِعت عن نفسي لحظة من الزمان ، وتصوّرت نفسي منعزلاً لاناصر لي ، إلى حد كبير ، كما كانت حكايتي تفترض ذلك بصورة مسبقة ، وكنت مع ذلك أشعر بذروة السعادة وأنا أؤمّل الظفر بها . وكان بيلادس قد أنهى مذهبه (١) بالزواج . وكان لدينا ، نحن الآخرين أيضاً مسألة هل نصل بخططنا إلى هذا المدى . وقلت : « ليس لديّ شك في ذلك على الإطلاق ، لأن كل واحد منا يحتاج في الحقيقة إلى امرأة للحفاظ على ما في البيت ، ولتمكننا على الإجمال من الاستمتاع بما نجمع خارج البيت ، من هنا وهناك ، بطرق غريبة . وقمت بوصف

زوجة على النحو الذي أتمناه ، وقد كان لابد أن يكون من الغريب أن يستقيم ذلك لولا أنه كان صورة جريتشن الكاملة .

وكان الطلب يشتد على قصيدة التأبين ، كما كانت قصيدة الزفاف الآن ماثلة أيضاً عن كثب ، على نحو ينعش الفؤاد . وتغلبت على كل خوف وقلق ، وعرفت كيف أخفي أحاديثي الحقيقية في العشيّات عن جماعتي إذ كان لي كثير من المعارف . وسرعان ما غدت رؤية الفتاة الجميلة ووجودي إلى جانبها شرطاً من شروط وجودي لامندوحة عنه الآن . وكان أولئك القوم قد ألِفوني بالقدر ذاته ، وكنا نجتمع في كل يوم تقريباً ، وكأن الأمر لايمكن أن يكون على غير هذه الصورة . وكان بيلادس قد جاء بجميلته في هذه الأثناء إلى البيت أيضاً ، وقضى هذان الزوجان بعض الأمسيات معنا ، ولم يكونا ، على الرغم من أنهما ما زالا عروسين في طور البراعم إلى حد كبير ، يخفيان رقتهما . أما سلوك جريتشن نحوي فلم يكن إلاّ سلوكاً بارعاً في الإبقاء عليّ بعيداً ، ولم تكن تصافح أحداً ، ولا إيايّ ، ولم تكن تطيق ملامسة ، غير أنها كانت تقعد إلى جانبي أحياناً ، ولاسيما حين كنت أكتب أو أقرأ ، ثم تضع ذراعها على كتفي بحنان ، أو تنظر في كتابي أو في صفحتي ، ولكن كنت إذا أردت أن أتخذ حرية مماثلة معها انسحبت ولم تعد في وقت قريب . ومع ذلك فقد كانت تكرّر هذا الوضع كثيراً ، كما أن لفتاتها وحركاتها كانت رتيبة جداً ، ولكنها كانت ملائمة دائماً وجميلة وجذابة بالقدر ذاته ، غير أني لم أرها تعامل أحداً بعد ذلك بمثل هذه المؤانسة .

وكان من أكثر ألعاب اللهو براءة وتسلية في الوقت ذاته ، والتي

كنت أؤديها مع فرق مختلفة من الأحداث، أن نجلس في سفينة السوق (١) في هوكست ، وأن نرقب المسافرين الغرباء المنكمشين فيها ،ونرسل أنفسنا على سجيّتها ، مع هذا حيناً ، ومع ذاك حيناً آخر ، كما يشاء لنا الهوى والعبث ، ممازحين مداعبين . وكنا نخرج منها في هوكست ، حيث كانت سفينة السوق الخاصة بماينتس تصل في الوقت ذاته . وفي أحد الفنادق كنا نجد مائدة حسنة الإعداد ، حيث كان الأفاضل من القادمين والمغادرين يتناولون الطعام معاً ، ثم يستأنف كلٌّ منهم رحلته : لأن كلتا السفينتين كانتا تعودان من جديد . وكنا نرحل بعد ذلك في كل مرة ، بعد تناول الغداء إلى فرانكفورت ، بعد أن نكون قد قمنا ، مع مجموعة كبيرة جداً ، بأرخص رحلة مائية ممكنة على الإطلاق . وكنت أقوم ذات مرة بهذه الرحلة مع ذوي جريتشن ، حين انضم إلينا ، على المائدة في هوكست ، شاب ربما كان أكبر منا سناً . وكان أولئك القوم يعرفونه ، وتركهم يقدّمونه إليّ ، وكان في طبيعته شيء يبعث على الإعجاب إلى حد كبير بدون أن يكون متميّزاً فيما عدا ذلك، وكان قد أتى من ماينتس ، ثم عاد معنا إلى فرانكفورت ، وجعل يحادثني في أمور شتى كانت تتناول النظام الداخلي للمدينة والوظائف والمناصب ، حيث بدا لي في ذلك حسن الإطلاع ، ولمّا افترقنا ودّعني ، ثم أضاف قائلاً إنه يأمل أن يكون عند حسن ظني به ، لأنه يأمل أن يتمتع بتوصيةٍ مني . ولم أعرف ماذا يريد أن يقول بذلك ، ولكن الأقرباء بينوا لي ذلك بعد بضعة أيام ، فذكروه بخير والتمسوا مني كلمة تقديم لدى جدّي ، إذ كان ثمة وظيفة متوسطة شاغرة يودّ هذا الصديق لو يصل إليها . واعتذرت أول الأمر ، إذ لم يسبق لي قط أن تدخلت في أمثال هذه الأشياء . ولكنهم ألحّوا عليّ طويلاً حتى قررت الإقدام على

ذلك . أوَ لم أكن ألاحظ من قبل في بعض الأحيان أن شفاعة الجدة أو إحدى العمّات في مثل هذا التوزيع للوظائف الذي كان ينظر إليه ، مع الأسف ، على أنه مسألة تفضّل وإنعام في كثير من الأحيان ، لم تكن عديمة الأثر . وكنت قد بلغت من الكِبَر ما يؤهّلني لأتبوّأ بعض النفوذ . ولذلك غالبت خجل الحفيد ، من أجل أصدقائي الذين أعلنوا بكل الطرق امتنانهم لمثل هذا المعروف ، وقمت بتقديم التماسٍ كان قد سلّم إلي .

ففي يوم من أيام الأحد ، بعد الطعام ، حين كان جدي مشغولاً بحديقته ولاسيما حين أهلّ الخريف وكنت أسعى لأكون ذا فائدة له بأي وجه من الوجوه ، تقدّمت بعد بعض التردد بمطلبي ، وبالالتماس فنظر إليه ، وسألني هل أعرف الشاب ، فسردت عليه ما ينبغي أن يقال بصورة عامة ، وترك الأمر ينتهي عند هذا الحد ، وقال : « إذا كان يملك مؤهلاً وشهادة جيدة فسأكون إلى جانبه ، من أجله ومن أجلك » ولم يقل أكثر من ذلك ، وظللت زمناً طويلاً لا أعرف شيئاً عن المسألة .

وكنت قد لاحظت منذ بعض الوقت أن جريتشن ما عادت تغزل ، وكانت في مقابل ذلك تشتغل بالخياطة ، وبعمل دقيق جداً في الحقيقة ، مما أثار عجبي ، إذ كان النهار قد آخذ ينقص ، وقد أقبل الشتاء ، ولم أفكر في الأمر أبعد من ذلك ، ولكنّ ما كان يثير الاضطراب لديّ أنني لم أكن أجدها في البيت بضع مرات في الصباح كما كان عهدي بها ، ولم أكن أستطيع أن أعرف بدون إلحاح ، أين عساها ذهبت . ومع ذلك فقد كان مقدّراً لي أن أجد ذات يوم مفاجأة غريبة جداً .

وذلك أن أختي التي كانت تتأهّب لحفلة راقصة ، رغبت إليّ أن آتيها بما يسمى بالأزهار الإيطالية من لدن بائعة العشّاق ، وكانت تصنع في الأديرة ، وهي صغيرة ظريفة ، وكانت أزهار الريحان بوجه خاص ، ووردة الأقزام ، وأمثال هذه يتميّزن بجمالهن الفائق وطبيعيّتهن .

ففعلت ذلك إكراماً لها ، ودخلت المحلّ الذي سبق أن كنت فيه معها في كثير من الأحيان ، ولم أكد أدخله وأحيّي صاحبته حتى رأيت في الواجهة امرأة جالسة بدت لي تحت القَلَنْسُوَة المدبّبة صغيرة حقاً وجميلة ، كما بدت تحت الطرحة الحريرية جميلة القوام جداً . وكنت أستطيع بسهولة أن أتبيّن فيها مساعدةً ، لأنها كانت مشغولة بتثبيت شريط وريَش على قبعة صغيرة . وعرضت عليّ بائعة مواد التجميل الصندوق الطويل الذي يضم أزهاراً مفردة متعددة الأشكال ، فتفقّدتها ، وجعلت أنظر ، وأنا أنتقي ، من جديد صوب المرأة الصغيرة في الواجهة ، ولكن ما كان أكبر دهشتي حين أدركت شبَهاً لايصدق بجريتشن ، بل كان لابد لي آخر الأمر أن أقتنع أنها جريتشن ذاتها ، ولم يتبقّ لديّ شك أيضاً حين غمزت لي بعينها ، وأعطتني إشارة لكيلا أكشف عن تعارفنا . وقد انتهيتُ ببائعة مواد التجميل إلى اليأس ، بما انتقيت واطّرحت أكثر مما كانت المرأة ذاتها خليقة أن تفعل ذلك ، ولم أكن في الواقع أختار ، لأنني كنت مرتبكاً إلى أقصى حد ، وكنت في الوقت ذاته أحبّ تردّدي لأنه كان يقفني بالقرب من البُنيّة التي كان قناعها يضايقني والتي كانت تبدو لي مع ذلك في هذا القناع أكثر فتنة من ذي قبل ، وربما فقدت بائعة مواد التجميل كل صبر ، وبحثت لي بيديها عن صندوق كامل من الورق المقوّى مملوء بالأزهار كان عليّ

ان أعرضه على أختي وأن أدعها تختار بنفسها ، وهكذا كنت كمن طرد من المحلّ طرداً ، إذ بعثت بالصندوق بوساطة فتاتها .

ولم أكد أصل المنزل حتى استدعاني والدي ، وصرح لي بأن من المؤكد الآن تماماً أن الأرشيدوق جوزيف قد انتخب ملكاً رومانياً (١) ، وأنه سيتوّج ، وأنه لايجوز للمرء أن ينتظر حدثاً ذا أهمية قصوى ، كهذا ، دونما استعداد ، وأن يدعه يمرّ به وهو محملِق مندهش فحسب ، ولذلك فهو يريد أن يراجع معي يوميّات الانتخاب والتتويج (٢) الخاصة بكلا التتويجين الأخيرين ولاسيّما الشروط الأخيرة المبوّبة للناخبين على المنتخبين (٣) ، ليلاحظ عندئذ أية شروط جديدة سيضيفها القوم في الحالة الراهنة ، وفتحت المذكرات ، واشتغلنا اليوم كله بها حتى ساعة متأخرة من الليل ، بينما كانت الفتاة الحسناء تلوح لي ، في ثوبها المنزلي القديم حيناً ، وفي حلّتها الجديدة حيناً آخر ، بصورة دائمة ، بين أكبر موضوعات الامبراطورية الرومانية المقدسة ، جيئة وذهاباً . ولم يكن من الممكن رؤيتها في هذا المساء ، وسهرت ليلة مضطربة جداً ، واستؤنفت دراسة الأمس في اليوم التالي بنشاط ، ولم أتمكّن إلاّ قرب المساء من زيارة جميلتي التي وجدتها من جديد في ثوبها المنزليّ المألوف . وابتسمت إذ رأتني ، ولكني لم أجري على ذكر شيء أمام الآخرين ، ولما جلست المجموعة كلها من جديد ، بهدوء معاً ، بدأت بقولها : « ليس من اللائق ألاّ تعهدوا إلى صديقنا بما قررّناه ، في هذه الأيام » ومضت تروي لي بعد ذلك أن حديثنا الأخير الذي تناول كيف يجعل كل امريء لنفسه مكانة في هذه الدنيا ، قد ورد فيه أيضاً الطريقة التي يستطيع بها المخلوق الأنثوي أن ينميّ مواهبه وأعماله ويستعمل

وقته بطريقة مجدية ، وقد اقترح ابن عمتها على أثر ذلك أن تجرب هذا لدى بائعة لمواد التجميل تحتاج الآن خاصة إلى معاونة ، وقد اتفقوا مع السيدة ، وهي تذهب إلى هناك كثيراً من الساعات ، ويدفع لها أجر حسن ، غير أنه لابد لها هناك ، من أجل اللياقة ، أن تتكلف قدراً معيناً من الملابس المُبَهْرَجة التي تخلّفها كل حين هناك ، لأنها لايمكن أن تتلاءم مع حياتها وطبيعتها فيما يتبقّى لها من الوقت على الاطلاق . وقد اطمأنت نفسي بهذا التصريح في الحقيقة ، غير أنه لم يعجبني بحال من الأحوال أن أرى البُنيّة الجميلة في محلّ عام ، وفي مكان يتخذه أهل المجون منتدىً لهم من حين إلى آخر ، ومع ذلك فلم أدع هذا يظهر عليّ ، وجعلت أحاول أن أعالج همي الناجم عن الغيرة بهدوء ، بيني وبين نفسي . ولم يُتح لي ابنُ عمها الأصغر وقتاً طويلاً لذلك إذ تقدم إليّ بُعَيْد ذلك من جديد بتكليف بقصيدة من قصائد المناسبات وحدثني عن الشخصيات . وطلب إليّ في الوقت نفسه أن أتأهّب لوضع القصيدة وتخطيطها . وكان قد تحدث معي بضع مرات حول معالجة مثل هذه المهمة ، وبلغ مني ، إذ كنت في أمثال هذه الحالات مفرطاً في الثرثرة ، بسهولة بالغة ، أنني بسطت له بالتفصيل ما في هذه الأمور من الجانب البلاغيّ ، وأعطيته فكرة عن المسألة ، واستخدمت أعمالي وأعمال غيري من هذا النوع أمثلة على ذلك ، وكان ذلك الشاب ذا فطنة ، على الرغم من أنه لم يكن فيه أثر يدل على قريحة شعرية وقد أوغل الآن في التفاصيل إيغالاً شديداً ، وأراد أن يظفر ببيان عن كل شيء الى درجة جعلت صوتي يعلو بالملاحظة التالية : « إنما يبدو كأنك تريد أن تتدخل في صنعتي وتصرف عني زبائني » . وقال ذلك مبتسماً :

« لاأريد أن أنكر ذلك ، لأنني لاألحق بذلك أذىً بك . فمهما طال بك الأمر فسوف تذهب إلى المعهد العالي ، فلتدعني حتى ذلك الأجل أظل أستفيد منك شيئاً ما » . ورددت قائلاً : « من كل قلبي » وشجعته على أن يضع مخططاً بنفسه ، وأن يختار أنموذجاً للمقاطع العروضية بحسب طبيعة الموضوع ، وسوى ذلك مما قد يبدو ضرورياً . وتوجه إلى المسألة بجدّ ، ولكن الأمر استعصى على النجاح . وكنت أضطر في آخر الأمر إلى التعديل في كتابة قدر كبير منها ، حتى كان أهوَن عليّ وخيراً لي أن أقوم بها بنفسي من البداية ، ومع ذلك فقد كان هذا التعليم والتعلّم ، وهذا البيان والعمل المتبادل يمنحنا تسلية جيدة ، وكانت جريتشن تسهم في ذلك ، وكان لها بعض الخواطر الظريفة ، فكنا جميعاً مسرورين ، بل يجوز للمرء أن يقول إننا كنا سعداء . وكانت تعمل في النهار عند بائعة مواد التجميل ، وفي المساء كنا نجتمع في العادة ، ولم يكن يكدّر سرورنا أن الطلب على قصائد المناسبات ما عاد أمره يستقيم تماماً على نحو مطرد . وشعرنا مع ذلك بألم حين عادت إلينا قصيدة مع الاحتجاج ، لأنها لم تعجب الطالب ، بينما كنا نعزّي أنفسنا ، لأننا كنا نعدّها بوجه خاص أفضلَ أعمالنا ، وكان يحق لنا أن نعدّ ذاك عديمَ المعرفة . وكان ابن العم الذي يريد أن يتعلّم شيئاً يغنيه إلى النهاية يستحثني الآن على واجبات مفترضة كنا نتناقش في حلّها مناقشة كانت ما تزال جيدة بدرجة كافية في الحقيقة ، ولكن كان لابد لنا أن نعد مآدبنا الصغيرة إعداداً أكثر اعتدالاً إلى حد كبير بالطبع ، لأن المناقشة لم تكن تعود بطائل .

وكان ذلك الموضوع الكبير في الحقوق الدوْلية ، وهو موضوع انتخاب ملك رومانيّ وتتويجه ، يتخذ طابع الجدّ على نحو مطرد في

الزيادة . وذلك أن مجلس الأمراء الناخبين (١) الذي جرى الإعلان عنه أول الأمر في أوجز برج في تشرين الأول من عام ١٧٦٣ نقل الآن إلى فرانكفورت . وكانت الاستعدادات التي يراد بها أن تمهّد لهذا العمل الهام ، تجري على قدم وساق سواء في نهاية هذا العام أم في بداية العام التالي . وقد شكل البداية موكب لم نره قط من قبل . وذلك أن واحداً من شخصياتنا الخطابية كان على جواد في صحبة أربعة من عازفي البوق الفرسان أيضاً ، ويحيط بهم حرس من المشاة ، كان يتلو بصوت عال مسموع في كل نواصي المدينة مرسوماً مستفيضاً يخبرنا بما ينتظرنا ويحدّد للمواطنين سلوكاً لائقاً ومتناسباً مع الظروف . وفي المجلس البلدي عقدت مشاورات كبيرة . ولم يمض وقت طويل ، وإذا برئيس مصلحة الإسكان في المملكة يظهر مبعوثاً من قبل المارشال الوراثي ، ليؤمن ويحدد المساكن للمبعوثين ولأتباعهم بحسب التقليد القديم ، وكان بيتنا يقع ضمن أبرشيّة الأمير الناخب في مقاطعة بفالتس (١) . وكان علينا أن نجهز لأنفسنا مأوىً جديداً ، وان كان باعثاً على البهجة ، وأخلى الطابق الأوسط الذي كان في عهده الكونت تورانك من قبل ، لفارس من بفالتس ، ولما كان البارون فون كونيجزتال (٢) ، المبعوث النورنْبِرْجيّ ، قد شغل الطابق العلوي ، فقد كنا محشورين في زحمة أشدّ مما كنا أيام الفرنسيين . وقد أفادني هذا من أجل ذريعة جديدة لأكون خارج البيت ، وأقضي معظم الوقت في الشارع ، لأرى بعينيّ ما يمكن رؤيته بصورة مكشوفة .

وبعد أن تم التغيير والتجهيز السابقان للحجرات في دار المجلس البلدي على نحو يجعلها جديرة بالتأمّل ، وبعد أن تم وصول المبعوثين واحداً بعد الآخر ، وتمت انطلاقتهم الجماعية الاحتفالية في السادس

من شباط ، أُعجِبنا بعد ذلك بوصول المفوضين الامبراطوريين (١) ومسيرتهم إلى مبنى المجلس البلدي ، وقد حدث ذلك مع كثير من الأبّهة ، وتركت الشخصية النبيلة للأمير ليشتنشتاين انطباعاً حسناً . ومع ذلك فقد شاء العارفون أن يزعموا أن ملابس الخدم الرسمية الفخمة قد استخدمت من قبل في مناسبة أخرى وأنّ من العسير أن يأتي هذا الانتخاب والتتويج على مستوى انتخاب كارل السابع وتتويجه (٢) . أما نحن ، معشر الصغار فقد رضينا بما كان أمام أعيننا ، وكان كل شيء يبدو لنا جيداً جداً ، كما أن بعض ذلك أذهلنا .

وأخيراً حُدِّد موعد الاجتماع الانتخابي (٣) في الثالث من آذار ، ودخلت المدينة الآن ، عن طريق الإجراءات الرسمية الجديدة في حالة حركة ، وكانت الزيارات الرسمية المتبادلة بين المبعوثين تدعنا وقوفاً على أقدامنا دائماً . وكان لابد لنا أيضاً أن نتنبه بدقة ، إذ لم يكن علينا أن نحملق فحسب ، بل كان ينبغي لنا أن نلاحظ كل شيء ملاحظة حسنة لنؤدي حساباً عن ذلك في البيت بالشكل المناسب ، بل كان علينا أن نصوغ موضوعاً إنشائياً صغيراً كان ابن العم والسيد فون كونْجِزْتال قد اقتنعا به ، تمريناً لنا من ناحية ، ومن أجل الملاحظة الخاصة من ناحية أخرى . وقد أفادني هذا بالفعل من أجل مزية خاصة ، إذا استطعت أن أقدم عن الجانب الظاهري يوميات حية إلى حد كبير ، عن الانتخاب والتتويج . وفي البداية كان بين شخصيات الممثلين الذين تركوا في نفسي انطباعاً دائماً شخصية المفوَّض الأول لمقاطعة ماينتس الناخبة ، البارون فون إرتال (١) ، الأمير الناخب لاحقاً . وبدون أن يكون ثمة شيء يلفت النظر في هيئته كان يروق لي إلى حد كبير في بزته السوداء

المحفوفة بالأهداب . أما المبعوث الثاني ، البارون فون جروشلاج (٢) ، فكان رجلاً من رجال الدنيا ، حسن البنية غير متكلّف في الظاهر ، ولكن سلوكه يتسم بالتهذيب إلى أقصى الحدود ، وكان يحدث انطباعاً مريحاً جداً . أما الأمير أستير هازي (٣) ، مبعوث بوهيميا ، فلم يكن طويلاً ، ولكنه كان حسن البنية ، مفعماً بالحيوية ، وكان في الوقت نفسه مهذّباً تهذيب النبلاء ، بدون كبرياء ، ولا برود . وكنت أميل إليه بصورة خاصة لأنه كان يذكرني بالمارشال بروجليو . ومع ذلك فقد كانت شخصية هؤلاء الأشخاص الممتازين ومكانتهم تتواريان وراء الحكم المسبق الذي كان الناس قد اتخذوه ازاء مبعوث براندنبورج البارون فون بلوتو (٤) . وكان هذا الرجل الذي امتاز بضآلة معينة ، سواء في ملابسه الخاصة أم في ملابس خدمه وتجهيزاته ، مشهوراً منذ حرب السنوات السبع بأنه بطل دبلوماسي ، وقد كان ألقى ، في ريجنزبورج ، بموثّق العقود ، أبريل ، الذي كان يعتزم أن يدس إليه المذكرة المقدّمة ضد مليكه ، مصحوباً ببعض الشهود ، فوق الدرج ، أو أوعز بقذفه ، مع الردّ المقتضب بقوله : « ماذا ؟ أتدّس ؟ » وقد صدّقنا الجانب الأول ، لأنه أعجبنا أكثر من سواه ، وكنا نرى أيضاً الرجل الضئيل المضغوط ذا العينين الناريتين السوداوين اللتين تنظران هنا وهناك ، أهلاً للثقة تماماً . وكانت كل العيون مصوّبة إليه ، ولاسيما حين ينزل من عربته ، وكان ينشأ في كل وقت نوع من التهامس البهيج ، ولم يكن ينقص إلاّ القليل لكي يهلّل له الناس أو يهتفوا بحياته أو يصيحوا صيحة الإعجاب . وكان الملك ، وكل من يواليه قلباً وقالباً ، يحظون بقدر عالٍ من تأييد الجمهور الذي كان يوجد بين صفوفه ، عدا أهالي فرانكفورت ، ألمان من كل الأصقاع .

وكنت أجد من ناحية بعض المتعة في هذه الأشياء : لأن كل ما كان يحدث ، مهما يكن نوعه ، كان ينطوي على دلالة معينة ، وكان يشير إلى ترابط داخليّ ما ، وإلى أن مثل هذه الاجراءات الرمزية كانت تمثل الدولة الألمانية التي يكاد يغرقها هذا القدر الكبير من المخطوطات الجلدية والأوراق والكتب ، في صورة حية من جديد لحظة من الزمان . ولكني لم أكن أستطيع ، من ناحية أخرى ، أن أخفي استنكاري في قرارة النفس حين كان عليّ الآن أن أنقل المفاوضات الداخلية ، في البيت ، تبعاً لغرض أبي ، وأن ألاحظ مع هذا أن ثمة سلطات كثيرة كان بعضها يعارض بعضاً ، وكانت تحافظ على التوازن فيما بينها ، ولم تكن متفقة إلاّ بمقدار ما كانت تقصد الحدّ من نفوذ الحكام الجدد أكثر مما كانت تفعل مع القدماء ، وأن كل واحد لم يكن يستمتع بنفوذه إلاّ بمقدار ما كان يأمل أن يحافظ على امتيازاته ويوسّعها وأن يضمن استقلاله بصورة أكبر . أجل ، لقد أصبح القوم هذه المرة أكثر انتباهاً من ذي قبل ، لأنهم بدأوا يخشون من جوزيف الثاني ، ومن عنفه ، ومن خططه المحتملة .

أما جدّي وسائر التابعين لمجلس الشورى ، وهم ، أولئك الذين دَأَبْتُ على غشيان منازلهم ، فلم تكن الأيام أيام خير عندهم ، لأنهم كانوا مشغولين إلى حد بعيد بجلب نبلاء الضيوف ، والتأدّب اللبق معهم ، وتقديم الهدايا ، ولم يكن شأن إدارة البلدية بأقل من ذلك ، إذ كان عليها ، أن تتصدّى ، وتقاوم وتحتج دائماً ، سواء بصورة مجملة أم بالتفصيل ، لأن كل واحد كان يريد في أمثال هذه المناسبات أن ينهش شيئاً منها أو يثقل كاهلها بشيء ، وقلّ من كان يساندها

أو يسعفها من أولئك الذين كانت تخاطبهم . وجملة القول أنه قد تجلّى لعينيّ الآن بصورة حيّة كل ما سبق أن قرأته في « حوليات » ليسنر (١) عن أحداث مماثلة في مناسبات مماثلة ، مع إعجابي بصبر أولئك الأعضاء الطيبين في المجلس البلدي ومثابرتهم .

وكان بعض الاستياء ينجم أيضاً من أن المدينة كانت تمتلىء شيئاً فشيئاً بأناس ضروريين وغير ضروريين . وعبثاً كانت المدينة تذكّر دور الحكام بالتعليمات الواردة في المرسوم الذهبي الذي كان قد تقادم بالطبع ، ولم يكن يتمتع بالحماية أولئك المكلفون بالعمل ومرافقوهم فحسب ، بل كان معهم بعض الأشخاص ذوي المقام ، والأشخاص الآخرون الذين يتوافدون بدافع الفضول ، أو لأغراض خاصة ، ولم يكن يجري البتّ على الفور في مسألة من ينبغي إيواؤه ومن ينبغي أن يستأجر مسكناً بنفسه وكانت الفوضى تتفاقم ، ويأخذ حتى أولئك الذين لم يكن عليهم أن ينهضوا بشيء من العبء أو يحتملوا مسؤولية ، بالشعور بالضيق .

بل كنا نحن معشر الصغار الذين كان في وسعنا أن نشارك في رؤية هذا كله ، لانجد مع ذلك ما يكفي من الإشباع لعيوننا ولمخيلتنا ، وكانت المعاطف الاسبانية ، والقبعات الكبيرة ذوات الريش الخاصة بالمبعوثين ، وبعض الأشياء الأخرى هنا وهناك تضفي مظهر القِدَم بلاريب . وكان بعض ذلك ، بالمقابل ، بين القديم والجديد ، أو حديثاً تماماً ، بحيث كان يتجلّى دائماً ، في كل مكان مجرّد خليط ملوّن لايبعث على الرضى ، بل كان في كثير من الأحيان عديم الذوق . ولذا كان يسعدنا جداً أن نسمع بأن حفلات كبرى تقام بسبب مَقدَم

الامبراطور ، والملك القادم ، وأن المفاوضات الدائرة في المجلس (١) بين الأمراء الناخبين ، والتي كان يكمن في أساسها الاجتماعُ الانتخابيّ الأخير ، كانت تمضي قُدُماً بنشاط ، وأن يوم الانتخاب قد حدد في السابع والعشرين من آذار . وكان التفكير يتجه الآن إلى تأمين إشارات الدولة من نورنبرج وآخن . وكان الناس يتوقعون أوّلاً دخول أمير ماينتس الناخب ، على حين كانت الخلافات بسبب أعمال الإيواء ما تزال مستمرة .

وكنت في هذه الأثناء أمارس عملي الديواني في البيت بحيويّة كبيرة ، وقد اطلعت أثناء ذلك بالطبع على بعض الشكاوى المتعلقة بأمور صغيرة ، تلك الشكاوى التي كانت تتوارد من جهات كثيرة ، والتي كان من الواجب أن ينظر فيها بعين الاعتبار في التعهّد الانتخابي الجديد وكانت كل طبقة تريد أن ترى في هذه الوثيقة امتيازاتها القانونية محقّقةً ، ومكانتها متحسّنة ، وما أكثر ما كان يطرح من أمثال هذه الملاحظات والرغائب جانباً ، كما بقي كثير منها على حاله . وقد حصل المعترضون في الوقت ذاته على أشد ضروب التوكيد إلزاماً ، ومفادها أنه لاينبغي ألاّ يلحق بهم ذلك التجاوز إجحافاً بحال من الأحوال .

وكان على قيادة جيش المملكة في هذه الأثناء أن تتولى كثيراً جداً من المهام الصعبة : فقد كان جمهور الغرباء يتنامى ، ويغدو إيواؤهم عسيراً بصورة مطّردة . ولم يكن القوم يتفقون حول حدود المقاطعات المختلفة للأمراء الناخبين . وكانت إدارة البلدية تريد أن ترفع الأعباء عن المواطنين الذين كان يبدو أنهم غير ملزمين بها . وهكذا كان يوجد في الليل والنهار ، وفي كل ساعة ، أزمات ، وشكاوى ، ونزاع وخلافات .

وتم دخول أمير ماينتس الناخب (١) في الحادي والعشرين من آذار ، وهنا بدأ الآن قصف المدفعية الذي كان من المفروض أن يصمّ آذاننا أكثر من مرة ، وقتاً طويلاً . وكان هذا الاحتفال من الأمور المهمة في سلسلة الاجراءات الرسمية : لأن كل الرجال الذين رأيناهم يظهرون حتىا لآن ، كانوا يظلون ، على الرغم من علوّ مكانتهم ، مجرّد مرؤوسين . فأما هنا فقد ظهر حاكم وسيادة ، أمير مستقلّ ، هو الأول بعد الامبراطور ، يتقدمه ويصحبه أحد كبار حاشيته . وقد كنت خليقاً أن أذكر شيئاً عن أبّهة هذا الدخول لولا أني أعتزم العودة إلى ذلك من جديد (٢) ، وذلك في مناسبة ما كان ليتكهّن بها أحد بسهولة .

وذلك أن لافاتر جاء في اليوم نفسه ، وهو في طريق عودته من برلين إلى موطنه ، ماراً بفرانكفورت ، وشارك في مشاهدة هذا الإحتفال وعلى الرغم من أن هذه المظاهر الدنيوية لم تكن لها أدنى قيمة بالقياس إليه ، فقد كان لابد أن ينطبع هذا الموكب بأبّهته ، وبكل توابعه ، واضحاً في مخيلته البالغة الحيوية . ذلك لأنني وجدت ، حين أطلعني هذا الرجل الفاضل ، والعنيد ، بعد بضع سنوات ، على مقطوعة من معارضاته الشعرية (٣) ، واعتقد أنها تلك الخاصة برؤيا القديس يوحنا ، وجدت دخول المسيح الدجّال منقول الصورة عن دخول أمير ماينتس الناخب ، خطوة فخطوة ، وصورة فصورة ، وحالاً فحالاً ، حتى ان أعراف الخيل على رؤوس الخيول الصُفْر الضاربة إلى السُمْرة لاتُفتَقد فيها . وسوف يمكن أن يقال مزيدٌ عن هذا حين أصل إلى الحقبة الخاصة بذلك النوع الغريب من الشعر الذي كان الناس يعتقدون

أنهم يجعلون به حكايات العهدين القديم والجديد أقربَ متناولاً ، حين يُكسبونها الطابع الحديث بنظمها في شعر هزلي ، ويُسبِغون عليها ثوباً من الحياة الحاضرة ، سواء أكان أكثر ابتذالاً أم أكثر نبلاً. أما كيف يتم جعل هذا النوع من التناول محبوباً شيئاً فشيئاً فذلك ما سيكون موضوع حديث في المستقبل على النحو ذاته. ومع ذلك فسوف أقتصر هنا على ملاحظة أنها لم تُمارَس ممارسة أبعد من لافاتر والسائرين على نهجه . إذ كان أحد هؤلاء يصف الملوك الثلاثة المقدسين ، وهم يدخلون بيت لحم ركباناً ، وصفاً يبلغ من حداثته أن الأمراء والسادة الذين دأبوا على زيارة لافاتر لايمكن أن تخطيء العين في التعرف عليهم شخصياً من خلال هؤلاء .

وإذاً فلندع هذه المرة الأمير الناخب إيميريش جوزيف يصل إلى مقر حكومة مقاطعة ماينتس الناخبة بما يشبه الاسم المستعار ، ولنتجه إلى جريتشن التي أبصرتها حين أخذ مدّ الجماهير في التراجع ، وقد صحبها بيلادس وجميلته (إذ كان يبدو أن هؤلاء الثلاثة لايمكن التفريق بينهم الآن) ، في خضّم الفوضى . ولم يكد أحدنا يصل إلى الآخر ويحييه حتى اتفقنا على أن نقضي هذه الأمسية معاً ، وحضرتُ في الوقت المناسب ، واجتمع الرهط المعتاد ، وكان لدى كلٍّ منهم ما يرويه ، ويقوله ، ويلاحظه ، عمّا لفت نظر أحدهم من هذا الأمر وما لفت الآخر من ذاك الأمر ، على أشد ما يكون لفت النظر ، وقالت جريتشن آخر الأمر : « إن أحاديثكم تكاد تربكني أكثر مما أربكتني أحداث هذه الأيام ذاتها . فانا لاأستطيع أن أؤلّف بين ما رأيته ، ولقد وَددْتُ لو أعرف من أحدٍ من الناس كيف جرت الأمور » ، فأجبتُ أن من

اليسير عليّ أن أسدي إليها هذه الخدمة ، وما عليها إلاّ أن تقول ما الذي تهتم به في الحقيقة ، ففعلت هذا ، وبينما كنت أهمّ بايضاح بعض الأشياء لها تبيّن لي أن من الأفضل أن أمضي بحسب النظام . وجعلت أقارن ، على نحو لاتنقصه البراعة ، بين هذه الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية ، وبين مسرحية يسدل فيها الستار ، على حسب المزاج ، بينما يواصل الممثلون تمثيلهم ، ثم يعاد رفع الستار من جديد ، ويستطيع المتفرج من جديد أن يشارك إلى حد ما في تلك المشاهد . ولما كنت كثير الثرثرة حين يتيح الناس لي ذلك فقد رويت كل شيء من البداية إلى اليوم الحاليّ ، على أحسن نظام ، ولم أتوانَ عن استخدام قلم الأردواز واللوح الحجري الموجودين لأجعل محاضرتي واضحة جليّة ، وأنهيت روايتي بالقبول العام ، ولم يكن يكدّر صفوي إلاّ قليل من الأسئلة والمعاندات من قبل الآخرين ، بينما كانت جريتشن تشجعني بانتباهها المستمر إلى حد كبير وشكرت لي آخر الأمر ، وجعلت تحسد ، حسب تعبيرها ، كل أولئك الآخرين الذين يحيطون علماً بأشياء هذا العالم ، ويلمّون بمجريات الأمور ، وما يمكن أن يدل عليه هذا الرمز أو ذاك . وتمنّت لو كانت غلاماً ، وعرفت كيف تقرّ مع كثير من الود أنها قد غدت مدينةً لي بقدر غير قليل من التعليم ، وقالت : « لو كنت فتىً لذهبنا إلى الجامعة معاً لندرس شيئاً من الحقوق » ، واتصلّ الحوار على هذه الطريقة واعتزمت بصورة مؤكدة أن تتعلّم الفرنسية التي أدركت ضرورتها الحتمية في محل بائعة مواد التجميل إدراكاً جيداً . وسألتها لماذا لاتذهب بعدُ إلى هناك : « إذ أنني ، لمّا لم أكن أستطيع أن آتي كثيراً في المساء ، كنت أمرّ بالمحل في النهار أحياناً من أجلها ، لأراها لحظة واحدة فحسب ، فأوضحت لي أنها تأبى أن تبيح لنفسها

الخروج إلى هناك في هذه الأيام المضطربة ، وأنها إذا عادت المدينة إلى طرفها السابق من جديد فستفكر في العودة من جديد أيضاً .

وانتقل الحديث الآن إلى يوم الانتخاب الذي كان يواجهنا أولاً وكنت أعرف رواية ماذا يحدث وكيف يحدث على نحو مفصَّل ، وأن أدعم إشاراتي عن طريق الرسوم المفصلة على اللوح ، بينما كنت أتمثّل غرفة الانتخاب السرية (١) بهياكلها وعروشها وكراسيّها ومقاعدها بصورة كاملة — وافترقنا في الوقت المناسب ونحن مرتاحون بصورة خاصة .

ذلك لأنه ما من شيء يمكن أن يتيح لزوجين شابيّن مكوَّنين بالفطرة ، تكويناً متناسقاً إلى حدٍّ ما ، توافقاً أجمل من أن تكون الفتاة ظامئة إلى التعلّم ، والفتى معلّماً . وينجم عن ذلك علاقة عميقة بمقدار ما هي ممتعة ، فهي ترى فيه مبدع وجودها الفكري ، وهو يرى فيها مخلوقاً يدين بالفضل في اكتماله لا للفطرة ، ولا للمصادفة ، ولا لإرادةٍ من جانب واحد ، بل لإرادة من كلا الجانبين . وهذا التأثير المتبادل يبلغ من حلاوته أننا لايحق لنا أن نعجب إذا كان ينشأ منذ أيام أبيلارد القديم (١) والجديد ، عن مثل هذا الالتقاء بين مخلوقين أشدّ ألوان العواطف جبروتاً ، كما ينشأ من السعادة بمقدار ما ينشأ من الشقاء .

وفي اليوم التالي مباشرة كان ثمة حركة كبيرة في المدينة ، بسبب الزيارات وردود الزيارات التي كانت تؤدّى مع أكبر الاجراءات الاحتفالية . غير أن ما أثار اهتمامي بصورة خاصة ، بحكم كوني مواطناً من أهالي فرانكفورت ودفعني إلى كثير من التأمّلات ، إنما كان أداء قسم الأمان الذي كان يؤديه المجلس والعسكريون والمواطنون ،

لابوساطة الممثلين ، بل بصورة شخصية ، وجماعية ، وكان يؤديه أولاً إدارة البلدية وضباط الأركان في قاعة المجلس البلدي الكبرى ، ثم مجموع المواطنين في الميدان الكبير ، ميدان جبل الرومان ، حسب درجاتهم المختلفة ومراتبهم وأحيائهم ، وأخيراً سائر العسكر . فهنا كان المرء يستطيع أن يحيط بالأمة كلها بنظرة واحدة وقد اجتمعت لغرض شريف ، وهو أن تقدم عهد الأمن إلى رئيس الدولة وإلى أركانها وأن تهيء له الاستقرار الذي لايتزعزع إزاء العمل الذي يواجهه . وقد قَدِمَت الآن أمارتا ترير وكولونيا الناخبتان شخصياً . وسوف يصار عشية يوم الانتخاب إلى إخراج كل الغرباء من المدينة ، فالأبواب مغلقة ، واليهود محجوزون في زقاقهم ، ولم يكن اعتداد المواطن الفرانكفورتيّ بنفسه قليلاً إذ كان هو وحده الذي يحق له أن يظلّ الشاهدَ على مثل هذا الاحتفال الكبير .

وكان كل شيء قد جرى حتى الآن بطريقة حديثة إلى حد كبير : فقد كانت الشخصيات الأعلى ، والشخصيات الكبيرة لاتتنقّل إلاّ في عربات ، جيئة وذهاباً . أما الآن فقد كان من المفروض أن نراها على الخيل ، تبعاً لطريقة مغرقة في القدم . وكان الإقبال والتزاحم فائقين . وعرفت كيف أتنقّل في مبنى المجلس البلدي الذي كنت أعرفه معرفة الفأر بأرض الذرة ، حتى وصلت إلى المدخل الرئيسي الذي كان من المفروض أن يمتطي الأمراء الناخبون والمبعوثون الخيل أمامه الآن ، وهم الذين أقبلوا أولاً في عربات فخمة ، واحتشدوا في الأعلى ، وكانت الجياد الأكثر فخامة والتي يُحمد ركوبها ، قد أسدلت عليها ستائر غنية بالزخارف مزينة بكل طريقة ، وكان الأمير الناخب ايميريش

جوزيف (١) وهو رجل وسيم ظريف ، يمتاز بفروسيته تميّزاً جيداً . أما الاثنان الآخران فقلّما أذكرهما إلاّ من حيث ان هذه المعاطف الأميرية الحمر المكسوّة بفراء الهِرْمِلين التي ألفنا ألاّ نراها إلاّ على اللوحات الزيتية ، كانت تبدو لنا في العراء رومانسيّة جداً ، كما كان لسفراء الأمراء الناخبين الزمنيّين * الغائبين في أثوابهم المذهّبة، وملابسهم الاسبانية المطرّزة بالذهب والموشّاة بالشرائط الذهبية كالأهداب على نحو كثيف ، موقع حسن في أعيننا . وكانت الريش الكبيرة على القبعات ذات الطراز القديم والحافّات المثنيّة إلى الأعلى ، تخفق في الهواء بأبهى صورة ، غير أن ما لم يكن يعجبني في ذلك على الإطلاق إنما كان السراويل الحديثة القصيرة ، والجوارب الحريرية البيض . والأحذية ذات الطراز الحديث . ولقد وَدِدْنا لو كان ثمة جزمات نصفية صغيرة ، مذهّبة على قدر ما نريد ، وصنادل أو أشباهها ، لمجرد أن نرى أزياءً أكثر منطقيّةً إلى حد ما .

وكان مبعوث بلوتو يمتاز بسلوكه هنا أيضاً من جديد على كل الآخرين . وكان يظهر حيوية ومرحاً ، وكان يبدو أنه لم يكن يكنُّ احتراماً خاصاً للطقوس الاحتفالية كلها ، لأنه حين لم يستطع صاحب طليعته ، وهو سيد يميل إلى الشيخوخة ، أن يثب على جواده على الفور ، واضطر من أجل ذلك أن ينتظر برهة عند المدخل الكبير ، لم يمتنع عن الضحك إلى أن قُدم إليه جواده الذي وثب عليه ببراعة فائقة ، وكان يلقى الإعجاب من قِبلنا مراراً من حيث أنه المبعوث النبيل لفريدريك الثاني .

(*) الزمني نقيض الروحي أو الكهنوتي . « المترجم »

والآن أصبح الستار منسدلاً بالقياس إلينا ، وكنت في الحقيقة قد حاولت أن أشقّ طريقي إلى الكنيسة ، ولكن كان يوجد هناك أيضاً من الإزعاج أكثر مما يوجد من المتعة ، وكان الناخبون قد انسحبوا إلى قدس الأقداس الذي كانت فيه الطقوس الاحتفالية الواسعة النطاق تقوم مقام التفكير المتروّي في الانتخابات . وبعد إلحاح طويل ، وتدافع وتلاطم سمع الشعب آخر الأمر اسم جوزيف الثاني الذي نودي به ملكاً رومانياً .

وغدا تدفق الغرباء الآن على المدينة يزداد على نحو مطرد ، وكان الناس جميعاً يغدون ويروحون في ملابس التشريفات بحيث ما عاد المرء يجد آخر الأمر شيئاً جديراً بالملاحظة سوى الحلل المذهّبة تماماً . وكان الامبراطور والملك قد وصلا إلى قصر الكونت شونبورن في قرية هويزنشتام (١) ، وأُدِّيت لهما التحية حسب التقاليد ورحب الناس بهما ، ولكن المدينة احتفلت بهذه الحقبة الهامة بأعياد روحيّة لمجموع الأديان ، عن طريق المراجع العليا ، وعن طريق المواعظ ، كما تم ذلك من الجانب الزمنيّ ، باطلاق نيران المدفعية المتواصل المصاحب لنشيد الشكر .

ولو أن المرء نظر إلى كل هذه الاحتفالات العامة منذ بدايتها حتّى الآن ، على أنها عمل فنيّ مدروس لما وجد فيها كثيراً مما يأخذه عليها . فقد كان كل شيء مجهّزاً بصورة جيدة ، وكانت المشاهد العامة تبدأ رويداً رويداً وتزداد أهميتها شيئاً فشيئاً ، وكان الناس يزدادون عدداً ، والأشخاص يرتقون في المكانة ، وتزداد بيئاتهم ، كما يزدادون هم أنفسهم فخامة ، وهكذا كان الأمر يتصاعد مع كل يوم ، بحيث كانت العين المتربِّصة المستعدة ذاتها تزوغ من الحيرة .

وكان دخول أمير ماينتس الناخب الذي لم نرد أن نصفه وصفاً أكثر تفصيلاً ، كان من الفخامة والمهابة بما يكفي ليعني في مخيلة الرجل النجيب وصول حاكم عظيم من حكام الدنيا تنبّأ به المتنبؤون . ولم يكن انبهارنا بذلك قليلاً . ولكن انتظارنا اتسم الآن بالتوتّر إلى أقصى الحدود حين قيل إن الامبراطور والملك القادم قد اقتربا من المدينة . وكانت خيمة قد نصبت على مسافة من زاكسنهاوزن أقامت فيها إدارة البلدية كلها لتؤدي للرئيس الأعلى للمملكة التكريم اللائق ، ولتقدم إليه مفاتيح المدينة . وفوق ذلك كان يقوم مخيّم فخم ، آخر ، كان يعتمد عليه كل الأمراء الناخبين والمبعوثون الناخبون لاستقبال أصحاب الجلالة ، بينما كان أتباعهم ينتشرون على طول الطريق بأسره ليتحركوا شيئاً فشيئاً من جديد صوب المدينة حين يجيء دورها ، ولتنضمّ إلى الموكب على نحو ملائم . والآن أقبل الامبراطور على الخيمة ، فدخلها ، وبعد استقبال مهيب انفضّ الأمراء الناخبون والمبعوثون ، ليشقّوا الطريق للحاكم الأعلى حسب النظام .

أما نحن الآخرين ، الذين مكثنا في المدينة لنتملّى من هذا البهاء داخل الجدران والشوارع أكثر مما كان يمكن أن يحدث في الحقول الخالية ، فقد كنا نتسلى تسلية مستحسنةً تماماً بالصفوف المنصوبة في الأزقّة والمؤلّفة من المواطنين ، وبتدفّق الشعب ، وببعض ما يرد في هذه الأثناء من الطرائف والحماقات ، حتّى أنبأنا قرع الأجراس ودويّ المدافع عن الاقتراب المباشر للحاكم ، وكان ما لابدّ أن يسرّ الفرانكفورتيّ هو أن دولة مدينة فرانكفورت كان تظهر في هذه المناسبة ، ولدى حضور هذا العدد الكبير من الحكام ذوي السيادة ، وممثليهم ،

في صورة الدولة ذات السيادة أيضاً : لأن رئيس الحظائر فيها كان يفتتح الموكب ، وكان يتبعه خيول للركوب عليها أغطية ذات شعارات للدولة كان النسر الأبيض يتميّز فيها بصورة جيدة للغاية في الحقل الأحمر ، وخدم وصغار الموظفين ، وضاربوا الطبل وعازفوا البوق ، والمنتدبون من المجلس البلدي ، يصحبهم خدم المجلس البلدي في ثياب البلدية الرسمية مشاةً . وانضم إلى ذلك السرايا الثلاث للفرسان المدنيين ، راكبين خيلاً مطهّمة ، وهم أنفسهم الذين كنّا نعرفهم منذ الصغر لدى ملاقاة الحرس والمناسبات العامّة الأخرى . وسُرِرْنا بشعورنا بالمشاركة في هذا الشرف ، وبالجزيء من مئة ألف جزء من الدولة ذات السيادة التي كانت في الوقت الحاضر تتجلّى في بهائها الكامل . وكان الأتباع المختلفون لمارشال الرايخ الوراثي (١) وللمبعوثين الانتخابيين الموكّلين من قبل الأمراء الناخبين الزمنيّين الستة يسيرون بعد ذلك في الموكب خطوة خطوة . ولم يكن أيٌّ من هؤلاء يتألف من أقل من عشرين خادماً وعربتين من عربات الدولة ، وكان ذلك عند بعضهم جزءاً من عدد أكبر . أما أتباع الأمراء الناخبين الروحيين فقد كانوا الآن في ازدياد مطّرد ، وكان الخدم وصغار الموظفين المنزليّين يبدون كأنهم لا يُحصَوْن عدداً . وكان لأمارتي كولونيا وترير الناخبتين أكثر من عشرين عربة ، ولأمارة ماينتس الناخبة وحدها مثلُ ذلك . وكان الخدم الراكبون والراجلون في ثياب متناهية الفخامة تماماً . ولم يقصر السادة في العربات أيضاً ، من روحيين وزمنيّين ، في الظهور بمظهر الأثرياء والنبلاء في لباسهم وزينتهم ، مع كل الأوسمة . على أن حاشية صاحب الجلالة الامبراطورية فاقت الآن الآخرين وهو الأمر البدهي ، وكان سائس الخيل ، والخيول المشدودة إلى اليمين

من العربات ، ومعدات الركوب ، والأوشحة الفاخرة والأغطية تجتذب إليها كل العيون ، وقد اختتمت هذا الجزء من الموكب ست عشرة من العربات الرسمية التي يُشدُّ إلى كل منها ستة من الخيل والتابعة للوُصفَاء الامبراطوريين والمستشارين الخصوصيين وأمناء الخزانة الأوائل ، ومدراء دوائر البلاط ورؤوساء الحظائر ، بأبّهة عظيمة كان يقصد بها أن تكون ، بصرف النظر عن فخامتها وامتدادها ، مجرّد طليعة من طلائع الفرسان .

ولكن السلسلة كانت تزداد تركيزاً باطراد ، إذ كانت المكانة والفخامة تتصاعدان ، إذ ظهر بين المرافقين المختارين ، من الخدم المنزليين الذين كان معظمهم من المشاة وقليل منهم ركباناً ، المبعوثون الانتخابيون ، كما ظهر الأمراء الناخبون بأشخاصهم ، حسب نظام متصاعد ، وكلٌّ منهم في عربة رسمية من عربات الدولة ، وكان وراء امارة ماينتس الناخبة عشرة من السعاة الامبراطوريين ، وواحد وأربعون من الخدم بالملابس الرسمية ، وثمانية من الهايدوك (١) يُؤْذِنون بمقدم أصحاب الجلالة أنفسهم . وقد أتاحت لنا أفخم العربات الرسمية التي كانت مجهزة بمرآة في ظهرها ، ومزيّنة بالرسوم والطلاء اللمّاع ، والنقش والتذهيب ، ومكسوّة من الأعلى ومن الداخل بالمخمل الأحمر المطرّز ، أن نتأمل ، براحة تامة ، الامبراطور والملك ، الهامتين اللتين طالما تمنينا أن نتأملهما ، بكل جلالهما . وكان القوم قد وجّهوا الموكب في طريق منحرف بعيد ، وكان ذلك عن ضرورة ، من ناحية ، لكي يتهيّأ له أن يتطوّر فحسب ، ومن ناحية أخرى ليتيحوا للحشد الكبير من البشر رؤيته . وكان قد مرّ بزَكْسِنْهاوْزن ، وعبر الجسر ،

وحارة ، ثم نزل ماراً بالرتل ، واتجه إلى قلب المدينة من خلال بوابة الكاترينات وهي باب سابق ، ومعبر مفتوح منذ توسيع المدينة . وكان القوم هنا قد أسعدهم التفكير في أن الروعة الظاهرية للدنيا قد اتسعت منذ عدد من السنين على نحو مطرد في اتجاه شاقولي وعرضاني . وكان الناس قد قاموا بالقياس ووجدوا أن العربة الامبراطورية الرسمية الحالية لاتستطيع أن تنفذ من خلال هذه البوابة التي دخلها وخرج منها عدد غير قليل من الأمراء والأباطرة،من دون أن تصطدم بنقوشها وبعض المظاهر الخارجية الأخرى . وتشاور القوم ، ولكي يتجنبوا طريقاً منحرفاً مزعجاً قرّروا رفع البلاط وانشاء منطلق للذهاب والإياب . وبالقصد ذاته كان القوم قد أزالوا كل المظلاّت الواقية للمحلات والأكشاك في الشوارع لئلاّ يصطدم بها ويتضرر التاج ، والنسر ، أو القوات الآلية .

وكنا كلّما أمعنّا في توجيه أعيننا ، حين كان هذا الوعاء النفيس ذو المضمون النفيس يقترب منّا ، تلقاء الشخصيات الرفيعة ، لم نستطع أن نصرف النظر إلى الخيول الرائعة وتجهيزاتها ، وزينتها التطريزية ، ولكن كان يلفت نظرنا بصورة خاصة الحوذيّان الغريبا الأطوار والراكبان في الطليعة ، وكلاهما على صهوة الخيل ، وكانا يبدوان كأنهما من أمة أخرى ، بل من عالم آخر ، في ثوبين طويلين وقبعتين من المخمل الأسود والأصفر ، وعلى القبعتين حزمتان كبيرتان من الريش ، حسب تقاليد البلاط الامبراطوري . وكانت أشياء كثيرة تموج الآن وتتلاطم حتى ان المرء ما عاد يستطيع أن يميّز الأشياء إلاّ قليلاً . فكان الحرس السويسري على كلا جانبي العربة ، والمارشال الوراثيّ ممسكاً بالسيف

السكسوني في يده اليمنى مصوَّباً نحو الأعلى ، ومارشالات الميدان قادةً للحرس الامبراطوري راكبين وراء العربة ، والصبية النبلاء الامبراطوريّون في جمعهم ، وأخيراً الحرس الامبراطوري الخاص (١) نفسه ، في ثياب مجنّحة من المخمل الأسود وقد وُشِّيت كل دروز الخياطة بخيوط الذهب وَشْياً غنياً ، وكان من ذلك أثواب تحتيّة حمر ، وسراويل بلون الجلد ، وهي موشّاة بالذهب شأن تلك . ولم يكن المرء ليثوب إلى نفسه مطلقاً من كثرة النظر والتأويل والإشارة حتّى ان الحرس الخصوصيين للأمراء الناخبين لم يكد أحد يلاحظهم وهم الذين لم تكن ملابسهم أقل فخامة ، بل ربما كنا قد تراجعنا عن النوافذ لولا أننا كنا نريد بعدُ أن نرى بأم أعيننا إدارة بلدتينا التي كانت تختتم الموكب في خمس عشرة عربة قد شُدَّ إلى كل منها حصانان ، وبصورة خاصة كاتبَ البلدية في العربة الأخيرة ومعه مفاتيح المدينةعلى وسادة من المخمل الأحمر . أمّا أنّ سريّة مشاة مدينتنا كانت تغطي المؤخرة فقد بدا لنا ذلك أيضاً أمراً مشرفاً بما فيه الكفاية ، وشعرنا ،ألماناً وفرانكفورتيين ، بروح معنوية عالية مضاعفة ، وكبيرة في هذا اليوم التكريميّ .

وكنا قد اتخذنا مكاناً في أحد البيوت حيث كان لابد للموكب أن يمرّ بنا حين يعود من الكاتدرائية مرة أخرى على النحو ذاته . وكان في الكنيسة كثير من العبادة والموسيقا والطقوس والاحتفالات ، والكلمات والأجوبة والمحاضرات والتراتيل والحوقات والمداولات في الخلوات إلى أن آن أوان أداء القسم على شروط الناخبين ، فكان لدينا من الوقت ما يكفي لتناول وجبة خفيفة ، ولإفراغ بعض الزجاجات في صحة الحاكم القديم والحاكم الجديد . وكان الحديث ينتهي بنا في أثناء ذلك ، كما جرت العادة في مثل هذه المناسبات ، إلى الزمن السالف ، ولم يكن

الحاضرون يعدمون أشخاصاً مسنيّن كانوا يفضلون ذلك الزمان على الزمان الحاضر ، وذلك ، على الأقل ، بالنظر إلى اهتمام انسانيّ معيّن ، وإلى مشاركة وجدانية كانت لها الصدارة في هذا الصدد . ففي تتويج فرانتس الأول لم يكن قد تم الاتفاق على كل شيء بعد ، كما هو الحال الآن ، ولم يكن الصلح (١) قد أُبرِم بعدُ ؛ وكانت فرنسا وأمارة براندنبورج الناخبة وأمارة بفالتس الناخبة ، تعارضان الانتخاب ، وكانت قوات الامبراطور القادم تقف عند هايدلبرج حيث كان يتخذ مقر قيادته ، وأوشكت شارات المملكة القادمة من آخن أن تختطف من قبل أهالي بفالتس . وفي هذه الأثناء كان القوم يتفاوضون مع ذلك ، ولم يكن كلا الجانبين يأخذ الأمر على أشد وجوهه . وتأتي ماريا تيريزا نفسها ، على الرغم من وجودها في ظروف مواتية ، لترى بصورة شخصية تتويج زوجها الذي تم آخر الأمر . ووصلت إلى أشافنبورج ، وارتقت يختاً لتتوجه إلى فرانكفورت . ويفكر فرانتس ، وهو خارج من هايدلبرج ، بلقاء زوجته ، ولكنه يصل متأخراً ، فقد رحلت ، ومن دون أن يعلم به أحد ، يلقي بنفسه في قارب صغير ويسرع في أثرها ، فيبلغ سفينتها ، ويستمتع الزوجان المتحابّان بهذا اللقاء المفاجيء ، وتنتشر الحكاية عن ذلك على الفور ، ويشترك العالم كله مع هذين الزوجين الرقيقين اللذين أُنْعِم عليهما بكثير من الأولاد ، واللذين كانا منذ ارتباطهما لاينفصلان ، حتى أنهما ليضطران ذات مرة إلى أن يخضعا معاً ، وهما في رحلة من فيينا إلى فلورنسا ، للحجر الصحيّ عند الحدود الفلورنسية وتستقبل ماريا تيريزا بالهتافات استقبالاً حاراً ، وتدخل فندق « الامبراطور الروماني » ، بينما كانت الخيمة الكبرى تنصب على مروج بورنهايم استقبالاً لزوجها . ولم يكن يوجد هناك

من الأمراء الناخبين الكهنوتيين إلاّ أميرماينتس وحده ، كما لم يكن يوجد من نوّاب الأمراء الزمنيين الاّ نواب سكسونيا وبوهيميا ، وهانوفر . وتبدأ المسيرة ، وكان كل ما يمكن أن ينقصها من كمال وأبّهة يعوّضه تعويضاً وافياً حضور امرأة جميلة. فهي تقف على شرفة المنزل ذي الموقع الحسن ، وتحيي زوجها منادية بحياته ، مصفقة بيديها : ويشارك الشعب في الهتاف وقد أثارته الحماسة إلى أقصى الحدود ولما كان الكبار بشراً في النهاية أيضاً ، فكذلك يفكر المواطن حين يريد أن يحبّهما ، على أنهما نِدّان له ، وانما يستطيع ذلك على أحسن وجه حين يتاح له أن يتصوَّرهما زوجين متحابيّن ، ووالدين رفيقين ، وأخوين يتعلّق أحدهما بالآخر ، وصديقين وفيّين . وكان الناس يتوقعون في تلك الأيام كل خير ويتنبؤون به ، وهم الآن يرونه محقّقاً في باكورة الأولاد الذي كان كل امريء يميل إليه لجمال هيئته والذي كان العالم يعلّق عليه أكبر الآمال لما فيه من خصال سامية .

وكنا قد شردنا كل الشرود في الماضي والمستقبل ، حين استعادنا إلى الحاضر من جديد بعضُ الأصدقاء الداخلين ، وكانوا من أولئك الذين يعرفون قيمة الشيء الجديد ، وهم يسارعون ، من أجل ذلك ، إلى الإعلان عنه أولاً . وكانوا يعرفون أيضاً كيف يتحدثون عن مِسحَةٍ إنسانية في هذه الشخصيات الرفيعة التي سبق أن رأيناها تمرّ بنا في أعظم أشكال الأبّهة . وذلك أن القوم كانوا قد اتفقوا على أن يلتقي الامبراطور والملك في الطريق ، بين قرية هويزنشتام وذلك المخيّم الكبير . بأمير مقاطعة دارمشتات (١) ، في الغابة . وكان هذا الأمير الشيخ الذي يقترب من القبر ، يريد أن يرى مرة أخرى السيد الذي وهب نفسه له في الزمن السالف . وربما يذكر كلاهما ذلك اليوم حين قام أمير المقاطعة بنقل

مرسوم الأمراء الناخبين الذين اختاروا فرانتس امبراطوراً ، إلى هايدلبرج ، وعاد بالهدايا النفيسة الواردة مع توكيد الولاء الذي لاسبيل إلى النكث به . ووقف هذان الشخصان النبيلان في حرش من أحراش الصنوبر ، واستند الرجل الذي أضعفته السن ، إلى شجرة شَرْبِين ليستطيع مواصلة الحديث وقتاً أطول ، وتم الحديث من كلا الجانبين على نحو لايخلو من التأثّر ، وجرى تعيين المكان فيما بعد بطريقة بريئة وقد رحلنا نحن معشر الصغار إلى هناك بضع مرات .

وعلى هذا النحو كنا قد أنفقنا بضع ساعات في استذكار القديم وفي تدبُّر الجديد ، بينما كان الموكب يمر أمام أعيننا مراراً ، ولكنه كان مع ذلك مختصراً وأكثر التحاماً ، وكان في وسعنا أن نتأمّل التفاصيل عن كثب ، ونلاحظها ونطبعها في أنفسنا من أجل المستقبل .

ومنذ هذه اللحظة كانت المدينة في حركة لاتنقطع . ذلك لأنه لم تكن هناك نهاية للغدوّ والرواح إلى أن يكون الناس جميعاً ، وكلٌ على حدة ، ممن يمسُّهم الأمر أو يطلب ذلك إليهم ، قد أدوّا زيارة التعارف إلى أعلى الرؤساء ، وقدموا أنفسهم إلى هؤلاء كلاً على حدة . وكان في وسع المرء أن يعاود زيارة بلاط كل واحد من الحاضرين الكبار براحة تامة ، كلاً على حدة .

ثم جاءت الآن أيضاً شارات الدولة . ولكيلا يفوت القوم هنا أيضاً شيء من المنازعات الموروثة كان لابد لهم أن يقضوا منتصف النهار ، وحتى ساعة متأخرة من الليل ، بسبب نزاع إقليمي ونزاع على الحراسة بين إمارة ماينتس الناخبة ، وبين المدينة ، وتراجعت الأخيرة ، وقام أهل ماينتس بحراسة الشارات حتى الحاجز الخشبي وبذلك تمت تسوية المسألة هذه المرة .

وفي هذه الأيام لم أكن أثوب إلى نفسي . ففي البيت كان ثمة كتابة ونسخ ، وكان المرء يريد، وينبغي له، أن يرى كل شيء ، وعلى هذا النحو انتهى آذار الذي كان شطره الثاني بالقياس إلينا حافلاً جداً بالأعياد . وكنت قد وعدت جريتشن ببيان أمين مفصَّل عما حدث مؤخّراً ، وعمّا يتوقع في يوم التتويج . واقترب اليوم الكبير . وكان في ذهني ممّا أريد أن أقوله لها أكثر مما كان يجب أن يقال في الحقيقة ، وعالجت كل ما وقع تحت عينيّ وجرت به ريشة الديوان ، بسرعة ، لمجرد هذا الاستعمال الأقرب والوحيد . وأخيراً وصلت مسكنها ذات مساء ، في ساعة جد متأخرة ، ولم يكن اعتدادي المسبق بنفسي قليلاً تجاه النجاح الذي ستصيبه محاضرتي هذه المرة بصورة أكبر كثيراً من المرة الأولى التي لم يسبقها تحضير . ولكن كثيراً ما يعود علينا حافز اللحظة الحاضرة بمتعة أكثر مما تستطيع العزيمة المصمِّمة أن تولينا إياه ، نحن والآخرين من خلالنا ، ووجدت في الحقيقة المجموعة ذاتها إلى حد كبير ، إلاّ أنه كان بينها بعض الغرباء . وجلسوا إلى اللعب ، ولم يبق معي إلاّ جريتشن وابن العمّ الأصغر ، عند اللوح الحجري (١) وأعربت الفتاة العزيزة بصورة مستعذبة للغاية عن ارتياحها لأنها عُدَّت مواطنةً في يوم الانتخاب ، وهي الغريبة ، وأتيحت لها هذه المسرحية الوحيدة ، وشكرت لي بأرقّ طريقة أنني عرفت كيف أرعى شؤونها ، وأنني كنت أحرص على أن أوفّر لها منذ ذلك الوقت ، عن طريق بيلادس تصاريح بالدخول من أنواع شتى بوساطة التذاكر والتوصيات والأصدقاء ، والالتماس .

وكان يسرّها أن تسمع من يحدثها عن كنوز الدولة، ووعدتها أن نرى هذه معاً حيثما أمكننا ذلك.وأدلت ببعض الملاحظات الهزلية حين عرفت أن القوم قد جرّبوا الأوشحة والتاج على الملك الشاب . وكنت أعرف

أين كانت خليقة أن تشاهد احتفالات يوم التتويج ، ولفتْ نظرها إلى كل ما كان ينتظرها ، وما كان يمكن ملاحظته بصورة خاصة من مكانها على وجه الدقة .

وكذلك نسينا التفكير بالزمن ، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ، ووجدت أنني ، لسوء حظي ، لم أكن أحمل معي مفتاح البيت ، ولم يكن في وسعي دخول البيت من دون أن ألفت الأنظار إلى أقصى حدّ ، وأعربت لها عن حرج موقفي ، فقالت : « إن خير الأمور ، في النهاية ، أن يظل المجلس منعقداً » . وكانت هذه الفكرة موجودة من قبلُ لدى أبناء العم وأولئك الغرباء ، لأن القوم لم يكونوا يعرفون أين كان ينبغي المرء أن يؤوي هؤلاء هذه الليلة . وسرعان ما حُسِمت المسألة ، وذهبت جريتشن لتغليَ القهوة ، بعد أن كانت قد جاءت بمصباح منزليّ نحاسيّ كبير مجهّز بفتيل وزيت ، وهو مشتعل ، إذ كانت الأضواء توشك أن تنطفيء .

وأفادت القهوة في الإنعاش بضع ساعات ، ولكن اللعبة أصابها الفتور شيئاً فشيئاً ، وانقطع الحديث ، ونامت الأم في المقعد الكبير ، أما الغرباء المرهقون من السفر فقد أطرقوا برؤوسهم هنا وهناك . وكان بيلادس وجميلته يجلسان في أحد الأركان ، وكانت قد وضعت رأسها على كتفه ، ونامت ، كما أنه لم يسهر أيضاً وقتاً طويلاً . وكان ابن العم الأصغر ، الجالس قبالتنا إلى منصة اللوح الحجري ، قد عقد ذراعيه ، ونام مرفوع الوجه إلى الأعلى . وكنت أجلس في ركن النافذة وراء الطاولة ، وجريتشن إلى جانبي ، وكنا نسمر بهدوء ، ولكن النعاس غلبها هي أيضاً في النهاية ، فأسندت رأسها الصغير إلى كتفي وأغفت

على الفور . وهكذا كنت أجلس الآن وحيداً ، ساهراً ، في الوضع الغريب الذي كان أخو الموت (١) الحميم يعرف كيف يحملني على السكينة فيه . وأغفيت ، وحين استيقظت من جديد ، كنا في وَضَح النهار ، وكانت جريتشن تقف أمام المرآة ، وتصلح وضع قَلَنْسُوَتها ، فكانت أجدر بالحب من ذي قبل ، وضغطت على يديّ ، وأنا أودّعها ، بحنان بالغ . وتسلّلت من طريق مواربٍ إلى بيتنا ، لأن والدي كان قد اتخذ لنفسه من الناحية الجانبية المواجهة لأخدود الأيائل ، كوّة صغيرة للمراقبة في الجدار ، ولم يكن ذلك بغير معارضة من جاره . وكنا نجتنب ذلك الجانب حين كنا نريد ألاّ يلاحظنا ونحن قادمون إلى البيت . وكانت والدتي ، التي كانت وساطتها تفيدنا دائماً ، قد حاولت أن تبرّر غيابي في الصباح لدى تناول الشاي ، بخروجي المبكّر ، ولذلك فلم أشعر بنتائج مزعجة لهذه الليلة البريئة .

وكان هذا العالم الذي يحيط بي ، في تعقيده غير المحدود ، لا يُحدِث فيَّ إلاّ انطباعاً بسيطاً جداً ، بصورة مطلقة ، وعلى وجه الإجمال . فلم يكن لدي اهتمام إلاّ بملاحظة ظاهر الأشياء ملاحظة دقيقة ، ولا عمل إلاّ ما كان يكلفني به أبي والسيد فون كونِجزْتال ، وكنت بذلك أطلّع بالطبع على مجريات الأمور من الداخل . ولم يكن لديّ تعلّق إلاّ بجريتشن ، ولا رغبة أخرى سوى مجرد أن أرى كل شيء وأتناوله على الوجه الصحيح تماماً ، لأتمكن من تكراره عليها وشرحه لها ، بل كنت في كثير من الأحيان ، حين يمرّ مثل هذا الموكب أصفه بصوت نصف مرتفع لنفسي لأطمئن على كل شيء بصورة مفصّلة ولألقى الثناء من جميلتي على هذا الانتباه والدقة . على أني لم أكن أنظر إلى إعجاب الآخرين واعترافهم إلاّ على أنه شيء إضافيّ .

وقد قدمت في الحقيقة إلى بعض الشخصيات الرفيعة والنبيلة ولكن لم يكن لدى أحد وقت للاهتمام بالآخرين ، من ناحية ، كما أن الكبار ، من ناحية أخرى ، لايعرفون أيضاً في الوقت نفسه كيف ينبغي لهم أن يسمروا مع فتى ويختبروه ، على أني لم أكن ، من جانبي ، بارعاً بوجه خاص ، في تقديم نفسي إلى الآخرين على نحو سهل ، وفي العادة كنت أنال حظوةً لديهم ، ولكني لم أكن أنال إعجابهم ، وكان ما يشغلني حاضراً في ذهني تماماً ، ولكني لم أكن أتساءل أتراه يلائم الآخرين أيضاً ، وكنت في أغلب الأحيان إمّا مفرطاً في الحيوية وإمّا مفرطاً في الهدوء ، وكنت أبدو إمّا مفرطاً في المبادرة أو مُحجماً ، على قدر ما كان الناس يجتذبونني أو ينفرونني ، وهكذا كان الناس يعدونني امرءاً تُعقَد عليه الآمال ، ولكنهم كانوا يعلنون أني غريب الأطوار .

وأخيراً بزغ فجر يوم التتويج ، في الثالث من نيسان ، عام ١٧٦٤ : وكان الطقس في الحقيقة ملائماً ، والناس جميعاً آخذون في الحركة ، وقد دلني القوم على مكان جيد في المجلس البلدي نفسه : في أحد الطوابق العليا ، إلى جانب عدد من الأقرباء والأصدقاء ، حيث كان في وسعنا أن نحيط بالمشهد كله بنظرة شاملة ، وتوجهنا إلى المكان في أكثر الأوقات بكوراً ، وجعلنا نتأمّل الآن من الأعلى ، في مثل نظرة الطير ، الحفلات التي كنا قد شاهدناها من قبل نهاراً عن كثب قبالة أعيننا . وكان هناك النافورة المنشأة حديثاً ولها برميلان كبيران عن اليمين وعن الشمال ، حيث كان يفترض أن ينهل النسر ذو الرأسين على القاعدة الخمر الأبيض ، ويصبَّ الخمرَ الأحمر قبالته من منقاريه . وكان الشوفان مكوّماً هناك في كومة . وهنا كانت الخيمة الكبيرة ذات الألواح التي كان الناس يرون فيها النهار بطوله الثور السمين يُشوى وينزّ ، على

سفّود هائل ، على نار الفحم ، وكانت كل المنافذ المؤدّية إلى المجلس البلدي ، محصّنة على كلا الجانبين بالحواجز والحرس . وكان الميدان الكبير يمتلىء شيئاً فشيئاً ، وكان التلاطم والتزاحم يزداد قوة واندفاعاً على نحو مطّرد ، لأن الجمهور كان يتلهّف إلى أن يبلغ قدر الإمكان المنطقةالتي كان يظهر فيهامشهد جديد،ويجري فيها الإعلان عن شيء خاص.

ومع ذلك كان يسود هدوء كبير ، فلّما قرع جرس العاصفة بدا الشعب كله وقد أخذته الهزّة والدهشة . على أن ما كان يثير انتباه كل أولئك الذين كانوا يستطيعون أن يحيطوا بالميدان بأبصارهم من علٍ ، إنما كان الموكب الذي كان فيه سادة آخن ونورنبرج ينقلون كنوز المملكة إلى الكاتدرائية وكانت هذه قد احتلت المكان الأول في العربة من حيث هي مقدسّات محميّة وكان المنتدبون يجلسون أمامها في خشوع لائق على المقعد الخلفي . وابتداء من الآن يأخذ الأمراء الناخبون الثلاثة في دخول الكاتدرائية . وبعد تسليم الشارات إلى إمارة ماينتس الناخبة ينقل التاج والسيف للتوّ إلى المقرّ الامبراطوري . وفي هذه الأثناء كانت الاحتفالات وبعض الطقوس الاحتفالية الأخرى تشغل الأشخاص الرئيسيين ، كما تشغل المتفرجين في الكنيسة ، كما كنا نستطيع ، نحن المطلعون الآخرون ، أن نصوّر ذلك لأنفسنا .

وفي هذه الأثناء كان المبعوثون يسيرون أمامنا في المجلس البلدي الذي كانت مظلة ضباط الصف تُحمَل منه إلى المقرّ الامبراطوري . وعلى الفور يعتلي المارشال الوراثيّ ، الكونت فون بابنهايم (١) ، حصانه ، وهو سيد وسيم جداً ذو قوام أهيف ، كان ينسجم كثيراً مع الزي الاسباني ، والسترة الكثيفة القصيرة ، والمعطف الذهبي ،

والقبعة العالية ذات الريش ، والشعر المرجّل المتطاير . ويتحرك ، ومع قرع كل الأجراس يتبعه المبعوثون على الخيل إلى المقر الامبراطوري في أبّهة أعظم من أبّهة يوم الانتخاب . وقد كان في وسع المرء أن يكون على قدر ما يتمنى في هذا اليوم أن يكون من حيث تعدّد جوانب نفسه . وكنا نتحادث في هذه الأثناء فيما يحدث هناك ، فكنا نقول :
« الآن يخلع الامبراطور ثيابه المحليّة ، وثمة ثياب جديدة مصنوعة على طراز الكارولنجيين القدماء ، والوحدات الإدارية المتوارثة تتلقى شارات الدولة ، وتعتلي خيولها بذلك ، ويرتقي الامبراطور في حلّته الرسمية ، والملك الرومانيّ في ثوبه الاسباني ، جواديهما على النحو ذاته ، وبينما يحدث هذا يكون الموكب اللانهائي الذي سبقت خطواته من قبل قد أنبأنا عنهم » .

وكانت العين قد أصابها الجهد من قبل جمهور الخدم بأثوابهم الكثيرة ، والفئات الأخرى ، والنبلاء الذين يتنقّلون بأُبّهتهم ، ولمّا لاح الآن المبعوثون الناخبون ، والوحدات الإدارية المتوارثة ، وأخيراً الامبراطور تحت المظلة ذات التطريز الكثيف التي يحملها اثنا عشر من القضاة المحلّفين وأعضاء المجلس البلدي ، في ثياب رومانسيّة (١) ، وعلى يساره ، إلى الوراء قليلاً ، ابنه في زي اسبانيّ ، يتهادَوْن ببطءٍ على خيول ذات بهرجة فخمة ، ما عادت العين ترتوي من النظر . ولقد ودّ الناس لو يقيّدون هذا المشهد لحظة من الزمان بتعويذة سحرية ، ولكن الرَوْعة كانت تمرّ بهم فلا تتوقف ، وكان الشعب المقبل في أمواجه يملأ المكان الذي يخلو لتوّه من جديد على الفور .

ولكن ازدحاماً جديداً كان ينشأ الآن : إذ كان لابد أن يفتتح

منفذ أخر ، من السوق إلى هنا ، فالى باب المجلس البلدي ، وأن ينصب جسر من الألواح ليعبره الموكب العائد من الكاتدرائية .

أمّا ما حدث في الكاتدرائية من الطقوس الاحتفالية اللانهائية التي مهّدت للإدهان والتتويج وحفلة الاحتضان (١) ، ورافقت ذلك ، فقد كان يسرّنا جداً أن يُروى لنا ذلك فيما بعد من قبل أولئك الذين ضحّوا ببعض التضحيات الأخرى ليكونوا حاضرين في الكنيسة .
وأما نحن الآخرين فقد التهمنا في هذه الأثناء وجبة زهيدة في أماكننا ، إذ كان لابدّ لنا ، في أشد الأيام التي شهدناها احتفالاً ، أن نفضّل المطبخ البارد . وفي مقابل ذلك جيء بأفضل الخمور وأعتقها من كل الأقبية المنزلية ، لكي نحتفل ، من هذا الجانب على الأقلّ ، بهذا العيد القديم الطراز ، على طريقة القدماء .

وكان أكثر الأشياء جدارة بالرؤية الآن الجسر الذي غدا منتهياً ، والمغطّى بقماش أحمر وأصفر وأبيض ، وكان ينبغي لنا أن نعجب بالامبراطور ، الذي أُخِذْنا به أولاً وهو في العربة ، ثم ممتطياً صهوة الجواد ، كان علينا أن نعجب به الآن وهو يتجوّل راجلاً . وكان حسبنا من الغرابة أننا استمتعنا بالحالة الأخيرة أكبر الاستمتاع ، إذ بدت لنا هذه الطريقة في تقديم النفس هي الأكثر نبلاً مثلما كانت هي الأكثر طبيعيّةً .

وكان الأفراد الأكبر سناً ، الذين شهدوا تتويج فرانتس الأول ، يتحدثون بأن ماريا تيريزا ، الجميلة فوق حدود الجمال ، كانت ترقب ذلك الاحتفال عند نافذة من نوافذ شرفة منزل فراونشتاين ، إلى جانب

---

(١) حفلة تقام للمرء عند منحه رتبة فارس . « المترجم »

المجلس البلدي مباشرة ، فلمّا عاد زوجها الآن من الكاتدرائية في ثيابه الغريبة ، وتمثّل لها ، فيما يقال ، في صورة شبح شارلمان ، رفع كلتا يديه ، كالمداعب ، ولفت نظرها إلى كرة المُلك والصولجان والقفازيّن الرائعين ، فانفجرت في ضحك لانهاية له ، الأمر الذي أدى إلى غاية السرور وأفاد في التهذيب بالقياس إلى الشعب ، إذ أنه رأى في ذلك تكريماً للعلاقة الزوجية الطيبة والطبيعيّة بين أرفع زوجين في المسيحية ، بأم عينيه . ولكن حين لوحت الامبراطورة بمنديل جيبها ، تحيةً لزوجها ، وهتفت له بذاتها ، بحياته بصوت عال ، ارتفعت حماسة الشعب وتهليله إلى الأوج حتى ما عاد الصياح المعبر عن السرور يعرف نهاية على الإطلاق .

وكان رنين الجرس حيناً ، وطلائع الموكب الطويل التي كانت قد عبرت الجسر الملوّن بهدوء تام حيناً آخر ، يعلنان أن كل شيء قد تم إنجازه ، وكان الانتباه أكبر من ذي قبل ، والموكب أكثر وضوحاً من ذي قبل ، ولاسيما بالقياس إلينا ، إذ كان يتجه إلينا نحن مباشرة . وكنا نراه ، كما نرى المكان الغاصّ بالبشر كله ، فيما يكاد يكون رسماً تخطيطياً ، إلاّ أن الفخامة كانت تتعاظم على نحو مفرط في نهاية الأمر ، لأن المبعوثين ، والوحدات الإدارية المتوارثة ، والامبراطور ، والملك تحت المظلة ، والأمراء الناخبين الروحيين الثلاثة الذين انضموا إليهم ، والمحلّفين الثلاثة بثيابهم السود ، وأعضاء المجلس البلدي ، والقبة المطرزة بالذهب ، كل ذلك كان يبدو مجرد كتلة لاتحركها إلاّ إرادة منسجمة على نحو مهيب ، وكانت وهي تخرج لتوها مع قرع الأجراس من المعبد ، يوحي إلينا بريقها بشيء مقدّس .

وإنما يمتاز الاحتفال السياسي — الديني بجاذبية لاحد لها . فنحن نرى الجلال الأرضي أمام أعيننا . وقد أحاطت به كل رموز سلطانه ؛ ولكنها في الوقت الذي تنحني فيه للرمز السماويّ تحقق لنا اجتماع كليهما أمام أذهاننا . ذلك لأن الفرد أيضاً لايقدر على أن يبعث الحركة في علاقته بالإله إلاّ بأن يخضع له ويتعبّده .

وكان الهتاف المدوّي المقبل من السوق ينتشر الآن فوق الميدان الكبير ، وكان هتاف بالحياة عاصف يتردد صادحاً من ألوف مؤلفة من الحناجر ومن القلوب أيضاً بلاريب . ذلك لأن هذا المهرجان الكبير كان مقدّراً له أن يغدو عربون سلام دائم أسعد ألمانيا بالفعل عبر سنوات طوال.

وكان قد أعلن قبل بضعة أيام ، عن طريق نداء عام أنه لن يُضحّى بالجسر ولا بالنسر فوق النافورة ، وأنه لاينبغي مسّه من قبل الشعب كما جرت العادة ، وقد تم ذلك تفادياً لبعض المآسي التي لايمكن اجتنابها في مثل هذه الهجمات . ولكن أفراداً معينين بصورة خاصة انطلقوا وراء الموكب ، ليتقرّبوا من روح العامّة إلى حد ما ، وحلّوا القماش عن الجسر ، ولفّوه على شكل طيّات ، ورمَوْا به في الهواء ، فلم ينجم عن ذلك مأساة في الحقيقة ، بل أذىً يبعث على الضحك ، لأن القماش انتشرت طيّاته في الهواء ، وغطّى وهو يهبط عدداً من الناس يقل أو يكثر . فأما أولئك الذين أصابوا الأطراف وجذبوها إليهم فطرحوا كل الواقعين في الوسط أرضاً ، وغشّوْهم ، وأخافوهم وقتاً طويلاً إلى أن نفذوا من الثقوب أو الشقوق ، وذهب كلٌّ منهم على طريقته ، بطرفٍ من هذا النسيج الذي تقدّس بوطء أقدام أصحاب الجلالة .

على أني لم أشاهد هذه الدعابة الفظّة وقتاً طويلاً ، بل أسرعت من مكاني العالي ، نازلاً من خلال سلالم وممرات شتى . إلى سلّم المجلس البلدي الكبير ، حيث كان يفترض في الجماهير المشدوهة عن بعد ، والنبيلة بمقدار ما هي رائعة ، أن يتعالى هديرها . ولم يكن التزاحم كبيراً ، لأن منافذ دار البلدية كانت مشغولة ، وكان من حظي أن جئت مباشرة إلى الإفريز الحديدي . وأخذ الأشخاص الرئيسيّون الآن يمرّون بي وهم صاعدون ، بينما كانت حاشيتهم تتخلّف في الدهاليز السفلية ذات القباب ، وكنت أستطيع أن أتأماها على الدرج المحطّم ثلاث مرات ، من كل الجوانب ، وأخيراً من مكان قريب تماماً .

وأخيراً صعد صاحبا الجلالة كلاهما أيضاً . وكان الأب وابنه يرتديان ثياباً كتوأمين (١) . وكان رداء المنزل الرسمي للامبراطور ، المتخذ من الحرير ذي اللون الأرجواني ، والموشّى باللآليء والحجارة الكريمة بصورة كثيفة ، وكذا التاج والصولجان وتفّاحة الملك (*) ، يقعْنَ من العين موقعاً حسناً ، لأن كل شيء كان جديداً في نوعه ، وكان تقليد العصر القديم مبنياً على الذوق . وكذلك كان يتحرك في حلّته في راحة تامة ، وكان وجهه الذي ينضح بالوفاء والنبل يكشف عن الامبراطور والأب في الوقت ذاته . وكان الملك الصغير في مقابل ذلك يجرّ نفسه في القطع الواسعة من ملابسه ، مع جواهر شارلمان ، وكأنه في ثياب تنكرّية ، حتى إنه لم يكن يستطيع أن يتمالك نفسه من الابتسام ، وهو ينظر إلى أبيه من حين إلى آخر . أما التاج الذي اضطر

(*) تفاحة الملك : كرة يضعها الإمبراطور في كفه وعليها صليب صغير ، ترمز إلى الكرة الأرضية وتطلع الإمبراطورية إلى نشر المسيحية في أرجاء المعمورة .

القوم إلى تبطينه ببطانة كثيفة جداً ، فكان يقع من الرأس موقع السقف الزائد عن جداره . وأما ثوب الدَلْمَطيق (٢) الخاص بالتتويج ، والمطْرَف (*) ، فلم يكونا ، على الرغم من حسن تلاؤمهما وخياطتهما ، يصفيان مظهراً ينطوي على مزيّة وكان الصولجان وتفاحة الملك يبعثان على الإعجاب ولكن لم يكن في وسع المرء أن ينكر أنه كان من الخير للمرء أن يرى هيئة تنطوي على القوة ، قد نضجت لهذه الحُلّة ، فارتدت هذه الثياب وتزيّنت بها ، من أجل التأثير الملائم .

ولم تكد تغلق أبواب القاعة الكبرى وراء هذه الشخصيات من جديد ، حتى أسرعت إلى مكاني السابق الذي كان الآخرون قد شغلوه ، ولم أظفر به من جديد إلاّ ببعض الجهد .

وكان قد حلّ الوقت المناسب لأعود إلى احتلال نافذتي ، لأن أكثر ما كان يلفت النظر مما كانت رؤيته متاحة للعموم ، كان من المفروض أن يحدث وشيكاً ، وكان الناس جميعاً قد توجهوا صوب المجلس البلدي ، وبيّن لنا هتاف بالحياة مكرّر ، أن الامبراطور والملك كانا يظهران للشعب عند نافذة شرفة القاعة الكبرى في ردائيهما الرسميين . ولكن لم يكن مفروضاً أن يقدما مشهداً مسرحيّاً وحدهما ، بل كان من المفروض أن يتم أمامهما مشهد تمثيلي غريب (١) . وقبل كل شيء وثب الآن المارشال الوراثيّ (٢) الوسيم الأهيف على جواده ، وكان قد وضع سيفه جانباً ، وأمسك بيمناه مكيالاً فضياً له أذن ، وبيسراه لوحاً من الصفيح ، فوثب بجواده على الحواجز ، إلى كومة الشوفان

(*) المطرف : الشال .

الكبيرة ، وانقضّ عليها ، واغترف بالمكيال حتى طفح ، ومسح الزيادة ، وحمله عائداً به بقدر كبير من اللياقة . وتم الآن تموين الحظيرة الامبراطورية . ثم ركب أمين الخزانة الوراثيّ إلى تلك المنطقة ، وعاد بطست مع وعاء للصبّ ومنديل ، ولكن ما كان أكثر تسلية للمتفرجين إنما كان قيّم البلاط الوراثي الذي أقبل ليأتي بقطعة من الثور المشويّ ، وعبر هو أيضاً ، الحواجز راكباً بطبق فضيّ إلى المطبخ الكبير ذي الألواح ، وسرعان ما برز عائداً بطعام مغطّى ، ليتّخذ طريقه إلى مبنى المجلس البلدي من جديد . ووصل الدور الآن إلى الساقي الوريث ، الذي ركب سائراً نحو النافورة ، وجاء بالخمر ، وهكذا أعدت المائدة الامبراطورية . وكانت كل العيون في انتظار رئيس الخزانة الوراثي الذي كان ينبغي أن ينثر النقود . وارتقى هو أيضاً جواداً جميلاً كان يتدلى على جانبيه بدلاً من جعبتي المسدسات بضعة أكياس مثبّتة ، رائعة مزركشة بشعارات مقاطعة بفالتس الناخبة . ولم يكد يتحرك حتى مدّ يده إلى هذه الجيوب ، وجعل ينثر النقود الذهبية والفضية بسخاء يميناً وشمالاً ، فكانت تبرق في كل مرة في الهواء كالمطر المعدني على نحو يبعث المرح إلى حد بعيد ، وكانت ألوف الأيدي تتدافع في تلك اللحظة في حركات عصبية نحو الأعلى لتقتنص الأُعْطِيات ، ولكن النقود كانت لاتكاد تسقط حتى تنكفيء الجماهير على نفسها نحو الأرض ، وتصطرع بقوة حول قطع النقود التي كان من المحتمل أن تكون بلغت الأرض . ولما كانت هذه الحركة تتكرّر الآن من كلا الجانبين على الدوام ، بينما كان المانِح يمضي قُدُماً وهو راكب ، فقد كان ذلك منظراً ممتعاً جداً للمتفرّجين . وفي النهاية وصل الأمر إلى غاية حيويته ، حين رمى بالغِرارة ذاتها ، وجعل كل واحد ينزِع إلى اقتناص هذه الجائزة العليا أيضاً .

وكان أصحاب الجلالة قد ارتدّوا عن النافذة ، وكان من الواجب الآن أن تقدم إلى العوامّ تضحية بصورة متكررة ، وهم الذين يُؤثِرون في مثل هذه الأحوال انتهاب الأعطيات على أن يستقبلوهم بطلاقة وامتنان . وفي الأيام الأكثر خشونة وفساداً كان يسود تقليد مؤدّاه أن يُضحّى بالشوفان فوراً بعد أن يأخذ القائد الأعلى الوريث النصيب المفروض ، وأن يُضحّى بالنافورة ، وبالمطبخ فوراً ، بعد أن يكون كل من ساقي الامبراطور الوراثيّ وقيّم البلاط الوراثيّ قد أدّى وظيفته . ولكن القوم كانوا في هذه المرة يلتزمون النظام والحدود على قدر ما كانوا يستطيعون ، تفادياً لكل مصيبة . ومع ذلك فقد كانت المهازل القديمة المنطوية على حب الإيذاء تعود إلى الحدوث من جديد ، ومنها أن يلتقط أحدهم كيساً من الشوفان فيحدثَ الآخر ثقباً فيه ، ونحو ذلك من أمثال هذه الضروب من التطرّف . ولكن صراعاً أكثر جديّة كان يُخاض هذه المرة كالعادة من أجل الثور المشويّ ، إذ لم يكن في وسع المرء أن ينازع فيه إلاّ بصورة جماعية . وذلك أن نقابتين هما نقابتا الجزّارين وعصّاري العنب ، كانتا قد اتخذتا من جديد ، وعلى نحو تقليدي ، موقفاً يقضي بوجوب أن يكون هذا الشواء الهائل من نصيب إحدى الاثنتين ، فأما الجزارون فكانوا يعتقدون أن لهم الحق الأكبر في ثور أدخلوه إلى المطبخ بغير تقطيع ، وأما عصّارو العنب فكانوا يدّعون الحق ، في مقابل ذلك ، لأن المطبخ أُقيم بالقرب من مقرّ إقامتهم النقابية ، ولأنهم كانوا قد أحرزوا النصر في المرة الأخيرة ، إذ كان يُرى من خلال النافذة المسوَّرة ذات الجمالون ، والخاصة بدار نقابتهم واجتماعاتهم ، قرون ذلك الثور الذي غنموه ، علامة نصر بارزة ثابتة . وكان لكل من النقابتين اللتين تضمان أعداداً وفيرة أعضاء جدّ أقوياء وبارعين ، أمّا من أحرز النصر في هذه المرة فذلك ما لاسبيل عندي إلى تذكّره بعد .

ومثلما كان مقدراً الاحتفال من هذا النوع أن ينتهي بشيء خطير ومرعب ، فقد كانت لحظة رهيبة حقاً حين ضحّى القوم بالمطبخ ذي الألواح نفسه، وكان سقف المطبخ في الوقت ذاته يعجّ بالبشر ، من دون أن يعلم الناس كيف تهيّأ لهم أن يرتقوه ، وقد خلعت الألواح وأُسقِطت ، حتى كان لابد للمرء عن بُعدٍ أن يحسَب أن كل واحد سيقضي على عدد من المقتحمين . وفي مثل لمح البصر كانت الخيمة الخشبية قد كُشِفت ، وكان أفراد من الناس يتعلّقون بدعائم السقف وجسوره ليقتلعوا هذه أيضاً من عُراها ، بل كان بعضهم ما زال يحوم في الأعلى بينما كانت القوائم الخشبية قد نُشِرت في الأسفل ، وكان الهيكل يترنّح جيئة وذهاباً ، ويهدّد بسقوط مفاجيء . وكان الأفراد أولو الحسّ الرقيق يحوّلون أبصارهم بعيداً ، وكان كل امريء يتوقع مصيبة عظيمة . ولكن الناس لم يسمعوا حتى بالحاق أي أذى ، ومضى كل شيء بسلام ، على الرغم من العنف والقوة .

وكان كل امريء يعرف الآن أن الامبراطور والملك قد خرجا من جديد من المقصورة التي انسحبا من الشرفة إليها ، وأنهما سيتناولان الطعام في قاعة المجلس البلدي الكبرى . وكان القوم قد تمكنوا من التمليّ بجمال المعدات اللازمة لذلك قبل يوم ، وكان أحرّ أمنياتي أن أرسل اليوم إلى هناك نظرة واحدة حيثما أمكنني ذلك ، ولذلك توجهت من جديد ، على الدروب المعتادة ، إلى الدرج الكبير الذي كان باب القاعة الكبرى يواجهه مباشرة ، فجعلت أحدّق هنا مذهولاً في الشخصيات النبيلة التي تشهد اليوم على أنفسها أنها من خدّام زعيم المملكة . فاذا أربعة وأربعون من الأذواق يمرّون بي مقبلين من المطبخ وهم

يحملون الأطعمة ، وكلهم في ملابس فخمة . حتى إن تعارض لياقتهم مع عمل الغلمان كان يمكن أن يربك العقل . ولم يكن التزاحم كبيراً ومع ذلك فقد كان تزاحماً كافياً على نحو ملحوظ ، لضيق المكان . وكان باب القاعة تحت الحراسة ، بينما كان المفوضون يخرجون ويدخلون كثيراً ، وأبصرت واحداً من صغار الموظفين البفالتسيّين فسألته هل يستطيع أن يدخلني معه ، وأطرق مفكراً وقتاً غير طويل ، وأعطاني أحد الآنية الفضية التي كان يحملها ، وهو الأمر الذي كان يستطيعه إذ كنت نظيف الثياب ، وهكذا وصلت إلى المكان المقدّس وكانت خزانة المائدة البفالتسيّة قائمة إلى اليسار ، عند الباب بصورة مباشرة . وببضع خطوات وجدت نفسي على ارتفاعها وراء الحواجز .

وكان يجلس عند النهاية الأخرى من القاعة ، تلقاء النافذة مباشرة ، الامبراطور والملك ، مرتفعين على درجات العرش تحت المظلات في ثيابهما الرسمية . غير أن التاج والصولجان كانا على الوسائد الذهبية على مسافة ما باتجاه الخلف . وكان الأمراء الناخبون الروحيون قد اتخذوا أماكنهم على منصّات مستقلة وخزائنهم وراءهم ، وكانت أمارة ماينتس الناخبة قبالة أصحاب الجلالة ، وعن اليمين أمارة ترير الناخبة وعن اليسار أمارة كولونيا الناخبة . وكان هذا الجزء العلوي من القاعة رفيع المكانة كما كان قرة العين للناظرين ، وكان يثير ملاحظة مؤدّاها أن رجال الدين يمكنهم أن يلتزموا جانب الحاكم وقتاً طويلاً قدر الإمكان . وفي مقابل ذلك كانت خزائن كل الأمراء الزمنيين وموائدهم المزوّقة في الحقيقة تزويقاً فخماً ، ولكنها خالية من البشر ، تدعو إلى التفكير في العلاقة المختلّة التي نشأت بينهم وبين زعيم المملكة (١) شيئاً

فشيئاً عبر القرون . وكان مبعوثو هذه الأمارات قد ابتعدوا ليتناولوا الطعام في حجرة جانبية ، وان اكتسب الجزء الأكبر من القاعة مظهراً يوحي بوجود الأشباح ، وبأن عدداً كبيراً جداً من الأضياف غير المرئيّين كانوا يتلقون الخدمة على أحسن وجه . وكذلك كان ثمة مائدة كبيرة غير مشغولة في الوسط تسوء الناظرين رؤيتها على نحو أشد : إذ كان هناك قدر كبير من الموائد خالياً ، لأن كل أولئك الذين كان لهم على كل الأحوال حق في الجلوس إليها تخلّفوا عنها تأدّباً ، ولكيلا يضيّعوا شيئاً في اليوم الأكبر من أيام تكريمهم ، وان كانوا موجودين في ذلك الوقت في المدينة .

على أن تسجيل كثير من الملاحظات أمر لم تسمح به ، سنّي ، ولا زحمة الحاضر . ولقد أجهدت نفسي في أن أحيط بكل شيء بعينيّ . وبينما كانت العُقْبة (١) تحمل ، إذ عاد المبعوثون إلى الدخول ليقوموا بخدمة سيدهم ، التمست الخلاء ، وتمكنت من إنعاش نفسي من جديد لدى الأصدقاء الطيبين المجاورين لي ، بعد ما يشبه الصيام اليوم ، ومن الاستعداد للألعاب النارية في المساء .

وكنت أعتزم أن أحتفل بهذا المساء المتألّق بطريقة هادئة ، لأنني كنت قد اتفقت مع جريتشن ومع بيلادس وذويه على أن نلتقي في مكان ما في ساعة من ساعات الليل ، وكانت المدينة ترسل أضواءها في كل ركن وناحية حين لقيت أحبائي ، ومددت ذراعي لجريتشن ، وجعلنا نطوف من حيّ إلى آخر ، ووجدنا أنفسنا سعداء جداً معاً ، وكان أبناء العم في البداية في صحبتنا ، ولكنهم ضاعوا فيما بعد بين جمهور

---

(١) الحلوى أو الفاكهة بعد الطعام .

الشعب . وكان الضوء أمام منازل بعض المبعوثين ، حيث أقام القوم إضاءات رائعة ، ساطعاً جداً (وامتازت منها بذلك أضواء إمارة بفالتس الناخبة) ، كما لايتهيّأ مثله إلاّ في النهار . وكنت قد تنكرّت إلى حدّ ما لكيلا أُعْرَف . ولم يَسُؤْ ذلك جريتشن ، وجعلنا نعجب العروض المتألقة المختلفة ، والمباني المكوّنة من اللهب في صور الجنيّات ، وكان أحد المبعوثين يفكر في التفوّق دائماً على الآخرين بذلك . على أن لعبة الأمير إسترهازي (١) فاقت كل الأخريات ، وكانت مجموعتنا الصغيرة مفتونة بهذا الاختراع وتنفيذه وكنا نوّد أن نستمتع بكل شيء على حدة على الوجه الصحيح حين لَقِينا أبناء العم من جديد ، وتحدثوا الينا عن الإضاءة الرائعة التي زيّن مبعوث براندنبورج بها حيّه ولم نكن نضيق ذرعاً باجتياز الطريق من سوق الخيل إلى مبنى القاعة . ولكننا وجدنا أن القوم كانوا يتهكمون علينا بطريقة شائنة .

وكان مبنى القاعة من جهة الماين مبنى نظامياً مرموقاً ، ولكن شطره الموجه تلقاء المدينة كان مفرطاً في القدم ، بغير نظام ولا مظهر ، فثمة نوافذ صغيرة غير متوافقة ،لافي شكلها ولا في حجمها ،كما أنها لم توضع وفقاً لخط مستقيم ، ولا على مسافات متساوية ، وأبوابٌ وبوّابات صممت بغير تناسق ، وطابقٌ سفليّ تحوّل معظمه إلى دكاكين الخردوات ، كل ذلك كان يشكل واجهة خارجيّة مشوّشة لايتأملها أحد . ولم يكن القوم يتبعون هنا إلاّ هندسة معمارية قائمة على المصادفة والفوضى وانعدام العلاقات بين الأجزاء ، وكانت المصابيح تحيط بكل نافذة وكل باب وكل فتحة على حدة ، مثلما يستطيع المرء أن يفعل على كل حال في المنزل الحسن البناء ، وذلك ما تم بموجبه هنا إنشاء

الواجهة الأكثر سوءاً والأسوأ تكويناً بين الواجهات قاطبة ، بصورة لاتقبل التصديق ، تحت أشد الأضواء سطوعاً . فلو أن المرء كان يتسلّى بهذا كما يتسلّى مثلاً بنوادر باغلياسّو (٢) ، على الرغم من أن ذلك لايخلو من ضروب الاعتبار ، لأنه كان لابد لكل امريء أن يتبيّن في ذلك شيئاً مبدئياً ، مثلما يضع المرء التعليقات من قبلُ حول السلوك الظاهريّ الآخر لبلوتو الذي يستحق التقدير جداً في النهاية ، ولمّا كان قد رجّحه ذات مرة فقد أصبح معجباً حتى بالشرير فيه الذي دأب ، مثل مليكه ، على التعالي عن كل ما هو طقسيّ احتفالي ، لكان خيراً للمرء أن يعود من جديد إلى مملكة الجنيّات الاستيرهازيّة .

وكان هذا المبعوث السامي قد غادر ، تكريماً لهذا اليوم ، حيّه ذا الموقع غير الملائم ، وأوعز بتزيين ساحة الزيزفونات الكبرى عند سوق الخيل ، من الجهة الأمامية ، بقنطرة مضاءة الألوان ، ومن الجهة الخلفية بمناظر أشد روعة بعدُ ، وكانت تحدّد الإطار كله مصابيح ، وكان يقوم بين الأشجار أضواء على صورة الأهرام ، وكرات على قواعد شفّافة بالضوء ، وكان يمتد بين الشجرة والأخرى قناديل مضيئة كانت تحوم حواليها أضواء معلّقة . وفي عدد من الأماكن كان القوم يوزّعون الخبز والقديد ، ولم يكونوا يقصّرون في الخمر .

وجعلنا نطوف هنا الآن جيئة وذهاباً في مجموعات رباعيّة وقد انضم الواحد إلى الآخر ، بصورة مريحة للغاية ، وبدا لي ، وأنا إلى جانب جريتشن ، كأني كنت حقاً أجوب حقول اليزيوم (١) تلك السعيدة ،

---

(١) في الأسطورة اليونانية : بلا د السعداء ، على الطرف الغربي من الأرض .

حيث يقطف المرء الآنية البللورية من الشجر فتمتليء على الفور بالخمر المرغوب ، وحيث يهزّ المرء الثمار التي تنقلب إلى أي طعام يريده المرء. على أننا كنا نحس بمثل هذه الحاجة آخر الأمر أيضاً ، ووجدنا ، بقيادة بيلادس ، مطعماً قد أعدّ إعداداً ظريفاً للغاية ، ولمّا لم نلقَ نزلاء آخرين ، إذ كان الناس جميعاً يجوبون الشوارع ، طاب لنا المقام أكثر من قبل ، فقضينا الجزء الأكبر من الليل في شعور بالصداقة ، والحب ، والهوى ، وبأشد الأحوال مرحاً وسعادة . ولما صحبت جريتشن حتى بابها قبّلتني في جبيني ، وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي توليني فيها هذا الجميل : إذ لم يكن مقدراً لي ، مع الأسف ، أن أراها من جديد .

وفي الصباح التالي كنت ماأزال في السرير حين دخلت عليّ أمي مشوّشة قلقة . ولم يكن في وسع المرء أن ينظر إلى ذلك فيها بسهولة على الإطلاق حين تشعر بانقباض ما — وقالت : « انهض ، وتأهّب لشيء مزعج . فقد تبيّن أنك تتردد على زمرة رديئة جداً وأنك ورّطت نفسك في أكثر الأمور خطراً وسوءاً . وقد خرج أبوك عن طوره ، ولم نظفر منه إلاّ بأنه سيحقق في المسألة عن طريق طرف ثالث ، فامكث في غرفتك وانتظر ما يوشك أن يحدث . وسوف يأتيك المستشار شنايدر (١) ، فهو مفوّض من قبل أبيك مثلما هو مفوّض من قبل أعيان الناس ، لأن المسألة لها ما وراءها ، وقد تتخذ منعطفاً سيئاً جداً » .

ورأيت بالفعل أن القوم قد تناولوا الأمر على نحو أسوأ مما كان عليه ، ومع ذلك فقد كان شعوري بالاضطراب سيكون شعوراً غير قليل لو أنه تم الكشف عن مجرّد العلاقة الحقيقية . وأخيراً دخل الصديق القديم ذو العقيدة الخلاصيّة ، والدموع في عينيه ، فأمسكني من ذراعي ،

وقال : « إني ليؤسفني أن آتيك في مثل هذا الشأن ، وما كنت لأحسب أنك قد يبلغ بك الضلال إلى هذا المدى ، ولكن ما الذي لاتقدم عليه زمرة السوء والأُسوة السيئة ؛ وعلى هذا النحو يمكن أن ينقاد إنسان حدث غِرّ إلى الجريمة خطوة فخطوة » — فأجبت قائلاً : « لاعلم لي بجريمة ، ولاعلم لي ، كذلك ، بأنني زرت عصابة سوء » . فقاطعني قائلاً : « ليس حديثنا الآن عن الدفاع ، بل عن التحقيق ؛ أمّا من جانبك فعن الإعتراف المخلص » . فردَدْت قائلاً : « ماذا تريد أن تعرف ؟ » . فجلس ، وسحب ورقة ، وبدأ يسألني : « ألم تقدم ن . ن . إلى جدّك ، مرشحاً لوظيفة ؟ » فأجبت : « بلى » . — « فأين تعرّفت عليه ؟ » — « في النزهات » — « في صحبة من ؟ » . وتوقّفت ، لأنني لم أكن أودّ خيانة أصدقائي — ومضى قائلاً : « لن يجدي الصمت فتيلاً ، لأن كل شيء قد غدا معروفاً بما فيه الكفاية » . وقلت : « وما هو المعروف إذاً ؟ » — « المعروف أن هذا الإنسان قد تم تقديمه بوساطة آخرين على شاكلته ، وكان ذلك في الحقيقة عن طريق . . . » وهنا سمّى أسماء ثلاثة أشخاص لم أرهم قط ولا عرفتهم ، وهو الأمر الذي أعلنته للسائل أيضاً على الفور . فمضى ذاك قائلاً : « أنت تزعم أنك لاتعرف هؤلاء الناس ، وقد طالما اجتمعت إليهم ! » فرددت قائلاً : « ولا اجتمعت إليهم أدنى اجتماع ، لأنني لاأعرف ، كما قلت ، أحداً ، سوى الأول ، ولم أرَ هذا أيضاً قطّ في منزل » — « ألم تكن مراراً في شارع . . . ؟ » فرددت قائلاً : « أبداً » . ولم يكن هذا مطابقاً الحقيقة تماماً ، إذ سبق لي أن صحبت بيلادس ذات مرة إلى حبيبته التي كانت تسكن في هذا الشارع ، ولكننا ذهبنا إليها من

الباب الخلفي ولبثنا في البيت ذي الحديقة ، ولذلك كنت أعتقد أنني أستطيع أن أسمح لنفسي بمهرب وهو أنني لم يسبق لي وجود بنفسي في هذا الشارع .

وطرح الرجل الأبيض مزيداً من الأسئلة بعد ذلك ، واستطعت أن أجيب عليها جميعاً بالنفي ، إذ لم يكن لدي علم بشيء من كل ما كان يطالب بمعرفته ، وأخيراً بدا عليه الضيق ، وقال : « إنك لتجزيني على ثقتي وحسن نيتي جزاء سيئاً جداً ، فقد أتيت لإنقاذك . وأنت لاتستطيع أن تنكر أنك وضعت الرسائل لهؤلاء الناس أنفسهم أو لشركائهم في الإثم ، وكتبت المقالات وكنت معيناً لهم في حماقاتهم الأثيمة . وإنما أتيت لإنقاذك : لأن الحديث يتناول ما ليس بأقل من توقيعات مقلّدة (١) ، ووصايا مزوّرة ، وسندات دين مزورة وأشياء مماثلة . على أني لم آت صديقاً للأسرة فحسب ، وإنما أتيت باسم السلطة وبأمرها ، وهي التي تريد حمايتك ، بالنظر إلى عائلتك وإلى حداثة سنك ، وحماية بعض الفتيان الآخرين الذين أوقعوا بك للتوّ في شباكهم » — وقد لفت نظري أنه لم يكن يوجد بين الأشخاص الذين سمّاهم ، بصورة خاصة ، أولئك الذين كنت أصاحبهم . ولم تكن العلاقات تقوم على التطابق ، بل على التماسّ والتقارب ، وكان مايزال في وسعي أن آمل وقاية أصدقائي الصغار ، ولكن الرجل الصالح كان يزداد إلحاحاً باطراد ، ولم استطع أن أنكر أنني عدت في بعض الليالي إلى البيت متأخراً ، وعرفت كيف أدبّر لنفسي مفتاحاً للمنزل ، وأنني شوهدت مع أشخاص من فئة أدنى وذوي سمعة مشبوهة ، أكثر من مرة في محالّ اللهو ، وأن فتياتٍ كُنَّ متورطاتٍ في هذه القضية .

وجملة القول ان كل شيء كان يبدو مكشوفاً حتى الأسماء . وقد شجعني هذا على أن أكون أخلاقياً في صمتي — وقال الصديق الطيب : « لاتدعني أنصرف عناك ، فالقضية لاتحتمل تأجيلاً ، وسيأتي بعدي مباشرة امرؤٌ آخر لايدع لك هذا القدر من مجال المناورة . فلا تزد القضية السيئة على كل حال ، سوءاً بعنادك » .

وجعلت أصور لنفسي الآن أبناء العم الطيبين ، ولاسيما جريتشن ، تصويراً حياً تماماً ، فرأيتهم يُعتقَلون ، ويُستجوبون ، ويعاقبون ، ويتعرضون للازدراء ، وعبر في ذهني خاطر كوميض البرق مؤداه أن أبناء العم ، يمكن أن يكونوا ، على الرغم من أنهم كانوا يراعون معي كل جوانب الشرعية ، قد تجرأوا على أمور خبيثة ، وعلى الأقل أكبرهم الذي لم يرق لي قط تماماً ، والذي كان يأتي إلى البيت دائماً متأخراً وقلما كان يعرف كيف يتحدث حديثاً مرحاً . وكنت ما أزال متحفظاً في اعترافي ، وقلت : « لاعلم لي شخصياً بشيء ينطوي على السوء ، وفي وسعي أن أكون من هذه الناحية مطمئناً تماماً ، ولكن ليس من المستبعد أن يكون أولئك الذين صحبتهم قد ارتكبوا عملاً جريئاً أو مناقضاً للقانون ، وقد يكتشفهم المرء ، ويثبت إدانتهم ، ويعاقبهم . أمّا أنا فليس لديّ حتى الآن شيءٌ آخذه عليهم ، ولاأريد أيضاً أن أدين بشيء أولئك الذين سلكوا معي سلوكاً ودياً طيباً » . ولم يدعني أنهي حديثي بل صاح صياحاً مقترناً ببعض الحركة : « أجل ، سوف يُكتَشفون . فقد اجتمع هؤلاء الأوغاد في ثلاثة منازل » (وجعل يسمّي الشوارع ، ويشير إلى البيوت ، وكان من سوء حظي أن كان بينها أيضاً هذا الذي تعوّدت الذهاب إليه) . ومضى قائلاً : « لقد

تمت مداهمة الوكر الأول » . وفي هذه اللحظة سيتم مداهمة الأوكار الباقية . وخلال ساعات قلائل سوف يتضح كل شيء . فتخلّص ، عن طريق إقرار خطّي ، من التحقيق القضائي ، والمواجهة ، وما تسمّى به كل الأشياء المستنكَرة » . لقد سُمّي البيت وعُيّن ، وصرت الآن أرى كل صمت غير مُجدٍ ، بل إنني كنت أستطيع ، مع براءة اجتماعاتنا ، أن آمل أن أكون ذا نفع لأولئك أكثر من منفعتي لنفسي . فصحت قائلاً ، وأنا أردّه عن الباب : « ألا فاجلس ، فاني أريد أن أحدثك عن كل شيء ، وأسرّي عن نفسي وعنك في الوقت ذاته ، إلاّ أني أرجو منك شيئاً واحداً ، وهو ألاّ يكون لديك منذ الآن شكوك في صدقي » .

ورويت الآن للصديق المجرى الكامل لأحداث القصة ، وكنت هادئاً متماسكاً باديء الأمر ، ولكني كنت كلما استدعيت إلى ذاكرتي الأشخاص والموضوعات والأحداث ، وجسّدتها لنفسي ، وكان عليّ أن أقوم بما يشبه الإدلاء بشهادة أمام محكمة جنايات عن بعض المسرّات البريئة ، وبعض المباهج المرحة ، زاد الإحساس البالغ الإيلام تفاقماً ، حتى انفجرتُ بالدموع آخر الأمر ، وأسلمت نفسي لعاطفة لاسبيل إلى كبحها . أما صديق العائلة الذي كان يأمل أن يكون السر الحقيقيّ قد غدا الآن في طريقه إلى البوح به (لأنه كان يرى في ألمي عَرَضاً يدل على أنني أوشك أن أعترف بشيء هائل ، على رغم إرادتي) فكان يحاول ، بالنظر إلى اهتمامه بالكشف عن كل شيء ، أن يهدئني بأفضل طريقة ، الأمر الذي لم يوفّق إليه إلاّ بصورة جزئية ، ولكنه كان مع ذلك موفقاً إلى الحد الذي مكنني من الانتهاء من السرد الضروري

لقصتي . وكان على الرغم من رضائه عن براءة الأحداث ، ما يزال مرتاباً إلى حد ما ، وقد طرح عليّ أسئلة جديدة أثارتني مراراً وآلمتني وأغاظتني . وأكّدت في نهاية الأمر أنه ما عاد لديّ شيء أقوله ، وأني أعلم علم اليقين أن ليس هناك ما يستدعي خوفي : لأنني بريء ، من أسرة كريمة ، كما أنني أتمتع بالرعاية . غير أن أولئك قد يكونون أبرياء بالقدر ذاته دون أن يقرّ لهم الناس بذلك أو يراعوهم فيما عدا ذلك . وأعلنت في الوقت ذاته أنه إذا أبى القوم أن يراعوا هؤلاء كما يراعونني ، ويعذروهم في حماقاتهم ، ويغفروا لهم أخطاءهم ، وإذا أصابهم أدنى مقدار من القسوة أو الظلم فسوف أقتل نفسي ، ولن يكون لأحد أن يمنعني من ذلك . وهنا أيضاً حاول الصديق أن يهدىء من روعي ، ولكني لم أكن أثق به ، وكنت حين غادرني آخر الأمر في أشد الأحوال فزعاً ، وكنت أنحي على نفسي الآن باللائمة لأنني تحدثت عن القضية وسلّطت الأضواء على الملابسات . وكنت أرى بصورة مسبقة أن القوم خليقون أن يؤولوا التصرفات الطفولية وأهواء الأحداث وشؤونهم الخاصة الحميمة تأويلاً مختلفاً تماماً ، وأنني ربما ورّطت معي بيلادس الطيب في هذه القضية ، وجررت عليه التعاسة البالغة . وكانت كل هذه التصورات تتوالى أمام خاطري حية متراحمة بعضها وراء بعض ، فتزيد من حدة ألمي وتبعث أُوارَه ، حتى ما عُدت أعرف ما أصنع من شدة لوعتي ، فطوّحت بقامتي ، على طولها ، على الأرض ، وخضّبت الأرض بدموعي .

ولست أعرف كم طال بي الرقاد حين دخلت عليّ أختي فأفزعتها هيئتي ، وفعلت كل ما في وسعها لتنهض بي ، وحدثتني أن شخصية من أعضاء المجلس البلدي عند الوالد ، في الأسفل ، تتوقع عودة صديق

العائلة ، وأن كلا السيدين انصرفا بعد أن خلا أحدهما إلى الآخر برهة وتحادثا بسرور بالغ ، بل كان حديثهما ضاحكاً ، وأنها تعتقد أنها فهمت الكلمات ، فالمسألة على ما يرام تماماً ، وليس فيها ما يدعو إلى الاهتمام . فانطلقت قائلاً : « ليس في المسألة ، بالطبع ، ما يدعو إلى الاهتمام بالقياس إليّ ، وبالقياس إلينا ، لأنني لم أقترف شيئاً ، ولو أني اقترفت شيئاً لعرف القوم كيف يأخذون بيدي » . وصحت قائلاً : « ولكن أولئك ، من سيقف إلى جانب أولئك — وحاولت أختي أن تعزيني بالحجج المفصّلة ، بقولها إنهم حين يريدون إنقاذ من هم أكثر شرفاً فلابد لهم أن يسدلوا الستار على أخطاء من هم أقل شأناً . ولم يُجدِ هذا كله فتيلاً ، فلم تكد تنصرف حتى أسلمت نفسي من جديد إلى آلامي ، وجعلت أبتعث صور هواي وحبّي ، كما ابتعث صور مأساتي الراهنة والمحتملة أيضاً بصورة متناوبة على الدوام . وجعلت أروي لنفسي حكايات على أثر حكايات ، ولم أكن أرى إلاّ مصيبة تتلوها مصيبة . ولم أقصّر بوجه خاص في إضفاء البؤس الشديد على جريتشن وعليّ .

وكان الصديق العائلي قد أوصاني بالبقاء في حجرتي ، وبألاّ أعالج قضيتي مع أحد سوى جماعتنا . وقد كان هذا ملائماً لي تماماً ، إذ كان البقاء وحدي تماماً أكثر ما يسرّني ، وكانت أمي وأختي تقومان بزيارتي من حين إلى آخر ، ولم تكونا تقصّران في مساندتي بألوان شتى من التعزية بأقوى الوجوه ، بل إنهما جاءتا في اليوم الثاني باسم الوالد الذي كان قد غدا أفضل إطّلاعاً الآن ، لتقدما إليّ عفواً كاملاً ، فقبلته في الحقيقة بامتنان ، إلاّ أنني رفضت بعناد اقتراحاً بالخروج معه ومشاهدة

شارات المملكة التي كانوا يعرضونها منذ الآن على الفضوليين ، وأكّدت أنني لاأريد أن أعرف المزيد ، لا عن العالم ، ولا عن المملكة الرومانية إلى أن يتبيّن لي إلى أين انتهى المطاف بتلك القضية المزعجة بالقياس إلى معارفي المساكين ، إذ ما كانت لتؤثّر عليّ بعد ذلك . ولم يكن لديهما ما تقولانه عن ذلك بنفسيهما ، وتركتاني وحدي . ومع ذلك فقد قام القوم في الأيام التالية ببعض المحاولات لدفعي إلى الخروج من البيت والاسهام في الاحتفالات العامة ، ولكن عبثاً ، فلا يوم ثياب التشريفات الكبير ، ولا ما كان يحدث في هذه المناسبة من الترقيات الجمّة جداً في المراتب ولا سِماطُ الامبراطور والملك المفتوح ، ولاشيء من ذلك كان يستطيع أن يحركني . فليأتِ أمير بفالتس الناخب إن شاء ، ليكون في انتظار كلا صاحبي الجلالة ، ولْيَزُرْ هذان الأمراءَ الناخبين إن شاءا ، ولينطلق القوم إن شاؤوا معاً إلى جلسة الأمراء الناخبين الأخيرة ، لإنجاز النقاط الباقية ، وتجديد الاتحاد الانتخابي ، فما من شيء كان يستطيع أن يخرجني من عزلتي العنيدة . وفي عيد الشكر تركت الأجراس تقرع ، والامبراطور يتوجه إلى كنيسة الكبوشيين ، والأمراء الناخبين والامبراطور يرحلون دون أن ابتعدَ في اثناء ذلك خطوة عن حجرتي . ولمَ يهِجْني قصف المدافع الأخير على الرغم من شدة إفراطه ، ومثلما تبدّد دخان البارود وتلاشى صدى الصوت توارت أيضاً كل هذه الروعة من نفسي .

ولم أكن أحسّ الآن بانشراح إلاّ في اجترار بؤسي وفي مضاعفته في الخيال إلى آلاف الأضعاف . وكانت كل موهبتي في الاختراع ، وشاعريّتي وبلاغتي قد أناخت عند هذه الرقعة المريضة وغدت تهدّد

بجرّ الجسد والنفس ، عن طريق هذه الطاقة الحيوية ذاتها ، إلى داء لايرجى له شفاء . وفي هذا الظرف الكئيب لم يكن يخطر ببالي بعدُ شيء جدير بالتمنّي ، ولاشيء جدير بالطموح إليه . والحق انه كانت تتملكني في بعض الأحيان رغبة لاحد لها في أن أعرف ماذا يجري لأصدقائي وأحبائي المساكين . وما عسى أن يسفر عنه التحقيق الأكثر تفصيلاً ، وإلى أي مدىً يمكن أن يتبيّن تورّطهم في تلك الجرائم أو براءتهم . وكنت أصور لنفسي هذا أيضاً بأشد الطرق تعقيداً ، وعلى نحو مفصّل ، ولم أقصّر في أن أعدّهم أبرياء وتعساء للغاية . وسرعان ما رغبت في رؤية نفسي متحرراً من هذا الشك ، وكتبت رسائل تنطوي على تهديد عنيف إلى صديق العائلة ، لكيلا يكتم عني المجرى اللاحق لأحداث القضية . وسرعان ما مزقتها من جديد خوفاً من أن أكابد شقائي بصورة واضحة كل الوضوح ، ومن أن أُحرَم العزاء الخياليّ الذي كنت حتى الآن أعذب نفسي به ثم أدفعها إلى النهوض على نحو متناوب .

وعلى هذا النحو كنت أنفق النهار والليل في اضطراب شديد ، في ثورة وخمود ، حتى شعرت آخر الأمر بالسعادة عندما انتابني مرض جسديّ شديد ، اضطر معه القوم إلى الاستنجاد بالطبيب وإلى التفكير بتهدئتي بكل الطرق ، واعتقدوا أنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك بصورة عامة إذ أكّدوا لي بالأيمان أن كل أولئك المتورطين في ذلك الذنب بصورة أكثر أو أقل قد عوملوا بأكبر قدر من المراعاة ، وأن أصدقائي المقرّبين ، قد أطلق سراحهم بما يعد في حكم البراءة التامة مع توبيخ لطيف ، وأن (جريتشن) قد رحلت عن المدينة وعادت إلى موطنها

من جديد . وتردّد القوم في القول الأخير أطولَ التردد ، على أنني لم أحمل ذلك على أفضل الوجوه : لأنني لم أستطع أن أكتشف في ذلك رحيلاً طوعياً ، بل مجرّد إبعاد شائن . ولم تتحسن حالتي الجسدية والنفسية بذلك : وإنما بدأت المحنة الحقيقية الآن . وكان لديّ من الوقت ما يكفي لأصور لنفسي أغرب الروايات ذات الأحداث الكئيبة والمنطوية على كارثة مأساوية لاسبيل إلى اجتنابها على نحو يفضي إلى تعذيب النفس .

القسم الثاني

ما يتنماه المرء في الصبا
يصيب منه في الكبر كثيراً

الكتاب السادس

وهكذا كان ثمة ما يدفعني بصورة متناوبة ، إلى تشجيع إبلالي من المرض وإعاقته ، وانضم إلى أحاسيسي الباقية غيظ دفين معيّن بعدُ ، إذ أنني لاحظت حقاً أن القوم كانوا يراقبونني ، وأنهم لم يكن يسهل عليهم أن يسلموني شيئاً مختوماً من دون أن ينتبهوا إلى نوع الآثار التي يحدثها ، وهل أحتفظ به سراً ، أو أطرحه بصورة مكشوفة . وما كان من أمثال ذلك . ولذلك صرت أحدس أن بيلادس أو أحد أبناء العم ، أو حتى جريتشن نفسها ، ربما قاموا بمحاولة الكتابة إليّ لإخباري أو لتلقي الأخبار مني . فغدوت الآن مغيظاً حقاً إلى جانب كربي ، وأتيحت لي من جديد فرصة ممارسة تكهناتي ، وتوريط نفسي في متاهات أغرب التعقيدات .

ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ، حين عُيِّن لي ناظر خاصّ بعدُ (٢) ، وكان من حسن الحظ أن كان رجلاً أحبه وأقدّره . وكان

يتقلّد وظيفة مربٍّ في منزل عائلة صديقة ، ولكن ربيبه حتى ذلك الوقت كان قد ذهب إلى الجامعة وحده (٣) . وكان يزورني كثيراً في وضعي البائس . ولم يجد القوم آخر الأمر ما هو طبيعيّ أكثر من أن يُخلوا له حجرة إلى جانب حجرتي ، إذ كان يفترض فيه أن يشغلني ، ويهدّئني ، وأن يجعلني نصب عينيه ، كما استطعت أن ألاحظ . ولكن لما كنت مع ذلك أقدره من قلبي ، وقد سبق أن أفضيت إليه أيضاً بكثير من الأشياء ، إلاّ بتعلّقي بجريتشن ، فقد ازددت الآن تصميماً على أن أكون صريحاً تماماً ومستقيماً حياله ، إذ لم أكن أحتمل أن أعيش في كل يوم مع امرىءٍ وأقف معه على قدم مقلقلة متوترة ، ولذلك لم أتردد طويلاً ، وحدثته عن القضيّة ، وجعلت أنعش نفسي بالسرد وإعادة أدقّ التفاصيل عن سعادتي الغابرة ، وبلغت من ذلك قدْراً رأى معه ، وهو الرجل المتبصّر بالأمور ، أن يطلعني على ما انتهت إليه القصة ، وذلك مع التفاصيل والخصوصيّات ، لأكون على بيّنة من الأمر كله ، وليستطيع القوم أن يقنعوني بهمة وحماسة بأنّ عليّ أن أعزم على أن ألقيَ بالماضي وراء ظهري ، وأبدأ حياة جديدة . وفي البداية أسرّ إليّ بمن كان ذا مكانة من الصغار الآخرين ، ثم انقادوا إلى عمليات جريئة للتعمية والإرباك ، ثم إلى جرائم بوليسية صبيانية ، فالى عمليات نصب مضحكة ، وسوى ذلك من أمثال هذه الأشياء المشبوهة . وقد نشأت بذلك بالفعل مؤامرة صغيرة انضم إليها أناس لاضمير لهم ، وارتكبوا بعض الأمور المستوجبة للعقوبة ، عن طريق تزوير الأوراق وتقليد التوقيعات ، كما أعدّوا العدة لأشياء أكثر استئهالاً للعقوبة . أما أبناء العم الذين سألت عنهم الآن بصبر نافذ ، فكانوا أبرياء تماماً . ولم تكن له معرفة بالآخرين إلاّ بأشد الأشكال

عموماً ، ولكن لم يُعثَر بحال من الأحوال على أنهم كانوا متّحدين .
أما عميلي (١) الذي اقتفى القوم أثري في الحقيقة حين استوصيت جدي به فكان واحداً من أكثرهم سوءاً ، وكان يسعى إلى تلك الوظيفة في المقام الأول ليستطيع القيام بأعمال خبيثة معينة أو يتمكن من تغطيتها .
ولم أستطع بعد هذا كله أن أتمالك نفسي آخر الأمر ، وسألته عما جرى لجريتشن التي أعربت له في كل مرة عن تعلّقي الفائق بها . فهز صديقي برأسه ، وابتسم وهو يردّ قائلاً : « هدّيء من روعك فإن هذه الفتاة تجاوزت محنتها تجاوزاً حسناً جداً وخرجت من ذلك بشهادة رائعة ، ولم يستطع القوم أن يجدوا فيها إلاّ ما هو طيّب وجميل ، بل إن السادة المحققين أنفسهم مالوا إلى جانبها ، ولم يستطيعوا أن يأبَوْا عليها مارغبت فيه من الابتعاد عن المدينة ، ثم إن هذا الذي اعترفت به ، مما يتعلّق بك ، يشرّفها ، يا صديقي ، فقد قرأت إفادتها في الملفّات السرية بنفسي ، ورأيت توقيعها وصحت قائلاً : « التوقيع الذي يسعدني كل هذه السعادة ويشقيني كل هذا الشقاء . فبم اعترفت يا ترى ؟ وعلامَ وقّعت ؟ وتردد الصديق في الإجابة . ولكن إشراق أسارير وجهه أوضح لي أنه لايطوي صدره على شيء خطير . وأجاب أخيراً : « إذا كنت تريد أن تعرف ذلك ، فقد قالت ، فيما يتصل بك وبصحبتك لها ، بصراحة تامة : « إنني لاأستطيع أن أنكر أنني رأيته مراراً وسررت بذلك ، ولكنني كنت أنظر إليه دائماً نظرتي إلى طفل وكان ميلي إليه في الحق ميلاً أخوياً ، ولقد نصحت له في بعض الحالات فأجمات في النصيحة ، وبدلاً من أن أحرّضه على سلوكٍ ملتبس منعته من الإسهام في حماقات جريئة كان من الممكن أن تجر عليه المتاعب » .

ومضى الصديق في حديثه وهو يُجري على لسان جريتشن حديث المربيّة ، ولكني كنت قد أمسكت منذ وقت طويل عن الاستماع إليه ، لأنني حملت على محمل السوء إلى حد مخيف تماماً إعلانَها في الملفات أنني طفل ، واعتقدت أنني برئت من كل حب لها مرة واحدة ، بل أكّدت ، مُعجّلاً ، لصديقي ، أن كل شيء قد انتهى الآن ! وما عدت أتحدث عنها ، ولا أسمّي اسمها بعدُ ، ومع ذلك فلم استطع أن أدع العادة السيئة المتمثلة في التفكير فيها ، وفي تمثّل صورتِها وكيانها وسلوكها ، في نفسي ، وهو ما كان يتجلّى لي الآن بالطبع في ضوء مختلف تماماً . ووجدت أن مما لايطاق أن تعدّني فتاة تكبرني بضع سنوات على أعلى تقدير (١) ، طفلاً ، وأنا الذي كنت أعتقد حقاً أنني أُعَدّ فتىً عاقلاً بارعاً بصورة كاملة . وجعل كيانها البارد الباعث على الاشمئزاز ، والذي كان في العادة يفتنني فتنة عظيمة ، يَعرُض لي في صورة منفّرة تماماً . أما أشكال العلاقة الحميمة التي تستبيحها معي ، والتي لم أكن أبيح لنفسي أن أصدها ، فغدت مزدراة لديّ تماماً . على أن هذا كله كان خليقاً أن يكون مع ذلك حسناً لو أني لم أكن على حق إذ كنت أعدها ، بسبب التوقيع على تلك الرسالة الغرامية الشعرية التي أعربت لي من خلالها بلاريب عن مَيْل شكليّ ، غانية لعوباً ماكرة أنانية ، وما عادت تبدو لي أيضاً بريئة إلى هذا الحد وهي مقنّعة عند بائعة مواد التجميل ، وجعلت أعالج هذه التأمّلات الباعثة على الغيظ وقتاً طويلاً فأُبدىءُ فيها وأعيد ، إلى أن جرّدتها من كل السمات المستحبّة قاطبة ، وكنت مقتنعاً بحكم العقل ومعتقداً بوجوب نبذها ، إلاّ أن صورتها كانت تتهمني بالكذب كلما لاحت في خاطري من جديد ، وكان ذلك ما زال يحدث بقدر كاف من التواتر .

وفي هذه الأثناء كان هذا السهم قد انتزع من القلب مع خطّافاته المعقوفة ، وكان الأمر الذي هو موضع التساؤل كيف يتهيّأ للمرء أن يسعف طاقة الشفاء الداخلية عند الأحداث ، وشددت العزم حقاً ، وكان أول ما فرغت منه على الفور البكاء والاهتياج اللذان كنت أنظر إليهما نظرتي إلى شيء طفولي إلى أقصى الحدود ، وإنها لخطوة كبيرة نحو الشفاء ! ذلك لأنني كنت قد أسلمت نفسي إلى هذه الآلام شطراً من ليالي في كثير من الأحيان مع أشد أشكال الغليان حتى بلغ ذلك مني آخر الأمر ، بفعل الدموع والنشيج ، أنني كنت لاأكاد أستطيع الابتلاع ، وغدت متعة الطعام والشراب مؤلمة لي ، وبدا الصدر القريب جداً وهو يعاني أيضاً . على أن الغيظ الذي كنت أحس به تجاه هذا الاكتشاف بصورة متصلة جعلني أنفي كل ضرب من ضروب التهاون . فقد وجدت أن من المفزع أنني ضحيت بالنوم والراحة والصحة من أجل فتاة طاب لها أن تنظر إليّ نظرتها إلى طفل رضيع ، وأن تتجلى لي في صورة المربيّة الحكيمة إلى أقصى الحدود .

ولم يكن هناك سبيل إلى إبعاد هذه التصورات الباعثة على المرض ، كما أقنعت نفسي بسهولة ، إلاّ عن طريق العمل . ولكن ماذا كان عليّ أن آتي من الأمر ؟ لقد كان عليّ بالطبع أن أتدارك ، بعض التدارك ، أموراً كثيرة للغاية ، وأن أعدّ نفسي ، بأكثر من معنى ، للجامعة التي كان ينبغي لي الآن أن أنتسب إليها ، ولكني لم أكن أستسيغ شيئاً أو أُوَفّق إلى شيء . وكان كثير من الأشياء يبدو لي معروفاً ومبتذلاً . أما ما يتصل بوضع الأسس في نواح عديدة فلم أكن أجدله الطاقة الخاصة ، ولا المناسبة الخارجية ولذلك تركت هواية جار الحجرة الطيب تحركني

إلى دراسة كانت جديدة وغريبة تماماً بالقياس إليّ ، وأتاحت ، زمناً طويلاً ، ميداناً واسعاً من المعارف والتأملات . وذلك أن صديقي شرع في تعريفي على أسرار الفلسفة ، وكان قد درس على يد داريس (١) في يينا ، وأحاط ، بحكم كونه عقلاً متناسقاً تنسيقاً جيداً جداً ، بمجمل ملابسات ذلك العلم بصورة مرهفة ، فكان يسعى إلى تعليمي إياه . ولكن ما يؤسف له أن هذه الأشياء أبت أن تأتلف في دماغي بمثل هذه الطريقة ، وكنت أطرح أسئلة ، وأتقدم بمطاليب ، فيعد بتلبيتها في المستقبل . ومع ذلك فقد كان أهم الفروق بيننا أنني كنت أزعم أن الفلسفة القائمة بذاتها ليست ضرورية ، ما دامت متضمّنة في الدين والشعر بصورة كاملة . ولكنه كان يأبى أن يقرّ بذلك بحال من الأحوال ، بل كان يسعى إلى أن يبرهن لي أنه لابد من تأسيس هذين أولاً على تلك ، وهو ما كنت أنكره بعناد . وكنت أجد في سياق حديثنا أدلة على رأيي عند كل خطوة ، إذ لمّا كان لابدّ في الشعر من نشوء إيمان معيّن بالمستحيل ، وفي الدين مثل هذا الإيمان بما لاسبيل إلى سبر غوره ، فقد كان الفلاسفة يبدون لي في وضع سيّء جداً ، فهم يريدون ، في مجالهم ، أن يبرهنوا على كلا الأمرين معاً ، ويقرّروهما . إذ يتبيّن أيضاً من تاريخ الفلاسفة ، بسرعة بالغة ، أن كل واحد منهم كان يبحث عن أساس آخر سوى أساس صاحبه ، وكان الريبيّ يعلن أن كل شيء في النهاية لاأساس له ولامستند .

على أن تاريخ الفلسفة هذا الذي كان صديقي يرى نفسه مضطراً إلى درسه معي لأنني لم أكن أستطيع أن أكتسب شيئاً من المحاضرة المذهبيّة ، كان يسليني جداً ، ولكن لم يكن ذلك إلاّ بمعنى أن نظريةً

أو رأياً كانا يردان عليّ وكل منهما مثل سواه ، وذلك على قدر ما كنت قادراً على الإيغال في هذه النظرية . وكان أكثر ما يعجبني في أقدم الرجال والمدارس أن الشعر والدين والفلسفة كانوا ينصبّون في شيء واحد ، وزعمت أن أولئك يبدون أنهم يقدمون دليلاً مقبولاً على رأيهم الأول بصورة أكثر حيوية مما يقدمه لي سفر أيوب ونشيد الأنشاد وحِكَم سليمان ، وكذلك أناشيد أورفيوس وهزيود . وكان صديقي قد اتخذ كتاب بروكر الصغير (١) أساساً لمحاضرته (مختصر كتاب التاريخ النقدي الفلسفي للعالم المجهول) وكنت كلما تقدمت إلى الأمام أغدو أقلّ علماً بما يجب أن أصنع بذلك . ولم يكن من الممكن أن يتّضح لي ما كان الفلاسفة الإغريقيّون الأوائل يريدونه وكان سقراط (٢) عندي رجلاً حكيماً ممتازاً يمكن تشبيهه حقاً بالمسيح ، في حياته ومماته . وفي مقابل ذلك كان يبدو لي في تلامذته شبه كبير بالرسل الذين تنازعوا أمرهم بينهم على الفور بعد موت المعلّم ، وكان من الواضح أن كلاً منهم لم يتعرّف إلاّ على طبيعة محدودة للحق ، فلا حدّة أرسطو ، ولا غزارة أفلاطون ، أثمرت لديّ أقل إثمار . وبالمقابل كنت أحس بعض الميل من قبل إلى الرواقيين . وقد أتيت الآن على ابيكتيت (١) الذي درسته بكثير من الاهتمام ، ولم يكن صديقي لِيَدَعَني أتجه هذه الاتجاه الأحاديّ الجانب ، الذي لم يستطع أن يصرفني عنه ، إلاّ على مضض . ذلك لأنه لم يكن يعرف ، على الرغم من دراساته المعقدة ، كيف يركّز حول المسألة الرئيسية وما كان عليه إلاّ أن يقول لي إن مدار الاهتمام في الحياة يتوقف على الفعل . أما الاستمتاع والمعاناة فيوجدان من تلقاء ذاتيهما . وفي أثناء ذلك لايجوز للمرء إلاّ أن يفسح المجال للنشيء الجديد ، فانهم لايتعلّقون وقتاً طويلاً جداً بالمباديء الزائفة ، إذ سرعان ما تنتزعهم الحياة منها أو تغريهم بالانعتاق منها .

وكان الفصل قد غدا جميلاً ، فكنا كثيراً ما نذهب معاً إلى الخلاء ، ونزور مرابع اللهو التي كانت تتناثر من حول المدينة في أعداد كبيرة ، ولكن لم يكن من الممكن ، هنا بوجه خاص ، أن يطيب لي المقام إلاّ بأدنى وجه من الوجوه ، لأنني كنت ما أزال أرى أشباح (١) أولاد العم في كل مكان ، وأخشى أن أرى واحداً منهم يبرز إليّ هنا طوراً وهناك طوراً آخر ، كما أن أكثر نظرات الناس اتساماً باللامبالاة كانت ثقيلة عليّ . لقد فقدت تلك السعادة اللاشعورية ، وهي أن أغدو وأروح دون أن أُعْرَف ، ودون أن أُلام ، وألاّ أفكر ، وأنا في خضم أكبر الحشود ، في مراقب ما . أما الآن فقد أخذ التوهم الكثيب يسومني سوء العذاب ، فكأنني كنت أثير انتباه الناس ، وكأنما كانت نظراتهم تتوجه إلى شخصي لتمسك به ، وتحقّق معه ، وتوبّخه .

ومن أجل ذلك خرجت بصديقي إلى الأحراش (٣) ، وعلى حين كنت أجتنب أشجار الشربين الرتيبة ، التمست تلك الأحراش الجميلة ذات الكساء الأخضر التي لم تكن في الحقيقة تمتد في المنطقة على نطاق واسع رحب ، ولكنها كانت مع ذلك تبلغ نطاقاً يمكن معه لفؤاد جريح مسكين أن يستكنّ فيه . وكنت قد اخترت لنفسي في أعمق أعماق الغابة مكاناً مهيباً (٤) كانت أقدام أشجار البلوط والزان تشكل فيه مربعاً ظليلاً رائعاً فسيحاً . وكانت الأرض على شيء من الانحدار ، فكانت تجعل عمل الجذوع القديمة أكثر جلاء ، وكانت تلتف حواليْ هذه الدائرة الخالية أكثف الأدغال التي كانت تطلّ منها الصخور ذات الطحلب في جبروت ومهابة ، وتهيء لجدول غزير المياه انسكاباً متدافعاً .

ولم أكد أحمل صديقي ، الذي كان يؤثر الوجود في أرض أكثر خلاءً عند النهر ، بين البشر ، على المجيء إلى هنا ، حتى أكّد لي مازحاً ، أنني أثبت أنني ألمانيّ أصيل ، وروى لي بالتفصيل ، من كتاب تاتسيتوس ، كيف كان آباؤنا الأوائل يكتفون بالأحاسيس التي تهيئها لنا الطبيعة في أمثال هذه الضروب من العزلة ، في فن عمارة لاصنعة فيه ، على نحو رائع ، ولم يكن قد روى لي طويلاً حين صحت قائلاً : « آه ! ما بال هذا المكان الحلو لايكون في أعماق القفر ، وما لنا لا نجعل من حوله سوراً (١) ، لنقدسه ونبارك أنفسنا ، ونعتزل العالم ! فلاريب أنه ليس هناك عبادة لله أجمل من تلك التي لايحتاج فيها الناس إلى صورة ، والتي تنبثق عن مجرد الحديث المتبادل مع الطبيعة في صدورنا ! » — وما زال ما كنت أحس به في تلك الأيام حاضراً في ذهني على أني ما كنت لأعرف كيف أستعيد ما قلته ، ولكن المؤكّد من ذلك أن الأحاسيس غير المحددة ، والممتدة على نطاق واسع ، عند الشباب وعند الشعوب غير المثقّفة ، هي وحدها الملائمة للسامي الذي إذا استثارته فينا أشياء خارجية ، أو تشكّل بغير صورة ، أو بصور لاتُدرَك ، كان لابد أن تحيط بنا منه عظمة لم ننضج لها .

ومثل هذا المزاج الروحي يحس به البشر جميعاً على نحو يقل أو يكثر ، كما يسعون إلى إشباع هذه الحاجة النبيلة بطرق شتى . ولكن مثلما يكون من السهل جداً أن يصدر السامي عن الغَسَق والليل ، حيث تتحد الصور ، فان السامي ، مقابل ذلك ، يُجفِل من النهار (٢) الذي يعزل كل شيء ويفصله . وهكذا يترتّب عليه أيضاً أن يتبدّد بفعل كل ثقافة نامية إذا لم يسعده الحظ بما يكفي ليفزَع إلى الجميل ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً ، وبذلك يكون كلاهما خالداً وممتنعاً على التدمير في الوقت ذاته.

على أن صديقي المفكر كان يزيد هذه اللحظات القصيرة الخاصة بأمثال هذه المباهج ، قِصَراً على قِصر . ولكني كنت أحاول عبثاً خالصاً ، حين كنت أحاول ، لدى خروجي إلى العالم ، أن أثير في البيئة المكشوفة الهزيلة مثل هذا الشعور لديّ من جديد . بل إني كنت لأكاد أقدر على أن أحتفظ من ذلك حتى بالذكرى . وكان قلبي قد تعرّض مع ذلك للإفراط في التدليل بصورة أكبر من أن يتمكن من تهدئة ذاته . فقد كان أحبّ ، وكان موضوع الحب قد انتزع منه ، وعاشَ ، وكانت الحياة بالقياس إليه حياة بدائية . وان الصديق الذي يدعك تلاحظ بوضوح مفرط أنه يفكر في تثقيفك ، لايبعث على ارتياحك ، على حين أن المرأة التي تثقفك ، بينما تبدو كأنها تدلّلُك ، يُصلّى لها كأنها كائن سماويّ . ولكن تلك الصورة التي تجلّى لي فيها مفهوم الجميل كانت قد توارت بعيداً ، وكانت تزورني في كثير من الأحيان تحت ظلال أشجار البلوط ولكني كنت أحس دافعاً شديد العنفوان يحدوني إلى التماس شيء مماثل في المدى البعيد .

وكنت قد عوّدت صديقي ، والمشرف عليّ ، بغير شعور مني ، بل ألزمته ، أن يدَعَني وحدي . إذ لم تكن تلك الأحاسيس الغامضة الهائلة تشبعني حتى وأنا في غابتي المقدسة . وكانت العين قبل كل شيء هي العضو الذي أدرك به العالم . وكنت قد عشت منذ الطفولة بين الرسامين وتعوّدت أن أنظر إلى الأشياء كما ينظرون إليها من حيث صلتها بالفن ، وقد ظهرت الآن ، وأنا أسلم نفسي إلى نفسي وإلى الوحدة ، هذه الموهبة ، بين شطر فطريّ وشطر مكتسب ، فكنت أبصر الصورة حيثما أرسلت بصري ، وكنت أريد أن أتمسّك بما كان

يلفت نظري ، وبما كان يسرني ؛ وبدأت بالرسم عن الطبيعة بأقل الطرق براعة وكان ما ينقصني من أجل ذلك لايقلّ عن كل شيء ؛ ومع ذلك فقد ظللت متمسكاً بعناد بالرغبة في رسم أروع ما يتجلّى لعينيّ ، دون أية وسيلة فنية . وكنت أكتسب عن هذا الطريق ، بالطبع ، انتباهاً كبيراً إلى الأشياء ، ولكنني لم أكن أدركها إلاّ بصورة مجملة ، وبمقدار ما كانت تحدث أثراً . ومثلما أن الطبيعة لم تجعل مني شاعر وصف ، لم تكن تريد بالقدر ذاته أن تضفي عليّ مقدرة رسّام معنيّ بالتفصيل . ولكن لما كان هذا وحده هو الأسلوب الذي تبقّى لي في التعبير عن ذاتي فقد تعلّقت بهذا بمثل ذلك العناد الشديد ، بل مع الاكتئاب ، حتى أنني كنت أزداد همة ونشاطاً إلى مواصلة أعمالي كلما قلّ ما أراه يخرج لي منها .

ومع ذلك فلست أريد أن أنكر أني كنت أخلط مع ذلك شيئاً من المكر ، لأنني كنت قد لاحظت أنني حين انتقيت جذعاً قديماً يغشى الظل نصفه ، وتلتحم بجذوره المحنيّة بقوة حشيشةُ الثور ذات الإضاءة الحسنة ، مصحوبة ببريق العشب اللامع ، ليكون دراسةً متعبة ؛ كان صديقي الذي يعرف بالخبرة أنه لامهرب من هذا المكان مدة ساعة ، يعتزم في العادة أن يلتمس مكاناً آخر يروقه ، مع كتاب ، ولم يكن يعوقني الآن عائق عن الاسترسال في هوايتي التي كانت تزداد نشاطاً ، إذ كانت أوراقي تغدو أثيرةً لديّ بما وطّنت نفسي عليه ، وهو ألاّ أرى فيها ما كان مسطوراً عليها بمقدار ما أرى ذاك الذي كنت أفكر معها فيه كل حين . وعلى هذا النحو كانت الأعشاب والأزهار من أكثر الأنواع ابتذالاً تستطيع أن تشكل لنا مذكرة يومية عزيزة ،

إذ أنه ما من شيء يستدعي ذكرى لحظة سعيدة يمكن أن يكون غير ذي أهمية ، لأنه ما زال يصعب عليّ حتى الآن أن أتلف من أمثال هذه الأشياء بعض ما تبقّى لي من حِقَب مختلفة ، على أنه عديم القيمة ، لأنه ينقلني بصورة مباشرة إلى تلك الأيام التي أذكرها في الحقيقة ذكراً كئيباً ، ولكنه لايخلو مع ذلك من السرور .

ولكن إذا أمكن أن يكون لهذه الأوراق أية أهمية في حد ذاتها فسوف تدين بهذه المزيّة لاهتمام أبي ونباهته ، فهذا الأب الذي أُبلِغ من قبل ناظري أنني أستعيد حالتي الطبيعية شيئاً فشيئاً ، وأني توجهت بصورة خاصة وبحماسة إلى الرسم عن الطبيعة ، كان راضياً عن ذلك أشد الرضى ، لأنه كان هو ذاته يقدر الرسم والتصوير تقديراً كبيراً جداً من ناحية ، لأن العرّاب (١) زيكاتس كان قال له في بعض المرات ان من المؤسف أنني لست مهيّأً لأكون رساماً . ولكن خصائص الأب والابن عادت إلى الصراع ههنا : ذلك لأنه كان من المستحيل عندي تقريباً أن استعمل في رسومي ورقاً جيداً ، أبيضَ ، نظيفاً تماماً ، إذ كانت الأوراق الكالحة القديمة ، بل المكتوبة في أحد وجهَيْها هي الأكثر جاذبية عندي ، وكأنَّ عجزي كان يهاب محكّ الأرضية البيضاء ، وعلى هذا لم يكتمل أيضاً رسم من الرسوم تماماً ، وأنّى لي أن أنجز شيئاً كاملاً رأيته بعينيّ حقاً ولكنني لم أدركه ، وأني لي أن أنجز جزءاً تفصيلياً كنت أعرفه حقاً ولكن لم يكن لديّ من أجل متابعته ، لاقدرة ولا صبر . والحق أيضاً أن فن التربية عند أبي في هذه النقطة كان يستحق الإعجاب فكان يسأل بحسن نيّة عن تجاريبي ، ويرسم خطوطاً حول كل رسم غير مكتمل ، وكان يريد بذلك أن يضطرّني إلى الفهم والتفصيل ، وكان يقصّ الأوراق ذات القياسات غير النظامية قصّاً

أصوليّاً ، وقد صنع بذلك البداية لمجموعة كان يريد أن يبتهج فيها بخطوات تقدّم ولده ، ولذلك لم يكن يكدّره بحال من الأحوال أن أمارس أساليبي الجامحة المتقلّبة في المنطقة ، بل كان يظهر اغتباطه حين كنت أعود بأية كراسة يستطيع أن يمارس صبره حيالها ويشدّ حبال آماله إلى حدّ ما .

على أن القوم ما عاد ينتابهم القلق من احتمال أن أنغمس من جديد في أهوائي وعلاقاتي السابقة ، وجعلوا يطلقون لي عنان الحرية الكاملة شيئاً فشيئاً . وكنت أقوم ، بدافع عارض ، ومع أصحاب طارئين ، ببعض الجولات في الجبال التي كانت تنتصب أمامي منذ الطفولة ممعنة في البعد والوقار . وعلى هذا النحو زرنا هومبورج وكرونبيرْج ، وتسلّقنا جبل فيلدبرج الذي كان المنظر الفسيح الذي يطلّ عليه يغرينا أبداً بالمزيد من البعد ، وعندها لم تبق كوينجشتاين بغير زيارة . أما فيزبادن وشفالباخ مع المناطق المحيطة بها فقد شغلتانا بضعة أيام ، ووصلنا إلى الراين الذي رأيناه من الأعالي يواصل طريقه المتلوّي . وأثارت ماينتس إعجابنا ، ومع ذلك فلم يكن في وسعها أن تستحوذ على عقل الشباب الذي كان يضرب في الأرض العريضة ، وسررنا بموقع بيبريش ، وعدنا أدراجنا مغتبطين مسرورين .

وكادت كل هذه الرحلة التي كان والدي يؤمّل منها بعض الصحائف، أن تكون بغير ثمار ، وأيّ فكر ، وأي موهبة ، وأي مران لايقتضيهما إدراك أرض فسيحة عريضة في شكل صورة ! ومع ذلك فقد عدت من جديد ، بغير شعور ، إلى الحيّز الضيق ، حيث وجدت بعض النتائج : ذلك لأنني لم أجد قصراً متداعياً ، ولا جدراناً تشير

إلى العصور الغابرة دون أن أعدّه موضوعاً جديراً بالاعتبار وأرسمه رسماً جيداً على قدر طاقتي . بل رسمت الحجر المبطّن بالمعدن على السور في ماينتس مع بعض المخاطرة . والمحظورات التي لابد منها لكل امرىءٍ يريد أن يعود من الأسفار إلى بيته ببعض الذكريات المحسوسة . وكان من المؤسف أنني لم آخذ معي إلاّ أردأ ورق للمسوّدة ، وكدّست عدداً من الأشياء ، بغير براعة ، على صحيفة ، ولكن معلمي الأبويّ لم يدع هذه الأشياء تربكه ، فكان يفصل الأوراق بعضها عن بعض بالمقصّ ، ويوعز إلى المجلّد بشدّ ما هو ملائم منها ، ويشدّ الصحائف المفردة بالكتان ، وكان يضطرني بذلك حقاً إلى المضيّ في الرسوم التخطيطية للجبال المختلفة إلى حافة الورق ، وملء القطاع الأمامي من اللوحة ببعض الأعشاب والحجارة .

ولئن لم تستطع جهوده المخلصة أن ترفع مستوى موهبتي فقد كان لهذه السجيّة المتمثلة في حبه للنظام ، أثر خفيّ عليَّ أثبت فيما بعد حيويته بأكثر من طريقة .

وعدت من أمثال هذه الجولات التي كانت تتم في أجل قصير ، وتتكرّر مراراً ، إلى البيت من جديد ، وكان ذلك في الحقيقة بفعل مغناطيس أثّر فيَّ من قبل تأثيراً شديداً ، وهو أختي (١) ، فسلخت ، وهي تصغرني عاماً فحسب ، كل حياتها الواعية معي ، وارتبطت معي بذلك بأوثق الأواصر . وكان يضاف إلى هذه الدوافع الطبيعية دافع ينبثق عن وضعنا المنزليّ ، فكان ثمة أب يمثل ، بحكم انطوائه على نفس بالغة الرقة ، صرامةً فولاذية ، مع مثابرة لا تصدّق ، لكي يصل إلى أغراضه ، ويمنح أبناءه أفضل تربية ، ويشيد منزله ذا الأساس الجيّد ،

وينظّمه ويتعهّد أموره ، وفي مقابل ذلك كان هناك أم كأنها ما تزال طفلة لم تنضج إلى درجة الوعي إلاّ بأكبر أبنائها ، ومن خلالهم . كان هناك هؤلاء الثلاثة ، يعون الدنيا بأبصارهم السليمة ، قادرين على الحياة ، راغبين في المتعة الحاضرة . وكان مثل هذا الصراع الذي يخيم على أجواء العائلة يزداد مع السنين ، وكان الأب يتابع هدفه متابعة لاتتزعزع ولا تنقطع ، ولم يكن في وسع الأم والأبناء أن يتخلّوا عن مشاعرهم ومطالبهم ورغائبهم .

وكان من الطبيعيّ مع هذه الظروف أن يرتبط الأخ والأخت بآصرة وثيقة ، وأن يقفا إلى جانب الأم ليقتنصوا ، على الأقل ، اقتناصاً ، ما حرّم عليهم من المباهج . ولكن لما كانت ساعة العزلة والجهد طويلة وفسيحة جداً بالقياس إلى لحظات الاستجمام والاستمتاع ، ولاسيما بالقياس إلى أختي التي لم تكن تستطيع قط أن تغادر المنزل وقتاً طويلاً جداً مثلي فقد كان يزيد من حدة حاجتها إلى التسلية معي الشوقُ الذي صحبتني به على البعد .

ومثلما كان اللعب والدرس ، والنمو والتثقيف ، مشتركين تماماً بين الأخوين في السنين الأولى ، حتى غدا في وسعهما أن يعدّا نفسيهما توأمين حقاً ، ظلت بينهما أيضاً هذه الرابطة ، وهذه الطمأنينة لدى تطور الطاقات الجسدية والذهنية ، وذلك الاندهاش عند انبعاث الغرائز الجسدية التي تتلبّس في أشكال ذهنية والحاجات الفكرية التي تتلبّس في صور حسيّة ، وكل ما يتصل بذلك من تأمّلات تكدّر صفونا أكثر مما تنوّرنا ، مثلما يغطي الضباب الوادي الذي يريد أن يرتفع عنه ، ولا يضيئه . وكان الأخوان يتقاسمان بعض أشكال التيه والانحراف

التي تنجم عن ذلك ويتجاوزانها يداً بيد ، وكان اتضاح أوضاعهما الغريبة يزداد تضاؤلاً كلّما باعد بينهما الخجل المقدس الناجم عن القرابة الحميمة مباعدة لاتزيدها الأيام إلاّ عنفواناً ، حين يزدادان تقارباً ويريدان دخول حيّز الوضوح .

وإنه ليسوؤني أن أعبّر بوجه عام عن هذا الذي قمت قبل سنوات بتصويره (١) دون أن أتمكن من تفصيل القول فيه . ولمّا فقدت هذه المخلوقة العزيزة التي تمتنع على الفهم ، خلال أجل قصير جداً ، شعرت بحافز كافٍ لأن أجسّد لنفسي قيمتها ، وهكذا نشأ عندي مفهوم الكلّ الشعري الذي كان من الممكن فيه أن أصوّر به تفرّدها ، ولكن لم يكن من الممكن تصوّر صيغة أخرى من أجل ذلك سوى صيغة روايات ريتشاردسون . فعن طريق أدقّ ضروب التفصيل وحدها ، وعن طريق التفاصيل اللامتناهية التي تحمل سمات الكلّ بصورة حيّة . وتعطي إحساساً أوّلياً بهذا العمق ، إذ تنبثق من عمق مذهل ، بهذه الطريقة وحدها كان من الممكن أن أُوفّق إلى الإدلاء بعرض لهذه الشخصية العجيبة ، ذلك لأن الينبوع لايمكن التفكير فيه إلا ما دام يجري ، ولكن صخب العالم كان يردّني عن هذا المبدأ الجميل والمخلص ، كما يردّني عن كثير جداً من المباديء الأخرى . ولايبقى لي الآن إلاّ أن أعكس مجرد ظل تلك الروح السعيدة ، وكأنما يتم ذلك بالاستعانة بمرآة سحرية .

كانت طويلة ذات قوام معتدل رقيق ، وكان في سلوكها شيء من النبل الطبيعيّ ينحلّ في رقة مستعذبة . وكانت قَسَمات وجهها التي لم تكن معبّرة ولا جميلة ، تنطق عن كيان لم يكن ، ولا يمكن

أن يغدو ، متوائماً مع ذاته . ولم تكن عيناها أجمل ما رأيت قاطبة ، ولكنهما كانتا أعمق العيون التي ينتظر المرء من ورائها أكثر ما ينتظر ، وإذا ما عبّرتا عن أي نزعة أو هوى كان لهما بريق لامثيل له ، ومع ذلك فلم يكن هذا التعبير في الحقيقة رقيقاً كذلك الذي يصدر عن القلب ويسوق معه في الوقت ذاته شيئاً ينطوي على التوق والرغبة . كان هذا التعبير يصدر عن الروح ، وكان مترعاً خصباً ، وكان يبدو أنه لايريد إلاّ أن يعطي ، وأنه لايحتاج إلى أن يتلقّى .

ولكن ما كان يشوّه وجهها تشويهاً كاملاً في الحقيقة ، بحيث كان من الممكن في بعض الأحيان أن تبدو دميمة حقاً ، إنما كان زيّ ذلك العصر ، الذي لم يكن يعرّي الجبين فحسب ، بل كان يفعل كل شيء ليزيده كِبَراً ظاهرياً أو فعلياً ، عَرَضياً أو مبدئياً . ولما كان لها جبين متناه في أنوثته ونقاء انحنائته ، وكان لها مع ذلك زوج من الحواجب الكثّة السود ، والعيون الجاحظة ، فقد نشأ عن هذه العلاقات تضادّ كان من شأنه ، لدى الوهلة الأولى ، ألاّ يجتذب أيّ غريب على الأقل ، ان لم يصدمه . وكانت تحس بذلك في وقت مبكر ، وكان هذا الشعور يزداد إيلاماً كلما تقدمت بها السنون حين يحس كلا الجنسين بمتعة بريئة في أن يصبحوا مستعذَبين بصورة متبادلة .

وما من أحد يمكن أن يُستَكرَه لهيئته الخاصة ، فان لأقبح الناس ، مثل ما لأجملهم ، الحق في الاستمتاع بوجوده ، ولمّا كانت عين الرضى تجمِّل ، وكان كل امريء ينظر إلى نفسه في المرآة بعين الرضى فان المرء يستطيع أن يزعم أنه لابد لكل امريء أن يرى نفسه رؤية المعجب بها مهما كان يأبى ذلك . ومع ذلك فقد كان لدى أختي تقبّل

حاسم للعقل بحيث لم يكن من الممكن هنا أن تكون عمياء حمقاء ، بل ربما كانت تعرف بوضوح أكبر ، وبصورة بدهية أنها كانت متخلفة عن رفيقاتها تخلفاً بعيداً في جمال المظهر دون أن تشعر بعزاء لها في تفوقها عليهن في المزايا الداخلية إلى حد لانهاية له .

وإذا كان لامرأة أن تعتاض عن نقص الجمال فقد كان لها ذلك بقدر كبير عن طريق الثقة التي لاحد لها ، والتقدير والحب الذي كانت صديقاتها كلهن يحملنه لها ، وكن جميعاً يحملن الأحاسيس ذاتها ، سواء أكن أكبر منها أو أصغر سناً ، وكانت زمرة بالغة اللطف قد تجمعت حولها ، ولم يعدم الأمر بعض الشباب الذين يعرفون كيف يتساوون ، وكانت كل فتاة تقريباً تجد صديقاً ، إلا هي ، إذ بقيت بغير نصف آخر ، ولئن كان مظهرها منفراً بالطبع إلى حد ما ، فقد كان باطنها الذي يطل شفافاً يحدث أثراً رافضاً أكثر منه جذاباً : لأن وجود كل مكرمة يرد المكارم الأخرى إلى ذاته . وكان تشعر بذلك شعوراً حياً ، ولم تكن تكتمه عني ، وكان تعلقها بي يزداد باطراد ، وكانت الحالة خاصة بما يكفي . ومثلما يغدو الخلصاء الذين يفضي إليهم المرء بادراكه للحب مشاركين في الحب حقاً عن طريق الاهتمام المخلص ، بل يتطورون خصوماً ويشدون طرف المودة إليهم أنفسهم آخر الأمر ، فكذلك كان شأننا نحن الأخوين : وذلك أنني حين كنت أقطع أواصري مع جريتشن ، كانت مواساة أختي لي تزداد جدية ، إذ كانت تحس في داخلها بالرضى لخلاصها من محبوبة منافسة . وهكذا كان لابد لي أيضاً أن أحس بذلك ، بسرور هاديء ، بسرور من خرج بنصف المصيبة ، حين كانت تنصفني من جديد بقولها إنني الوحيد الذي يحبها حقاً ، ويعرفها ، ويقدرها ، وكنت كلما تجدد عندي الألم

لفقدان جريتشن من حين إلى آخر ، وشرعت ، بدون أي تمهيد ، في البكاء والعويل والخروج على أصول اللياقة أثار يأسي من المفقود عندها ضيقَ صدرٍ يائساً على النحو ذاته ، حيال ما لم تظفر به قط ، وما أخفقت فيه ، وما مرّ بها مروراً عابراً من أمثال هذه الميول العاطفية الصبيانية حتى لقد كنا نرى نفسينا معاً شقيّين بغير حدود ، وأن الأولى أنه لايجوز ، في هذه الحالة الغريبة ، أن ينقلب الخلصاء إلى عشّاق .

وكان من حسن الحظ أن ربّ الحب العجيب ، الذي يحدث من الفساد قدراً كبيراً ، تدخّل هنا تدخّل المحسن ليخرج بنا من كل ذلك الحرج . وكنت أختلف كثيراً إلى انكليزي شاب (١) يدرس في مدرسة بفايل الداخلية . وكان في وسعه أن يدلي ببيان جيّد عن لغته ، فتدرّبت عليها معه وألممت أثناء ذلك ببعض الأمور حول بلاده وشعبه . ولبث وقتاً طويلاً كافياً يغدو معنا ويروح دون أن ألحظ منه ميلاً إلى أختي ، ومع ذلك فربما كان قد بلغ من تقاربه معها بهدوء ، درجة الحماسة ، إذ تبيّن ذلك في النهاية ، فجأة ، ومرة واحدة . وكانت تعرفه ، وتقدّره ، وكان أهلاً لذلك . وكثيراً ما كانت الثالثةَ في أحاديثنا الانكليزية ، وكنا نحاول ، كلانا ، أن نكتسب غرائب اللفظ الانكليزي من فمه ، وبذلك عوّدنا أنفسنا ، لاعلى ما هو خاصّ في إيقاعها وجرْسها ، بل حتى على أخصّ الخصوصيات الشخصية عند معلمنا ، حتى كان الأمر يبدو غريباً بما فيه الكفاية حين كنا نبدو معاً كأننا نتحدث من فم واحد . أما سعيه إلى أن يكتسب منا ، بالطريقة ذاتها ، المقدار ذاته من اللغة الألمانية ، فلم يكن موفقاً . وأعتقد أنني لاحظت أن تلك العلاقة الغرامية الصغيرة ، كانت تمارَس باللغة الإنكليزية أيضاً ، سواء أكان ذلك تحريرياً ، أم شفهياً ، وكان كل من الشابين

يليق بصاحبه على نحو حسن تماماً ، أما هو فكان طويلاً معتدل القدّ مثلها ، إلاّ أنه كان أرشق قامة . وكان وجهه صغيراً وضيقاً معاً . ولقد كان من الممكن أن يكون وسيماً حقاً لولا أن وجهه تعرّض للتشويه بالبثور إلى حد بالغ . وكان سلوكه هادئاً ، بلاريب ، وربما كان يحق المرء أن يعدّه في بعض الأحيان جافاً وبارداً ، ولكن قلبه كان مفعماً بالطيبة والحب ، وكانت نفسه مترعة بالنبل وميوله دائمة بمقدار ما هي حاسمة ومستقرة . وكان هذا الزوجان الوقوران اللذان لم يلتقيا إلاّ منذ عهد قريب ، يتميّزان تميّزاً خاصاً كل الخصوصية عن الآخرين الذين كانوا أكثر تعارفاً فيما بينهم من قبل ، وعن الشخصيات الأكثر خفة ، والتي لاتأبه للمستقبل ، فتورط نفسها بصورة طائشة في تلك العلاقات التي تمر في العادة مروراً عابراً في صورة مجرد مثال تمهيدي غير مثمر للعلاقات الأكثر جديّة في المستقبل ، ويندر جداً أن يكون لها أثر دائم في الحياة .

على أن فصل السنة الحسن ، والمنطقة الجميلة ، لم يظلاّ بدون فائدة بالقياس إلى رهط مرحٍ كهذا . وكان القوم كثيراً ما يقومون برحلات مائية ، لأن هذه الرحلات هي أكثر الرحلات الترفيهية إيناساً على الاطلاق . ومع ذلك فقد كان في وسعنا أن ننتقل على الماء أو على اليابسة . وعلى هذا النحو كانت الطاقات الفردية الجذّابة تظهر على الفور ، فالتأم القوم أزواجاً أزواجاً . أما بعض الرجال الذين لم تُلْتَمس صحبتهم ، والذين كنت أنا أيضاً بينهم ، فبقي لديهم إمّا ألاّ يحظوا بتسلية مع أنثى على الاطلاق ، وإمّا أن يحظوا بتلك التي ما كان المرء ليختارها في يوم من أيام اللهو . وكان ثمة صديق (١) يواجه الحالة ذاتها ، وربما كان يفتقر إلى نصف آخر في المقام الأول إذ كان ، على ما يمتاز به من

أفضل ضروب الفكاهة ، يفتقر إلى الرقة ؛ وكان مع رجاحة عقله يفتقر إلى تلك النباهة التي لا يمكن تصوّر علاقات من هذا النوع بدونها ؛ وقد وعدني هذا الصديق ، بعد أن شكا إليّ حاله مراراً بأسلوب فكه ظريف ، أن يقدم في الاجتماع التالي اقتراحاً يكون مفيداً له وللجماعة . ولم يقصّر أيضاً في إنجاز وعده ؛ لأننا حين نصبنا خيامنا بين التلال الظليلة ، على العشب ، بعد رحلة مائية رائعة في نزهة بالغة الظُرف ؛ والتهمنا وجبة ريفية ونحن قاعدون على الصخور المكسوّة بالطحلب وجذور الأشجار ، فرحين مسرورين ، ورآنا الصديق جميعاً في سرور وروح معنوية عالية ، أوعز إلى القوم ، في نبل يصطنعه على سبيل الشقاوة ، أن يشكّلوا ، وهم جلوسٌ ، نصف دائرة ، وتقدم إليهم وأنشأ يحدثهم حديث المستفيض بلهجة توكيدية ، على النحو التالي :

« أيها الأصدقاء والصديقات الموقّرون ، أزواجاً ، ووحداناً ! — من هذا الاستهلال يتبين مقدار ما تمس الحاجة إلى أن يخرج واعظٌ يرهف ضمائر القوم ، وذلك أن فريقاً من أصدقائي النبلاء ينتظمون أزواجاً وربما كانوا يشعرون في ذلك بالارتياح التام ، أما القسم الآخر الذي لم ينتظم أزواجاً ، ففي حال بالغة السوء ، كما أستطيع أن أؤكد ذلك بناء على خبرتي الخاصة ، وإذا كان المزدوجون الأعزّاء يشكلون الأغلبية هنا فاني أدعوهم مع ذلك إلى التفكير بقولي : أليس من الواجب الاجتماعي أن تتجه العناية إلى الآخرين ؟ فلماذا نلتئم على نحو كثير التكرار بدلاً من أن يقوم كلٌّ منا بدور صاحبه بصورة متناوبة ؛ وكيف يمكن أن يحدث هذا حين يمكن أن يلاحظ في محيطنا ، من جديد ؛ هذا العدد الكبير من ضروب الاعتزال الصغيرة ؟وإني لبعيد بعداً شاسعاً عن أن أقصد إلى شيء مناوىء لهذه العلاقات الجميلة ، أو إلى مجرد

أن أريد أن أحرّك ساكناً في هذا الصدد ، ولكنّ لكل شيء إبّانه !
وإنها لكلمة جميلة كبيرة لايفكر فيها أحد بالطبع حين يلقى رعاية كافية
من أجل تزجية الوقت » .

ومضى بعد ذلك ، وهو يزداد شيئاً فشيئاً حيوية ومرحاً ، في مقابلة
الفضائل الاجتماعية بالأحاسيس الرقيقة ، وقال : هذه لايمكن أن
تنقصنا قط ، فنحن نحملها معنا دائماً ، وكلٌّ منا يغدو في ذلك أستاذاً
بسهولة وبغير مران ،أمّا تلك التي لابد لنا من التماسها ، ويجب علينا
أن نكدح من أجلها وقد نخطو في ذلك إلى الأمام على قدر ما نريد من
الخطوات ، ولكننا لانتعلّمها قطّ تماماً » . ثم دخل في الخصوصيّ ،
وربما بدا كأن بعضهم كان يشعر أن الحديث قد مسّه ، ولم يكن القوم
يستطيعون أن يكفوا عن أن ينظر بعضهم إلى بعض ، ومع ذلك فقد
كان الصديق يتمتع بامتياز يتمثل في أن القوم لم يحملوا شيئاً منه على
محمل السوء ، وعلى هذا فقد كان في وسعه أن يواصل حديثه دونما
عائق .

« لايكفي أن نكشف عن النقائص ، أجل ، فالمرء يرتكب ظلماً
حين يفعل مثل هذا إذا لم يكن يعرف في الوقت ذاته كيف يبيّن الوسيلة
إلى الحالة الأفضل . ولذلك فأنا لاأريد ، يا أصدقائي ، أن أنبّهكم
بوجه عام إلى التوبة والتحسين ، شأن الواعظ في أسبوع الجمعة اليتيمة ،
بل أتمنّى لمجموع الأزواج السعادة الأكثر طولاً ودواماً ، ولكي أسهم
بذلك بنفسي بأضمن الطرق ، أتقدم باقتراح أن نحلّ ، في ساعات
اجتماعنا ، هذه المجموعات المعتزلة الصغيرة البالغة الظرف ، ونلغيها » .
ومضى قائلاً : « وقد دبّرت أمر التنفيذ ، إذا جاز لي أن ألقى الإستحسان

إليكم هذا الكيس ، الذي توجد فيه أسماء السادة ، فاقترِعْنَ يا جميلاتي الآن وعليكن أن ترضين بالقيام على خدمة من يقسمه الحظ لكنّ ورعايته ثمانية أيام . وهذا لا يسري مفعوله إلاّ ضمن محيطنا وبمجرد أن يزول هذا المحيط تزول هذه الارتباطات أيضاً . ولتقرّر قلوبكنّ من ينبغي أن يصحبكن إلى البيت » .

وسرّ قسم كبير من الجماعة لهذه الكلمة والأسلوب الذي ألقيت به ، وبدا كأنه يوافق على هذه البادرة ، ولكن بعض الأزواج جعلوا يُطرقون كأنما يرون أنهم لايعرفون ما يأتون من الأمر وما يَدَّعون ، ولذلك صاح بعنف مرِح :

« حقاً ! إنه ليباغتني ألاّ يثبَ واحد منكم ، ويثنيَ على اقتراحي ، على الرغم من أن آخرين ما زالوا يترددون ، ويناقشَ مزاياه ، ويوفّر عليّ أن أكون المادح لنفسي . وإنما أنا أكبركم سناً ، فليغفر الله لي ، وهاكم صلعتي ، ومردّها إلى كثرة تفكيري » .

وهنا رفع قبعته .

« ولكن مما يسرني ويشرفني أن أعرضها لكم إذا قُدِّر لخواطري التي جفّفت إهابي ، وذهبت بأجمل حِلْية لي ، أن تكون على جانب من الفائدة لي وللآخرين فحسب ، فنحن شبّان يا أصدقائي ، وهذا جميل ، وسوف نكبر سناً ، وهذا شيء سخيف ، ثم إننا قلّما يضمر بعضنا لبعض سوءاً ، وهذا جميل ، وملائم لهذا الفصل من السنة ، ولكن عمّا قريب ستأتي ، يا أصدقائي ، الأيام التي يجب علينا فيها أن نحتمل ، نحن أنفسنا ، بعض ألوان السوء ، وحينئذ قد يرى كل منكم كيف يتلاءم مع ذاته ، ولكن آخرين سيضمرون بعض السوء ،

وذلك حين يمتنع علينا إدراكه ، ولابد أن نتخذ لهذا الأمر أهبته ، وينبغي أن يتم هذا منذ الآن » .

وكان يلقي الكلمة كلها ، ولاسيما الفقرة الأخيرة ، بايقاع الآباء الكبوشيين ولفتاتهم ، وذلك أنه لما كان كاثوليكياً فقد كان من الممكن أن تتهيأ له فرصة كافية لدراسة فن الخطابة عند هؤلاء الآباء . وبدا الآن مبهور الأنفاس ، وجعل يجفف هامته الصلعاء منذ الشباب ، والتي كانت تضفي عليه في الحق مظهر القسيس ، وعلى الجماعة الخفيفة الروح ، بفعل هذه الدعابات ، مزاجاً كان يبلغ من حسنه أن كل واحد منهم كان يتوق إلى مواصلة سماعه ، غير أنه يخرج الكيس ، بدلاً من المضي في الحديث ، ويتجه نحو أول آنسة ، وهو يصيح قائلاً : « إنما هي مسألة تجربة ! وإنما يثني على المعلم عمله . وإذا لم تحظ بالإعجاب بعد ثمانية أيام تركناها ، وأمكننا أن نظل على سابق عهدنا .

وجعلت الأوانس يسحبن لفافاتهن الصغيرة ، وهن بين الراغبات والمكرهات ، وكان المرء يلاحظ بسهولة بالغة أن اللعبة هنا كانت تتناول بعض العلاقات العاطفية . وكان من حسن الحظ أن اتفق بطريق المصادفة أن تعرض أولو اللهو والعبث للانفصال ، وظل الذين هم أكثر جداً معاً ، وهو الأمر الذي تقبله كلا الجانبين من رب الحب والسعادة بقبول حسن للغاية . وجمع الراعي بين أزواج المصادفة الجدد على الفور ، وشربت الأنخاب في صحتهم ، وتم الإعراب عن التمنيات بالمزيد من السرور لهم جميعاً ، إذ كان يفترض أن يكون أجلهم مجرد أجل قصير ، ولكن ما من شك في أن هذه اللحظة كانت هي الأكثر مرحاً فيما استمتعت به جماعتنا منذ عهد طويل . أما الشبان الذين لم يحظوا بامرأة

فقد أسنِدت إليهم الآن ، طوال هذا الأسبوع ، مهمة رعاية الفكر والروح والجسد ، كما عبّر عن ذلك خطيبنا ، ولكنه كان يعني الروح بصورة خاصة ، لأن كلا الآخرين أحرى أن يتدبّرا شؤونهما بنفسيهما .

وقام المشرفون الذين أرادوا أن يكتسبوا الشرف على الفور ، بادخال ألعاب جديدة بالغة الظرف ، على وجه السرعة . وأعدّوا على مسافة ما عشاءً لم يكن القوم يحسبون له حساباً ، وأناروا اليخت لدى عودتنا الليلة ، على الرغم من أن ذلك لم يكن ضرورياً مع ضوء القمر الساطع ، واعتذروا بأن مما يقتضيه التدبير الاجتماعي الجديد تغطية نظرات القمر السماويّ الرقيقة بالأضواء الأرضية . وفي اللحظة التي كنا فيها نصعد إلى اليابسة صاح سولونُنا (١) : « انصرفوا ، فقد انفضّ الاجتماع ! » . وجعل كلٌّ منهم يقود الآنسة المنوطة به من السفينة ويسلّمها بعد ذلك إلى نصفها الحقيقيّ حيث يستبدل بها آنسته من جديد.

ولدى الاجتماع التالي حدد موعد هذا الترتيب الأسبوعي من أجل الصيف وتمت التلاوة على نحو متكرّر. ولم تكن المسألة سوى أن تدخل جماعتنا ، عن طريق هذه الدعابة منعطفاً جديداً غير متوقع ، وأن ينشط كل امرىء إلى الكشف عما يخطر بباله من فِكر وظُرف ، وأن يغازل جميلته المؤقتة بأكثر الأساليب تلطّفاً إذ يطمئن إلى التمتع ، مدة أسبوع على الأقل ، بمخزون كامل من جمائلها .

ولم يكد القوم يعدون عدتهم حتى وجهوا اللوم إلى خطيبنا ، بدلاً من أن يشكروا له ، على أنه احتفظ بأفضل ما في الخطبة ، وهو خاتمتها ،

---

(١) تشبيهاً بسولون – المشرع الاثيني (٦٤٠ – ٥٦٠ ق.م) . « المترجم »

لنفسه . وأكّد بعد ذلك أن أفضل ما في الخطبة إنما هو الإقناع ؛ ومن لم يكن يفكر في أن يقنع فعليه ألاّ يخطب على الإطلاق :لأن مسألة الإقناع مسألة حرجة ، ولما لم يدع القوم له راحة على الرغم من ذلك أخذ يخطب فيهم خطبة كبوشيّة ، أكثر التواءً من قبل ، وربما نجم ذلك ، بصورة مباشرة ، عن أنه كان يفكّر في الإدلاء بأكثر الأمور جديّة ، فكان يختتم الجملة بأقوال من الكتاب المقدس ، لم تكن تلائم الموضوع وتشابيهَ لم تكن تصيب المراد ، وتلميحاتٍ لم تكن تشرح شيئاً ، ومفادها أن من لا يعرف كيف يكتم عواطفه وميوله ورغباته ومقاصده وخططه لاينتهي إلى شيء في هذا العالم ، بل يتعرض للعراقيل والمكر في كل مكان ، وأن مما يستحسن ، إذا أراد المرء أن يكون سعيداً في الحب ، أن يلتزم بالاجتهاد في المحافظة على أعمق الأسرار .

وكانت هذه الفكرة تسري خلال مجمل كلامه دون أن يتمّ النطق ، في الحقيقة ، بأي كلمة من ذلك ، وإذا أراد المرء أن يكوّن لنفسه تصوّراً عن هذا الإنسان الغريب فليقدّر أنه ، وهو على ما لديه من ضروب الاستعداد الفطرية ، قد أتمّ تدريب مواهبه ، ولاسيّما حدة ذهنه ، في مدارس اليسوعيين ، وقام بتجميع أشتات كبيرة من المعرفة بالبشر ، ولكنها كانت مجرد معرفة بالجانب الشرير . وكان في نحو الثانية والعشرين ، وقد كان خليقاً أن يتخذني نصيراً لمذهبه في ازدراء البشر ، ولكن هذا كان يمتنع عليه إذ كنت ما أزال بعدُ أجد متعة كبيرة في التحلّي بالفضيلة وفي أن أجد الآخرين فاضلين . وفي هذه الأثناء كنت قد تنبّهت إلى كثير من الأشياء عن طريقه .

على أن استكمال مجموعة الأفراد في كل طائفة مرحة يقتضي بالضرورة ممثّلاً يوجه الآخرون إليه سهام الفكاهة ابتغاءَ بعث الحياة

في بعض اللحظات المملّة . ولمّا لم يكن مجرّد كافر محنّط ، شأن ذلك الذي يتدرّب عليه الفرسان برماحهم في المباريات الهزلية ، وإنما يعرف كيف ينال من نفسه ، ويهزأ بها ، ويتحداها ، ويجرحها جرحاً لطيفاً ، ثم ينسحب وهو يسدّد إلى الآخرين ضربة على حين يبدو كأنه يضحي بنفسه ، فليس من الممكن العثور على شيء أكثر ظرفاً من ذلك . وكنا نجد مثل هذا في صديقنا هورن (١) الذي كان اسمه (١) يعطينا باعثاً لضروب شتى من النكات ، والذي كان دائماً لايسمى إلاّ هورنشن (٢) بسبب قامته الضئيلة . وكان بالفعل هو الأصغر في المجموعة ، تتسم أبعاده بالخشونة ولكنها مقبولة ، وكان يأتلف من الأنف المفلطح والفم المتقدّم المضموم ، والعينين المتوقدتين ، وجهٌ أسمر داكن يبدو أنه يدعو إلى الضحك على نحو دائم . وكان يغشّي جمجمته الصغيرة المضغوطة شعر أسود جعد كثيف ، وكان يسره سروراً فائقاً أن يدع لحيته الزرقاء تنمو في وقت مبكر لتكون قناعاً هزلياً يحمل الناس على الضحك الدائم ، وكان فوق ذلك لطيفاً رشيقاً ولكنه كان يزعم أن له ساقين معوجتين ، وهو ما كان القوم يسلّمون له به ، إذ كان يروق له أن يكون الأمر على هذه الصورة التي كان ينجم عنها بعض النوادر ، وذلك أن الناس لمّا كانوا يلتمسونه راقصاً بارعاً للغاية فقد كان يرى أن من خصائص النساء أنّهن يُرِدْنَ أن يَرَيْنَ السيقان المعوجّة دائماً في المُعتَرَك . وكان مَرَحه مرحاً لاينضب ، وكان حضوره في كل اجتماع أمراً لامندوحة عنه ، وازدادت أواصر العلاقة بين كِلَينا

---

(١) بمعنى قرن باللغة الألمانية .

(٢) صيغة التصغير باللغة الألمانية . « المترجم »

وثوقاً حين أراد أن يلحق بي إلى المعهد العالي ، وإنه لجدير أن أذكره ، بلا ريب ، بكل آيات التمجيد ، إذ لازمني سنين طويلة في حب وإخلاص وصبر لا حد له .

وقد انقاد ، ببراعتي في نظم القوافي واستخلاص الجانب الشعري من الأشياء العادية ، إلى القيام بمثل هذه الأعمال ، بالطريقة ذاتها ، فنظمنا رحلاتنا الجماعية الصغيرة ، وحفلات لهونا ، وما يحدث في أثنائها من مصادفات ، شعراً . وعلى هذا كان ينشأ عن طريق وصف حادثة من الحوادث حادثةٌ جديدة دائماً . ولكن لما كانت أمثال هذه النوادر الاجتماعية تنتهي إلى السخرية ، ولم يكن الصديق هو رن يلتزم بألوان تصويره الساخر الحدود الواجبة دائماً ، فقد كان ينشأ عن ذلك في بعض الأحيان شيء من الإزعاج ، ولكن كان من الممكن تخفيف وطأته بسرعة ومحو أثره .

وكذلك كان يحاول أيضاً ممارسة نوع من الشعر كان شائعاً جداً في الحياة اليومية ، في قصيدة البطولة الهزلية . وذلك أن مسرحية بوب « سرقة خصلة الشعر » (١) أثارت كثيراً من أعمال التقليد ، إذ كان الأصل نفسه تغطيه أعمال التقليد المتراكمة آخر الأمر . وقد كيّف زاخاريا (٢) هذا الطراز من الشعر مع البيئة الألمانية ، فراقَ للناس جميعاً ، لأن الموضوع المألوف لهذا الطراز كان يتمثل في أي إنسان نموذجي سخرت منه الجن وآثرت بالحظوة من هم أفضل منه .

وليس من الرائع ، بل مما يثير الدهشة ، أن يلاحظ المرء لدى تأمل أدب من الآداب ، ولاسيما الألمانيّ ، كيف أن أمة بأسرها لا تستطيع أن تتحرّر من جديد من موضوع ورد ذات مرة وعولج معالجة ناجحة في صيغة معينة ، بل تريد أن تكرّره بكل الطرق ، إذ يُغطّى الأصل نفسه ويُخنَق تحت أعمال التقليد المتراكمة .

وقد كانت قصيدة صديقي البطولية شاهداً على هذه الملاحظة . ففي نزهة كبيرة بالزحافة يكون من نصيب رجل أنموذجي امرأةٌ لاتحبه ، وينزل به ، بطريقة ساخرة بما يكفي ، من المصائب ما يمكن أن يحدث في مثل هذه المناسبة : إلى أن يسقط عن الدكة حين يلتمس الحصول على حق الزحّافة (١) ، حيث أضرّت به العفاريت ، على نحو ما هو طبيعيّ . وتمسك الجميلة بالأعنّة ، وتمضي وحدها إلى البيت ، فيلقاها صديق محظوظ ، وينتصر على صاحبها الآخر المِهْذار . على أنه كان بالغ الظرف إذ يصوّر كيف تلحق الأشباح الأربعة المختلفة به الضُرَّ شيئاً فشيئاً ، إلى أن تقضي عليه العفاريت آخر الأمر قضاءً مبرماً . وهذه القصيدة المنظومة بالبحر الاسكندريني والمؤسّسة على قصة حقيقية ، تسلّي جمهورنا الصغير تسلية كبيرة وكان القوم على قناعة أنها يمكن أن تقاس ، بلاريب ، إلى قصيدة « ليلة الأول من أيار » للوفن (١) ، أو إلى « المتبجّح » لزخاريا (٢) .

ولما كانت مسرّاتنا الجماعية لاتقتضي إلاّ أمسية واحدة ، وأعمال التحضير لها ساعات قلائل ، فقد كان لدي من الوقت ما يكفي للقراءة وللدراسة ، كما كنت أعتقد ، فراجعت ، إكراماً لوالدي ، كتاب هوبّه (٣) الموجز : مراجعة جادّة ، وأمكنني أن أؤدي امتحاناً فيه بطريقة عادية ومعكوسة ، حيث اكتسبت بذلك المضمون الأساسي لكتاب « *المؤسسات* » (٤) (*في القانون المدني الروماني*) . ولكن الشوق الجامح إلى المعرفة كان يدفعني إلى أبعد من ذلك ، فجعلت أخوض في

---

(١) حق الزحافة هو حق قائد الزحافة في أن يقبل الشريكة الجالسة معه فيها عند ختام الرحلة .

تاريخ الأدب القديم ، ومن هناك في موسوعية قطعت بها أشواطاً في كتاب « المدخل » (٥) لجِسْنَر ، وكتاب « المحيط في تاريخ العلوم » (٦) واكتسبت بذلك تصوراً عاماً حول كيفية إمكان حدوث بعض الأمور العجيبة في العلم والحياة . غير أني كنت بهذا النشاط الحثيث المُعجَل ، المتصّل في النهار والليل ، أقربَ إلى أن أُربِك نفسي مني إلى أن أثقّفها . على أني ضيّعت نفسي في متاهة أكبر حين وجدت « بايلن » (١) في مكتبة والدي ، فتعمّقت فيه .

ولكن كان من القناعات الرئيسية التي كانت تتجدّد لديّ على الدوام ، أهمية اللغات القديمة (٢) ، إذ كان يزدحم عليّ شيء من الرُكام الأدبي على نحو متصل ، حتى لقد كانت كل نماذج البلاغة ، وفي الوقت ذاته ، كل الأشياء الأخرى ذات الشأن ، مما كان العالم يحوزه ذات يوم ، محفوظاً فيها ، وكانت العبرية ، وكذلك الدراسات البابليّة ، قد تراجعت القهقرى ، ومثلهما الإغريقية ، إذ لم تكن معلوماتي فيها تتجاوز العهد الجديد ، ولكني كنت أزداد جدّية في تعلقي باللاتينية التي كانت الأعمال النموذجية فيها أقرب إلينا متناولاً ، والتي كانت تقدم إلينا ، إلى جانب النتاج الأصيل البالغ الروعة ، سائر حصيلة كل العصور ، في ترجمات (٣) وأعمال لأعظم العلماء . ولذلك كنت أطالع كثيراً في هذه اللغة بسهولة كبيرة ، وكان يحق لي أن أعتقد أني أفهم المؤلفين ، إذ لم يكن يغرب عني شيء من المعنى الحرفيّ ، بل لقد ساءني جداً أن أسمع أن جروتيوس قد أعلن (٤) بخيلاء أنه يقرأ تيرنتس قراءة مختلفة عن قراءة الغلمان ، فياله من أفق للحداثة محدود ! بل ياله من أفق محدود للبشرية قاطبة ، وذلك أنها تستطيع أن تعد نفسها مكتملة

في أية لحظة من لحظات وجودها ، وأنها لاتحفل بالأصيل ولا بالزائف ، ولا بالجليل ، ولا بالعميق ، وإنما تحفل بما يلائمها فحسب .

وكذلك تعلمت اللاتينية ، والألمانية ، والفرنسية والانكليزية ، من مجرد الاستعمال ، بغير قاعدة ولا مفهوم . ومن ألمّ بحالة التعليم المدرسيّ في تلك الأيام لم يكن من النادر عنده أن يجد أني تخطّيت قواعد اللغة كما تخطيت البلاغة : إذ كان يبدو لي أن كل شيء منسجم بصورة طبيعية ، فكنت أحتفظ بالكلمات وأشكال تركيبها ، وضروب تصريفها في سمعي وفي ذهني ، وأستخدم اللغة ببراعة في الكتابة وفي الحديث .

وكان عيد القديس ميخائيل ، وهو الموعد الذي كان ينبغي لي فيه أن ألتحق بالمعهد العالي ، يقترب ، وكانت أعماق نفسي تتأثر بالحياة قدرَ تأثرها بالعلم . وكان نفوري من مسقط رأسي يزداد وضوحاً باطراد ، وكان ابتعاد جريتشن قد فجّر قلب نبتة الصبا والشباب ، فكانت في حاجة إلى الوقت لتنبت فروعها من جديد ، وتتغلّب على الخسائر الأولى بنموّ جديد ، وكانت جولاتي في الشوارع قد توقفت ، فكنت لاأجتاز إلاّ الطرق الضرورية ، كالآخرين ، ولم أغدُ إلى حيّ جريتشن مرة أخرى ، ولا حتى إلى منطقتها . ومثلما كانت الجدران والأبراج القديمة تنغّص عيشي شيئاً فشيئاً ، صار تكوين المدينة لايعجبني ، وبدا لي كل ما كان في العادة يبدو لي جديراً بالتقدير البالغ ، في صور مهزوزة ، ولم تبق النقائص المحليّة لمثل هذه الجمهورية مجهولة لديّ ، وأنا حفيد العمدة ، ولاسيما حين يحسّ الأطفال بانتعاش خاص ويُستَفَزّون إلى بحوث نشيطة بمجرد أن يقوم في نفوسهم شيء من الشبهة حيال شيء كانوا يمجّدونه حتى الآن تمجيداً مطلقاً ، ولم يكن الاستياء اللاجدي عند أولي الطبيعة المستقيمة ، في صراعهم مع أمثال

هؤلاء الذين يمكن أن تستميلهم الأحزاب ، أو حتى أن ترشوهم ، قد ازداد إلا وضوحاً لدي ، فكرهت كل ظلم كرهاً يجاوز الحدود ، لأن الأطفال جميعاً متشددون أخلاقيون ، أما والدي الذي لم تكن له علاقة معقدة بشؤون المدينة إلا من حيث كونه رجلاً من العامة ، فكان يعرب عن استيائه من بعض الأمور غير الموفقة إعراباً شديد الحيوية . أو لم أكن أراه ، بعد كل تلك الدراسات ، والجهود ، والرحلات ، والدراسة المعقدة ، يعيش آخر الأمر حياة الوحدة ، بين جدرانه الواقية من الحريق ، على نحو ما كنت لأتمناه لنفسي ؟ وكان هذا كله يجثم ، عبئاً مخيفاً ، على نفسي ، ولم أكن أعرف سبيلاً إلى التحرر منه إلا بالنزوع إلى ابتداع خطة للحياة سوى تلك المفروضة علي . فجعلت أنبذ ، في نفسي ، الدراسات القانونية ، وأتوجه إلى اللغات والعصور القديمة ، والتاريخ ، وكل ما ينبثق عن ذلك .

والحق أن الصياغة الشعرية لكل ما كنت أحسه ، في نفسي ، وفي الآخرين ، وفي الطبيعة ، كانت تمتعني أعظم الإمتاع ، في كل حين ، وكنت أفعل ذلك بسهولة مطردة في الزيادة ، لأنه كان يحدث بدافع غريزي ، ولم يكن ثمة نقد يضللني .ولئن لم أكن مطمئناً كل الاطمئنان إلى نتاجي فقد كنت أنظر إليه نظرتي إلى أي شيء ينطوي على الأخطاء ، ولكن لا على أنه جدير بالرفض التام . ولئن كان يعاب عليه هذا الأمر أو ذاك فقد كان يظل هناك مع ذلك إيماني بأنه لابد أن يتحسن شيئاً فشيئاً ، على نحو مطرد ، وأن من الممكن حقاً أن يذكر اسمي بالتمجيد ، إلى جانب هاجيدورن وجيلارت والآخرين من أمثال هؤلاء الرجال ، ولكن مثل هذا الاختيار لوحده بدا لي فارغاً غير ذي طائل إلى حد بعيد ، فكنت أنزع نزعة جادة إلى الإيمان بتلك

الدراسات الأســاسية ، وكنت أفكر في التقدم بسرعة أكبر في أعمالي الخاصة ، مع وجود نظرة أكثر اكتمالاً إلى العصر القديم ، فأجعل من نفسي بذلك مؤهلاً لوظيفة تعليمية عالية كانت تبدو لي غاية الأمانيّ بالقياس إلى شاب يفكر في الإسهام في تثقيف نفسه وفي تثقيف الآخرين .

وكنت مع هذه الأفكار أضع جوتنجن (١) دائماً نصب عينيّ ، وكنت أضع ثقتي كلها في رجال مثل هايني وميخائيليس ، وآخرين على شاكلتهم ، وكانت أغلى أمانيّ أن أقعد عند أقدامهم ، وأنا أصغي إلى دروسهم ، ولكن والدي لم يتزحزح عن موقفه ، وعلى الرغم مما بذل بعض أصدقاء العائلة الذين كانوا يرون رأيي من محاولات للتأثير عليه ، فقد كان يصر على وجوب ذهابي إلى لايبتسج . فعقدت العزم الآن حتماً على أن أتخذ لنفسي خطة خاصة للدراسة وللحياة خلافاً لأفكاره وإرادته لتكون بمثابة دفاع اضطراري عن النفس . وذلك أن عناد والدي الذي كان يعارض خططي على غير علم كان يزيدني قوة في عقوقي ، حتى أنني لم أكن أتخذ أية عبرة من الإصغاء إليه ساعاتٍ طوالاً وهو يسرد عليّ مكرراً منهج الدراسات ومنهج الحياة ، كما كان عليّ أن أسلكه في المعاهد العالية ، وفي الدنيا ، فلما انقطعت بي أسباب الأمل في جوتنجن وجهت البصر الآن إلى لايبتسج ، وهناك تجلّى لي إرنِسْتي (٢) ضوءاً ساطعاً ، كما كان موروس يبعث على كثير من الثقة ، وجعلت أبتدع لنفسي ، بهدوء . منهاجاً معاكساً ، بل جعلت أشيّد قصراً في الهواء على أساس متين ، بل كان يبدو لي أن مما يشرّف المرء بصورة رومانسيّة أن يرسم مسار حياته الخاصة بصورة مسبقة ، وهو المسار الذي بدا لي أقل خياليّة حين حقق جريسباخ (٣) خطوات كبيرة من التقدم

على الطريق المماثل ، ومن أجل ذلك كان كل امريء يشيد به . وما كان يمكن أن يكون السرور الخفيّ عند السجين حين يكون قد فكّ أغلاله ، واحتزّ بالمبرد أسوار السجن منذ حين ، أعظم من سروري وأنا أرى النهار يقصر وتشرين الأول يقترب ، ولم يكن ليفزعني فصل السنة الموحش ، والدروب الوعرة التي كان كل امريء يستطيع الحديث عنها ، ولا كان يكدّر صفوي فكرة الاضطرار إلى دفع مصاريف الدراسة في مكان غريب ، وفي وقت الشتاء ، وإنما كنت أرى أحوالي الراهنة فحسب باعثة على الكآبة ، وكنت أصوّر سائر العالم المجهول متّسماً بالخفة والمرح . وعلى هذا النحو كنت أصوغ لنفسي أحلامي التي كنت أتعلّق بها دون سواها ، ولم أكن أعد نفسي بشيء سوى السعادة والرضى .

وعلى الرغم من أنني كنت أحتفظ بنواياي هذه سراً حيال الناس جميعاً فانني لم أستطع أن أكتمها عن أختي التي هدأ روعها آخر الأمر بعد أن كانت أول الأمر قد فزعت لها فزعاً شديداً ، حين وعدتها بأن استقدمها إليّ لتستمتع معي بأحوالي المزدهرة المكتَسبَة ، ولتستطيع المشاركة في رغد عيشي .

وأخيراً أقبل عيد القديس ميخائيل ، على انتظار المَشوق ، إذ ارتحلت مسروراً مع تاجر الكتب فلايشر (١) ، وزوجه التي كانت تزمع أن تزور أباها في توبنجن وهي من . . . ، وخلّفتُ ورائي المدينة التي أنجبتني وربتني ، غير آبهٍ ، وكأنني لاأريد أن أدخلها قط مرة أخرى .

وكذلك ينفصل الأبناء عن الآباء ، والخدم عن السادة ، والمحظوظون عن أولياء نعمتهم . وإنما تعد محاولة المرء هذه للوقوف على قدميه

والاستقلال بنفسه ، والعيش لذاته الخاصة ، سواء أفلحت أم لم تفلح ، منسجمة مع إرادة الفطرة دائماً .

وكنا قد انطلقنا إلى باب جميع القديسين ، ولم نكد نخلّف «هانّاوْ» وراءنا حتى وصلت إلى مناطق أثارت انتباهي بجدّتها ، وان لم يكن يَعْرُض لي فيها ، في هذا الفصل من السنة إلاّ القليل مما يبعث على البهجة ، وكان مطرٌ متصل قد أفسد أشد الإفساد الطرق التي لم نجدها البتّة قد أعيدت إلى حالتها الحسنة التي وجدناها عليها فيما بعد . ومن أجل ذلك لم تكن رحلتنا ممتعة ، ولاسعيدة ، ومع ذلك فقد كنت أدين بالفضل في هذا الجو الرطيب إلى مشاهدة ظاهرة طبيعية قد تكون بلاريب نادرة إلى أقصى الحدود ، لأنني لم أر شيئاً مشابهاً لها فيما سلف ، ولا سمعت عن آخرين أنهم عرفوها ، وذلك أننا كنا نسير بين هانّاوْ وجيلهاوْزن ، ونحن نرتقي مرتفعاً في الليل ، وآثرنا ، على الرغم من أن الجو كان مظلماً ، أن نذهب راجلين ، على أن نعرّض أنفسنا لخطر هذه المسافة وصعوبتها ، فرأيت مرة أخرى ، على الجانب الأيمن من الطريق ، في عمقٍ ما ، نوعاً من المسرح الدائري العجيب المضاء ، إذ كانت تأْتَلِقُ في مكان منه ، على صورة القمع ، أضواء لاحصر لها ، يتدرّج بعضها فوق بعض ، وتضيء إضاءة تنبهر العين من حيّويتها ، على أنّ ما كان يربك البصر أكثر من ذلك إنما هو أن الأضواء لم تكن تستقرّ ساكنة ، بل كانت تتواثب جيئة وذهاباً كما تتواثب من عَلٍ إلى أسفل ، وكذلك بصورة معكوسة ، وفي كل الاتجاهات ، على أن معظمها كان يظل هادئاً ، ويتصل بريقه ، وما كنت لأدع أحداً

يشغلني عن هذه المسرحية إلاّ وأنا في أشد حالات الاستياء ، إذ وددت لو أرقبها على نحو أدق . ولدى السؤال زعم الحوذيّ أنه لا يعلم في الحقيقةِ شيئاً عن مثل هذه الظاهرة ، ولكنه قال إنه يوجد بالقرب منها صَدْع قديم في الصخر قد امتلأ عمقه الأوسط بالماء . ولست أريد الآن أن أجزم ، أكان هذا مجمعاً شيطانياً لأضواء الغواية ؟ (١) أم كان طائفة من المخلوقات المضيئة ؟

وساءت الطرق خلال ثورِنْجْيا ، وكان من المؤسف أنّ عربتنا ظلت متعثّرة في منطقة آورَشْتيدت مع الليل الزاحف ، وكنا بعيدين عن البشر قاطبة ، وبذلنا قصارى الجهد ، ونحن نعمل من أجل الخلاص ، ولم أقصِّر في إجهاد نفسي بنشاط ، وربّما وسّعت بذلك العضلات التي تشدّ الصدر توسيعاً يجاوز الحدّ ، لأنني أحسست بُعيْد ذلك ، بألم كان يتلاشى ثم يعود ، ولم يغادرني تماماً إلاّ بعد كثير من السنين .

ومع ذلك فقد كان مقدّراً لي أن أحس في الليلة ذاتها ، وبعد حادث سعيد غير متوقّع ، باستياء من معابثة ، وذلك أننا لقينا ، في آورشتيدت زوجين من النبلاء وصلا لتوّهما ، بعد أن أبطأت بهما أحداث مشابهة ، وهما رجل نبيل مرموق في أفضل سنوات عمره ، مع زوجه ذات الجمال الفائق ، وتفضّلا بدعوتنا إلى تناول الطعام في صحبتهما ، ووجدت نفسي سعيداً جداً حين همّت السيدة الرائعة أن توجه إليَّ كلمة ودّية ، ولكن حين أُرسِلت إلى الخارج استعجالاً للحساء المنشود داهمني ، وأنا الذي لم أتعود بالطبع السهر ومشاق السفر ، نعاس لا سبيل إلى مغالبته ، حتى أنني نمت نوماً تاماً في مسيري ، وقبعتي على رأسي ، وعدت من جديد إلى الحجرة ، واستلقيت ، دون أن ألاحظ أن الآخرين كانوا

يدعون دعاء المائدة ، على غير وعي مني ، وراء الكرسي ، للتو ، ولم يكن ليخطر لي ببال أنني أتيت لأكدّر صفو عبادتهم على نحو مضحك جداً . وجعلت السيدة فلايشر ، التي لم تكن تفتقر إلى الظرف والفكاهة ، ولا إلى ذلاقة اللسان ، تلتمس من الغرباء ، ألاّ يستغربوا قبل أن يجلسوا ، ما يرونه بأم أعينهم ، إذ أن رفيق السفر الفتى لديه استعداد كبير لأن يكون من الذين لايرون تمجيداً للرب وللملك أفضل من أن يكونوا معتمري الرؤوس ، على أن هذا الأمر لم يزد السيدة الجميلة التي لم تستطع أن تتمالك نفسها من الضحك إلاّ جمالاً ، وقد كنت أوثر أن أبذل كل شيء في هذا العالم على ألاّ أكون سبباً في مرح كان يلائم وجهها على نحو رائع . ومع ذلك فلم أكد أرفع القبعة حتى نشر القوم بساط اللهو وفقاً لتقاليدهم الدنيوي ، وأطفأوا ، بأفضل خمر من قبو الزجاجات عندهم ، النومَ والكدر ، وذكرى كل ما سلف من سوء ، على نحو كامل .

ولما بلغت لايبتسج ، كان قد حلّ وقت المعرض الذي نجمت لي منه متعة خاصة ، لأنني وجدت هنا استمرار حال من أحوال الوطن أمامي ، وإنما هي سلعة معروفة ، وباعة معروفون ، إلاّ أنهم في أماكن وحوانيت أخرى ، وفي نسق آخر . واستعرضت السوق والدكاكين بكثير من الاهتمام ، ولكن كان يجتذب انتباهي بصورة خاصة أولئك الفلاحون في أثوابهم الغريبة من المناطق الشرقية ، والبولونيون ، والروس ، ولاسيما اليونانيون ، الذين كنت أميل إلى الإعجاب بقاماتهم المعروفة وأثوابهم ذات النبالة .

ومع ذلك فسرعان ما انتهت هذه الحركة المفعمة بالحيوية ، وجعلت المدينة ذاتها تتجلّى لي الآن بمبانيها الجميلة العالية المتشابهة فيما بينها ،

وأحدثت في نفسي انطباعاً حسناً جداً ، ولاسبيل إلى إنكار أن فيها شيئاً من المهابة والجمال ، ولاسيما في لحظات الهدوء من أيام الآحاد والعطل ، كما كانت الشوارع التي يتقاسمها الظل والأضواء ، كثيراً ما تدعوني في ضوء القمر إلى النزهات الليلية .

وفي هذه الأثناء لم تكن هذه الحال تكفيني البتة في مقابل ما كنت قد تعودت عليه حتى الآن ، وذلك أن لايبتسج لم تكن تعود بالمتفرّج إلى عصر قديم ، وإنما تطالعنا حقبة جديدة انصرمت منذ عهد قريب ، ونشأت عن النشاط التجاري والرخاء والثروة ، ومع ذلك فقد كانت المباني التي تتبدّى لي هائلة من وجهة نظري ، والتي كانت تطل بوجهها على شارعين ، وكأنما تضم عالم المدينة المتحوّر في قاعات فسيحة تحاكي السماء ارتفاعاً ، كالجبال الكبيرة ، بل كأنصاف المدن واستقرّ بي المقام في أحد هذه القاعات الغريبة ، وكان ذلك في الحقيقة في مبنى « الكرة الناريّة » (١) ، بين السوقين ، القديم والجديد ، وفي بعض الحجرات الجميلة التي كانت تطل على الساحة التي لم تكن تفتقر إلى الحياة بسبب حركة المرور فيها ، كان يسكن فلايشر تاجر الكتب أثناء المعرض ، وأنا معه ، فيما تبقّى من الوقت بسعر زهيد . ووجدت بين جيراني في الحجرات لاهوتيّاً عميق الاطلاع (٢) في مادته ، حسن التفكير ، ولكنه كان فقيراً ، وكان يعاني معاناة شديدة من عينيه ، فكان ذلك مما يبعث عنده على القلق الشديد من أجل المستقبل . وكان قد جرّ على نفسه هذا البلاء بالإفراط في المطالعة حتى في أشد درجات الظلمة ، بل حتى على ضوء القمر ، توفيراً للزيت القليل . وكانت مضيفتنا العجوز تظهر حسن الرعاية له ، وتظهر لي المودة في كل حين ، وكانت حفيّة بنا جميعاً .

ثم إني أسرعت بخطاب التوصية إلى المستشار الخاص بوهمه (٢) الذي كان ربيب ماسكوف ، وغدا الآن خليفته في تدريس التاريخ ، والقانون الدولي ، واستقبلني رجل قصير ممتلىء مفعم بالحيوية ، وقدمني إلى زوجه ، وأعطاني كلاهما ، كما أعطتني سائر الشخصيات التي كنت بانتظارها ، أفضل الآمال بصدد إقامتي المقبلة ، ومع ذلك فلم أدع أحداً يلاحظ ما كانت تنطوي عليه جعبتي ، على الرغم من أنني كنت لاأكاد أستطيع أن انتظر اللحظة المناسبة التي كنت أريد أن أتحرر فيها من الحقوق وأعلن ارتباطي بدراسة القدماء . وانتظرت بحذر إلى أن رحل آل فلايشر ، لكيلا تنكشف نيتي لجماعتي بسرعة مفرطة ، ثم ذهبت بغير تلكؤ إلى مستشار البلاط بوهمه ، الذي كنت أعتقد أنه لابد لي من الإفضاء إليه بهذه المسألة قبل الآخرين جميعاً ، وأعلنت إليه نيتي بكثير من الاصرار والصراحة ، ولكني لم أجد بحال من الأحول قبولاً حسناً لعرْضي ، وكان بحكم كونه مؤرخاً وباحثاً في القانون العام ، ينطوي على كراهية صريحة لكل ما يمت بصلة إلى الفنون الجميلة ، وكان من سوء الحظ أنه لم يكن في أحسن حالات التفاهم مع أولئك الذين يرعوْنها . أما جيللرت الذي أعربت عن كثير من الثقة به بوجه خاص ، وبما يكفي من قلة البراعة ، فلم يكن يطيقه على الإطلاق ، ولذا فقد كان يبدو له أنه لايجوز للمرء أن يدل مستمعاً مخلصاً على أولئك الرجال ثم يُعرض هو نفسه عنهم ، وأن يكون هذا ، إضافة إلى ذلك ، في مثل هذه الظروف . ولذلك ألقى عليّ ، ارتجالاً ، موعظةً أعرب فيها عن أسفه لأنه لايستطيع أن يسمح بمثل هذه الخطوة بدون إذن من والدي ، حتى وإن كان هو نفسه يقرّها ، وذلك ما لايتفق والحال هذه .

ثم أخذ ينهال طعناً على فقه اللغة والدراسات اللغوية ، على أنه ذهب إلى أبعد من ذلك في صدد الممارسات الشعرية ، التي تركتُه ، بالطبع ، ينفذ إليها بنظرة إلى ما وراءها ، وانتهى آخر الأمر إلى أنني إذا أردت أن اتجه إلى دراسة القدماء فقد يتم ذلك على نحو أفضل كثيراً إذا كان عن طريق الحقوق ، وأعاد إلى ذاكرتي بعض الحقوقيين اللامعين ، مثل ايفرهارد أوتّو (١) ،وهاينكيوس ، وجعل يمنيني بوعود كجبال من الذهب تتأتّى من تاريخ القانون ، وأوضح لي في مثل وضوح الشمس أنني لاأسلك ههنا طريقاً ملتوياً إذا ما فكرت فيما بعد أيضاً ، بتحقيق تلك النيّة ، بعد تفكير ناضج ، وبموافقة والدي . وجعل يلتمس مني ، بطريقة ودّية ، أن أفكر في المسألة مرة أخرى ، وأن أُعرِبَ له عن أفكاري ، لأن من الضروري أن أحسم المسألة قريباً . بسبب الافتتاح القادم للمعاهد .

وقد كان تفضّلاً كاملاً منه أنه لم يضغط عليّ في الحال ، وكانت حججه ، والتوكيد الذي كان يسوقها به ، قد أقنعا شبابي المرن . وقد رأيت الآن فحسب ، الصعوبات والمخاطر الخاصة بمسألة كنت قد صوّرتها لنفسي ، بهدوء ، بالغةَ اللياقة ، وأرسلت السيدة زوجة مستشار البلاط في طلبي ، بعيد ذلك ، فوجدتها وحدها ، ولم تكن بعدُ شابة ، وكانت بالغة الانزعاج ، وكانت مصابة بوعكة شديدة ، وكانت لطيفة رقيقة إلى حد لانهاية له ، وكانت تشكل ، حيال زوجها ، الذي كانت طيبة قلبه طيبةً صارخة ، تناقضاً صارخاً ، وأطلعتني على الحديث الذي دار مؤخراً مع زوجها وبسطت لي الموضوع مرة أخرى ، في إطاره الكامل ، بمودة ولطف وتفهّم ، بلغ منه أنني لم أستطع أن

أتمالك نفسي من التسليم بالأمر . كما تم أيضاً إقرار التحفظات القليلة التي كنت أصرّ عليها من تلك الناحية .

وقام الزوج بعد ذلك بتنظيم ساعاتي ، إذ كان عليّ أن أستمع إلى الفلسفة ، وتاريخ الحقوق ، والموجز في القانون الروماني (المؤسسات) (١) وبعض المواد الأخرى ، واحتملت ذلك ، ولكنني أصبت نجاحاً في الاختلاف إلى دروس جيللرت في تاريخ الأدب (٢) ، المستندة إلى كتاب شتوكهاوزن ، بالإضافة إلى مواده التطبيقية (٣) .

وكان التمجيد والحب اللذين يتمتع بهما جيللرت (٤) بين الشباب جميعاً ، فائقين . وكنت قد زرته واستقبلني استقبالاً حاراً ، ولم يكن طويل القامة ، بل كان ظريفاً ، إلاّ أنه لم يكن أهيف القوام ، وكان له عينان هادئتان أقرب إلى الكآبة ، وجبهة جدّ جميلة ، وأنف كأنف البازيّ ، في غير مبالغة ، وفم رقيق ، واستدارة بيضاوية للوجه تبعث على الإعجاب ، وكان كل شيء يجعل حضوره لطيفاً ومرغوباً . وكان الوصول إليه يكلف بعض الجهد . وكان مرافقاه الخصوصيان يبدوان كالكهنة الذين يحافظون على شيء مقدس لايباح الدخول إليه لكل فرد ، ولا في أي وقت . وقد كان مثل هذا التدبير ضرورياً بلاريب ، لأنه كان خليقاً أن يضحّي بكل وقته لو أنه أراد أن يتقبّل كل أولئك الذين يريدون أن يخلوا إليه ، ويرضي رغائبهم .

وكنت أشهد محاضراتي في البداية بنشاط وإخلاص ، ولكن الفلسفة أبت أن تجلو لي وجهاً بحال من الأحوال . أما في المنطق فقد كان يبدو لي من العجيب أن تلك العمليات الذهنية التي كنت أقوم بها منذ الصبا

بمنتهى السهولة كان ينبغي لها أن تتعرض على هذا النحو للتشريح والتفكيك وما يشبه الإفساد للنظر في الاستعمال الصحيح لها . وكنت أرى أنني أعرف عن الشيء ، وعن العالم . وعن الله ، ما يكاد يعدل ما يعرفه المعلم نفسه ، وكان يبدو لي أن الأمر كان يتعثر في أكثر من موضع تعثّراً كبيراً . ومع ذلك فقد سار كل شيء باطّراد شديد حتّى ليلة الصوم التي كانت أشهى الفطائر تخرج فيها ساخنة من الطست قريباً من الأستاذ فينكلر (١) .وذلك على نحو خاص في تلك الساعة ، وكانت الفطائر تؤخّرنا تأخيراً يجعل كراريسنا تنحلّ عراها وتذوب أطرافها في الربيع مع الثلج وتضمحلّ .

وسرعان ما بلغ الأمر هذا القدر من السوء فيما يتصل بالمحاضرات الحقوقية : ذلك لأنني كنت أعرف من قبل ما يعدل ما كان المعلم يجد أن من المستحسن أن يؤديه إلينا . وشيئاً فشيئاً أصاب الشلل نشاطي في النسخ الذي كان عنيداً أول الأمر ، إذ وجدت أن العودة إلى تدوين ما سبق أن راجعته مع والدي مرات كافية ، بطريق السؤال حيناً ، وبطريق الجواب حيناً آخر ، أمر أكثر إملالاً إلى حد فائق ، من أن يمكن حفظه في الذاكرة . على أن الضرر الذي يحدثه المرء حين يذهب بالصغار في المدارس ، في بعض الأمور ، إلى مدى أبعد مما ينبغي ، تبيّن فيما بعد بصورة أكبر حين قطع القوم الزمن ، والاهتمام عن التمارين اللغوية وعن تكوين الأساس فيما يعدّ معلومات أولية حقيقية ليوجهوهما نحو ما يسمى بالحقائق التي تسلّي أكثر مما تثقّف إذا لم تُؤَدَّ بصورة منهجية وكاملة .

وثمة مفسدة أخرى يثقلون بها على الدارسين كثيراً ، أذكرها هنا بصورة عابرة . وذلك أن الأساتذة ، وشأنهم في ذلك شأن الرجال الآخرين المعينين في وظائف أخرى ، لايمكن أن يكونوا جميعاً في

عمر واحد . ولكن لما كان أولئك الأحدث سناً لايعلّمون في الحقيقة إلا ليتعلّموا ، ولكي يستبقوا العصر ، فوق ذلك ، إذا كانوا من ذوي الأدمغة الجيدة ، فانهم يكتسبون ثقافتَهم ، بصورة مطلقة ، على حساب المستمعين ، لأن هؤلاء لايتعلمون ، ما يحتاجون إليه حقاً ، بل يتعلمون ما يجد المعلم أن من الضروري أن يتناوله لنفسه . ويوجد ، في مقابل ذلك ، بين أقدم الأساتذة بعض الجامدين منذ عهد طويل ، وهم لايؤدون ، على الإجمال ، إلا آراء جامدة ، ولايؤدون ، مما يتعلق بالتفاصيل ، إلاّ ما قد حكم الزمان بعدم جدواه وبطلانه . وينشأ عن كلا هذين صراع مأساويّ يتعاقب فيه على العقول الشابة الشدّ والجذب في هذا الاتجاه أو ذاك ، ولا يكاد يستطاع إعادته إلى التوازن عن طريق المعلمين أولي السن المتوسطة الذين يحسون دائماً في أنفسهم بطموح نشيط إلى المعرفة والتفكير ،على الرغم من أنهم أصابوا قدراً كافياً من التعليم والتثقيف .

ومثلما كنت أعرف الآن ، على هذا الطريق ، أكثر كثيراً مما تعلمت اعداده وتقويمه ، إذ كان ينبثق في نفسي شعور بالضيق يزداد على نحو مطرد ، فقد كنت ألقى من الحياة أيضاً بعض المنغّصات الصغيرة على النحو الذي يضطر به المرء إلى أن يدفع الثمن حين يغيّر مكانه ويدخل في علاقات جديدة ، وكان أول ما أخذت النساء عليّ يتعلق بالثياب ، لأنني كنت ، بالطبع ، قد وصلت إلى المعهد العالي ، وأنا مجهّز تجهيزاً على جانب من الغرابة .

وذلك أن والدي الذي لم يكن شيءٌ أبغض إليه من أن يحدث أمر من الأمور عبثاً ، وألاّ يعرف المرء كيف ينفق وقته ، أو لايجد فرصة للاستفادة منه ، كان يبلغ في اقتصاده في الوقت والطاقات أنه لم يكن شيءٌ يبعث على سروره أكثر من أن يضرب عصفورين بحجر واحد ،

ولذلك لم يكن لديه قط خادم لم يكن نافعاً في المنزل من جل شيء آخر . . ولما كان منذ البداية يكتب بيده ، ثم أتيحت له بعد ذلك رفاهية تتمثل في الإملاء على ريشة ذلك الرفيق المنزلي ، فقد وجد أن أجدى الأمور نفعاً أن يتخذ خدماً من الخياطين الذين لابد لهم أن يستغلوا الساعات ، إذ لايقتصرون على إنجاز ملابسهم الرسمية ، بل ينجزون الملابس للأولاد والأب أيضاً ، ولم يكن يجب عليهم أقل من أن يتولّوا كل أعمال الرفو ، وكان والدي ذاته يجتهد في توفير أفضل الأقمشة والمنسوجات ، إذ كان يطلب سلعاً ممتازة ، في المعارض من السادة التجار الأجانب ، ويضيفها إلى مخزونه ، كما أنني مازلت أذكر بعدُ جيداً أنه كان يتردّد على السادة من آل لوفينيش (١) في آخن في كل وقت ويعرفني ، منذ أول أيام الصبا إلى هؤلاء وسواهم من السادة التجار .

وإذاً فقد كان ثمة عناية بجودة القماش ، وكان هناك مخزون كاف من أنواع الأقمشة المختلفة ، والنسيج الصوفي الغليظ ، وأقمشة جوتنجن ولم يكن أقلّ من ذلك ما يتوفر من البطانة الضرورية ، بحيث كان يتاح لنا أن نظهر بالمظهر اللائق من حيث القماش ، ولكن الشكل كان يفسد كل شيء في أغلب الأحيان ، ذلك لأن هذا الخياط المنزليّ إذا كان صانعاً جديراً بأن يخيط سترة مفصّلة ببراعة وينجزها ، فقد كان يفترض فيه الآن أن يخيط الثوب الكامل نفسه ، ولم يكن هذا الأمر ينتهي إلى أفضل ما يرام دائماً ، وكان يضاف إلى ذلك أن والدي كان يقتني كل ما يخصّ بذلته من النوع الجيد ، وبكمية وفيرة جداً ، وكان يحفظ ذلك عدداً من السنين أكثر مما كان يستعمله . وكان من أجل ذلك يؤثر قصّات وزخرفات قديمة معينة ، كان هندامنا يكتسب بها ، فيما يكتسب ، مظهراً غريباً .

وعلى هذا الطريق ذاته كان القوم قد أعدوا خزانة ملابسي التي أخذتها معي إلى حيث المعهد العالي . وكانت كاملة مرموقة للغاية . بل كان بينها ثوب مزموم . على أني كنت أعدّ نفسي . وأنا الذي عتدت هذا اللباس ، أنيقاً بما فيه الكفاية . ولكن لم يلبث الأمر طويلاً حتى أكدت لي صديقاتي ، عن طريق الإيماءات الخفيفة أولاً ، ثم عن طريق ضروب من التصوير المعقول ، أنني كنت أبدو كأنما هبطت من عالم غريب ، وعلى قدر ما كنت أحس في ذلك من الاستياء ، كنت لاأكاد أرى أول الأمر كيف أتدبّر أمري ، ولكن حين ظهر السيد فون مازورين (١) ، الشريف الريفي ، الشاعر المفرط في البدانة ، على المسرح ذات مرة ، في ثياب مشابهة ، فكان عرضةً للضحك الشديد بسبب مجافاته للذوق في المظهر أكثر من مجافاته له في المخبر ، حزمت أمري ، وأقدمت على مقايضة كل خزانة ملابسي بخزانة حديثة الزي ملائمة للمكان،مرة واحدة،ولكنها تقلصت بذلك تقلصاً شديداً بالطبع.

وكان من المفروض ، بعد هذا الامتحان الذي نجحت فيه أن أخوض امتحاناً جديداً على نحو مبكر ، وهو الأمر الذي كان له وقع أكثر إزعاجاً إلى حد بعيد ، إذ كان يمس مسألة لايطرحها المرء بسهولة ، ويقايض بها .

وذلك أنني ولدت ورُبيّت على اللهجة الألمانية الجنوبية ، وعلى الرغم من أن والدي كان يسعى دائماً من أجل نقاءٍ معين في اللغة ، وإلى تنبيهنا نحن معشر الأطفال إلى ما يمكن للمرء أن يسميه بحقٍ عيوب تلك اللهجة ، منذ الصبا ، كما كان يقوم باعدادنا للكلام الأفضل ، فقد ظلت لديّ مع ذلك بعض السمات الأعمق التي كنت أرسّخها مرتاحاً إليها ، إذ

كانت تروق لي ببساطتها ، وكانت تجرّ عليّ بذلك ، في كل مرة ، لوماً شديداً . وذلك أن الألمانيّ الجنوبي ، وربما كان هذا بوجه خاص شأن ذلك الذي يقطن الراين أو الماين ، (لأن الأنهار الكبرى فيها ، كشاطيء البحر ، شيءٌ يبعث على الدوام شيئاً من الحرارة) ، كثيراً ما يعبّر عن نفسه في ضروب من التشبيه والكناية ، ويستخدم ، إلى جانب البراعة الداخلية في التفاهم البشري تعبيرات ترتكز على الأمثال ، وكثيراً ما يكون خشناً في كلتا الحالتين . ولكنه ملائم دائماً حين ينظر المرء إلى غرض التعبير ، إلاّ أنه قد يرد في أثنائه بالطبع ماقد يتبيّن أنه يصدم الأذن الأكثر إرهافاً .

وإنما يحب كل اقليم لهجته ، لأنها في الحقيقة هي العنصر الذي تستمد منه الروح أنفاسها ، أمّا العناد الذي تمكنت به لهجة مايسّنٍ من السيطرة على سائر اللهجات ، بل من استبعادها حيناً من الزمان ، فذلك معروف عند كل انسان . وقد عانينا كثيراً من السنين من هذا التسلّط المتحذلق ، ولم تتمكن الأقاليم جميعاً من استعادة حقوقها القديمة إلاّ بالصراع المتعدّد الجوانب . أمّا ما كان يحتمله شاب مفعم بالحيوية من هذه الوصاية الدائمة ، فذلك ما يسهل تقديره على من يتصوّر أن الأمر كان يقتضي التضحية ، إلى جانب اللفظ الذي يقبل المرء بتغييره ، بطريقة التفكير ، وبالمخيّلة ، والشعور ، والشخصيّة الوطنيّة ، في الوقت ذاته . وكان يطرح هذا المطلب الذي لايحتمل ، رجال ونساء مثقفون لم يكن في وسعي أن أصل إلى قناعتهم ، بل كنت أعتقد أني أحس أنهم على باطل دون أن أتمكن من إيضاح ذلك . وكان من المحظور عليّ أن أشير إلى مواضع حساسة في الكتاب المقدس ، وأن استعمل ، كذلك ، تعابير حميمة مأخوذة من كتب الحوليّات ، وكان من المفروض أن

أنسى أني قرأت « فاسق جبل القيصر » (١) ، وأن أستغني عن استعمال الأمثال (٢) التي تصيب الهدف في الصميم ، بدلاً من كثير من التلَجلُج . وكان عليَّ أن أفقِد كلَّ هذا الذي اكتسبته بعنفوان الصبا . وكنت أحس أني مشلول في أعمق أعماقي . وكنت لاأكاد أعرف بعدُ كيف كان عليّ أن أعبر عن أكثر الأشياء عموماً وابتذالاً . وكنت أسمع إلى جانب ذلك أنه ينبغي للمرء (١) أن يتحدث كما يكتب . وأن يكتب كما يتحدث ، إذ كان الحديث والكتابة يبدوان لي دائماً شيئين مختلفين يستطيع كل منهما أن يثبت حقوقه الخاصة . بلاريب . وقد كان عليّ مع ذلك أن أسمع في اللهجة المايْسِنيّة بعضَ ما لم يكن خليقاً أن يبدو غير مألوف على الورق .

وكان كل امريء يسمع هنا بمدى التأثير الذي كان يحدثه على الدارس رجال ونساء ومثقفون . وسوى أولئك من الشخصيات المزهوّة بنفسها في مجتمع راق ، بصورة حاسمة ، خليقاً أن يعدّ نفسه مقتنعاً ، وان لم يكن ذلك بصراحة ، بأننا نوجد في لايبتسج ، وكان لكلٍّ من المعاهد الألمانية العالية شخصيته الخاصة . وذلك أنه لمّا لم يكن من الممكن أن تتغلغل ثقافة عامة في وطننا. فقد كان كل مكان يتمسّك بأسلوبه وطريقته ، ويذهب إلى أبعد الحدود في مسايرة خصائصه المميّزة . وكان هذا ينطبق على المعاهد العالية . وكانت الخشونة قد وصلت إلى ذروتها في يينا وهالِّه ، وكانت القوة الجسدية ، والبراعة في المبارزة ، والدفاع عن النفس بأشدّ الطرق وحشيّة ، يشكّلن جزءاً من نظام الحيوية اليومية ، ولم يكن من الممكن المحافظة على مثل هذه الحالة واستمرارها إلاّ بأشد ألوان الصخب والعربدة ، وكانت علاقة الدارسين بسكان تلك المدن ، مهما تباينت . تقوم على توافق يتمثل في

أنّ الغريب المستوحش لم يكن يكنّ احتراماً للمواطن ، ويرى نفسه كياناً خاصاً يتمتع بامتياز يتيح له كل الحرية والقحة. وفي مقابل ذلك لم يكن في وسع الطالب في لايبتسج أن يكون إلاّ دمِثاً مادام يريد أن ينشيء بعض العلاقة مع السكان الموسرين المتّسمين بالأخلاق على نحو جيّد ودقيق .

ولاريب أن كل أشكال التهذيب الاجتماعي ، إذا لم تظهر في صورة ازدهار لنمط من أنماط الحياة كبير وواسع ، لابد لها أن تبدو محدودة وجامدة ، بل ربما بدت من زوايا معينة للنظر : سخيفة . وعلى هذا كان الصيادون المتوحشون عند نهر السّالِه يعتقدون أن كفتهم راجحة رجحاناً كبيراً على الرعاة المهذَّبين عند نهر البلايْسّهِ وسوف تظل قصيدة « الفشّار » لزخاريا (٢) ، دائماً وثيقة قيمة يبرز منها نمط الحياة ونمط الفكر في تلك الأيام بصورة متجسّدة ، مثلما لابدّ ، أن تلقى قصائده بصورة مطلقة ، الترحيب من لَدُن كل من يريد أن يكّون تصوّراً عن الحالة الاجتماعية والنظام الاجتماعي في الحقيقة وهوالذي يعد مع ذلك جديراً بالتقدير لما فيه من البراءة والطفولة، في تلك الأيام .

وإنما تعد كل التقاليد التي تنبثق عن علاقة مفترضة ضمن كيان عام غير قابلة للتدمير . وقد كنت ما أزال أذكر في أيامي بعض الأشياء حول قصيدة زاخاريا البطولية . وذلك أن مواطناً وحيداً من مواطنينا في المعاهد العالية كان يرى نفسه غنياً ومستقلاً إلى الدرجة التي تكفيه ليناور على الرأي العام ، فكان يشرب أنخاب المصاهرة مع كل أصحاب عربات الأجرة وكان يرى أن من الدعابة العظيمة أن يدعهم يقعدون

في عرباتهم وكأنهم هم السادة ، وأن يغادر مقعد الحوذيّ ليرمي بهم ، وكان يعرف كيف يصلح أنصاف المقاعد المحطّمة ، كما يصلح الدمامل الناشئة بطريق المصادفة ، على أنه لم يكن ، في آخر الأمر ، يهين أحداً ، بل كان يبدو أنه يسخر من الجمهور بأسره . وذات مرة تمكن هو ، وشريك له ، في يوم من أجمل أيام النزهات ، من حمار توماس الطحّان ، فركبا في ثياب حسنة ، بأحذيتهما وجواربهما ، بمنتهى الجدّ ، وهما يطوفان بالمدينة ، وقد أخذت الدهشة كل المتنزهين الذين كان الممشى المحيط بالبلدة يعجّ بهم ، ولمّا لامه في ذلك بعض ذوي النوايا الحسنة ، أكّد ببساطة تامة ، انه لم يرد إلاّ أن يرى كيف كان السيد المسيح خليقاً أن يبدو في حالة مماثلة . على أنه لم يجد مقلّدين مع ذلك ، ولم يعثر إلاّ على القليل من الأُجَراء .

ذلك لأن الدارس الذي يتمتع ببعض الثروة والسمعة كان لديه كل سبب ليثبت أنه مستسلم لطبقة التجار ، وأنه يجتهد من أجل الأشكال الخارجية الأكثر لياقة مما كان المحتلون (الفرنسيون) يطرحون من أنموذج للعادات الفرنسية . أما الأساتذة الذين كانوا على جانب من الثراء ، ويتمتعون بمصادر جيدة للدخل ، فلم يكونوا مرتبطين ، بتلاميذهم ، وكان عدد من أبناء الريف الذين حصّلوا تعليمهم في مدارس الأمراء أو في المدارس الثانوية الأخرى ، والطامعون في الترقية ، لايجرؤون على التحرر من العادات الموروثة . على أن القرب من درسدن ، والرقابة الصادرة عنها ، والورع الحقيقي عند كبار المشرفين على نظام التعليم ، كل ذلك ما كان ليظل بغير أثر أخلاقي ، بل ما كان ليظل بغير أثر دينيّ .

ولم يكن هذا الأسلوب في الحياة بغيضاً إليّ أول الأمر ، إذ كانت رسائل التوصية الخاصة بي قد أدخلتني إلى بيوت كريمة كان محيط أقر بأئها يتقبّلني قبولاً حسناً بالدرجة ذاتها . ولكن لمّا كان لابد لي أن أحس قريباً أن المجتمع كان يعيب عليّ كثيراً من الأمور ، وأنه كان عليّ ، بعد أن جاريْتهم في لباسهم ، أن أتحدث وَفْقاً للسانهم ، وأنني كنت مع ذلك أستطيع أن أتبيّن بوضوح ، أنه لم يتحقق لي ، في مقابل ذلك ، إلاّ القليل من كل ما كنت قد وعدت نفسي به من الدرس وتنمية الذهن ، في إقامتي في المعهد العالي ، فقد أخذ ينتابني الفتور ، وأخذت أقصر في الواجبات الاجتماعية الخاصة بالزيارات وسائر أمور اللياقة الأخرى ، ولقد كنت خليقاً أن أخرج من إطار كل أمثال هذه العلاقات من قبل ، لولا ما كان يشدني إلى مستشار البلاط بوهمه من المهابة والاحترام ، وإلى زوجه من الألفة والميل ، شدّاً وثيقاً . وكان مما يؤسف له أن الزوج لم يكن يتمتع بالموهبة السعيدة في معاشرة الشباب واكتساب ثقتهم ، وتوجيههم حسب الحاجة الخاصة باللحظة الراهنة . ولم أحظَ بفائدة قطّ حين كنت أزوره ، على حين كانت زوجه تظهر اهتماماً فلصاً بي وكان توعكها يحبسها في البيت على الدوام ، وكانت تدعوني إلى بيتها في بعض الأمسيات ، إذ كنت مهذّباً في الحقيقة ، ولكني لم أكن متمكناً حقاً مما يسمّى فن الحياة . ولم يكن هناك إلاّ صديقة واحدة تنفق معها الأمسيات . ولكن هذه كانت أكثر نزوعاً إلى التسلّط ولعب دور المعلمة ، ومن أجل ذلك لم تكن تروقني البتّة . وكنت أكيد لها ، في كثير من الأحيان ، بالعودة إلى تلك الألوان من السلوك السيء التي كانت الأخرى قد عوّدتني الإقلاع عنها . وكانتا ما تزالان في هذه الأثناء تتذرّعان بالصبر معي

إلى درجة كافية ، وعلّمتاني لعبة الوتد * ، ولعبة الورق الثلاثية * ، وسوى ذلك من أمثال هذه الألعاب التي لابد من الإلمام بها وممارستها في المجتمع .

أما المجال الذي كان فيه للسيدة بوهمه أكبر الأثر عليّ فكان ذوقي ، وكان ذلك ، بالطبع ، بطريقة سلبية ، كانت فيها مع ذلك على وفاق تام مع النقاد . وذلك أن مياه جو تشيد كانت قد أغرقت العالم الألماني بطوفان حقيقي كطوفان نوح ، كان يهدد بارتقاء أعلى الجبال ، وكان الأمر يقتضي كثيراً من الزمن إلى أن ينحسر مثل هذا الطوفان ، ويجف الطين . ولمّا كان ثمة عدد هائل من الشعراء المقلّدين في كل عصر فقد أخرج تقليد أهل الضحالة والتفاهة مثل هذا الرُكام الذي اوشك ألاّ يتبقّى اليوم تصوّرٌ عنه . ومن أجل ذلك كانت رؤية السيء سيئاً هي النكتة الكبرى ، بل كانت تعد انتصاراً لنقاد ذلك الزمان . وذلك أن كل من كان يملك شيئاً من العقل البشري ، وكان ذا إلمام سطحي بالقدماء ، ومعرفة أوثق بالجُدُد ، كان يرى نفسه مزوّداً بمقياس يستطيع أن يطبقه في كل مكان . وكانت السيدة بوهمه امرأة مثّقفة تعارض التافه والضعيف والمبتذَل . وكانت فوق ذلك ، بعدُ ، زوجَ رجل يعيش حياة لامهادنة فيها مع الشعر على الاطلاق . ولم يكن يلقي بالاً إلى ذلك الذي كان من الجائز أن تقرّه . وقد أصغت إليّ بعض الوقت حقاً ، وهي صابرة ، حين تجاسرت على أن أتلو عليها أشعاراً أو مقاطع نثرية لأدباء لامعين يتمتعون بسمعة مرموقة ؛ لأنني كنت استظهر كل ما كان يمكن أن يروقني إلى حد ما فحسب ، كعهدي من قبل . ولكن تساهلها

(*) في الأصل بالفرنسية : . Piquet, L'hombre

لم يدم طويلاً . وكان أول ما نزلت به إلى الحضيض تماماً قصيدة «شعراء الزيّ السائد» لفايسّه (١) التي كانت تتردد ، لتوّها ، على الألسن ، في كثير من الأحيان ، مع كثير من الإعجاب . وكانت قد أمتعتني امتاعاً خاصاً إلى حد كبير . وإذا تأمّلت المسألة الآن عن كثب لم أستطع بالطبع أن أنحي عليها باللائمة . وقد جرؤت في بعض المرات على أن أنشدها شيئاً من قصائدي الخاصة ، وان كانت مغفلة الاسم ، ولم يكن حالها بأفضل من سائر المجموعة . وهكذا سُحِقت ، في وقت قصير ، أجمل المروج الملوَّنة في ربوع البَرْناس الألماني ، حيث كان يطيب لي أن أتنزّه ، دونما رحمة ، بل اضطُرِرْت إلى أن أسهم بنفسي في تقليب العشب اليابس وإلى أن أسخر مما كان قبيل حين يمتعني متعة حيّة ، على أنه شيء ميت .

وقد أعانها في آرائها هذه ، دون أن تحيط بذلك علماً ، الأستاذ موروس (٢) ، وهو رجل رقيق ودود على نحو غير عادي ، تعرفت عليه على مائدة لودفيغ المستشار الخصوصي (٣) ، وكان شديد الحفاوة بي حين أبحت لنفسي حرية زيارته . ولم أكن أكتم عنه ، وأنا أسائله عن القديم ، ما كان يمتعني في الجديد ، إذ تحدث حديثاً أكثر هدوءاً من السيدة بوهمه ، ولكن ما كان أكثر سوءاً أنه كان أكثر تدقيقاً في مثل هذه الأمور ، وكان أول الأمر يثير في نفسي أشد ضروب الاستياء ، ولكنه أخذ بعد ذلك يفتح عينيّ من الدهشة ، ثم من الخشوع .

وأضيف إلى ذلك قصائد المراثي الإرِمْياثية التي اعتاد جيللرت في منهاجه العملي أن يحذرنا بها من الشعر . ولم يكن يرغب إلاّ في مقالات نثرية وكان يصدر حكمه أيضاً في هذه أولاً على الدوام . أما الأشعار

فلم يكن يتناولها إلاّ على أنها إضافة كئيبة . على أن ما كان أكثر سوءاً هو أن مقطوعاتي النثرية أيضاً لم تجد إلاّ قليلاً من الرحمة أمام عينيه : لأنني دأبت على اتخاذ رواية صغيرة لتكون أساساً لها ، وكنت أحب أن أفصِّل القول فيها في رسائل . وكانت الموضوعات عاطفية ، وكان الأسلوب يتجاوز المستوى المألوف للنثر ، ولم يكن مقدّراً أن يشهد المضمون ، بالطبع ، للكاتب ، شهادة كبيرة بالمعرفة العميقة بالبشر . ولذلك لم ألقَ إلاّ قليلاً جداً من الحظوة لدى معلمنا ، على الرغم من أنه كان يتصفّح أعمالي بدقة ، شأن الآخرين ، ويصحّحها بالحبر الأحمر ، ويضيف هنا وهناك ملاحظة أخلاقية . ومما يؤسف له أن عدداً من الصحائف من هذا النوع الذي كان يسرني أن أحافظ عليه وقتاً طويلاً ، قد اختفى من أوراقي آخر الأمر على مر السنين .

وإذا كان الذين هم أكبر سناً يريدون أن يسلكوا السبيل التربويّ الصحيح فلا ينبغي لهم أن يحظروا على شاب شيئاً يسرّه ، ولا أن يشمئزوا منه ، مهما يكن نوعه ، إذا لم يكونوا يعرفون ، في الوقت ذاته ، كيف يُحِلّون شيئاً آخر محله ، أو يدسّونه من تحته . لقد كان كل امرىء يحتج على هواياتي وميولي . أما ما كان القوم يمتدحونه لي في مقابل ذلك فكان يبعد عني حيناً فلا أستطيع أن أرى مزاياه ، أو يقع قريباً مني بحيث لا أراه أفضل مما يذمّونه . ولقد وقعت من ذلك في حيرة عظيمة ، وكنت قد علقت أفضل الآمال على محاضرة لإرنستي عن كتاب شيشرون « الخطيب » (١) ، وتعلمت شيئاً من هذه المحاضرة حقاً ، ولكنني لم أتبيّن مع ذلك معالم الطريق فيما يتصل بما يلائمني .

وكنت أطالب بمقياس للحكم ، وأعتقدت أنني أدركت أنه ما من أحد يملكه . إذ لم يكن ثمة أحد يوافق الآخر ، حتى حين كانوا يضربون

الأمثلة . ومن أين ينبغي لنا أن نتخذ حكماً حين يستطيع القوم أن يحصوا عدداً من المآخذ على رجل مثل فيلاند في كتاباته الساحرة التي تأخذ بمجامع قلوبنا معشر الأحداث بصورة كاملة .

وقد حدث في أثناء مثل هذا التشتت ، بل التمزّق المعقد في كياني ، وفي دراساتي ، أنْ كنت أتناول غدائي على مائدة مستشار البلاط لودفيغ . وكان طبيباً وعالماً في النبات . وكانت الجماعة تتألف ، فضلاً عن موروس ، من عدد من الأطباء المبتدئين أو الذين قاربوا الاكتمال . ولم أكن أسمع الآن ، في هذه الساعات حديثاً آخر على الإطلاق سوى الحديث عن الطب أو التاريخ الطبيعي ، وإذا مخيلتي يجتذبها ميدان مختلف كل الاختلاف ، وكنت أسمع أسماء هالّلر (١) ولينّيه وبوفّون تُذكَر مع التقدير الكبير . وإذا ما نشب نزاع في بعض الأحيان بسبب أخطاء قد يتعرّضون للوقوع فيها ، عاد كل شيء إلى التوازن من جديد آخر الأمر تكريماً لما يعترفون به من فيض منجزاتهم . وكانت الموضوعات مسلية وهامة تشد انتباهي . وقد تعرّفت ، شيئاً فشيئاً ، على كثير من التسميات وعلى مصطلحات واسعة النطاق ، وكنت أكثر سروراً بالإحاطة بها ، لأنني كنت أخشى أن أدوّن بيتاً مهما تهيّأ لي بصورة عفويّة ، أوان اقرأ قصيدة بينما نيولا في الخوف من أن تحظى باعجابي في الوقت الحاضر ، ثم اضطر إلى أن أعدّها فيما بعد رديئة ، كما فعلت بالعديد سواها من .

وكان هذا اليقين في الذوق والحكم يقضّ مضجعي على نحو يزداد مع كل يوم ، حتى اعتراني اليأس آخر الأمر . وكنت قد أخذت معي ، من أعمال صباي ، ما كنت أعدّه أفضلها ، لأنني كنت آمل ، من ناحية

أولى ، أن أحظى ببعض التكريم عن طريقها ، ولأتمكن ، من ناحية أخرى ، من اختبار خطوات تقدمي اختباراً أكثر يقيناً ، ولكنني وجدت نفسي في الوضع السيء الذي يكون فيه المرء حين يقتضيه الأمر تغييراً كاملاً في العقلية ، وتنكّراً لكل ما كان حتى الآن يحبه ويجده حسناً . وبعد شيء من الوقت ، وشيء من الصراع ألقيت نظرة ازدراء كبير على كل أعمالي المبدوءة والناجزة ، حتى إنني عمدت ذات يوم إلى شعري ونثري ومخططاتي ورؤوس موضوعاتي ومشروعاتي برمتها ، فأحرقتها فوراً على موقد المطبخ ، وأثرت بالدخان الذي كان يملأ البيت كله قدراً غير قليل من الفزع والخوف لدى قيِّمة بيتنا العجوز الطيبة .

الكتاب السابع

لقد كتب عن حالة الأدب الألماني في ذلك العصر ما هو كثير وكاف ، بحيث يستطيع كل من يأخذ بحظٍ من ذلك أن يطلع اطلاعاً كاملاً ، مهما يكن الحكم في ذلك متوافقاً إلى حد كبير . وما أفكر في الوقت الحاضر في أن أقوله ، بصورة متقطعة ، وبطريقة القفز من موضوع إلى آخر ، لا يتناول طبيعة تكوينه في حد ذاته بمقدار ما يتناول الشكل الذي اتخذته علاقته بي . ولذلك فأنا أريد أن أتحدث أولاً عن أمثال هذه الأشياء التي كان الجمهور يستثار بها بصورة خاصة . عن كلا العدوّين اللدودين للحياة المطمئنة ، ولكل فن شعري حيّ مرح مكتفٍ بذاته ، أي عن السخرية والنقد .

ففي عصور الهدوء يريد كل امريء أن يعيش على طريقته ، ويريد المواطن أن يمارس مهنته وعمله ، ثم يستمتع بعد ذلك ، وكذلك يحب الكاتب أيضاً أن يكتب شيئاً ، وأن يحقق الشهرة لأعماله ، وأن يأمل في الثناء إن لم يأمل في الأجر على ذلك ، لأنه يعتقد أنه أدّى شيئاً حسناً ونافعاً . وفي هذا الهدوء يكدّر الكاتب الساخر صفو المواطن ويكدّر الناقد صفو الكاتب ، وبذلك يتم إحداث حركة مزعجة في المجتمع الوادع .

وقد نشأت الحقبة الأدبية التي ولدت فيها ، بالتطور عن الحقبة السابقة عليها ، عن طريق التناقض . وذلك أن ألمانيا ، التي طغت عليها الشعوب الخارجية زمناً طويلاً ، وتغلغلت فيها الأمم الأخرى ، وكانت تعتمد في أمر علمائها ومفاوضاتها الدبلوماسية على اللغات الأجنبية ، كان يستحيل عليها أن تستكمل صياغة لغتها الخاصة ، وكان يزدحم عليها ، إضافةً إلى بعض المفاهيم الجديدة ، كلمات أجنبية لاحصر لها منها الضروري ومنها ما لاضرورة له،وكان القوم يجدون ما يدعوهم إلى أن يتخذوا للموضوعات المعروفة من قبل أيضاً ، تعبيرات واستعمالات أجنبية . وكان الألماني المهمل منذ ما يقارب القرنين ، وهو في حالة من التعاسة والاضطراب ، يدخل مدارس الفرنسيين ليغدو ذا معرفة بفن الحياة ، ويتجه إلى أهل روما ليعبّر عن ذاته تعبيراً لائقاً ، ولكن كان من الواجب أن يحدث هذا في اللغة الأم أيضاً ، إذ كان الاستعمال المباشر لتلك التعبيرات مع ألْسِنَتها النصفية ، يجعل أسلوب اللغة العامة وأسلوب لغة الأعمال على حد سواء ، أسلوباً مضحكاً . وكان القوم فوق ذلك ينظرون إلى الأحاديث القائمة على التشبيهات (١) في اللغات الجنوبية نظرة مجانبةً للاعتدال ، ويستخدمونها استخداماً متناهياً في المبالغة ، وكذلك كان القوم ينقلون التهذيب النبيل لمواطني روما من أشباه الأمراء إلى مجال العلاقات الخاصة بالمثقفين في المدن الصغرى ، ولم يكونوا بناء على ذلك ، في أي مكان كان ، حتى فيما بينهم على الأقل ، كما يكون المرء في موطنه .

ولكن مثلما انبثقت في هذا العصر أعمال عبقرية انتعش هنا الفكر الحرّ وروح المرح ، وكان هذا ، مع ما يصحبه من الجدّ المخلص ، يلحّ على أن تكون الكتابة نقية طبيعية ، دون ادخال كلمات دخيلة ،

كما يمليها المعنى الشائع القابل للفهم . ولكن هذه الجهود الحميدة فتحت الباب على مصراعيه للابتذال الوطني الواسع ، بل نقبت السدّ الذي كان مقدّراً للمياه الهائلة أن تنفذ من خلاله بعد ذلك . وفي هذه الأثناء ظل اتجاه متحذلق جامد يقاوم زمناً طويلاً في كل الكليات الأربع إلى أن أخذ آخر الأمر ، فيما بعد ذلك بزمن طويل ، يهرب من كلية إلى أخرى .

ولذلك كان أمام العقول المستنيرة ، وأبناء الطبيعة ذوي النظرة الحرة ، موضوعان يتمرنون بهما ، ويشتغلون ، ويستطيعون أن يطلقوا العنان لعبثهم طالما أن المسألة لم تكن على جانب كبير من الأهمية ، وكان هذان هما لغة مشوّهة بالكلمات الدخيلة وألوان من نحت الكلمات والاستعمالات ، ثم تفاهة أمثال هذه الكتابات التي كانت تُعنى بالبقاء خالية من ذلك الخطأ ، حيث لم يكن يخطر ببال أحد أنهم في الوقت الذي كانوا فيه يكافحون شراً ، إنما كانوا يستعينون عليه بشر جديد .

وقد تجرّأ ليسكوف (٢) ، وهو إنسان شاب جريء أول الأمر على مهاجمة كاتب ضحل سخيف مهاجمة شخصية، و سرعان ما أتاح له سلوكه المفتقر إلى البراعة ، الفرصة للتصرف على نحو أشد عنفاً . ثم واصل تقدمه ، وجعل يوجه سخريته دائماً إلى شخصيات وموضوعات محددة كان يزدريها ويسعى إلى تحقيرها ، بل كان يلاحقها بكراهية لاهبة . ولكن مساره كان قصيراً ، فقد عاجلته المنية ، فتى مضطرباً شاذاً ، منسيّاً . وربما بدت الموهبة والشخصية فيما أدّاه ، على الرغم من ضآلة ما أنجز ، جديرتين بالتقدير عند مواطنيه ، كما كان الألمان دائماً يظهرون إجلالاً خاصاً تجاه المواهب التي عاجلتها المنية وكانت تبشّر بالخير . وجملة القول إننا كنا نسمع الثناء على ليسكوف والتوصية به منذ وقت مبكر جداً ، من حيث كونه كاتباً ساخراً ممتازاً كان خليقاً

أن يتقدم على رابينز المحبوب على نطاق عام . على أننا لم نكن نرى هنا ما يشجعنا بالطبع ، لأننا لم نكن نستطيع أن نتبيّن في كتاباته أكثر من أنه كان يجد السخيف سخيفاً،وذلك ماكان يبدو لنا مسألة طبيعية تماماً.

أما رابينز (١) ، الذي رُبّي تربية حسنة ، ونشأ في ظلال تعليم مدرسيّ جيد ، وكان ذا طبيعة مرحة لاتنطوي بحال من الأحوال على الحماسة أو الخبث ، فقد عالج الكتابة الساخرة العامة . وكان تعريضه بما يسمى بالمباذل والحماقات ناجماً عن نظرات صافية من العقل الإنساني الهاديء ، وعن تصور أخلاقي محدد لما ينبغي أن يكون عليه العالم . وإنما يعد العتاب على الأخطاء والنقائص بريئاً مرحاً . ولكي تتم تبرئة تلك الجرأة الضئيلة ذاتها ، في كتاباته ، يفترض أن تحسين الحمقى عن طريق ما هو مضحك ، عملية ليست بالعقيمة .

ولن يكون من السهل أن تعود شخصية رابينز (٢) إلى الظهور . فهو يؤدي واجبه موظفاً بارعاً دقيقاً ، ويكتسب بذلك حسن ظن مواطنيه ، وثقة رؤسائه . وإلى جانب ذلك يُسلِم نفسه إلى ترفيه يتمثل في ازدراء مرح لكل ما يحيط به باديء ذي بدء ، فهو يتندّر على المثقفين. المتحذلقين ، والفتيان المغرورين ، وعلى كل نوع من ضيق الأفق والجهالة ، أكثر مما يستهزيء بهم ، بل إن سخريته ذاتها لاتعبّر عن ازدراء . وهو يتندّر بالصورة ذاتها ، على وضعه الخاص ، وشقائه ، وحياته ، وموته .

على أن الأسلوب الذي يعالج به هذا الكاتب موضوعاته ، ليس فيه إلاّ القليل من الجوانب الجمالية . والحق إنه متعدد الجوانب إلى درجة كافية من حيث أشكاله الظاهرية ، ولكنه يستخدم السخرية

المباشرة استخداماً مفرطاً على نحو مطلق ، أي أنه يمتدح ما يستحق التوبيخ ، ويذمّ ما يستحق الثناء ، وتلك هي الوسيلة الكلامية التي لاينبغي أن تستعمل إلاّ في أندر الحالات ، لأنها تقع ، على المدى البعيد ، من الناس المتبصّرين موقعاً مزعجاً ، على حين تضلل الضعفاء ، وترضي بالطبع ، الطبقة الوسطى التي يمكن أن تتصور نفسها أذكى من الآخرين . ولكن مهما يكن صنيعه ،وكيفما كان،فهو يشهد له بالمشروعية ،والمرح واعتدال المزاج ، وذلك ما نحس انه يأسرنا . وإنما كان الإعجاب اللامحدود في زمانه نتيجة لمثل هذه المزايا الأخلاقية .

أما أن الناس قد بحثوا عن نماذج لألوان الوصف العامة عنده ووجدوها فقد كان ذلك طبيعياً . وأما أن بعض الأفراد كانوا يضيقون به ، وأن هناك مرافعات مفرطة في الطول ، وأن كتابته الساخرة ليست بالكتابة الشخصية ، فذلك ما يدل على الاستياء الذي أثاره فيه الناس على ان بعض رسائله إلى يتوج هامته انساناً وكاتباً وتعد رسالة الحميمة التي يصف فيها حصار درسدن ، وكيف يخسر بيته ، ومتاعه ، وكتاباته ، وشعره المستعار ، دون أن يتعرض مزاجه المعتدل لأدنى هزة ، أو نرى صفو مرحه مكدّراً ، جديرة بالتقدير إلى أقصى الحدود ، على الرغم من أن معاصريه في الزمان وفي مدينته لم يستطيعوا أن يغفروا له هذا المزاج السعيد ، كما تعد الرسالة التي يتحدث فيها عن اضمحلال قواه وموته الوشيك ، جديرة بالاحترام إلى الحد الأقصى ، وان رابينر ليستحق أن يكرّم تكريم القديسين من قبل كل البشر المَرِحين الحكماء الذي يطيبون نفساً بأحداث العالم الأرضي .

وأنتزع نفسي منه ، على غير رغبة ، إلاّ أنني مازلت أذكر هذا : وهو أن كتابته الساخرة تتوجه بصورة مطلقة إلى الطبقة الوسطى ،

فهو يلمح هنا وهناك إلى أنه يعرف الذين هم أعلى شأناً حق المعرفة ، غير أنه لايرى من المستحسن أن يمسّهم . وفي وسع المرء أن يقول إنه لم يحظَ بخلَف لهوأنه لم يوجد أحد أتيح له أن يقف موقفاً مماثلاً له أو مشابهاً.

أما الآن فهلمّ إلى النقد ! ولنمض أولاً إلى المحاولات النظرية . ونحن لانسرف في البعد حين نقول إن المثاليّ في تلك الأيام قد هرب من الدنيا إلى الدين ، بل إنه كان لايكاد يظهر ، حتى في علم الأخلاق . ولم يكن لدى أحد تصور عن مبدأ أعلى للفن . وكان القوم يضعون بين أيدينا كتاب جوتشيد « نقد فن الشعر » (١) ، وكان صالحاً للإستعمال ومنطوياً على معلومات كافية ، إذ كان يقدم معلومات تاريخية عن كل ألوان الشعر ، وكذلك عن إيقاعه وحركاته المختلفة ، أما العبقرية الشعرية فكانت شرطاً أوّلياً ! وكان على الشاعر آخر الأمر أن يحوز على معلومات ، بل أن يكون مثقفاً ، وأن يكون ذا ذوقٍ ، وفوق ذلك مما يشاكله ، وكانوا يشيرون علينا أخيراً بكتاب هوراس «فن الشعر» (٢) وكنا نعجب ببعض الحكم الذهبيّة من هذا الأثر الذي لايمكن تقديره ونحن ننظر فيه بمهابة وإجلال ، ولكننا لم نكن نعرف أقل شيء عما يمكن أن نصنع بالأثر كله ، ولا كيف ينبغي أن نستفيد منه .

وظهر السويسريون (٣) خصوماً لجوتشيد ، وكان لابد لهم أن يعملوا شيئاً آخر ، وأن يرغبوا في الإتيان بشيء أفضل : وكذلك كنا نسمع أيضاً أنهم أكثر امتيازاً حقاً . واقترِحُ كتاب برايتنجر « نقد فن الشعر » (٤) . وهنا دخلنا مجالاً أرحب ، ولكنه لم يكن في الحقيقة إلاّ متاهة أكبر ، فكان أكثر إرهاقاً ، من حيث كونه رجلاً بارعاً وثقنا به فجعل يغدو بنا فيها ويروح . وكانت النظرة السريعة الشاملة تبرّر هذه الكلمات .

ولم يكن القوم قد استطاعوا أن يجدوا مبدأً لفن الشعر في حد ذاته ، إذ كان مفرطاً في التجريد والسطحيّة ، وقد بدا فن التصوير ، وهو فن يمكن الإمساك به بالعيون ومتابعته خطوة خطوة بالحواس الخارجية ، أكثر ملاءمة لهذه الغاية ، وكان الانكليز والفرنسيون قد سبق أن دبّجوا النظريات في الفنون التشكيلية . ورأى القوم أن يؤسّسوا الشعر بالقياس إلى ذلك . فقد كان ذاك يعرض صوراً للعيون ، وهذا للخيال ، وإذاً فقد كانت الصور الشعرية هي أول ما ورد في الاعتبار . وابتدأ القوم من المقايسات ، وتلا ذلك ضروب الوصف ، ولم يكن يرد على الألسن إلاّ ما كان يمكن تصويره للحواسّ الخارجية .

الصور إذاً ! ولكن من أين كان ينبغي للمرء أن يأتي بالصور إلاّ من الطبيعة ؟ لقد كان الرسام يقلد الطبيعة ، فلم لايفعل الشاعر أيضاً ؟ ولكن الطبيعة لايمكن تقليدها البتة كما توجد أمامنا : فهي تنطوي على قدر كبير مما ليس له أهمية ، ولامكانة . وإذاً فلابد للمرء أن يختار ، ولكن ما الذي يحدّد الاختيار ؟ لابد للمرء أن يبحث عن المهم ، ولكن ما هو المهم ؟

وربما فكر السويسريون فأطالوا التفكير جواباً عن ذلك ، لأنهم يقعون على خاطرة رائعة في الحقيقة ، وهي مع ذلك ظريفة ، بل مضحكة ، حين يقولون إن أهم الأشياء دائماً هو الجديد ، وبعد أن فكروا في ذلك حيناً إذا هم يجدون أن العجيب أو المدهش هو دائماً أكثر جدّة من كل شيء آخر .

فاجتمعت لهم الآن كل مقتضيات الشعر معاً إلى حد بعيد . ولكن كان عليهم أن يدخلوا في الحسبان أن العجيب يمكن أيضاً أن يكون

فارغاً ، وألاّ يكون له تعلّق بالإنسان . ولكن مثل هذا التعلق المطلوب بالضرورة لابد أن يكون أخلاقياً ، ينتج عنه بصورة جليّة تهذيب الإنسان ، وعلى هذا تكون القصيدة قد بلغت الهدف الأخير حين تغدو ، بالإضافة إلى كل منجزاتها الأخرى ، نافعة أيضاً . وأراد القوم الآن ، استناداً إلى كل هذه المقتضيات ان يختبروا أنواع الأدب المختلفة . وكان المفروض أن يُعدّ ذلك الذي يحاكي الطبيعة فيكون عجيباً قبل كل شيء ، وفي الوقت نفسه ذا غرض أخلاقيّ ومنفعة ، أولّها وأعلاها . وبعد كثير من التفكير نُسِبَت هذه المنزلة الأولى ، والعظمى ، بأعلى درجات الإيمان ، إلى خرافات إيسوب .

ومهما يبدُ لنا مثل هذا التخريج الآن عجيباً فقد كان له مع ذلك أبلغ الأثر على أفضل الأدمغة . أما أنّ جيللرت ، ومن بعده ليشْتْفِر (١) قد كرّسا نفسيهما لهذه المادّة ، وأن ليسّنغ نفسه حاول العمل في ذلك ، وأن كثيراً من الآخرين استعملوا موهبتهم في ذلك ، فذلك ما يشهد للثقة التي كان هذا النوع الأدبي قد اكتسبها . وإنما تؤثر النظرية والممارسة إحداهما في الأخرى دائماً ، فمن الأعمال يستطيع المرء أن يرى ما يقصده الناس ، ومن الآراء يستطيع أن يتنبّأ بما سيعملون .

ومع ذلك فلا يجوز لنا أن نغادر نظريتنا السويسرية دون أن ننصفها أيضاً . لقد ظل بودمر ، من الناحية النظرية والعملية طفلاً طوال حياته ، على كثرة ما أجهد نفسه ، وكان برايتنجر رجلاً بارعاً ، مثقفاً ، نافذ البصيرة لاتعزُب عنه ، حين ينظر إلى ما حوله نظرة صحيحة ، كل مقتضيات الأدب ، بل إن من الممكن التدليل على أنه ربما كان يحس إحساساً غامضاً بنقائص منهجه . ومما يلفت النظر ، على سبيل

المثال ، سؤاله : هل كانت قصيدةٌ وصفية معينة حول كونيش (١) في مخيّم مهرجان أوغست الثاني ، قصيدة ؟ كما يدل الجواب عن هذا السؤال على فكر نيّر . ولكن ربما يفيد في إنصافه الكامل أنه حين ينطلق من نقطة خاطئة ، وبعد دائرة أوشك مسارها أن يكتمل ، يصطدم مع ذلك بالمسألة الرئيسية ، ويجد نفسه مضطراً ، في نهاية كتابه ، إلى أن يوصي بأن يُنظَر إلى وصف العادات والشخصيات والعواطف ، وعلى الإجمال ، إلى وصف الإنسان الداخليّ الذي يعتمد عليه فن الأدب اعتماداً متميّزاً بلاريب ، على أنه في حكم الملحق التكميليّ .

ومن الممكن أن يتصور المرء ذلك التشويش الذي تشعر العقول الشابة بوقوعها فيه عن طريق أمثال هذه المباديء المحرّفة ، والقوانين المفهومة فهماً جزئياً ، والنظريات المنقسمة على نفسها . لقد كان القوم يتمسكون بالأمثلة ، ولم يصلوا مع ذلك إلى تحسّن . وكان الأجانب على بعدٍ مفرط عنهم ، شأن بُعدِ القدماء . وكانت تطلّ من أفضل أهل البلاد في كل مرة فرديّة صارخة لايستطيع المرء أن يدّعي لنفسه فضائلها ، على حين لم يكن له بدٌّ من أن يخشى الوقوع في أخطائها . وكانت الحال مفعمة باليأس بالقياس إلى من يحسّ أن لديه شيئاً مثمراً .

وإذا تأمّل المرء بدقة ما كان ينقص الشعر الألماني ، فقد كان ذلك في المضمون . وكان في الحقيقة ذا سمة قومية . لم يكن هناك قطّ نقص في المواهب . وههنا لانذكر إلا جونتر (٢) ، الذي يحق له أن يسمى شاعراً بالمعنى الكامل للكلمة . كان موهبة صارخة ، قد أوتي نظرة حسّية ، ومخيّلة ، وذاكرة ، وموهبة في الإدراك والتجسيد ، وكان مثمراً إلى أقصى الحدود ، مريحاً في إيقاعه ، حاضر البديهة ، فكِهاً ،

وكان مع ذلك واسع الاطلاع ، وجملة القول إنه كان يملك كل ما يقتضيه من المرء ابداعُه حياةً ثانية في حياته ، عن طريق الشعر ، وذلك في الحياة الواقعية العادية . ونحن نعجب بالسهولة الكبيرة ، التي يتسامى بها ، في قصائد المناسبات ، بكل الأحوال ، عن طريق الشعور ويزينّها بالأفكار والصور والروايات التاريخية والخرافية . أمّا ما كان من ذلك فظاً خشناً فينتمي إلى عصره ، وإلى طريقته في الحياة ، وبصورة خاصة إلى شخصيته ، أو إذا شئنا ، إلى إنعدام شخصيته . فلم يكن يعرف كيف يروض نفسه ، وهكذا أفلتت من بين يديه حياته كما أفلت شعره .

وكان جونتر قد دمّر سعادته بسلوك غير لائق ، إذ كان موظفاً في بلاط أوغست الثاني ، حيث كان القوم يلتمسون فيمن حولهم ، فوق كل ذلك البهاء ، شاعراً للبلاط يضفي على الاحتفالات حيوية وزخرفاً ويستطيع أن يخلّد أبّهة عابرة . وكان الملك أكثر لياقة وسعادة ، فتقلّد هذه الوظيفة مع التقدير والإعجاب .

وفي كل الدول المستقلة يأتي المضمون إلى فن الشعر من الأعلى إلى الأسفل . وربما كان مخيّم المهرجان (١) عند مولبرج الموضوع الأول النبيل الذي يظهر أمام شاعر ، على صعيد الريف ، إن لم يكن على الصعيد القومي ، فثمة ملكان يتبادلان التحية في حضور جيش كبير ، ومن حولهما كل أهل البلاط والحرب ، وقوات أحسنت رعايتها ، ومظهر كمظهر الحروب ، واحتفالات من أنواع شتى . وهو شغل كاف للحواس الخارجية ، وفيض من المادة للشعر الوصفي التصويري .

ولاريب أن هذا الموضوع كان ينطوي على نقص داخليّ ، وهو

أنه كان مجرد أبّهة وبريق لايمكن أن يصدر عنه فعل . فلم يكن أحد ، سوى الأوائل ، يلفت الأنظار ، ولو أن شيئاً من ذلك حدث بالفعل لما جاز للشاعر أن يبرز أحداً لئلاّ ينال من الآخرين . ولم يكن له بدّ من أن يستشير سجّل الأشراف (٢) عند الدولة ، ومن أجل ذلك اتخذ رسم الأشخاص مساراً شديد الجفاف . بل إن المعاصرين أنفسهم أخذوا عليه أنه وصف الخيول وصفاً أفضل من وصفه للبشر . ولكن ألاينبغي أن يكون هذا ذاته كافياً للثناء عليه ، وهو أنه كان يبرهن على فنه حيثما أتيح له موضوع ما ؟ ثم إن الصعوبة الرئيسية سرعان ما تتجلّى له : لأن القصيدة لم تتخطّ حدود النشيد الأول .

وفي غمرة أمثال هذه الدراسات والتأملات باغتني حدث غير متوقع وأحبط مقصدي الحميد في التعرّف على أدبنا الحديث بصورة مسبقة . وكان ابن بلدي يوهان جورج شلوسّر (١) قد اتخذ الطريق المألوف إلى المحاماة في فرانكفورت الماين ، بعد أن أنفق سنوات دراسته العالية بجد واجتهاد . ولكن روحه الطموحة النّزاعة إلى ما هو عامّ ، لم تستطع أن تتقبّل هذه الأوضاع لأسباب شتّى ، فتولّى وظيفة أمين سرّ لدى الدوق لودفيغ فون فورتمبرج (٢) الذي توقّف في تريبتوف . بدون تردد : لأن الأمير كان قد ورد اسمه بين أولئك العظام الذين فكّروا ، بطريقة نبيلة ومستقلة ، في تحسين أحوالهم والاتحاد من أجل مقاصد أسمى ، وتنوير أتباعهم ومجموع الشعب . وكان الأمير لودفيغ هذا هو الذي كتب إلى روسو يستشيره في تربية الأطفال ، وكان جوابه المعروف يبدأ بالعبارة الحرجة : « لو قضى عليّ سوء حظيّ أن أولد أميراً » .

ولم يكن على شلوسّر أن يشرف على أعمال الأمير وحدها ، بل على تربية أبنائه ، وحين لم يكن ثمة إشراف كان عليه أن يكون تحت تصرفه بالنصيحة والعمل ، طائعاً مختاراً . وقد كان هذا الفتى ، النبيل الذي ينطوي على أطيب النوايا ، والذي كان يجتهد من أجل نقاء كامل في الخلق ، خليقاً ، بما فيه من صرامة جافة معينة ، أن يبعد الناس عنه بسهولة ، لولا أن ثقافته الأدبية الجميلة النادرة ، وبراعته في التعبير عما في نفسه ، بالكتابة ، شعراً أم نثراً ، كانتا تجتذبان كل امريءٍ ، وتجعل الحياة معه أسهل . وقد تم إبلاغي بأن هذا سيمرّ بلايبتسج ، وانتظرته بشوق . وجاء ، ودخل نُزُلاً أو حانة كانت تقع في برول ، وكان صاحبها يدعى شونكوبف (٣) ، وكان لهذا زوجة من فرانكفورت . وعلى الرغم من أنه لم يكن يستضيف فيما تبقى من أيام السنة إلاّ قليلاً من الأشخاص ، ولم يكن يستطيع قبول نزلاء في المنزل الصغير ، فقد كان يزوره مع ذلك في أيام المعرض كثير من أهالي فرانكفورت ، الذين اعتادوا أن يأكلوا ويبيتوا أيضاً في حالة الضرورة . وأسرعت إلى هناك ، باحثاً عن شلوسّر ، حين بعث من يبلغني بوصوله ، وكنت لاأكاد أذكر أني رأيته من قبل ، فوجدت شاباً حسن البنية ذا وجه مستدير مضغوط ، دون أن تكون معالمه مطموسة بسبب ذلك . وكان شكل جبهته المستديرة ، بين الحواجب السود وخصلات الشعر ، يشير إلى الجد ، والصرامة ، وربما إلى العناد ، وكان يعد نقيضاً لي إلى حد ما ، وقد كان هذا ما وطّد دعائم صداقتنا الدائمة . وكنت أكن أعظم التقدير لمواهبه ، ولاسيما حين لاحظت أنه كان متفوقاً عليّ تفوقاً كبيراً في ثقته بما كان يعمل وينجز . وكان ما أظهره له من الاحترام والثقة يوطّد ميله ويزيد من الرفق الذي كان لابد له أن يأتي به ، على

الدوام ، كياني المفعم بالحيوية والاضطراب والقلق ، والتوثّب الدائم ، على النقيض من كيانه . وكان يدرس الانكليز بنشاط ، وكان بوب (١) نصب عينيه ، إن لم يكن قدوته . وكان قد كتب ، في معارضة لقصيدة ذلك الكاتب ، قصيدة بالشكل ذاته ، والميزان العروضي ذاته ، يراد بها تحقيق النصر للديانة المسيحية على تلك النزعة الربوبيّة (٢) . ثم عرض عليّ من المخزون الكبير من الأوراق الذي كان يحفظه عنده ، كتابات شعرية ونثرية بكل اللغات أثارت في نفسي ، على نحو متكرر ، اضطراباً لاحدّ له ، إذ كانت تهيب بي أن أقلّدها . ومع ذلك فقد عرفت كيف أتدبّر أمر نفسي عن طريق النشاط ، فكتبت قصائد موجّهة إليه ، بالألمانية والفرنسية ، والانكليزية ، والإيطالية ، مستمداً مادّتها من أحاديثنا التي كانت هامة وحافزة إلى الاطلاع إلى حد بعيد .

ولم يكن شلوسّر يريد أن يغادر لايبتسج دون أن يرى الرجال الذين كانت أسماؤهم لامعة ، وجهاً لوجه . فكان يسرني أن أغدو به إلى أولئك الذين كنت أعرفهم . أما أولئك الذين لم أكن قد زرتهم بعد فتعرفت عليهم على هذه الطريقة ، بصورة مشرّفة ، لأنه كان يلقى ، بحكم كونه من رجال العلم المتميّزين ، استقبالاً متميّزاً ، وكان يعرف حق المعرفة كيف يدير دفة الحديث . ولايجوز لي أن أغفل زيارتنا لجوتشيد (٣) ، إذ تجلى فيها الطراز الفكري والخلقي لهذا الرجل . وكان يسكن مسكناً لائقاً جداً ، في الطابق الأول من « الدب الذهبي » ، حيث صرّح له كبير عائلة برايتكوبف ، بالإقامة مدى الحياة ، بسبب الفائدة الجلّى ، التي حققتها كتابات جوتشيد وترجماته وخدماته الفعلية الأخرى .

وأبلغنا عن قدومنا ، وقادنا الخادم إلى حجرة كبيرة ، وهو يقول إن سيده سيأتي فوراً . ولم أكن أدري لعله أدى إشارة لم أفهمها فهماً صحيحاً . وجملة القول إننا اعتقدنا أنه أشار لنا إلى الحجرة المقابلة ، ودخلنا إلى مشهد غريب : ففي هذه اللحظة دخل جوتشيد ، الرجل الطويل العريض ، العملاق ، في ثوب للنوم من الدمقس الأخضر مبطن بقماش التفتة الأحمر ، من الباب المقابل ، ولكن رأسه الهائل كان أصلع وبغير غطاء وكان من الواجب تلافي ذلك على الفور ، إذ وثب الخادم ، وفي يده شعر مستعار طويل (كانت خصلاته تبلغ مرفقيه) وهو يدخل باباً جانبياً ، وناول سيده حلية الرأس وعليه سيماء الفزع . ورفع جوتشيد ، دون أن يبدو عليه أدنى استياء ، الشعر المستعار بيده اليسرى ، عن ذراع الخادم ، وفي الوقت الذي كان يقوم فيه بتثبيته على رأسه ببراعة فائقة ، وجه بكفه اليمنى إلى الإنسان المسكين صفعة وثب منها إلى الباب في دورة حلزونية ، كما يحدث في المسرحيات الهزلية . وعلى أثر ذلك دعانا الأب الكبير المرموق ، بحفاوة شديدة ، إلى القعود ، وخاض معنا مناظرة طويلة للغاية بلباقة مستحسنة .

وكنت أتناول الطعام في كل يوم مع شلوسّر ، ما دام مقيماً في لايبتسج ، وتعرفت على مجموعة لطيفة جداً من صحابة المائدة . وكانت طائفة من أهل ليفلاند ، وابن هرمان (١) كبير وعاظ البلاط في لايبتسج ، والمعلم الخصوصي المستشار بفايل (٢) ، مؤلف « الجراف ب » ، وهو نظير كتاب « اللوقة السويدية » لجيللرت ، وزخاريا (٣) وهو أخ للشاعر ، وكريبل (٤) ، محرر كتب الجغرافية والأنساب ، وكان هؤلاء قوماً مهذبين مرحين أولي مودّة . وكان زخاريا أكثرهم

هدوءاً . أما بفايل فكان رجلاً لطيفاً يكاد ينطوي على شيء من الديبلوماسية ، ولكن بغير تنميق في القول ، وبكثير من طيب القلب . وأما كريبل فكان مثالاً أصيلاً لفالستاف (١) ، ضخماً ، بديناً ، أشقر ، له عينان جاحظتان ، مشرقتان فاتحتان سماويتان ، وكان دائم المرح والاستبشار . وكان هؤلاء يلقونني جميعاً ألطف لقاء ، من أجل شلوسّر من ناحية ، وبسبب طيب قلبي الصريح ، وما كنت أضفيه من زخرف ونكهة ، ولم يقتض الأمر كبير إقناع لكي أقاسمهم في المستقبل مائدتهم . وبقيت معهم حقاً بعد رحيل شلوسّر ، وتخليّت عن مائدة لودفيغ ، وازداد ارتياحي إلى هذه الجماعة المغلقة حين أعجبت إعجاباً شديداً بابنة المنزل ، وهي فتاة لطيفة فائقة الحسن ، وأتيحت لي الفرصة لأبادلها نظرات الود ، وهي سعادة لم أسعَ إليها ، منذ الحادثة مع جريتشن ، ولا وجدتها بطريق المصادفة . وكنت أنفق ساعات الغداء مع أصدقائي بصورة مرحة ومفيدة . وكان كريبل يحبني حقاً ويعرف كيف يمازحني ضمن حدود معينة ويبعث فيّ النشاط . وفي مقابل ذلك كان بفايل يظهر لي ميلاً جدّياً إذ كان يوجه حكمي على بعض الأمور ويحاول تحديده .

ومع هذه الصحبة أدركت ، عن طريق الأمثلة ، وعن طريق التأمل الخاص ، أن الخطوة الأولى للخلاص من هذا العصر المائع المضجر التافه لايمكن القيام بها إلاّ عن طريق التحديد والدقة والإيجاز . فمع الأسلوب الجاري حتى الآن لم يكن في وسع المرء أن يميز المبتذل من الأفضل لأن كل شيء دُفِع به إلى الضحالة مختلطاً بعضه ببعض ، وقد سبق أن

---

(١) Falstaff

حاول الكتاب أن يتخلصوا من هذا البلاء العميم ، فأصابوا من ذلك نجاحاً يقل أو يكثر ، وكان هاللر وراملر يميلان بالفطرة إلى الإيجاز ، وانساق ليسنغ وفيلاند إلى ذلك عن طريق التأمل . أما الأول فقد غلبت عليه المحاكاة الساخرة في قصائده شيئاً فشيئاً ، فكان مُوجزاً في « مينا » ، ومختصراً في « اميليا جالوتي » ، ولم يعد إلاّ فيما بعد إلى بساطة مرحة ، كانت ، بالقدر ذاته ، لائقة به في « ناتان » . وأما فيلاند الذي كان يتسم بالاسهاب ، بعدُ ، في « آغاتون » و « دون سلفيو » ، فيغدو في « موزاربون » و « ادريس » ، بطريقة عجيبة ، موجزاً ودقيقاً ، مع قدر كبير من الظُرف . ولا يخلو كلوبشتوك ، في « المسيح المنتظر » من الاسهاب . أما في القصائد الغنائية ، والقصائد القصيرة الأخرى فيبدو موجزاً ، والأمر كذلك في مسرحياته المأساوية . وعن طريق تنافسه مع القدماء (١) ، ولاسيما مع تاسيتوس ، يرى نفسه مضطراً إلى الإيجاز على نحو مطرد ، حيث يغدو آخر الأمر غير قابل للفهم والاستمتاع . أما جيرستنبرج (٢) ، الموهبة الجميلة والشاذة مع ذلك ، فيجنح إلى الإيجاز ، ويلقى فضله التقدير ، ولكنه لايسرّ ، على الإجمال ، إلاّ قليلاً . وأما جلايم (٣) ، المُسهب ، ذو الطبيعة السمحة ، فقلما يجنح ذات مرة إلى الإيجاز ، في الأناشيد الحربية . ويعد راملر (٤) في الحقيقة ناقداً أكثر منه شاعراً . ويبدأ في جمع ما أنجزه الشعراء الغنائيون الألمان . ويجد الآن أنه لاتكاد قصيدة واحدة ترضيه تماماً ، فيضطر إلى أن يحذف ، ويعيد الصياغة ، ويغيّر ، لكي تكتسب الأمور بعض القوام ، وبذلك يؤلّب على نفسه من الأعداء عدداً أكبر مما يوجد من الأدباء والهواة ، إذ أن كل امريء لايريد أن يتعرّف على نفسه إلاّ بنقائصه ، بينما يُعنى الجمهور بما هو فرديّ حافل بالأخطاء أكثر من

عنايته بما يتم إخراجه وتنقيحه بناء على قاعدة ذوقية عامة . وكان علم الإيقاع في تلك الأيام ما يزال في المهد . ولم يكن ثمة أحد يعرف وسيلة لتقصير أمد طفولته . وكان النثر الشعري (٥) في طغيان يجاوز الحد . وكان جيسنر وكلوبشتوك يبعثون الهمّة في بعض المقلّدين . ولكن الآخرين كانوا يطالبون من جديد بمعيار عروضي ، ويترجمون القطع النثرية (٦) بايقاعات قابلة للإدراك . ولكن هؤلاء أيضاً لم يحمد لهم أحد صنيعَهم ، إذ كانوا يضطرون إلى الحذف أو الإضافة ، وكان الأصل النثري يعد أفضل دائماً . ولكن الحكم كان يزداد إمكاناً كلما توخّوْا الإيجاز ، لأن ما هو مهمّ يتيح ، إذا ما ضُمَّ بعضه إلى بعض بصورة أوثق ، مقارنة سليمة في نهاية الأمر ، وفي الوقت نفسه كان من النتائج أيضاً نشوء العديد من أنواع الأشكال الشعرية . لأن القوم حين كانوا يسعون إلى أن يعرضوا من كل موضوع يريدون إعادة صياغته ، ما هو ضروري فحسب ، كان لابد لهم أن يوفّوا كل جانب حقه . وبهذه الطريقة تعددت جوانب طرق العرض التي كان بينها ، بالطبع ، طرق مشوّهة ، كما انتهت بعض المحاولات إلى الإخفاق .

ولاجدال مطلقاً ، في أن فيلاند كان ينطوي ، بين هؤلاء جميعاً ، على أجمل جانب طبيعي ، وكان قد صاغ ذاته ، منذ وقت مبكر ، في هذه الأقاليم المثالية التي يطيب للشباب أن يقيموا فيها ولكن حين غدت هذه الأقاليم ، بفعل مايسمى بالمعاناة ، وبفعل الأحداث المتصلة بالعالم والنساء ، بغيضة إليه ، رمى بنفسه على جانب من الواقعيّ ، وطاب ، هو والآخرون ، نفساً بالصراع بين كلا العالَميْن حيث كانت موهبته تتجلى بأحلى صورها ، بين الجد والهزل ، في مبارزة خفيفة ، ولما كان

بعض نتاجه يوافق زمــان سنواتي في المعهد العالي ، فقد أحدثت « موزاريون » (١) الأثر الأكبر في نفسي ، ومازلت قادراً على أن أذكر المكان والموضع الذي أبصرت فيه صفحة التجربة المطبعية الأولى التي نقلها إليّ أوزر ، وإذا أنا كأنني أرى القديم حياً ، جديداً ، مرة أخرى ، إذ كان كل ما يتجسّد في عبقرية فيلاند يتجلّى هنا بأكمل وجه . ولما كان فانياس التيموني (٢) ، ذلك المحكوم عليه بصحوة الشقاء ، يعود آخر الأمر من جديد إلى المصالحة مع فتاته ، ومع العالم ، فقد غدا في وسع المرء أن يشهد معه أيضاً ، بحق ، العصر المعادي للبشرية ، وكان يطيب للناس جداً ،آخر الأمر ، أن يقرّوا لهذه الأعمال بما فيها من كراهية مرحة للأفكار المصعّدة التي كثيراً ما تلحق بها شبهة الهوَس إذ تُطبّق على الحياة تطبيقاً ينتهي إلى شيء من الإخفاق . وكان الناس يغتفرون للكاتب أن يلاحق بالسخرية ما يرونه حقاً وجديراً بالتقدير ، أكثر مما يغتفرون له حين يريد هو نفسه أن يظل يصنع ذلك أبداً .

أما مدى الهزال الذي كان النقد يتعرّض به في تلك الأيام لأمثال هذه الأعمال فيمكن أن نتبيّنه من المجلدات الأولى في « المكتبة الألمانية العامة » (٣) ، إذ ترد إشارة مشرِّفة بذكر الأقاصيص الهزلية ، ولكن ليس هناك أثر للنظر في سمة الطراز الأدبي ذاته ، إذ كان المحقق قد كوّن ذوقه بالاستناد إلى الأمثلة ، كما كانوا يفعلون جميعاً في تلك الأيام . ولم يكن القوم يقدّرون هنا أن المرء لابدّ له ، قبل كل شيء ، لدى الحكم على أمثال هذه الأعمال القائمة على المحاكاة الساخرة ، أن يضع نصب عينيه الموضوع الأصلي النبيل الجميل ، ليرى هل ظفر منه المُحاكي الساخر بجانب ضعيف ومضحك حقاً ، أم أضفى عليه شيئاً ما ، أم هل عساه يكون قد قدّم ، تحت ستار مثل هذا التقليد ،

اختراعاً موفقاً ؟ ولكن القوم لايستشعرون شيئاً من ذلك كله ، وإنما يثنون على القصائد أو يذمّونها ، في مواضع متفرّقة منها ، ويكون المحقق قد وضع إشارات على مقدار كبير جداً مما يروق له ، كما يعترف هو نفسه ، حتى إنه لايستطيع أن يورد عند الطبع كل شيء . بل اننا إذا قابلنا حتى أعلى ترجمات شكسبير جدارة بالتقدير بالشعار القائل « ما كان ينبغي ، من وجهة الحق ، أن يترجموا رجلاً مثل شكسبير على الإطلاق » أمكننا أن نفهم مباشرة كم كانت « المكتبة الألمانية العامة » متخلفة تخلفاً لاحدّ له في مسائل الذوق ، وأنه لم يكن بدٌّ للشباب الذين كان الحسّ الأصيل يبعث فيهم الحياة ، أن يبحثوا عن نجم قطبيّ آخر .

أما المادة التي كانت على هذه الطريقة تحدد الشكل تحديداً يقل أو يكثر ، فكان الألمان يبحثون عنها في كل مكان . ولم يكونوا قد عالجوا إلاّ القليل ، أو لاشيء من الموضوعات القومية . أما « هرمان » لشليجل (١) فكانت تشير مجرد إشارة إلى ذلك . وكان الاتجاه الرعويّ ينتشر انتشاراً لاحدّ له . أما اللون الجيسنريّ الخالي من الطابع الشخصيّ ، مع ما فيه من ظرف كبير ورقة طفولية فكان يحمل كل امرىء على الاعتقاد أنه يقدر على شيء مشابه . وعلى النحو ذاته كانت تتأثر بمجرد الروح الانسانية العامة تلك القصائد التي كان يفترض فيها أن تمثل قومية أجنبية . ومثال ذلك قصائد الرعاة اليهودية ، بل القصائد المتسمة بسمة الآباء والأجداد على الإطلاق وكل ما كان يمت بصلة الى العهد القديم . وقد كانت « سليل نوح » (٢) لبودمر ، رمزاً كاملاً للطوفان المتعاظم من حول البرناس الألماني ، والذي لم ينحسر إلاّ رويداً رويداً . وكان المسار المجنّح يدع كذلك أعداداً لاتحصى من الرؤوس المتوسطة تهيم مترنحة في المجال العريض . وكانت دقة هوراس تضطر الألمان ، ولكن

ببطء ، إلى أن يحذوا حذوه ، كما أن قصائد البطولة الهزلية التي كانت في الغالب من أنموذج « سرقة خصلة الشعر » (٣) لبوب ، لم تكن تفيد أيضاً في التمهيد لعصر أفضل .

ومازال عليّ أن أذكر ههنا جنوناً كان يحدث أثره بصورة جديّة إلى حد كبير حين كان لابد أن يكون مضحكاً إذا ألقى المرء عليه مزيداً من الضوء . لقد كان لدى الألمان الآن اطلاع تاريخي كاف على كل أنواع الأدب التي كانت الأمم المختلفة قد تميّزت بها . وكان جوتشيد قد صاغ هذا الإطار الذي يحدد في الحقيقة التصوّر الداخلي للشعر من الأساس ، في كتابه « نقد فن الشعر » صياغة كاملة إلى حد كبير ، وأقام الدليل في الوقت ذاته على أن ثمة شعراء ألماناً أيضاً قد استطاعوا بالأعمال الممتازة أن يملأوا كل الأعمدة * . وكانت الأمور تمضي على هذا النحو باطراد . وكان المجموعة تكتسب في كل سنة مزيداً من السمعة الحسنة . وفي كل سنة أيضاً كان عمل من الأعمال يطرد الآخر من الحجرة المؤجّرة (١) والتي كان حتى الآن يتألّق فيها . ولئن لم يكن لدينا الآن هومير ، فقد كان لدينا فرجيل وملتون (٢) ، ولن لم يكن لدينا بندار فقد كان لدينا هوراس ، على أننا لم نكن نفتقر إلى ثيوقريط ** . وهكذا كان القوم يزنون أنفسهم بالمقارنات المتجهة نحو الخارج ، بينما كانت كتلة الأعمال الشعرية تنمو نمواً مطرداً ليغدو من الممكن أيضاً في النهاية إنشاء مقارنة في الاتجاه الداخلي .

(*) قياساً على أعمدة الصحف ، والمقصود هنا الحقول المختلفة لأنواع الإنتاج الأدبي .

(**) يقصد جوته هنا من يعادل هؤلاء الأدباء المعروفين من أدباء ألمانيا في ذلك الزمان .

« المترجم »

وإذا كانت مسائل الذوق تقف الآن على قدم شديدة التقلقل فان المرء لم يكن يستطيع بحال من الأحوال أن يجحد لذلك العصر أن ماداب القوم فيه على تسميته بالعقل البشري ضمن القسم البروتستانتي من ألمانيا وسويسرا قد بدأ ينشط نشاطاً حيوياً . أما الفلسفة المدرسية التي كان لها في كل عصر فضل الكلام في كل ما يمكن أن يسأل الانسان عنه ، حسب مبادىء مفترضة ، وفي نظام محبوب ، وتحت عناوين محددة ، فكانت قد جعلت نفسها ، بما يغلب على مضمونها من الغموض ، وعدم الجدوى الظاهرة ، أو بالتطبيق غير المساير للعصر ، لمنهج جدير بالاحترام في حد ذاته ، وبالتوسع الكبير جداً في موضوعات بالغة الكثرة ، غريبة عن الجمهور ، وغير قابلة للاستمتاع ، وأخيراً جعلت نفسها شيئاً لالزوم له . وقد وصل بعضهم إلى الاقتناع بأن الفطرة قد زودته بقدر من الفهم الجيد والمباشر يعدل ما يحتاج إليه على وجه التقريب لكي يكون لنفسه تصوراً واضحاً عن الأشياء بحيث يتمكن منها ، ويستطيع أن يتصرف حيالها من أجل منفعته ومنفعة الآخرين ، دون أن يُعنى مباشرة وعلى نحو مجهد بأشد الأشياء عموماً،ويبحث فيما عسى أن تكون عليه العلاقات بين أشد الأشياء تباعداً بعضُها عن بعض والتي لاتمسنا بوجه خاص ؟ وكان القوم يقومون بالمحاولة ويفتحون أعينهم ، وينظرون أمامهم مباشرة ، وكانوا منتبهين ، مجدين ، نشيطين ، وكانوا يعتقدون أن المرء إذا أصدر حكمه وتصرف ضمن مجاله على نحو سليم ، جاز له أن يتميز أيضاً ، وأن يشارك في الحديث عن الأمور الأخرى الأبعد موقعاً .

وتبعاً لمثل هذا التصور كان يحق لكل امرىء الآن ، لا أن يتفلسف فحسب ، بل أن يعد نفسه شيئاً فشيئاً ، فيلسوفاً ، وإذاً فقد كانت الفلسفة عقلاً إنسانياً سليماً متمرساً بدرجة أقل أو أكثر ، يجرؤ على

الانتقال إلى العموم وإصدار الأحكام المتصلة بالمعاناة الداخلية والخارجية ، وكان ثمة إحساس مرهف جليّ ، واعتدال خاص ، كان القوم يلتزمون فيه الطريق الوسط ويضفون الشرعية على كل الآراء حول الحق ، يهيىء لأمثال هذه الكتابات والتصريحات الشفهية ، سمعةً وثقة . وعلى هذا النحو وُجد آخر الأمر فلاسفة في كل الكليات . بل في كل الطبقات والصناعات .

وعلى هذا الطريق كان لابدّ لعلماء اللاهوت أن يميلوا ناحية ما يسمى الدين الطبيعي (١) ، وحين كان الأمر يتصل باللغة ، وإلى أي مدى يكفينا نور الفطرة من أجل تنمية معرفة الله وتحسين أنفسنا ، كان القوم يُقدِمون في العادة ، دون كثير من التردد ، على الفصل في الأمر لصالحه . وانطلاقاً من مبدأ الاعتدال هذا كان القوم يَهَبون بعد ذلك لكل الأديان الوضعية حقوقاً متساوية ، الأمر الذي غدا به كلٌّ منها مكافئاً للآخر ، ومساوياً له في إثارته للشكّ . ولكن القوم كانوا يَدَعون آخر الأمر مع ذلك كل شيء قائماً على حاله . ولما كان الكتاب المقدس يبلغ من امتلائه بالمضمون أنه يتيح أكثر من أي كتاب آخر مادة للتفكير وفرصة للتأملات في الأمور الانسانية ، فقد كان من الممكن أن يتخذ أساساً بصورة مطلقة ، وكما هو مألوف ، في كل الخطب المنبرية وسائر الأحاديث الدينية .

ولكن هذا الأثر كان يواجهه بعدُ ، شأن كل الكتاب الدنيويين ، مصيرٌ خاصّ ، لم يكن ثمة سبيل إلى تحويله على تعاقب الزمان ، وذلك أن القوم كانوا قد افترضوا ، وهم مؤمنون مخلصون ، أن سَفْر الأسفار هذا قد تم وضعه بروح واحدة ، بل أنّ الروح الالهية قد

نفثته وكأنما أمْلَته إملاءً . ومع ذلك فقد كانت ضروب التباين بين الأقسام المختلفة في هذا الكتاب تتعرّض للنقد حيناً ويُدافَع عنها حيناً آخر من قبل المؤمنين وغير المؤمنين . وكان الانكليز ، والفرنسيون ، والألمان قد هاجموا (٢) الكتاب المقدس بما يقلّ أو يكثر من العنف وحدة الذهن والقحّة والجرأة ، وعلى النحو ذاته قام أناس جادّون ، أولونية حسنة ، من كل أمة ، بحمايته من جديد . أمّا أنا فقد كنت أحبّه وأقدّره : لأنني كنت مديناً له وحده تقريباً بتربيتي الأخلاقية ، إذ كانت كل الأحداث والدروس والرموز والتشبيهات ، وكل ذلك قد انطبع انطباعاً عميقاً في نفسي وغدا فعّالاً بطريقة أو بأخرى . ومن أجل ذلك لم تكن تعجبني أوجه الطعن الظالمة ، الساخرة ، والقائمة على التحريف . ومع ذلك فقد كان القوم قد ذهبوا إلى درجة قبول أساس رئيسي للدفاع عن كثير من المواضع بصورة طوعية إلى حد كبير ، وهو أن الله قد اتخذ وجهة ملائمة لنمط التفكير والإدراك عند البشر ، وأن أولئك المطرودين من قبل الروح القدس ما كانوا ليقدروا على أن يتجاهلوا شخصيتهم وفرديّتهم ، وأن عاموس ، راعي البقر لم يكن يتحدث بلغة إشعيا الذي يقال إنه كان أميراً .

وقد نشأ عن هذه المقاصد والقناعات ، ولاسيما مع المعارف اللغوية المتنامية على نحو مطرد ، وبصورة طبيعية للغاية ، ذلك النوع من الدراسة الذي كان القوم يحاولون به أن يدرسوا الجوانب المحليّة والاستشراقية والقومية والمنتجات الطبيعية والظواهر ، دراسة دقيقة ، وأن يجسّدوا لأنفسهم على هذه الطريقة ذلك العالم القديم . وكان ميخائيليس (١) يبذل كل طاقةٍ من طاقات موهبته ومعارفه في هذا الصدد . وغدت كتب وصف الرحلات وسيلة مساعدة قوية لتفسير الكتاب المقدس .

وغدا من المفروض أن يقوم رحالة جدد . مسلحون بكثير من الأسئلة ، بالشهادة للأنبياء والرسل عن طريق الإجابة عن تلك الأسئلة .

ولكن بينما كان القوم يسعون ، من كل النواحي ، إلى أن ينتهوا بالكتب المقدسة إلى نظرة طبيعية ، وأن يجعلوا طريقة التفكير والتصور الحقيقية في تلك الكتب مفهومة على نطاق أكثر عموماً ، ليدفعوا ، بهذه النظرة النقدية التاريخية (٢) بعض الاعتراضات ويمحوا بعض الأمور المنفّرة ، لتتمّ إزالة مفعول كل تهكّم سطحي : كان يظهر لدى بعض الرجال عقلية مقابلة لذلك تماماً ، إذ كان هؤلاء يختارون أكثر الكتابات غموضاً وانطواءً على الأسرار موضوعاً لتأملاتهم . والحق إنهم لم يكونوا يريدون أن يُلقوا ، عن طريق التخمينات والحسابات والعمليات التركيبية الذهنية الغريبة الأخرى ، الضوء على هذه الأسفار من لَدُنْ أنفسهم ، بل كانوا يريدون أن يدعموها ، وأن يتخذوا لها من النجاح أساساً ، ما دامت تنطوي على تنبؤات ، ويبرروا الإيمان بما هو منتظر قبل سواه .

وكان الشريف بينْجلٍ (٣) قد شقّ بذلك لجهوده من أجل نبوءة يوحنا مدخلاً حاسماً ، فكان يعرف بأنه رجل لاعيب فيه ، فهو قابل للفهم ، مستقيم الطبع ورع . وإنما تضطر النفوس العميقة إلى أن تعيش في الماضي مثلما تعيش في المستقبل ، ولايمكن للعمل الدنيوي المألوف أن يكون ذا معنى لديهم ما لم يمجّدوا ، على مدى العصور ، وحتى العصر الحاضر ، نبوءات جرى الكشف عنها ، ونبوءات مكتومة ، في المستقبل القريب ، وكذلك في المستقبل المتناهي في البعد . وينبثق عن ذلك سياق يُفتَقد في التاريخ الذي يبدو أنه لا يقدم لنا إلاّ مجرد حركة نوّاسية، في جيئة وذهاب قائمين على المصادفة ، في دائرة مغلقة بالضرورة .

وكان الدكتور كروسيوس (١) بين أولئك الذين كان القسم التنبؤيّ من الكتب المقدسة يحظى بأقصى إعجابهم ، إذ كان يدفع بالخاصتين المتقابلتين للكيان البشري إلى العمل في وقت واحد ، وهما الوجدان وحدّة الذهن ، وكان كثير من الشباب قد أقبلوا على هذا العلم ، وكوّنوا جمهوراً مرموقاً كان يلفت النظر بصورة أكبر حين لم يكن إرنستي (٢) ، مع أتباعه ، يهدد ببعث الضوء في الظلام الذي كان هؤلاء سادرين فيه ، بل كان يهدد باكتساحه تماماً . ونجم عن ذلك منازعات وكراهية وملاحقة ، وبعض المنغّصات . وكنت ألزم جانب الحزب الواضح وأسعى إلى اكتساب مبادئه ومزاياه ، على الرغم من أنني كنت أسمح لنفسي أن تحسّ أن المضمون الشعري لتلك الأسفار لابد له آخر الأمر أن يذوب مع المضمون التنبؤي بطريقة التأويل هذه اليسيرة الفهم ، والتي تستحق الثناء إلى أقصى الحدود .

ولكن ما كان أقرب إلى اهتمام أولئك الذين كانوا ينصرفون إلى الأدب الألماني والفنون الجميلة إنما كان جهد أمثال هؤلاء الرجال ، مثل ييروساليم (٣) وتسولليكوفر (٤) وشبالدنج (٥) ، الذين كانوا يسعون ، في مواعظهم ومقالاتهم ، وعن طريق الأسلوب الحسن النقيّ ، إلى أن يظفروا بالإعجاب والولاء للدين وعلم الأخلاق الوثيق الصلة به ، حتى من لدن شخصيات ذات عقلية وذوق معيّنين . ولما كان مثل هذا الطراز من الكتابة لابد أن يكون قابلاً للفهم قبل كل شيء ، فقد نشأ ، من كثير من الجوانب ، كتّابٌ كانوا يقومون بالكتابة عن دراساتهم ومهماتهم كتابة واضحة عميقة الأثر ، سواء بالقياس إلى ذوي الاطلاع أم بالقياس إلى الجمهور .

وبدأ الأطباء الآن أيضاً يحدثون آثارهم في الثقافة العامة بصورة نشيطة ، وهم يتأسّوْن بأجنبيّ هوتيسّو (١) . وكان لهالمّر (٢) وأوْنْتسَر (٣) وتسِمَرْمان (٤) أثر كبير ، ومهما يمكن أن يقول المرء عنهم بصورة مفصّلة ، ولاسيما بالنسبة للأخير ، فقد كـــان لهم أثر فعال في عصرهم ، وإنما ينبغي أن يرد الحديث عن ذلك في التاريخ . ولاسيما في السيرة . ذلك لأن الإنسان لايظل ذا أهمية بمقدار ما يخلّف شيئاً ما ، بل بمقدار ما يؤثر ويتميّز بالأثر ، ويدفع الآخرين إلى التأثير والتميّز بالأثر .

أما علماء القانون الذين تعوّدوا منذ صباهم أسلوباً غامضاً كان يحافظ على ثباته على طريقة عصر الباروك (٥) في كل المهمّات ، من وظيفة الفارس العجلان إلى مجلس نواب المملكة في ريجنزبورج ، فلم يستطيعوا أن يرتقوا بأنفسهم إلى حرية معينة ، ولاسيما حين غدت الموضوعات التي كان عليهم أن يعالجوها ترتبط بالشكل الخارجي ، وبالتالي بالأسلوب أيضاً ، أدقّ ارتباط . ولكن فون موزر (٦) الأصغر كان قد أبلى بلاء حسناً بحكم كونه كاتباً حراً ذا سمة خاصة ، كما أضفى بوتّر (٧) ، بوضوح عرضِه ، الوضوح أيضاً على الموضوع والأسلوب الذي ينبغي أن يعالج به . وكان كل ما يخرج من مدرسته يتميّز بذلك . على أن الفلاسفة أنفسهم وجدوا أنفسهم الآن مضطرين إلى أن يكتبوا بوضوح وعلى نحو قابل للفهم ليكونوا شعبيّين . وظهر مندلسون (٨) ، وجارفهِ (٩) ، وأثارا اهتماماً وإعجاباً عامّين .

ومع صياغة اللغة الألمانية والأسلوب في كل مادّة علمية نمت أيضاً مَلَكة الحكم . ونحن نعجب في كل عصر بتحقيق مؤلّفات في

الموضوعات الدينية والأخلاقية ، ومثلها في الموضوعات الطبيّة ، حين نلاحظ في مقابل ذلك أن ضروب الحكم على القصائد ، وكل ما يمكن أن يمت بصلة إلى الأدب الجميل كان بالغ الضعف إن لم يكن يدعو إلى الإشفاق . وهذا ينطبق حتى على « الرسائل الأدبية » (١٠) ، وعلى « المكتبة الألمانية العامة » ، كما ينطبق على « مكتبة الفنون الجميلة » التي يستطيع المرء بسهولة بالغة أن يورد أمثلة هامة عليها .

ومع ذلك فربّما اختلط هذا كله بعضه ببعض على نحو شديد التلوّن ، ولكن مهما يكن من اختلاط هذا كله بعضه ببعض وتلوّنه فانه لم يبق لكل امرئ كان يفكر في انتاج شيء صادر عنه ، وهو يريد ألاّ يأخذ الكلمات والعبارات إلاّ من أفواه أسلافه ، إلاّ أن يبحث فيما حوله ، صباح مساء ، عن مادة كان يفكر في استعمالها . وهنا أيضاً تعرّضنا للتضليل ، وكان الناس يعلّلون أنفسهم بكلمة لكلايست (١) كان لابدّ لنا أن نسمعها على نحو متكرر بما فيه الكفاية ، وذلك أنه أجاب أولئك الذين لاموه كثيراً بسبب نزهاته الوحيدة المتكررة ، في دُعابة وظُرف وصدق ، قائلاً إنه لايقوم بذلك متسكعاً وإنما يذهب لاصطياد الصور . وربما كان هذا ملائماً كل الملاءمة لنبيل وجندي يواجه بذلك رجالاً من طبقته ممن لايقصّرون في الخروج كلما أتيحت لهم الفرصة ، وهم يتقلدون البنادق ، خارجين لصيد الأرانب والدجاج . ولذلك فنحن نجد في قصائد كلايست ، من أمثال هذه الصور المفردة التي وُفّق في اقتناصها ، على الرغم من أنها ليست موفقة في المعالجة دائماً ، بعض ما يذكرنا بالطبيعة تذكيراً حميماً ، ولكن القوم كانوا يحذّروننا الآن تحذيراً جاداً كل الجد من الخروج لاصطياد الصور التي لم تكن تدعنا مع ذلك آخر الأمر بغير ثمرة على الإطلاق ، على الرغم من أن حدائق

آبل (٢) ، وكوخن ، وروزنتال ، وجوليز وراشفيتز وكونيفيتز ربما كان من الممكن أن تكون أروع مجال للصيد يلتمس المرء فيه لحم الطرائد الشعرية .ومع ذلك فكثيراً ما كان يدفعني ذلك الحافز إلى القيام بنزهاتي وحيداً . ولمّا لم يكن يظهر للمتفرج شيء كثير ، لا من الموضوعات الجميلة ، ولا من الموضوعات الرفيعة ، وكان البرغش في وادي روزنتال الرائع حقاً لايسمح لفكرة لطيفة بالظهور ، فقد غدوت ، مع الجهد المتصل بغير كلال ، في أقصى حالات التنبّه إلى الحياة الصغيرة في الطبيعة (وأودّ أن أستعمل هذه الكلمة قياساً على الحياة الهادئة) .ولما كانت الأحداث الدقيقة التي يَعيها المرء في هذا المجال لاتقدّم في حد ذاتها إلاّ قليلاً ، فقد عوّدت نفسي أن أرى فيها معنى يميل إلى الجانب الرمزي حيناً ، وإلى جانب الكناية حيناً آخر ، تبعاً لرجحان النظرة أو الشعور أو التفكير ، وأودّ أن أروي حدثاً واحداً بدلاً من كثير

لقد كنت ، على عادة البشر ، مولعاً باسمي ، وكنت أكتبه ، على حسب عادة الصغار وغير المثقفين ، في أي مكان . وذات مرة نقشته ، على نحو فائق الجمال والدقة ، على اللحاء الأملس لشجرة زيزفون متوسطة العمر . وفي الخريف التالي ، حين كان ميلي إلى آنيتا في أوج ازدهاره ، جشّمت نفسي مشقة نقش اسمها في أعلاه . وفي هذه الأثناء كنت قد تجاوزت الحدود ، في أواخر الشتاء ، وأنا العاشق المتعسّف ، معذّباً إياها في بعض المناسبات ، ومثيراً لاستيائها وفي . الربيع زرت المكان زيارة عارضة . وكان النسغ الذي سرى بقوّة في الأشجار قد انبثق من خلال الخدوش التي كانت تشير إلى اسمها ، والتي لم تكن قد تصلّبت بعد ، وبلّلت بدموع النبات البريئة ملامح اسمي التي كانت قد غدت قاسية . وأفزعني أن أراها تبكي عليّ ،

وأنا الذي طالما كنت استثير دموعها بألوان شقاوتي . ولمّا ذكرت ظلمي لها وحبّها لي اغرورقت عيناي بالدموع ، فأسرعت إليها لأستغفرها من كل شيء ، مرتين وثلاثاً ، وحوّلت هذا الحدث إلى قصيدة رعويّة لم أكن أستطيع أن أتلوها على الآخرين دون جنوح عاطفيّ أو تأثر .

وفي الوقت الذي كنت فيه الآن أتعمّق في أمثال هذه الموضوعات الرقيقة ، تعمقاً فيه من الطفولية ما يكفي ، ولم أكن أختار دائماً إلاّ تلك الموضوعات التي كنت أستطيع أن أستعيدها في خاطري بسرعة ، كان ذلك منذ عهد بعيد موضوع الاهتمام عند الشعراء الألمان انطلاقاً من جانب أكبر وأكثر أهمية .

على أن المضمون الحيوي الحقيقي الأصيل ، والأول ، والأسمى ، إنما دخل الشعر الألماني عن طريق فريدريش الأكبر ووقائع حرب السنوات السبع (١) . وذلك أن كل أدب قومي لابد أن يكون فاتراً عديم النكهة أو يغدو كذلك ، ما لم يكن قائماً على ما هو إنسانيّ في المقام الأول ، وعلى أحداث الشعوب ورُعاتها ، حين يقف كِلا هذين موقفَ الرجل الواحد . وإنما ينبغي تصوير الملوك في الحرب والخطر ، حين يظهرون بذلك في صورة الأوائل ، لأنهم يتحكمون في مصير آخر الأواخر ويشاركون فيه ، ويُمسون بذلك أكثر إثارة للاهتمام من الآلهة ذاتها ، وهي التي تنجم عن المشاركة في المصائر بعد أن تقرّرها . وبهذا المعنى ، لابد لكل أمة ، إذا كانت تريد أن تبلغ منزلةً ما ، أن تمتلك ملحمة لايكون فيها شكل القصيدة الملحمية ذاته ضرورياً .

ومن أجل ذلك تحتل « أناشيد الحرب » (١) التي استهلّها جلايم ، مكانة رفيعة للغاية بين القصائد الألمانية ، لأنها انبثقت بالمشاركة والفعل ،

وفوق ذلك بعدُ ، لأن الشكل الناجح فيها يدعنا نحسّ بأكمل أشكال الفعالية . وكأن رفيقاً من رفاق الحرب قد بعثها في أسمى اللحظات .

ويتغنّى راملر (٢) بصنائع مليكه بطريقة أخرى متناهية في النبل ، وتعد كل قصائده حافلة بالمضمون ، وهي تشغلنا بموضوعات كبيرة تسمو بالقلب ، وتحظى من جرّاء ذلك بقيمة لايتطرّق إليها الفساد .

ذلك لأن المضمون الداخلي للموضـــوع المُعالَج إنما هو مبتدأ الفن ومنتهاه . والحق أن المرء لاينكر أن العبقرية والموهبة الفنية المدرَّبة ، تستطيع ، بالمعالجة ، أن تصنع كل شيء من كل شيء ، وأن تطوع المادة الجامحة . ولكن إذا أمعنّا النظر فان ما يفترض أن يقوم على موضوع نبيل إنما ينشأ دائماً في صورة قطعة فنية أكثر مما ينشأ في صورة عمل فنيّ ، لكي تحقق لنا المعالجة ، عن طريق البراعة والجهد والنشاط ، سموَّ المادة على نحو أكثر نجاحاً وروعة .

وإذاً فقد كان البروسيون ، ومعهم ألمانيا البروتستانتية ، قد اكتسبوا لأدبهم كنزاً كان الطرف المقابل يفتقر إليه ، ولم يكن هؤلاء يستطيعون تعويض نقصه عن طريق جهد لاحق ، وكان البروسيون يكوّنون أنفسهم أول الأمر تبعاً للتصور الكبير الذي كان من حقهم أن يحملوه عن مليكهم ، ثم تجاوزت همتهم ذلك الذي كانوا يعملون كل شيء باسمه ، والذي أمسى يتبرأ منهم إلى الأبد . وكان قد ورد بروسيا ، منذ عهد سابق ، عن طريق المستعمرة الفرنسية ، وعن طريق إيثار الملك لثقافة هذه الأمة ومؤسساتها المالية ، فيضٌ من الثقافة الفرنسية غدا ذا فائدة جُلّى بالقياس إلى الألمان ، إذ استفزّتهم إلى المعارضة والمقاومة ، كما أن نفور فريدريك مما هو ألمانيّ ، من أجل بناء الحياة الأدبية ، كان أمراً ينطوي على الخير .

وذلك أن القوم كانوا يعملون كل شيء ليحملوا الملك على أن يلاحظهم ، ولم يكونوا يفعلون ذلك ليحظوا باحترامه ، بل ليلفتوا نظره ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك على الطريقة الألمانية ، حسب قناعة داخلية ، وكانوا يفعلون ما كانوا يقرّون به ويتمنونه ويريدونه بحق ؛ وهو أن يعترف الملك بهذا الجانب الألمانيّ الصحيح ويقدّره . على أن هذا لم يحدث ، وما كان ليحدث . وأنّى لامرىء أن يطالب ملكاً يريد أن يحيا حياة الفكر ويتمتع بها ، بأن يضيّع سنواته ليرى هذا الذي يراه بربرياً وقد تطوّر وغدا قابلاً للاستمتاع ، في وقت متأخر للغاية ؟ لقد كان من الممكن أن يفرض على نفسه ، وعلى شعبه بوجه خاص ، في مسائل العمل اليدوي والصناعي ، بدائل معتدلة جداً . ولكن كل شيء هنا كان يمضي نحو الكمال بصورة أسرع . ولم يكن الأمر يحتاج إلى عمر إنسان للوصول بأمثال هذه الأشياء إلى النضج .

ولكن لابد لي أن أذكر هنا ، قبل كل شيء ، بصورة مشرفة ، عملاً يعد النتاجَ الأكثرَ أصالةً لحرب السنوات السبع ، وهو ينطوي على مضمون قومي ألماني شمالي كامل ، وهو الانتاج المسرحي الأول الصادر عن الحياة المفعمة بالمغزى ، وذو المضمون المحدّد والمرتبط بالزمان ، والذي أحدث ، من أجل ذلك ، أثراً لاسبيل إلى تقديره أبداً ، ألا وهو « مينافون بارنهلم » (١) . وذلك أن ليسّنغ ، الذي كان يسرّه ، على النقيض من كلوبشتوك وغْلايْم ، أن يضرب بالمكانة الشخصية عرض الحائط ، لأنه كان واثقاً من القدرة على استعادة زمامها وتبوُّئِها في كل لحظة ، ارتضى لنفسه حياة مشردة في الفنادق ، وفي الأرض العريضة ، لأنه كان يحتاج دائماً إلى ثقل توازنيّ هائل مقابل

داخله الذي يقوم بعمل جبار ، فتوجه إلى حاشية اللواء تاونتسيين .
ويتبين المرء بسهولة كيف يتم إخراج المسرحية المذكورة بين الحرب والسلام ، وبين الضغينة والهوى . لقد كان هذا الإنتاج هو الذي فتّح *الأبصار على عالم أسمى وأحفل بالمعاني من العالم الأدبي والمدني الذي* كان فن الأدب يتحرك فيه حتى الآن ، بصورة موفّقة .

ولم يكن من الممكن إزالة التوتر الحاقد الذي كان يسود بين . البروسيين والسكسونيين أثناء هذه الحرب ، بانهائها ، إذ كان السكسوني يشعر الآن فحسب شعوراً مؤلماً بالجراح التي ألحقها به البروسي الذي بات متعجرفاً . ولم يكن من الممكن توطيد السلام بين النفوس على الفور عن طريقِ السلم السياسيّ . غير أنه كان من المفروض أن يحدث هذا الأثرَ مسرحيةٌ مقصودة على نحو تصويريّ . ويتغلّب ظُرف السكسونيات ورقتهن على القيمة والكرامة والعناد عند البروسيين . ويتم بصورة فنية تصوير اتحاد سعيد بين عناصر غريبة متعارضة ، سواء من خلال الشخصيات الرئيسية أم من خلال الأتباع .

ولئن كنت قد أربكت قرائي إلى حد ما ، بهذه الملاحظات العابرة والمتقطّعة حول الأدب الألماني ، فقد تمكنت من تقديم عرض لذلك الظرف الفوضوي الذي كان يوجد فيه دماغي المسكين ، حين كان يزدحم عليّ ، في غمرة صراع بين عصرين ينطويان على أهمية كبيرة بالقياس إلى الوطن الأدبيّ ، كثيرٌ جداً من الجديد قبل أن أتمكن من تقبّل القديم ، وكان كثيرٌ جداً من القديم مازال يفرض حقّه عليّ ، إذ كنت أعتقد أن لديّ من الأسباب ما يبيح لي أن أتنكّر له كل التنكّر . وأود أن أحاول في الوقت الحاضر أن أبيّن أيّ طريق سلكت لأنجو بنفسي من هذه المحنة ، ولو خطوةً فخطوة .

لقد عالجت العصر المتطاول الذي كان شبابي واقعاً فيه ، معالجة جادة مخلصة ، في صحبة عدد جمّ من الرجال ذوي المكانة . وقد كان من الممكن أن تتخذ مجلدات المخطوط المربّعة * العديدة التي خلفتها لوالدي شاهداً كافياً . وما أكبر ذلك القدر من التجاريب ، والمشاريع ، والخطط المنفذة نصف تنفيذ ، والتي تبخّرت بدافع الاستياء أكثر مما تبخرت بدافع الإقتناع ! على أنّني تعلمت الآن عن طريق الإقناع بصورة مطلقة ، وعن طريق الدرس ، وعن طريق بعض الآراء المتعارضة ، وبصورة خاصة عن طريق رفيق مائدتي ، مستشار البلاط بفايل ، أن أقدّر بصورة مطردة الزيادة ما هو مهم في المادة ، وموجز المعالجة ، دون أن أستطيع مع ذلك أن أوضح لنفسي أين يُلتمَس ذاك ، وكيف الوصول إلى هذا . فبالنظر إلى المحدودية الكبرى لظرفي ، واللامبالاة عند الزملاء ، وتحفّظ المعلمين ، وعزلة المثقفين من السكان ؛ وإلى موضوعات طبيعية لاأهمية لها البتة . كنت مضطراً إلى التماس كل شيء في ذاتي نفسها . ولماكنت أبتغي الآن لقصائدي أساساً أو إحساساً أو تفكيراً ، فقد كان لابد لي أن ألجأ إلى صدري . ولما كنت أطالب بنظرة مباشرة إلى الموضوع ، وإلى الحدث ، من أجل التصوير الشعري ، لم يكن يجوز لي أن أخرج من الدائرة التي كان يلائمني التماسّ معها وبعث الاهتمام بها في نفسي . وبوحي هذه الفكرة كتبت أول الأمر قصائد صغيرة معينة (١) في قالب الأغنية ، أو بالوزن الحر ، كانت منبثقة عن التفكير ، تتناول الماضي ، وتتخذ في أغلب الأحيان منعطفاً ساخراً .

(*) Quarto قياس معروف للورق ، يقابل قياس الفولسكاب .

وعلى هذا النحو بدأ ذلك الاتجاه الذي لم أستطع أن أحيد عنه طوال حياتي ، وهو أن أعالج ما كان يسرني أو يعذبني ، أو يشغلني فيما عدا ذلك ، بتحويله إلى صورة ، إلى قصيدة ، وأتخلص من هذا إلى نفسي ذاتها ، سواء لأصحح تصوراتي عن الأشياء الخارجية ، أم لأبعث الهدوء في قرارة نفسي . ولم تكن الموهبة اللازمة لذلك ضرورية بالقياس إلى أحد أكثر مما كانت بالقياس إليّ ، وأنا الذي كانت طبيعته تقذف به أبداً من حدٍّ أقصى إلى الحد الأقصى الآخر ، ولذلك فان كل ما عرف عني ليس إلاّ أجزاء من مذهب كبير (٢) كان هذا الكتيّب محاولة جريئة لتكميله . وكنت قد حوّلت الآن هواي السابق لجريتشن إلى فتاة هي آنيتّا (٣) التي لم أكن أستطيع أن أقول عنها أكثر من أنها كانت شابة ، حسناء ، طَلْقة الأسارير ، لطيفة ، وكان يبلغ من عذوبتها أنْ كانت لتستحق أن توسّد في خزانة القلب حيناً من الزمان قدّيسةً صغيرة يكرَّس لها كل التبجيل ، وكان العطاء يبعث فيها الارتياح أكثر من الأَخْذ . وكنت أراها في كل يوم دونما عوائق ، وكانت تساعد في تحضير الأطعمة التي كنت أستمتع بها ، وكانت على الأقل تأتيني في المساء بالخمر الذي كنت أشربه ، بل كانت مجموعة مائدتنا المغلقة عند الظهيرة ضماناً يستحق به البيت الصغير الذي كان قليلٌ من الضيوف يزورونه فيما خلا أيام المعرض ، سمعتَه الحسنة حقاً . وكانت الفرص سانحة لبعض التسلية والمتعة . ولكن لما كانت قلما تستطيع ، أو يُباح لها أن تنأى عن الدار ، فقد أصبحت تزجية الوقت مع ذلك ضئيلة إلى حد ما . وكنا ننشد أغاني زخاريا (٤) ، أو نمثل « الدوق ميشيل » (٥) لكروجر ، حيث لم يكن بدٌّ من الإشارة إلى مكان البلبل بمنديل جيب معقود . وهكذا سارت الأمور حيناً من

الزمان سيراً معتدلاً للغاية . ولكن لمّا كانت أمثال هذه العلاقات ، كلّما ازدادت براءةً قلّ ، مع الأيام ، ما تُحقِّقُ من تعدد في الجوانب ، فقد أُصِبت بذلك الداء الخبيث الذي يغرينا بأن نتخذ من عذاب المحبوب تسلية ، ونتحكم باستسلام الفتاة بأهواء قائمة على العَسَف والطغيان . وكنت أرى أن من حقي أن أصبّ عليها مزاجي السيء الناجم عن إخفاق محاولاتي الشعرية ، والاستحالة الظاهرة لانجلاء الأمر في هذا الصدد ، وكل ما كان ينغّصني فيما عدا ذلك ، هنا وهناك ، لأنها كانت تحبني حقاً بقلبها ، وكانت تصنع كل ما في وسعها ابتغاء مرضاتي . وقد أفسدت بألوان الغيرة التي لاأساس لها ، والمجافية للذوق ، على نفسي وعليها ، أجمل الأيام ، واحتملَتْ هي حيناً من الزمان ، بصبر لايصدّق ، ما كان يبلغ من قسوتي أن أقترفه بالغاً به أقصى الحدود . ولكن لم يكن لي بدٌ من أن ألاحظ آخر الأمر ، وقد أصابني العار واليأس ، أنها قد نأت بنفسها عني ، وأنني ربّما كنت الآن على حق في الحماقات التي كنت أسمح بها لنفسي دونما ضرورة أو سبب ، وكانت بيننا أيضاً مشاهد مروعة لم أخرج منها بطائل ، وقد شعرت الآن فحسب أني كنت أحبها حقاً ، وأنني لاأستطيع أن أستغني عنها . واستفحل هواي ، واتخذ كل الأشكال التي يقدر عليها في أمثال هذه الظروف ، بل إنني أخذت آخر الأمر أقوم بدور الفتاة الذي كانت تقوم به حتّى الآن . وجعلت أنقّب عن كل شيء ممكن لأحظى برضاها ، بل حتّى لأهيء لها السرور عن طريق الآخرين : ذلك لأني لم أكن أستطيع أن أقطع على نفسي حبل الأمل في استعادتها من جديد . ولكن كان الأوان قد فات ! فقد كنت خسرتها حقاً . على أن الجنون الذي انتقمت به لخطأي من نفسي ذاتها ، إذ

عَصَفْتُ بطبيعتي الجسدية بطريقة حمقاء لأسيء إلى الطبيعة الأخلاقية بعض الإساءة ، أسهم إسهاماً كبيراً جداً في الآفات الجسدية التي خسرت بها بعضاً من أفضل سنوات الحياة ، بل كانت هذه الآفات خليقة أن تقضي عليّ قضاءً مبرماً لولا أن الموهبة الشعرية أثبتت هنا ، بطاقاتها الشافية أنها ذات جدوى غير عادية .

وكنت قد أدركت من قبل ، شقاوتي في بعض اللحظات بما يكفي من الوضوح . وكانت البُنيّة المسكينة تبعث في نفسي الأسى حقاً إذ كنت أراها مجروحة من قبَلي دونما سبب على الإطلاق . وكثيراً ما كنت أصور لنفسي وَضْعَها وَوَضعي ، وفي مقابل ذلك حالة الرضا بين زوجين آخرين من مجتمعنا ، وعلى نحو شديد التفصيل حتى أنني لم أكن أستطيع في النهاية أن أتمالك نفسي أن أعالج هذا الموقف معالجةً مسرحية ، بل تكفيراً معذّباً ومعلّماً . ونجم عن ذلك أقدم أعمالي المسرحية الباقية ، وهي المسرحية الصغيرة « نزوة العاشق » ، التي يحسّ المرء ، من بنيانها البريء ، في الوقت نفسه بدَفْق عاطفة مستعِرة .

ولكن عالماً عميقاً ، حافلاً بالمعاني ، شديد الوطأة كان قد خاطبني . وكنت قد أرسلت بصري ، أثناء قصتي مع جريتشن ونتائجها ، في ذلك الحين ، في المتاهات الغريبة (١) المحفورة تحت مجتمع الطبقة الوسطى . وذلك أن الدين والأخلاق والقانون ، والطبقات ، والعلاقات ، والعادة ، كل ذلك لايسيطر إلاّ على السطح الخارجي من الحياة المدنية ، فأما الشوارع التي تحتلها البيوت الرائعة فتجري المحافظة على نظافتها ، ويتصرف كل امرىء هناك تصرفاً لائقاً بما يكفي ، ولكن ما في الداخل يبدو في كثير من الأحيان أكثر إيحاشاً ، وثمة مظهر خارجي صقيل

يكسو بملاطه ، كالكسوة الواهية ، بعض الجدران الهشة التي تنهار بين عشية وضحاها وتحدث أثراً أدعى إلى الفزع حين تهوي في غمرة حالة السلام . أوَ لم أرَ كثيراً من العائلات ، من قريب أو بعيد ، تهوي إلى الفساد عن طريق الإفلاس ، وحالات الطلاق ، والبنات المتعرّضات للإغواء ، وحوادث القتل والسطو على المنازل ، وحالات التسمم ، أو تظل على شفير الهاوية في حالة يرثى لها ، وكنت ، على حداثة سني ، أمدّ يد العون في كثير من الأحيان ، في مثل هذه الحالات : ذلك لأنني لمّا كانت صراحتي تبعث على الثقة ، وكان كتماني مجرّباً ، وكان نشاطي لايحجم عن تضحية ، ويحب ، أكثرَ ما يحب ، أن يحدث أثره في أكثر الحالات خطورة : فقد كنت أجد في كثير من الأحيان فرصاً كافية للتوسّط ، والسَتْر ، وتحويل شعاع الضوء ، وكل ما يمكن عمله عدا ذلك ، حيث لم يكن يعدم الأمر أن اضطر إلى الوصول إلى بعض التجاريب المزعجة والمهينة ، سواء بنفسي ، أم عن طريق الآخرين . ولكي أجد متنفّساً وضعت بعض المسرحيات وكتبت البيانات التفسيرية لمعظمها . ولكن لما كان لابدّ للمضاعفات أن تغدو مفزعة في كل حين ، وكان كل هذه المسرحيات تقريباً ينذر بنهاية مأساوية فقد تركت الواحدة منها تسقط بعد لأخرى . على أن مسرحية « المتورطون » هي الوحيدة المكتملة ، التي تبدو طبيعتها المرحة القائمة على المحاكاة الساخرة مقترنة بالأساس العائلي الكئيب من حيث كونه شيئاً يبعث على الفزع ، بحيث تبعث ، لدى عرضها ، على الفزع إجمالاً ، وإن كانت مسليّة في التفاصيل . وإنما تجرح الأحداث المنافية للقانون ، والتي يتم التعبير عنها بصورة قاسية ، الحسّ الأخلاقي . ومن أجل ذلك لم يكن من الممكن أن تشق المسرحية طريقها . على المسرح الألماني ، على الرغم

من أن ضروب التقليد لهذه المسرحية ، التي نأت بنفسها كثيراً عن تلك المخاطر قوبلت بالإعجاب .

ومع ذلك فقد كتبت كلتا المسرحيتين المذكورتين ضمن إطار وجهة نظر أعلى ، دون أن أعيَ ذلك . فهما تشيران إلى تسامح حذر في الحساب الأخلاقي ، وتعبّران ، في خطوط تتسم بشيء من القسوة والخشونة ، وبصورة تمثيلية ، عن تلك الكلمة المسيحية إلى أقصى الحدود : من كان يحسّ ألاّ خطيئة له ، فليقذف بأول حجر .

أما ما يتصل بهذا الجهد الذي كان يشيع الكآبة في مسرحياتي الأولى ، فقد ارتكبت خطأً يتمثل في تفويت موضوعات ملائمة جداً كانت تنسجم مع طبيعتي على نحو حاسم تماماً . وذلك أنه تطوّر لديّ ، من بين تلك التجاريب الجادة الباعثة على الفزع بالقياس إلى إنسان شاب ، روح فكاهة جريئة ، تشعر بتفوّقها على اللحظة الراهنة . ولم يكن يكفيها أنها لاتهاب خطراً ، بل كانت ، على النقيض من ذلك ، تستفزّه إليها بجرأة . وكانت علة ذلك تكمن في الخيلاء الذي يكون في سن القوّة الذي يُزهى فيه المرء بنفسه كثيراً ، والذي يبعث على كثير من المتعة حين يتجلى بصورة الدعابة ، سواء أكان ذلك في اللحظة الحاضرة ، أم كان في التذكر . وكان يبلغ من اعتياد هذه الأمور أنها كانت تسمى في قاموس أصدقائنا الشباب في المعهد العالي « الشقاوات » (Suiten) ، وأن المرء كان يستوي لديه أن يمارس الشقاوة أو يمارس الدُعابة .

وتمتاز هذه الضروب الفكاهية من الجسارة ، إذا ما نقلت إلى المسرح ، بروحها ومغزاها ، بأعظم التأثير ، وهي تتميز من المؤامرة (Intrige) ، بأنها ابنة اللحظة ، وأنها إذا كان لها غرض فلايجوز

أن يكون هذا الغرض بعيد المدى. وقد أحاط بومرشيه (١) بكل قيمتها. وأن آثار مسرحية « زواج الفيجارو » لتصدر عن ذلك بصورة متميّزة، ولئن تمت ممارسة أمثال هذه الشقاوات الخبيثة والماكرة من أجل أهداف نبيلة، مع المخاطرة الشخصية الناجمة عن ذلك، فان المواقف تعدّ، إذا نظرنا إليها من الوجهة الجمالية ذات قيمة كبرى بالقياس إلى المسرح، مثلما تتناول أوبرا « السقّاء » (٢)، مثلاً، موضوعاً ربما كان أكثر الموضوعات التي رأيناها على المسرح قاطبةً، حظاً من التوفيق.

ولكي أضفي المرح على ما في الحياة اليومية من سآمة لاحد لها، كنت أمارس عدداً لايحصى من أمثال هذه الكتابات الهجائيّة، وكنت أفعل ذلك على سبيل العبث الكامل حيناً، وحيناً آخر لأغراض خاصة بأصدقائي الذين كان يسرني أن أساعدهم. أما أنا فلم أكن أعرف أنني تصرّفت ههنا مرة واحدة عن قصد، كما لم يخطر ببالي قط أن أنظر إلى مغامرة من هذا النوع على أنها موضوع للفن. ولكن لو أنني أحطت بأمثال هذه المواد التي كانت جد قريبة مني، وأكملت صياغتها، لكانت أعمالي الأولى أكثر طلاقة وفائدة. والحق أن بعض ما يمت إلى ذلك بصلة يردعندي فيما بعد، ولكن بصورة متفرقة، ودونما قصد.

ذلك لأنه لما كان القلب أقرب إلينا دائماً من الفكر، وهو يدفعنا إلى الإبداع حين يستطيع هذا أن يتدبّر أموره، فقد كانت شؤون القلب تبدو لي الأكثر أهمية على الدوام. ولم يكن يعتريني الكلال من التفكير في سطحية الميول، وتقلّب الطبيعة البشرية، والنزعة الشهوانية في الأخلاق، وفي كل السمو والعمق الذي يمكن أن ينظر إلى ارتباطه بطبيعتنا على أنه لغز الحياة البشرية. وكنت هنا أيضاً أحاول أن أتخلّص

مما كان يعذبني ، في أنشودة ، أو قصيدة رِثائية ، أو في أي شكل من أشكال الشعر التي ما كانت لتثير اهتمام أي امريء آخر سواي لأنها كانت تتصل بأشد المشاعر خصوصية وبأكثر الظروف تميّزاً .

وكانت علاقاتي الخارجيّة قد تغيرت في هذه الأثناء تغيّراً كبيراً بعد انقضاء قليل من الزمان . وذلك أن السيدة بوهمهٍ كانت قد ماتت أخيراً بعد مرض طويل كثيب ، ولم تكن قد سمحت لي بعد ذلك بالدخول عليها آخر الأمر . ولم يكن زوجها يستطيع أن يرضى عني كثيراً ، إذ لم أكن في نظره نشيطاً بقدر كاف ، بل كنت شديد الطيش . وقد نقم عليّ نقمة شديدة بصورة خاصة حين نُميَ إليه أنني كنت أقوم ، في دراسة القانون العام ، برسم الأشخاص الواردين هناك ، مثل القاضي والرئيس ، والمستشار ، على هامش كراستي ، بأشعارهم المستعارة الغريبة ، بدلاً من الكتابة الواجبة ، وأحمل جيراني المتبهين بهذه الدُعابات على الشرود ، وأدفعهم إلى الضحك . وكان يعيش بعد فقدان زوجه حياة أكثر عزلة من ذي قبل ، وجعلت أجتنبه آخر الأمر تفادياً لمعاتباته . ولكن كانت المصيبة تكمن بوجه خاص في أنّ جيللرت كان يأبى استخدام العنف الذي كان في وسعه أن يمارسه تجاهنا . ولم يكن لديه بالطبع وقت ليقوم بدور كاهن الاعتراف ، ويستفسر عن عقلية كل واحد ونقائصه ، ولذلك كان يأخذ المسألة مأخذاً شديد الإجمال ، وكان يعتقد أنه يطوّعنا عن طريق المؤسّسات الكنسيّة ، ومن أجل ذلك كان من شأنه في العادة ، حين يأذن لنا بالدخول عليه ، أن يسألنا ، وهو مطرق برأسه الصغير ، وبصوت مستعذب فيه نبرة البكاء ، هل نذهب بنشاط إلى الكنيسة ، ومن يكون قسيس اعترافنا (١) ، وهل نستمتع بالعشاء الرباني ؟ فاذا خرجنا من هذا الامتحان بدرجة رديئة

آذنّنا بالخروج مشيّعين بالويل والثبور . وكنّا نلقى من المُناكدة أكثر مما نلقى من التشجيع ، ولكننا كنا لانملك إلاّ أن نحب الرجل من قلوبنا .

وفي هذه المناسبة لابدّ لي أن أستدرك شيئاً من صباي الأول لأصوّر كيف كان لابد للشؤون الكبرى للدين الكنسي أن تعالج ، في تسلسلها وترابطها ، إذ أريدَ لها أن تثبت أنها مثمرة كما يتوقع المرء لها . فليس في طقوس العبادة البروتستانتية من الوفرة والمثابرة إلاّ ما هو أقل من أن يستطيع المحافظة على تماسك الطائفة ، ولذلك يحدث بسهولة أن ينفصل الأعضاء عنها ، وعندئذ إما أن يشكلوا طوائف صغيرة ، وإمّا أن يمارسوا حياتهم المدنية بهدوء ، بعضُهم إلى جانب بعض ، دونما رابطة كنسيّة . وهكذا كان القوم يشكون منذ عهد طويل من أن روّاد الكنيسة يتناقصون من عام إلى عام ، وكذلك ، وبالنسبة ذاتها ، الأشخاص الذين يبتغون متعة العشاء الرباني . أما ما يتصل بكليهما ، ولاسيما الأخير ، فالعلة جدّ قريبة ، ولكن من يجرؤ على النطق بها ؟ فلنحاول ذلك .

إن الإنسان لايحب عمل شيء مرتجل سواء في المجال الطبيعي أم في المجال المدني . وتعد النتيجة التي تنبثق عنها عادةٌ من العادات أمراً ضرورياً بالقياس إليه ، وذلك أن ما ينبغي له أن يحبّه ويقوم به ، لايستطيع أن يفكر فيه بصورة منعزلة ، منقطعة عما حولها ، ولكي يكرّر شيئاً بسرور لابد ألاّ يتحول إلى شيء غريب عنه . وإذا كانت العبادة . البروتستانتية تفتقر إلى الخصب على وجه الإجمال ، فليبحث المرء في التفاصيل ، وسوف يجد أن البروتستانتي ليس عنده من الطقوس إلاّ القليل ، بل ليس لديه إلاّ واحد يثبت به نشاطه ، وهو العشاء الرباني . أما التعميد فلايراه يُؤدّى إلا للآخرين ، وهو لايشعر معه بالإرتياح .

وإنما تعد الطقوس أسمى ما في الدين ، فهي الرمز المحسوس للنعمة والرحمة الإلهيتين الفائقتين . ففي العشاء الرباني يفترض أن تتلقى الشفاه الأرضية كائناً ربّانياً متجسّداً ، وأن تحظى بالكائن الرباني متمثلاً في صورة طعام أرضي . وهذا المغزى هو ذاته في كل الكنائس المسيحية . وإنما يتم الاستمتاع بالطقس باستغراق أكثر أو أقلّ في السرّ ، وبانسجام أكثر أو أقل (١) مع ما يمكن فهمه ، على أن الأمر يظل دائماً حدثاً مقدساً كبيراً يحلّ محل الممكن أو غير الممكن ، بل محلّ ما لايستطيع الإنسان أن يناله ، ولا أن يستغني عنه . ولكن ما كان يجوز لهذا الطقس أن يظل وحده . فما من مسيحي يستطيع أن يستمتع بما يُؤتى بسرور حقيقيّ ما لم تتحقق فيه تغذية المعنى الرمزي أو الطقسي ولابد أن يعتاد على النظر إلى الدين الداخليّ للقلب ، والدين الخارجي للكنيسة على أنهما واحد مكتمل ، بل على أنهما السر المقدس (٢) الكبير العام ، الذي يتجزّأ من جديد إلى أسرار أخرى ، وينقل إلى هذه الأجزاء قدسيتها ومناعتها وخلودها .

فههنا يمدّ زوجان شابان ، كل منهما يده إلى الآخر ، لاتحيّةً عابرة ، أو لرقصة ؛ فالكاهن يمنح بركته لهما ، والرباط لاينفصم . ولا يدوم الأمر طويلاً ، وإذا هذان الزوجان يقدمان صورة مشابهة على عتبة الهيكل ، ويتم التطهير بالماء المقدس ، ويتحدان بالكنيسة اتحاداً لايمكن معه خسارة هذا الصنيع إلاّ بأفظع ضروب الارتداد . فالطفل يتمرّس في الحياة بالأشياء الأرضية بنفسه . أمّا في المجال العلويّ فلابد من تعليمه . وإذا ما تبين لدى الامتحان أن هذا الأمر تم على نحو كامل غدا ذلك ضماناً حقيقياً ليقبل مؤمناً أصيلاً حرّ الإرادة في أحضان الكنيسة ، غير مفتقر إلى المظاهر الخارجية لأهمية هذا الحدث . فهو

الآن فحسب مسيحي بصورة حاسمة ، وهو يطلع الآن فحسب على المزايا ، وعلى الواجبات أيضاً مع ذلك ، ولكن بعض الأمور العجيبة تواجهه في هذه الأثناء من حيث كونه إنساناً . ويتجلّى له ، عن طريق الدروس والعقوبات ، كيف تبدو حالته من الداخل باعثة على القلق ، ويظل الحديث أبداً يدور حول التعاليم وأشكال التجاوز . ولكن لاينبغي للعقوبة أن تحدث بعد ذلك . لقد أُعطِيَ الآن ، وهو في حيرته اللانهاية التي لابدّ أن يتخبّط فيها ، في غمرة الصراع بين مقتضيات الطبيعة ومقتضيات الدين ، وسيلة رائعة للبيان ، إذ يفضي بأفعاله وخطيئاته ونقاط ضعفه وشكوكه ، إلى رجل معيّن من أجل ذلك على وجه التخصيص ، يعرف كيف يبعث الطمأنينة في نفسه ، ويحذّره ، ويشدّ عَضُدَه ، ويهذبه بالعقوبات الرمزية على النحو ذاته ، ويسعده ، آخر الأمر ، بمحو كامل لذنوبه ، ويقدم إليه صفحة انسانيته من جديد ، نقيّة مغسولة . وهكذا يركع ، وقد تم إعدادها وتحققت فيه السكينة الكاملة عن طريق العديد من الشعائر الطقسية التي تتشعّب من جديد ، لدى النظرة الأدق ، إلى فروع طقسية أصغر ، ليتناول القربان ، ولكي يتم تصعيد سر هذا العمل السامي ، لايرى الكأس إلاّ عن بعد ، على أن ما يشبعه ليس بالطعام والشراب المبتذلين ، وإنما هو غذاء سماويّ يبعث في المرء ظَمأً إلى الشراب السماويّ .

ومع ذلك فلا يعتقدَنّ الفتى أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، كلاّ بل لاينبغي للرجل نفسه أن يعتقد ذلك ! ذلك لأننا نعتاد ، في العلاقات الدنيوية ، آخر الأمر ، أن نعتمد على أنفسنا ، وهنا أيضاً لايمكن للمعارف والعقل والشخصية ، أن تكون كافية . أما في المسائل السماوية فنحن لانشبع قط من التعلم ، كما أن الإحساس السامي في

نفوسنا ، الذي قلما يجد نفسه في موطنه حقاً ؛ يتعرض فوق ذلك للضغط من جانب الكثير جداً من الأشياء الخارجية بحيث أن مقدرتنا الخاصة كان يصعب عليها ، بلاريب ، أن تكون كافية لما هو ضروري للنصح والعزاء والعون . ولكنّ هناك الآن أيضاً تلك الوسيلة العلاجية على مدى الحياة كلها . فثمة رجل ورعٍ متبصّر يتحرق دائماً إلى إرشاد التائهين والتفريج عن المعذَّبين .

ثم إن ما تم تمحيصه عبر الحياة كلها على هذا النحو ، ينبغي أن يُثبِت ، على أبواب الموت ، أن فعالية طاقاته الشافية تتضاعف عشر مرات . وذلك أن الشيخ المتداعي يتقبّل من بعد ما تمّ التمهيد له والتعوّد عليه منذ الصبا بصورة حميمة ، تلك التوكيدات الرمزية ذات الدلالة ، بحماسة لاهبة . وتتهيّأ له ، على نحو مضمون ، في الوقت الذي يتلاشى فيه كل ضمان أرضي ، حياةٌ سماوية سعيدة إلى الأبد . وهو يحس على نحو حاسم أنه مؤمن أنه ما من عنصر معاد ، ولاروح شريرة تستطيع أن تمنعه من أن يحيط نفسه بجسد مشرق بالنور ليشترك،من خلال علاقات مباشرة مع الذات الالهية ، في ألوان السعادة اللامتناهية التي تفيض عنها .

وفي الختام يتم بعد ذلك دهن الأقدام أيضاً بالزيت ومباركتها ، لكي يتطهّر الإنسان كله . وينبغي لها أن تحس بالكراهية ، حتى مع البرء المحتمل ، من ملامسة هذه الأرض الدنيوية القاسية الكتيمة . وينبغي أن يكون الناس ممن أوتوا مرونة رائعة يدوسون بها قَدَر الأرض الذي كان يجتذبهم حتى الآن ، تحت أقدامهم .وهكذا يرتبط المهد باللحد ، ضمن حلقة ثابتة ، مهما يكن من تباعدهما العرضي ، عن طريق دارة متألقة من الشعائر المقدسة ذات المكانة المتساوية ، التي لانشيرإلى جمالها إلاّ إشارة مقتضبة .

ولكن كل هذه المعجزات الروحية لاتنبت ، كسائر الثمار ، من الأرض الطبيعية ، إذ لاسبيل إلى بذرها ، ولا إلى زراعتها ، ولا إلى تعهّدها . وإنما يجب على المرء أن يتوسّل إلى استجلابها من اقليم آخر ، وهو الأمر الذي لايُوفّق إليه كل امريء ولا يتأتّى في كل وقت . وهنا يواجهنا الآن أعلى هذه الرموز من أخبار الأتقياء القديمة . فنحن نسمع أن الإنسان يمكن آن يحظى بالنعمة والبركه والتقديس من الأعلى . ولكن لابدّ ، لكيلا يبدو هذا موهبة طبيعية ، أن تنتقل هذه الحظوة الكبيرة ، المقترنة بواجب ثقيل ، من مستحق إلى آخر ، وأن تتم المحافظة على أكبر تراث يستطيع إنسان أن يناله دون أن يحظى بملكيته من تلقاء نفسه ، أو يستحوذ عليه ، وأن يتم تخليده عن طريق التوارث الروحي . أجل ، ففي رسامة الكاهن يتلخّص كل ما هو ضروري لأداء تلك الشعائر المقدسة التي يتم بها الإنعام على الجمهور دون أن تكون هناك أية ضرورة لأي ممارسة أخرى سوى الإيمان والثقة المطلقة . وهكذا يدخل الكاهن في سلسلة أسلافه وخلفائه ، في محيط رفاقه في الادّهان بالزيت ، ممثلاً المانح الأعلى للبركة ، ويزيد في عظمته أنّ ما نمجّد فيه ليس هو ذاته بل وظيفته ، وليس إيماءته التي نحني رُكَبَنا أمامها ، بل البركة التي يمنحها والتي يبدو أنها تأتي أكثر قدسيّة ومباشرةً من السماء ، إذ لاتقدر الآلة الدنيوية أن تضعفها أو تذهب بقوّتها ، حتى عن طريق الروح الخاطئة أو الآثمة .

وأنّى يكون لمثل هذا الرباط الروحيّ حقاً ألاّ تنحلّ عُراه في البروتستانتية ؟ وذلك على حين يعد جزء من الرموز مشكوكاً في صحته ، ولا يعترف إلاّ بصحة القليل منه . وكيف يريد القوم أن يهيؤونا عن طريق اللامبالاة بأحدهما للاعتداد بالمنزلة الرفيعة للآخر ؟

وكنت قد تلقيت التعليم الدينيّ في أيامي على يد كاهن طيب شيخ ضعيف ، كان منذ كثير من السنين كاهن الاعتراف في بيتنا . وكنت أتقن سرد أصول الدين ، وشرحها وتسلسل النعم . ولم يكن ينقصني واحد من أمثال الكتاب المقدّس ذات الحجة القوية ، ولكنني لم أجن من ذلك كله ثمرة ، ذلك لأنني حين أكّد القوم لي أن الرجل الشيخ الطيب يعدّ امتحانه الرئيسي بموجب صيغة قديمة فقدت استمتاعي بالمسألة وحبي لها وانصرفت في الأيام الثمانية الأخيرة إلى ضروب شتى من التسلية ووضعت الأوراق التي كنت استعرتها من صديق أكبر سناً ، والمأخوذة عن الكاهن ، في قبعتي ، وجعلت أقرأ ، دونما تأثر أو فهم ، كل ما كنت خليقاً أن أتمكن من الإعراب عنه بعاطفة واقتناع .

ولكنني وجدت إرادتي الطيبة وطموحي ، في هذه الحالة الهامة ، مشلولتَيْن ، بالتراخي المتسم بالجفاف وانعدام الروح ، على نحو أكثر سوءاً من أن أقارب كرسي الاعتراف . وكنت أدرك بلاريب أنني أنطوي على بعض النقائص ، ولكني لم أكن ذا أخطاء كبيرة ، على أن الوعي ذاته كان يقلّل من شأنها ، لأنه كان يدلني على الطاقة المعنوية التي كانت كامنة لديّ ، والتي كان من المفروض أن تتغلب آخر الأمر بلاريب ، عن طريق التصميم والمثابرة ، على آدم القديم . وكانوا يعلموننا أننا أفضل من الكاثوليك بوجه خاصّ لأننا لانحتاج إلى الاعتراف بشيء خاصّ في كرسي الاعتراف ، بل إن ذلك ليس من اللائق ، حتى وان أردنا نحن أنفسنا أن نقوم به . ولم أكن أستحسن هنا الأمر الأخير على الإطلاق : ذلك لأنني كنت أعاني من أغرب الشكوك الدينية التي كان يسرني أن أصحّحها في مثل هذه المناسبة . ولما كان مثل هذا الأمر لايستحسن فقد وضعت لنفسي اعترافاً كان من المفروض

أن أدلي فيه إلى رجل متفهم ، وبصورة عامة ، بما يخطر عليّ أن أقوله بالتفصيل . ولكن حين دخلت محراب الرهبان الحفاة ، ودنوت من الحواجز الرائعة المسوّرة التي دأب السادة من رجال الكهنوت أن يظهروا ضمنها من أجل هذا العمل ، وفتح لي قارع الأجراس الباب ، ورأيت نفسي الآن قبالة أبي الروحيّ ، محتجَزاً في المجال الضيق ، وهو يرحّب بي بصوته الخافت الأخنّ : انطفأ مرة واحدة ، كل النور في فكري وقلبي ، وجعلت كلمة الاعتراف التي أحسنت استذكارها تستعصي على لساني ، ففتحت ، وأنا في هذا الحرج ، الكتاب الذي كان في يدي ، وقرأت منه أول صيغة قصيرة (١) عرضت لي ، وكانت من العموم بحيث يستطيع كل امرىء أن ينطق بها بكل اطمئنان . وتلقيت الغفران وتوليت ، في غير حرارة ولا برود ، وغدوت في اليوم التالي ، مع والديّ ، إلى مائدة السيد ، وجعلت أتصرّف بضعة أيام كما يليق بالمرء بعد أداء شعيرة على هذا الجانب من القداسة .

ومع ذلك فقد نجم لي بالنتيجة ذلك الوبال الذي يصيب البشر أولي الهواجس من جرّاء ديننا المعقّد بفعل المذاهب المختلفة ، والقائم على آيات من الكتاب المقدس تفسح مجالاً للعديد من التأويلات ، إصابةً تجرّ معها حالات من الوسواس ، وتصعد هذه الحالات إلى أعلى ذُراها ، لتجعل منها أفكاراً راسخة . وقد عرفت كثيراً من الناس لايستطيعون أن يتخلّصوا ، على ما هم عليه من نمط التفكير والحياة المعقول تماماً ، من الفكرة المتصلة بالتجديف على الروح القدس (١) ، ومن الخوف من أن يكونوا ارتكبوها . وكان ثمة شر مماثل يتهددني ، في مادة العشاء الرباني . وذلك أن الآية القائلة ان من يتمتع بالسرّ المقدس على غير استحقاق (٢) فانما يعمل لدينونة نفسه ، تركت في نفسي أثراً مَهولاً ،

فكان كل ما هو مفزع ، مما كنت قرأت في أقاصيص العصور الوسطى عن الأحكام الربانية ، وضروب الابتلاء المتناهية في الغرابة ، من الحديد المتوهج ، والنار اللاهبة ، والماء الجارف ، وحتى ما كان يرويه الكتاب المقدس عن الينبوع الذي يستمرئه البريء (٣) ، وينفخ المذنبَ ويفجّره ، كلُّ ذلك يتجلّى لمخيلتي ، مقترناً بأقصى الأشياء هولاً ، إذ كان يبدو أن إخلاف الوعد ، والنفاق ، والحنث باليمين ، وشتيمة الرب . يثقل كاهل المسيء بأكثر الشعائر قدسية ، وكان يزيد هذا إثارة للخوف أنه لم يكن يجوز لأحد أن يعدّ نفسه أهلاً للخلاص ، وأنهم كانوا يجدون غفران الخطايا الذي كان من المفروض أن تتم به تسوية كل شيء كان مشروطاً على نحوٍ ما ، بحيث لا يكون المرء على يقين من أنه يجوز له أن يصل إليه بحرية .

وكانت هذه العقبة الكؤود تعذبني ، والبيان الذي كان الناس يريدون أن يقدموه إليّ على أنه كافٍ يبدو لي مجدباً واهياً إلى درجة أن تلك الصورة المفزعة لم تكتسب بذلك إلاّ مزيداً من المظهر المخيف ، وجعلت أحاول ، بمجرد وصولي إلى لايبتسغ ، أن أتحلّل تحلّلاً كاملاً من الارتباط بالكنيسة . وما أشدّ الوطأة التي كان لابد أن تتخذها تحذيرات جيللرت لي ، بناء على ذلك ! وهو الذي لم أكن أريد أن أثقل عليه بهذه الأسئلة الغريبة ، بالنظر إلى أسلوب معالجته المقتضب على كل حال ، والذي كان يُضطرُّ إلى رفض إلحاحنا به ، ولاسيما حين كنت استحيي من ذلك حتى في ساعات المرح ، وأخيراً خلفت ورائي هذا الخوف الوجداني الغريب المتصل بالكنيسة والهيكل ، بصورة تامة .

وكان جيللرت (٤) قد فرض على نفسه ، بموجب عاطفته الورعة ، قواعد أخلاقية كان يتلوها على الملأ من حين إلى آخر ، وكان يتحرر

بذلك من واجبه تجاه الجمهور بطريقة مشرفة . وظلت كتابات جيللرت حيناً طويلاً أساساً للثقافة الأخلاقية الألمانية . وكان كل امريء يتحرّق رغبة أن يرى ذلك العمل مطبوعاً . ولما كان هذا لاينبغي أن يحدث إلاّ بعد وفاته فقد كان مما يسعد المرء سعادة فائقة أن يسمع ذلك يتلى عليه من قِبَله هو ذاته ، في حياته . وكانت قاعة المحاضرات الفلسفية في أمثال هذه الساعات مزدحمة جداً ، وكانت الروح العذبة والإرادة الطاهرة ، واهتمام الرجل النبيل بما هو خير لنا ، وضروب تحذيره ، ونُذُرِه ، ورجائه الّتي يخرجها بايقاع أجوف حزين ، كل ذلك كان يحدث فينا انطباعاً فورياً ، غير أنه لم يكن يدوم طويلاً . ولاسيما حين كان يوجد بعض المستهزئين الذين كان في وسعهم أن يثيروا لدينا الشبهة في هذا السلوك الليّن ، والذي يحطّم الأعصاب ، كما كانوا يعتقدون . وإني لأذكر فرنسياً سائحاً استفسر عن مبادىء الرجل الذي كان يلقى إقبالاً هائلاً ، وعن أفكاره ، ولما قدمنا إليه البيان الضروري هزّ برأسه ، وقال مبتسماً : « دعوه يفعل ذلك ، فهو يعلمنا ، نحن المغفّلين » .

وكذلك كانت المجموعة الفاضلة الّتي لم يكن يسهل عليها أن تحتمل شيئاً نبيلاً بالقرب منها ، تستطيع أن تحدّ من النفوذ الأدبيّ الذي ربما كان جيللرت يتمتع به تجاهنا ، من حين إلى آخر . فكان القوم يأخذون عليه حيناً أنه كان يعلّم النبلاء والأغنياء من الدانماركيين الذين استُوصِيَ بهم على نحو خاصّ ، تعليماً أفضل من سائر الطلاب ، وأنه ينطوي على اهتمام متميّز بهم ، وكانوا ، حيناً آخر ، يعدون من قبيل المصلحة الخاصة والمحاباة عنده أنه كان يقيم لهؤلاء الشبان أنفسهم مأدبة غداء عند أخيه . وكان يقال إن هذا الرجل ، وهو ضخم ،

حسن المظهر ، خشن ، مربوع القامة ، على شيء من الفظاظة ، كان أستاذاً في المبارزة ، وكــان يعامل رفاق المائدة ، مع الأناة الكبيرة من قبل أخيه ، معاملة قاسية غليظة أحياناً ، ولذلك كان القرم يعتقدون أن من الواجب استئناف العناية بهؤلاء الشبان ، ويلوكون ، على هذا النحو ، الاسم الحسن لجيللرت الممتاز ، حتى غدونا آخر الأمر لانحفل به لكيلا نخطيء في حقه ، وما عُدْنا ندعه يرانا أمامه ، ومع ذلك فقد كنا نحيّيه أحسن تحية كلما أقبل راكباً على حصانه الأبيض . وكان الأمير الناخب قد أهدى إليه هذا الحصان ، ليلازمه بالحركة الضرورية لصحته . وكان ذلك إيثاراً لم يكن من السهل أن يُغتفَر له .

وهكذا كان يقترب شيئاً فشيئاً ذلك الموعد الذي تزايلني فيه كل سلطة ويترتّب عليّ فيه أن أرتاب ، حتى في الأكبر والأفضل من الأفراد الذين عرفهم ، أو خطروا ببالي ، بل أيأسَ منهم .

وكان فريدريش الثاني مازال يحتل في ذهني مكاناً فوق كل رجال القرن الممتازين ، ولذلك كان لابد أن يبدو لي أن مما يبعث على الوحشة الشديدة ألاّ يباح لي أن أثني عليه إلاّ أقلّ كثيراً مما كنت أفعل في بيت جدي ، ولاريب أنهم كانوا يحسّون بوطأة الحرب ثقيلة عليهم ، ولذلك فلم يكن من الممكن أن يؤخذ عليهم أنهم لم يكونوا يحسنون الظن بذلك الذي بدأ بها ، وواصلها . وكانوا يريدون ، من أجل ذلك ، أن يُعدَّ رجلاً ممتازاً بلاريب ، ولكنهم لم يكونوا يريدون بحال من الأحوال أن يُعدَّ رجلاً عظيماً ، وكانوا يقولون إنه ليس من الفن أن ينجز المرء ، بالوسائل الكبيرة ، بعض الأعمال . وإذا لم يكن المرء يصون بلاداً ، ولا أموالاً ، ولايحقن دماءً ، كان في وسعه أن يحقق مقصده آخر الأمر ، وأن فريدريش لم يبرهن أنه عظيم في أيٍّ من خططه

وفي شيء مما قام به في الحقيقة . وقد كان لايرتكب إلا أخطاءً طالما كان الأمر يتوقف عليه ، وأن ما هو ممتاز لم يظهر على هذا النحو إلاّ حين كان يُضطرُ لإصلاح هذه الأخطاء من جديد ، وأنه لم يصل إلى الشهرة الكبيرة إلاّ لأن كل إنسان يتمنى تلك الموهبة ، وهي أن يقوم بتسوية الأخطاء التي يكثر اقترافها ، بطريقة بارعة . ولايجوز للمرء إلاّ أن يخوض غمار حرب السنوات السبع خطوة خطوة ، وسيجد آنذاك أن الملك قد ضحّى بجيشه الممتاز بطريقة غير مجدية تماماً وأنه كان هو نفسه مسؤولاً عن امتداد أمد هذا النزاع المدمّر إلى هذا الحد . وذلك أن الرجل العظيم وقائد الجيش الحق خليق أن يفرغ من أعدائه بسرعة أكبر ، وكان عليهم أن يوردوا ، لاثبات هذه الأفكار ، تفصيلات لاحد لها ، ولم يكن في وسعي أن أنكرها ، وجعلت أشعر ، شيئاً فشيئاً ، أن التمجيد المطلق الذي كنت أكرّسه لهذا الأمير النابه الذكر منذ الصبا ، يعتريه الفتور .

ومثلما أضرّ سكان لايبتسغ بالشعور المستعذب الناجم عن تمجيد رجل عظيم ، كان صديق جديد ، ظفرت به في ذلك الوقت ، يقلل إلى حد كبير من الاحترام الذي كنت أكنه لمواطنيّ المعاصرين . وكان هذا الصديق واحد من أغرب أصحاب الأطوار الغريبة الذين يمكن أن يوجدوا في الدنيا . وكان يدعى بيهرش (١) ، وكان مربيّاً لدى الجراف لِنْديناوْالشاب . وقد كان في مظهره الخارجي وحده ما يكفي من الغرابة ، كان نحيلاً ذا بنية متينة ، موغلاً في الثلاثينات ، له أنف ضخم جداً ، وملامح متميّزة بصورة مطلقة ، وتسريحة يمكن للمرء أن يسميها شعراً مستعاراً ، وكان يظل على ذلك من الصباح إلى الليل ، وكان هندامه بالغ الأناقة ، ولم يكن يخرج قط إلاّ وسيفه على جنبه ،

وقبعته تحت ذراعه ، وكان من أولئك الناس الذين يتمتعون بموهبة خاصة تماماً في تبديد الوقت أو يعرفون ، بالأحرى ، كيف يصنعون شيئاً من لاشيء ، من أجل تبديده . وكان لابد لكل ما يعمله أن يتم ببطء ، ولياقة معينة ، مما كان خليقاً أن يسمى تصنعاً لولا أن بيهرِش كان بطبيعته ينطوي على نوع من التكلف ، وكان يشبه أن يكون فرنسياً شيخاً ، كما كان يتحدث بالفرنسية ويكتبها بصورة جيدة جداً وبسهولة كبيرة . وكان غاية ما يهوى أن يشتغل بالمسائل الهزلية ، وأن يتابع أية خاطرة عبثية إلى ما لانهاية له ، فكان يرتدي اللون الرمادي دائماً ، ولما كانت الأجزاء المختلفة من حلّته متخذة من أشياء مختلفة ، وكانت بناء على ذلك ذوات لُوَيْنات ، فقد كان في وسعه أن يفكر طوال أيام في كيفية الزيادة من اللون الرمادي على جسده ، وكان يسعده أن يُوفّق إلى ذلك ، وكان في وسعه أن يعيّرنا نحن الذين كنا نرتاب في ذلك أو نعدّه مستحيلاً . ثم إنه كان يلقي علينا مواعظ طويلة حول النقص في الطاقة الابداعية عندنا ، وحول عدم إيماننا بمواهبه .

وكانت له ، فيما عدا ذلك ، دراسات جيدة ، وكان مطلعاً بصورة خاصة على اللغات الحديثة وآدابها ، وكان يكتب بخط ممتاز . وكانت له قيمة راجحة جداً عندي ، وسرعان ما لزمته وأنا الذي كنت دائماً اعتاد معاشرة الشخصيات الأكبر سناً ، وأميل إليها . وكانت مصاحبتي له تهيء له تسلية خاصة إذ كان يجد متعة في لجم اضطرابي ونفاد صبري ، وذلك ما كنت أهيء له به شغلاً كافياً . وكان له في فن الشعر ما يسمونه ذوقاً ، وهو حكم معين عام حول الجيد والرديء والمتوسط والمقبول ، ومع ذلك فقد كان حكمه أقرب إلى التوبيخ ، وكان يفسد ، فوق ذلك ، إيماني الضئيل الذي كنت أنطوي عليه تجاه كتاب معاصرين

بالملاحظات الظريفة التي كان يعرف كيف يدلي بها حول الكتابات والقصائد الخاصة بهذا أو ذاك ، متندراً على هواه . أما أشيائي الخاصة فكان يتقبلها بحذر ، ويجاريني فيها ، ولكن على شرط ألاّ أطبع شيئاً منها ، وكان يعدني في مقابل ذلك بأن ينسخ تلك المقطوعات التي يراها جيدة ، بنفسه ، ويكرّمها بمجلد جميل . على أن هذا المشروع أتاح الفرصة لأكثر ضروب تبديد الوقت إمكاناً . ذلك لأنه قبل أن يجد الورق المناسب ، وقبل أن يستطيع أن يقرر فيما بينه وبين نفسه قياس الورق ، وقبل أن يحدد عرض الهامش ، والشكل الداخلي للكتابة ، وقبل أن يتم تأمين ريشات الغراب ، وقَطّها ، وتمريغها بالحبر الصيني ، كانت قد انقضت أسابيع بطولها دون أن يحدث أدنى شيء من ذلك . وكان ينصرف إلى الكتابة كل مرة بمثل هذه الظروف ، وقد جمع بالفعل ، شيئاً فشيئاً مخطوطاً متناهياً في الظُرف (١) . وكانت عناوين القصائد بالخط القوطيّ ، والأشعار ذاتها بخط اليد السكسوني المنتصب ؛ وفي نهاية كل قصيدة تصويرة ملائمة إمّا أن يكون قد اختارها من مكان ما أو ابتكرها بنفسه ، حيث استطاع أن يقلّد خطوط التظليل ، ، والنقوش والحروف الطباعية المنفصلة التي تمس الحاجة إليها في مثل هذه المناسبة ، بصورة تزيينية . وكان ، وهو يتقدم مني ليعرض عليّ هذه الأشياء ، وليمجّد سعادتي بطريقة خطابية هزلية ، إذ كنت أرى نفسي مخلداً في مخطوط ممتاز كهذا ، وعلى نحو لايتهيأ بلوغه في الحقيقة حتى لمطبعة ، يهبني حافزاً لتزجية أجمل الساعات . وفي هذه الأثناء كانت صحبته ذات فائدة تعليمية دائماً ، وبصورة هادئة ، وذلك بسبب المعارف الواسعة التي كان يحوزها ، ولما كان يعرف كيف يخفف من غلواء طبيعتي المضطربة العنيفة فقد كان ذا مفعول شاف تماماً بالمعنى

الأخلاقي أيضاً .وكان فيه كراهية خاصة تماماً لكل ما هو فظّ . وكانت نوادره معقّدة غريبة إلى حد فائق دون أن تسقط قط في الفظاظة أو التفاهة . وكان يسمح لنفسه ، تجاه مواطنيه ، بكراهية تشويهية ساخرة ، ويصف كل ما يمكن أن يقوموا به ، بحركات مضحكة ، وكان ، بوجه خاص ، لاينضب له معين في وصف أفراد من الناس وصفاً هزلياً ، وكيف كان يجد في المظهر الخارجي لكلٍّ منهم شيئاً يعاب عليه . فكان يستطيع ، حين نكون معاً عند النافذة ، أن يشغل نفسه طوال ساعات في انتقاد العابرين ، وحين يكون قد انتقدهم بما يكفي ، يبيّن بدقة وتفصيل ، ما كان ينبغي لهم أن يلبسوا في الحقيقة ، وكيف كان يجب أن تكون مشيتهم ، وسلوكهم ، ليظهر في صورة البشر اللائقة . وكانت أمثال هذه الاقتراحات تتناول في معظم الأحيان شيئاً غير منسجم أو نابياً عن الذوق ، بحيث لم يكن المرء يضحك مما كان الانسان يبدو عليه ، بل مما كان يمكن أن يبدو على كل حال ، لو أنه كان مجنوناً بما فيه الكفاية لتشويه نفسه . وفي كل أمثال هذه الأمور كان ينطلق إلى عمله دونما رحمة على الإطلاق ، ودون أن يتسم بأدنى مقدار من الخبث .وكنا نعرف ، في مقابل ذلك ، من جانبنا ، كيف نعذّبه ، حين كنا نؤكّد أن المرء لابد أن ينظر إليه ، حسب مظهره الخارجي ، على أنه أستاذ لغة في معهد عالٍ على الأقل ، ان لم يكن أستاذاً فرنسياً في الرقص . وكان هذا المأخذ في العادة نذيراً بمفاوضات تمتد ساعات طوالاً ، كان دأبه فيها أن يبين أن ثمة فرقاً بينه وبين الفرنسيّ الشيخ كفرق ما بين السماء والأرض . وكان في هذه الأثناء يحمّلنا في العادة أحمالاً من اقتراحات شتّى غير موفّقة ، مما كان يمكن أن نقترحه عليه لتغيير خزانة ملابسه وتعديلها .

أما وجهة قرضي للشعر الذي كنت أمارسه الآن بمهمة أكبر ، حين كانت النسخة تزداد جمالاً وعناية ، فكانت تجنح الآن بصورة كاملة ، إلى الطبيعي ، وإلى الأصيل ، وحين كان يتفق ألاّ تكون الموضوعات دائماً منطوية على معنى ، كنت أحاول أن أعبّر عنها دائماً تعبيراً نقيّاً مرهفاً ، ولاسيما حين كان صديقي في كثير من الأحيان يعطيني فكرَه عما يمكن أن تعنيه كتابة بيت من الشعر بريشة الغراب والحبر الصيني على الورق الهولندي ، وعما يقتضيه ذلك من الوقت والموهبة والجهد مما لايجوز للمرء أن يضيعه في شيء فارغ لاغَناء فيه . وكان من عادته أثناء ذلك أن يفتح كراسة مكتملة ، ويحلّل بالتفصيل ما لا يجوز أن يكون في هذا الموضع أو ذاك ، وأن يمتدحنا وهو سعيد لأن هذا لاوجود له هنا في الواقع . ثم كان يتحدث ، بازدراء شديد ، عن الطباعة ، فيقلّد حركات منضد الحروف ، ويتندّر على حركاته ، وتنقّل يده السريع جيئة وذهاباً . وكان يرد إلى هذه المناورة كل مأساة في الأدب . وفي مقابل ذلك كان يشيد بلياقة كاتب الخط ومكانته الرفيعة ، ويجلس على الفور ، ليبيّنها لنا . وكان في ذلك يستبعدنا بالطبع ، إذ لم نكن نتصرف عند منصة الكتابة على حسب مثاله وانموذجه . ثم كان يعود من جديد إلى التضادّ مع منضّد الحروف . ثم يقلب رسالة مبدوءة ، رأساً على عقب ، ويبيّن كيف أنه ليس من اللائق أن يكتب المرء من الأسفل إلى الأعلى ، أو من اليمين إلى اليسار ، ومزيداً من أمثال هذه الأشياء التي كان في وسع المرء أن يملأ بها مجلدات كاملة .

وبمثل هذه النزوات البريئة كنا نزجي الوقت الجميل إذ لم يكن يخطر ببال أحد أنْ سوف يخرج من محيطنا ، بالمصادفة ، شيء يثير الحماسة العامة ، ويحقق لنا من السمعة ما لايفترض أن يكون أفضلها .

وربما كان جيللرت قليل الاستمتاع بدروسه العملية ؛ وحين كان يحس ّ ، على كل حال ، متعة في إعطاء بعض التمهيد في الأسلوب النثري والشعري لم يكن يفعل ذلك إلا ّ في أضيق نطاق ، للقلائل الذين لم يكن يحق لنا أن نعد ّ أنفسنا منهم . وكان الأستاذ كلوديوس (١) يفكر في سد الثغرة التي كانت تنجم عن ذلك في التعليم العام ، وكان قد اكتسب بعض الشهرة في المجال الأدبي والنقدي والشعري ، وكان بحكم كونه رجلاً شاباً ، مرحاً ، منمقاً للحديث ، يجد كثيراً من الأصدقاء ، سواء في المعهد العالي ، أم في المدينة . أما الحصة التي كان يتولاها الآن فقد دلّنا عليها جيللرت نفسه ؛ أما ما يتصل بالمسألة الرئيسية فقد كنا لانلاحظ إلا ّ قليلاً من الفرق . فقد كان هو أيضاً لاينتقد إلا ّ الأشياء الجزئية ، وكان يصحح ، على النحو ذاته ، بالحبر الأحمر . وكان المرء يجد نفسه وقد لَزِمته أخطاء عديدة دون أمل في معرفة أين يجب أن يُلتَمس الوجه الصحيح . وكنت قد أتيته ببعض أعمالي الصغيرة التي لم يقابلها بالسوء . ولكن القوم كتبوا إلي ّ في ذلك الوقت ذاته أن من الواجب علي ّ أن أقد ّم ، كما تملي الضرورة ، قصيدة في زفاف عمي (١) . وكنت أشعر أنني بعيد بعداً شاسعاً عن تلك الفترة الهيّنة العابثة التي كان مثل هذا خليقاً أن يُمتعني فيها ، ولما لم يكن في وسعي أن أخرج بشيء من الوضع نفسه فقد حَسِبت أنني أُخرِج عملي أحسن إخراج بالزُخرف الخارجي . ولذلك حشرت كل الأولمب التشاور حول زواج رجل من فرانكفورت فقيه في القانون ، وتم ّ ذلك بصورة جادة حقاً ، كما يليق باحتفال خاص بمثل هذا الشريف . وكانت فينوس وتيميس (٢) قد خاضتا نزاعاً من أجله ، ولكن مقلباً خبيثاً يدبّره إله الحب للأخيرين يدع أولئك يكسبون التضحية ، وتبت ّ الآلهة فيها لصالح الزواج .

ولم يكن هذا العمل بحال من الأحوال ، مما لايعجبني وتلقيت من البيت على هذا كتاب ثناء جميل ، وبذلت الجهد في نسخة جيدة أخرى ، وكنت آمل أن انتزع بعض الإعجاب من معلمي أيضاً . ولكن رَمْيَتي لم تكن صائبة هنا . فقد تناول المسألة بصرامة ، وعلى حين لم يلتفت على الإطلاق إلى عنصر المحاكاة الساخرة الذي كان كامناً في الخاطرة بلاريب ، صرّح بأن التكريس الكبير للوسائل الإلهية من أجل غرض بشريّ ضئيل كهذا يعدّ جديراً باللوم إلى أقصى الحدود ، وأخذ عليّ استعمال أمثال هذه الشخوص الأسطورية ، وإساءة استعمالها ، على أنه عادة خاطئة تناقلها الناس بالكتابة من عصور التحذلق ، وكان يجد التعبير مفرطاً في التعالي حيناً ، ومفرطاً في الاسفاف حيناً آخر ، ولم يوفّر الحبر الأحمر في الجزئيات ، حقاً ، وأكّد مع ذلك أنه لم يصنع بعدُ إلاّ ما هو جدّ قليل .

وكانت أمثال هذه القِطع تتلى مغفَلة من الاسم في الحقيقة ويجري انتقادها ، ولكن كان القوم يلتفت بعضهم إلى بعض ، ولم يبق سراً أن هذا الاجتماع غير الموفّق للآلهة كان عملي . ولكن لما كان نقده يبدو مع ذلك مصيباً كل الإصابة إذا ما تبنيّت وجهة نظره ، ولما لم تكن تلك الآلهة ، إذا ما نظرنا إليها عن كثب ، إلاّ شخصيات خُلّبية جُوفاً * ، فقد جعلت ألعن الأولمب بأسره ، وطرحت البانتيؤون الأسطوري كله جانباً . وغدا إله الحب وإله القمر الإلهين الوحيدين اللذين يظهران في قصائدي القصيرة في كل الأحوال ، منذ ذلك الوقت .

وكان بين الشخصيات التي كان بيهرِش ينتقيها لتكون أهدافاً

(*) جمع جوفاء . « المترجم »

لنكتته كلوديوس المذكور آنفاً بالذات . ولم يكن من العسير أيضاً أن يستخرج منه جانباً هزلياً . فكان ، بحكم كونه ذا قامة متينة مضغوطة ، عنيف الحركات ، على شيء من الاضطراب في مظاهره الخارجية ، غير مستقرّ في سلوكه . وكان يتميّز بهذا كله عن مواطنيه الذين كان يسرهم مع ذلك أن يُولوه شيئاً من المكانة لخصاله الحميدة ، وللآمال التي كان يمنحها .

وكان القوم يعهدون إليه في العادة بالقصائد التي تمس الحاجة إليها في المناسبات الاحتفالية. وكان يتبع فيما يسمى بالقصيدة الغنائية (Ode) الأسلوب الذي كان يستخدمه راملر (١) ، والذي كان مع ذلك هو وحده الذي يلائمها . ولكن كلوديوس كان قد لاحظ بصورة خاصة ، وبحكم كونه مقلّداً ، الكلمات الغريبة التي كانت تلك القصائد الخاصة براملر تظهر بها في فخامة جليلة . وكان راملر يحدث أثراً مستحسناً جداً على الأذن والقلب والمخيّلة ، إذ كان منسجماً مع حجم موضوعه ، ومع سائر المعالجة الشعرية . أما عند كلوديوس فتظهر هذه التعابير ، في مقابل ذلك ، غريبة الطراز ، على حين يكون شعره آخر الأمر غير ملائم للسمّو بالروح على أي نحو من الأنحاء .

وكان لابدّ لنا الآن أن نرى أمثال هذه القصائد أمامنا في كثير من الأحيان ، في طباعة جميلة يُثنى عليها ثناء كبيراً ، وكنا نحسّ بصدمة بالغة من أنه كان يريد ، وهو الذي كان يعيب علينا الآلهة الوثنية ، أن يصطنع لنفسه الآن سلّماً آخر إلى البرناس ، من درجات الكلمات الاغريقية والرومانية . وقد رسخت هذه التعابير التي تتردد كثيراً ، رسوخاً شديداً . وخطر لي ، في ساعة مرح ، حين كنا نلتهم ،

في بساتين الملفوف (٢) ، أروع ألوان الفطائر ، مرة واحدة ، أن أحشر تلك الكلمات القوية المجلجلة في قصيدة مخصصة لهيندل ، خبّاز فطائرنا . وسرعان ما قرنت النيّة بالفعل . وها هي ذي ماثلة ، وقد كتبت على جدار من جدران البيت بقلم الرصاص :

أيْ هيندل ، الذي يمتد مجده من الجنوب إلى الشمال . ألا فلتسمع النشيد ، الذي يرقى إلى أذنيك ! فانك تخبز ما يجتهد الغاليّون (*) ، والبريطانيون في التماسه فطائر أصيلة ، بعبقرية مبدعة .

وان البحر المحيط من القهوة ، الذي ينسكب من لَدُنْك ، لهو أحلى من الرحيق الذي يسيل من جبل هيميتوس (**) وإن دارَك لإحدى الأوابد التي ندين بها للفنون ، إذ تتدلّى حواليها شارات النصر ، تحكي للأمم : أنَّ هيندل وجد سعادته بدون تاج ، أيضاً ، وكان يضارب المسرح التّراجيدي ، في كثير من مسرحياته الرخيصة . فلتتألّق جرّة رفاتك إلى حين ، في أُبّهة جليلة ، وليَبْكِ الوطنيُّ بعد ذلك على مَدْفَنِك . ولْتَعِش ! وليكن مخدعك الزوجيّ عشَّ مَنْبِتٍ كريم ، وانتصب شامخاً كالأولمب ، راسخاً كالبرناس ! فما من كتيبة من كتائب الاغريق ، بمدافعها الرومانية تقدر على أن تعيث فساداً في جرمانيا ، ودار هيندل . فصلاح أمرك فخر لنا ، ومعاناتك ألَمٌ لنا ، ومعبد هيندل قلب أبناء آلهة الفن .

(*) نسبة إلى بلاد الغال ، وهي فرنسا القديمة .

(**) سلسلة جبال قرب اثينا مشهورة بعسلها . « المترجم »

وظلت هذه القصيدة زمناً طويلاً ، بين كثير جداً من القصائد الأخرى التي كانت تشوّه جدران تلك الحجرة دون أن تُلاحَظ . على أننا ، نحن الذين تسلّينا بها التسلية الكافية ، أُنسيناها بأشياء أخرى نسياناً تاماً . وبعد زمن طويل خرج كلوديوس بمسرحيته « ميدون » التي وجدناها مضحكة إلى حد لانهاية له بما فيها من الحكمة الشهامة والفضيلة ، على الرغم مما لقي العرض الأول للمسرحية من تصفيق حاد . ووضعت للتوّ في المساء ، حين دخلنا معاً حانتنا ، مقدمة مسرحية ، بالشعر الهزلي المكسور الوزن يظهر فيها آرليكين بغرارتين كبيرتين ، فيضعهما على كلا جانبي مقدمة خشبة المسرح ، ويُسِرُّ إلى المتفرجين ، بعد نكاتٍ مختلفة عابرة ، أن في كلا الغرارتين رملٌ جماليّ — أخلاقي سيقذف به الممثلون في عيونهم في كثير جداً من الأحيان . أما الأول فقد مُليء أعمالاً خيرية لاتكلف شيئاً . وأما الآخر فقد مليء أفكاراً فخمة التعبير لاتفضي إلى شيء . ثم يدبر ممتعضاً ، ويعاود المجيء بضع مرات ، وينصح المتفرجين ، وهو جادّ ، بالالتفات إلى تحذيره ، وبأن يغلقوا عيونهم ، ويذكرهم كيف كان صديقاً لهم دائماً ، وكم كان قصده سليماً تجاههم ، وسوى ذلك من أمثال هذه الأشياء . وتم تمثيل هذه المقدمة المسرحية على الفور من قبل الصديق هورن ، في الغرفة ، ولكن النكتة ظلت محصورة فيما بيننا ، ولم تؤخذ حتى نسخة واحدة منها ، وسرعان ما افتُقِدت الأوراق . ومع ذلك فقد كان هورن الذي أدّى دور آرليكين ببراعة فائقة يتجرّأ على توسيع قصيدتي في هيندل بضعةَ أبيات ، ويُحمِّلها بعد ذلك على « ميدون » ، وتلاها علينا فلم نستطع أن نستمتع بها ، لأننا لم نجد الإضافات متسمة بخفة الروح ، ولأن القصيدة الأولى المكتربة بمعنى مختلف تماماً ، بدت لنا

مشوّهة تماماً . وربما عمد الصديق الذي ساءته لامبالاتنا ، بل توبيخنا، إلى عرضها على آخرين وجدوها جديدة وممتعة .فاتخذ القوم الآن منها نسخاً أتاحت لها شهرة مسرحية « ميدون » لكلوديوس، انتشاراً سريعاً . وتلا ذلك استنكار عام ، ووجِّه اللوم الشديد إلى الفاعلين(وكان القوم قد عرفوا بسرعة أنهم كانوا من زمرتنا) :ذلك لأن مثل هذا العمل لم يقم بهأحد مرة أخرى منذ مهاجمات كروينجز وروستز (١) لجوتشيد . وكنا على كل حال قد انطوينا على أنفسنا في وقت سابق، ووجدنا أنفسنا الآن في شَرَك البوم في مواجهة سائر الطيور .ويبدو أن الناس في درسدن أيضاً لم يستحسنوا المسألة ، وكان لذا بالقياس إلينا نتائج جدّية ان لم تكن مزعجة .ولم يكن الجْراف * ليندينايْ راضياً كل الرضى عن مدير بلاط ابنه حيناً من الزمان .ذلك لأنه على الرغم من أن الشاب لم يكن عرضة للاهمال بحال من الأحوال ،وكان بيهرِش إما أن يلتزم حجرة الجراف * الصغير ، وإما أن يكون قريباً منها على الأقل ، حين كان المدرسون يؤدون ساعاتهم اليومية ، وكان يتردد على المحاضرات معه بانتظام شديد ، ولم يكن يخرج في النهار بدونه ، وكان يصحبه أيضاً في كل نزهاته ، فقد كنا نحن الآخرين مع ذلك نوجد في بيت آبيل دائماً ، وكنا نخرج معه كلما طاب لنا الخروج . وكان هذا قد لفت الأنظار إلى حد ما . وكان بيهرِش يأْلَفُنا أيضاً ، وكان في معظم الأحيان يسلّم ربيبَه آخر الأمر إلى خادم الحجرة ، ويلتمسنا في الحانة ، حيث اعتاد ألاّ يغدُوَ إلى هناك قطّ إلاّ بحذائه وجوربه ، والحسام على جنبه ، وكانت قبعته في العادة تحت ذراعه .

(*) من ألقاب النبلاء الألمان ، يقابل لقب الكونت بالفرنسية ، أو الدوق بالإنكليزية .
« المترجم »

وكانت النوادر والنزوات التي تصدر عنه لاتقف عند حد . ومثال ذلك أن أحد أصدقائنا اعتاد أن ينصرف في تمام العاشرة ، لأنه كان على صلة بغلام جميل لم يكن يستطيع أن يحادثه إلاّ في هذا الوقت ، وكان يسوؤنا أن نفتقده . وقرّر بيهرِش ، في نفسه ، ذات مساء ، ونحن في سرور بالغ ، ألاّ يدعه ينصرف هذه المرة . فلمّا دقت الساعة العاشرة انتصب ذاك ، واستأذن بالخروج ، فناداه بيهرِش ، ورجا منه أن ينتظر هنيهة ، لأنه يريد أن يصحبه على التو ، ثم شرع الآن يبحث بأكثر الطرق تظرّفاً ، عن سيفه أولاً ، وكان واضحاً للعيان كل الوضوح . وجعل يقوم في أثناء امتشاقه بحركات المُتبَالِهِ إلى حد لم يكن من الممكن معه أن يفرغ من ذلك قط . على أنه كان يفعل ذلك في البداية على نحو لم يكن أحد معه يسيء به الظن ، ولكن حين واصل فعله آخر الأمر ، من أجل تغيير الموضوع ، بحيث كان الحسام يأتي من الناحية اليمنى حيناً ، وبين الساقين حيناً آخر ، نجم عن ذلك ضحك عام انسجم فيه المستعجل الذي كان ، على النحو ذاته ، فتى مرحاً ، مُرسِلاً بيهرِش على سجيّته ، إلى أن انقضت ساعة العشّاق ، إذ أعقبت ذلك ، الآن فحسب ، متعة مشتركة ، وتسلية بهيجة ، حتّى ساعة متأخرة من الليل .

وكان من سوء الحظ أنْ كان لبيهرش ، ولنا من خلاله ، علاقة معينة أخرى ببعض الفتيات اللواتي كن خيّراً من سمعتهن ، وذلك ما لم يكن من الممكن أن يحسّن سمعتنا . وكان الناس قد رأونا في بعض الأحيان في حديقة فتاة منهنّ . وكنا نوجّه نزهتنا هذه الوجهة حقاً حين يكون الخْراف الصغير معنا . وربما تجمّع هذا كله ، ونُقِل آخر الأمر إلى الأب : وجملة القول إنه سعى ، بطريقة تنطوي على المُداراة ، إلى التخلص من مربّي الولد الذي كان ذلك من حظه . وذلك أن مظهره

الحسن ، ومعارفه ومواهبه : واستقامته التي لم يكن أحد يستطيع أن يطعن فيها بشيء ، كانت قد أكسبته الميل والاحترام لدى شخصيات مرموقة استُدعِيَ بتوصية منها إلى ولي العهد الأمير ديسّاو ، مربيّاً ، ووجد سعادة وطيدة في بلاط أمير ممتاز من كل ناحية .

وكان فقدان صديق مثل بيهرِش ذا أهمية قصوى بالقياس إليّ ، فقد كان عدّل وجهة تربيتي إذ كان يثقّفني ، وكان وجوده ضرورياً حين كان يُفتَرض فيما كان يستحسن أن يعدّله لديّ ، أن يؤتيَ ثماره في المجتمع . وكان يعرف كيف يدفعني إلى ضروب شتى من التفنّن والبراعة ، مما كان يقع في محلّه مباشرة ، كما كان يكشف عن مواهبي في معاشرة الناس . ولكن لمّا لم أكن قد اكتسبت استقلالاً في مثل هذه الأمور ، فقد رُدِدْتُ على الفور ، إذ عدت من جديد إلى الوحدة ، إلى طبيعتي المرتبكة الجموحة ، التي كانت تتفاقم كلّما ازددت سخطاً على بيئتي ، إذ كنت أصوّر لنفسي أنها لم تكن راضية عني . وكنت آخذ مأخذ السوء ، وبمزاج متناهٍ في التعسّف ، ما كان في وسعي أن أعدّه مزية من المزايا ، وابتعدت بذلك عن بعض من كنت على علاقة مزعجة به ، وكان لابد لي أن أسمع من ذوي النوايا الحسنة ، في صدد بعض المتاعب التي ألحقتها بنفسي وبالآخرين ، سواء في الإقدام أم في الإحجام ، وفي الإفراط أو التفريط ، ملاحظةً مفادها أنني أفتقر إلى التجربة . وكان يقول لي مثل ذلك حقاً أي واحد من ذوي النوايا الحسنة يرى نتاجي ، ولاسيما حين يكون له تعلّق بالعالم الخارجي ، وجعلت أراقب هذا العالم على قدر استطاعتي ، ولكني لم أجد فيه إلاّ قليلاً من الفائدة التعليمية ، وكان لابد ليّ دائماً أن أضيف إليها ما يكفي من عندي ، لمجرد أن أجدها ممكنة الاحتمال . وكنت أضيف من

عندي في بعض الأحيان إلى صديقي بيهرش ؛ إذ كان عليه أن يوضح لي ما هي التجربة ، ولكن لما كان مترعاً بالنزوات فقد كان يعللني من يوم إلى آخر . ثم إنه كشف لي آخر الأمر ، وبعد تمهيدات كبرى ان التجربة الحقة إنما تكون حقيقية تماماً حين يعلم المرء كيف يضطر المجرب إلى أن يجرب التجربة وهو يخوض غمارها . ولما أخذنا الآن ننحي عليه باللائمة ، وشرعنا في مناقشته أكّد لنا أن ثمة سراً كبيراً يكمن وراء هذه الكلمات وما كان لنا أن ندركه إلاّ بعد أن نكون قد جرّبنا ، وهكذا دواليك دائماً : إذ لم يكن يكلفه شيئاً أن يمضي في الحديث على هذا النحو ربع ساعة ، إذ كان التجريب يمكن أن يغدو دائماً أكثر تجريباً ، وأن يتحول آخر الأمر إلى تجربة حقة ، وكان اذا ارتبنا في أمثال هذه الخزعبلات يؤكد أنه تعلّم هذا الأسلوب في الإعراب عما في نفسه بصورة واضحة ومؤثرة ، من أحدث الكتاب وأكبرهم ؛ من أولئك الذين لفتوا أنظارنا إلى الكيفية التي يمكن بها للمرء أن يسكن سلوكاً ساكناً ، وكيف يزداد الهدوء ، في الهدوء ، هدوءاً على نحو مطّرد .

وكان من المصادفات أنْ كان القوم يمتدحون ، في المجتمع الفاضل ضابطاً (١) كان يقضي إجازته بيننا ، من حيث كونه رجلاً يمتاز بحسن التفكير ، والتجربة ، وقد اشترك في حرب السنوات السبع ؛ واكتسب ثقة عامة ، ولم يكن من العسير أن أتقرّب إليه ، وجعلنا نتنزّه معاً ، في كثير من الأحيان ، وكان مفهوم التجربة قد استقرّ في ذهني تماماً ، وغدت الحاجة إلى أن أوضحه لنفسي ؛ حاجةً ملحة ، فكشفت له ، بما كنت أتسم به من الصراحة ، عن الاضطراب الذي كنت أعاني منه ، وكان من مودته أنْ روى لي ، بناء على أسئلتي ،

شيئاً عن حياته ، وعن الدنيا الأخرى عموماً ، مما لم يُسفر بالطبع إلاّ عن قليل مما هو أفضل من قوله إن الخبرة تؤكد لنا أن أفضل أفكارنا ورغائبنا ومقاصدنا لاسبيل إلى بلوغها ، وأن الناس يعدون من يتعلّق بأمثال هذه الأوهام ، ويعلن عنها بحيويّة ، إنساناً عديم الخبرة بوجه خاص.

ولما كان مع ذلك رجلاً مستقيماً طيباً فقد أكّد لي أنه لم يتخلّ بعدُ ، هو نفسه ، عن هذه الأوهام ، وأنه ما زال يعاني معاناة أليمة تماماً ، مع ما تبقّى لديه من قدر ضئيل من الإيمان والمحبة والأمل ، واضطر بعد ذلك إلى أن يروي لي شيئاً كثيراً عن الحرب ، وعن نمط الحياة في الميدان ، وعن الوقائع والمعارك ، وذلك ، بوجه خاص ، على قدر ما كان له إسهام في ذلك ، إذ اكتسبت هذه الأحداث الجسام ، وهي تعود على فرد معيّن ، اعتباراً غريباً تماماً . ثم دفعته ، إلى حديث صريح عن الأحوال التي كانت سائدة قبيل ذلك في البلاط ، والتي كانت تبدو أسطورية تماماً و سمعت عن القوة الجسدية لأوغست الثاني ، وعن أبنائه الكثيرين ، وبذخه الهائل ، ثم عن ولع خليفته بالفن والمجموعات (٢) وعن الخراف برول (٣) وحبه الذي لاتحدّه حدود ، للأبّهة ، التي كانت تفاصيلها نابية عن الذوق تقريباً ، وهو صاحب المآدب ، والاحتفالات الفخمة التي قطعتها جميعاً غارة فريدريش على سكسونيا . وكانت القصور الملكية الآن خاوية على عروشها ومظاهر العظمة البرولية مدمّرة ، ولم يكن قد تبقى قبل كل شيء إلاّ أرض رائعة لحق بها ضرر كبير .

فلما رآني قد أخذتني الدهشة من ذلك الاستمتاع الأحمق بالسعادة ، ثم رآني وقد تكدّر صفوي بالمأساة التي حلّت ، وأوضح لي كيف

يطالب الناس الرجل المجرّب بالذات ، بألاّ يتولاه العجب من كلا هذين ، ولا يهتم له اهتماماً بالغ الحرارة ، شعرت بمتعة كبيرة في البقاء على ما كنت عليه حتى الآن من قلة التجربة ، حيناً آخر من الزمان ، فشدّ أزري في ذلك الأمر ، وجعل يلحّ عليّ إلحاحاً شديداً ، وهو يرجو مني ، أن أتمسك دائماً بالتجاريب المستعذبة ، إلى إشعار آخر ، وأن أحاول رفض التجاريب غير المستعذبة ما وسعني الرفض ، إذا ما ازدحمت عليّ . وذات مرة ، حين جرى الحديث من جديد عن التجربة بصورة عامة ، وحدثته عن تلك العبارات الساخرة للصديق بيهرِش ، هزّ برأسه باسماً ، وقال : « ههنا يرى المرء كيف يكون واقع الأمر مع الكلمات بمجرد أن يتم التفوّه بها ! فهذه الكلمات هنا تبدو عابثة ، بل سخيفة ، إلى درجة يمكن أن يبدو معها أن من المستحيل إضفاء معنىً معقول عليها ، ومع ذلك فربما كان من الممكن القيام بمحاولة » .

ولما ألحفت عليه أجاب بطريقته المرحة المتفهّمة : « إذا سمحت لي أن أعلّق على كلام صديقك وأكمّله ، متابعاً طريقته ، فانه يبدو لي أنه أراد أن يقول إن التجربة ليست شيئاً آخر سوى أن يجرب المرء ما لايرغب في أن يجرّبه ، وهو ما يفضي إليه الأمر على الأقل ، في هذا العالم ، في معظم الأحيان .

الكتاب الثامن

وقد يكون من الممكن مقارنة رجل آخر مع بيهرش من وجهة معينة ، على الرغم من أنه يختلف عنه من كل ناحية اختلافاً لاحدّ له . وأنا أقصد أوزَرْ (١) الذي كان أيضاً من أولئك البشر الذين يبدّدون حياتهم في الأحلام ، وهم في عمل مريح . وكان أصدقاؤه أنفسهم يقرّون بهدوء بأنه لم يسلخ سنوات شبابه في نشاط كاف ، ومن أجل ذلك لم يصل قط إلى درجة ممارسة الفن بتقنية مكتملة . ومع ذلك فقد كان يبدو أن ثمة همّة معينة يحتفظ بها لشيخوخته ، كما أنه لم يكن يفتقر قط في السنوات الكثيرة التي عرفته فيها ، إلى الابتكار ، ولا إلى الجدّ ، وكان قد اجتذبني على الفور في اللحظة الأولى اجتذاباً شديداً . بل كان مسكنه ذاته ، الغريب المثير للهواجس ، بالغ الجاذبية بالقياس إليّ . ففي قصر بلايسنبرج (١) القديم كان المرء يرتقي درجاً حلزونياً منيراً متجدداً في الزاوية . ثم يجد المرء قاعات المعهد العالي للرسم الذي كان هو مديره ، إلى اليسار ، مشرقةً فسيحة . أما الوصول إليه ذاته فلم يكن يتم إلاّ عن طريق ممرّ ضيق مظلم كان المرء لايبحث عن المدخل إلى حجراته إلاّ في نهايته حيث يكون المرء قد اجتاز سلسلة الحجرات ومخزناً للحبوب واسع الأرجاء . وكانت الحجرة الأولى مزينة بصور من المدرسة الإيطالية المتأخرة . لأساتذة دأب على الإشادة بفضلهم إلى حد كبير ، ولما كنت قد أخذت ساعات خصوصية لديه مع بعض

النبلاء فقد كان من المسموح لنا أن نرسم ههنا ، وكنا نصل أحياناً إلى حجرته الداخلية المواجهة لتلك الحجرة التي كانت تضم في الوقت نفسه كتبه القليلة ومجموعاته الفنية ومجموعاته من المواد الطبيعية ، وكل ما يمكن أن يبعث اهتمامه سوى ذلك . وكان كل شيء مرتّباً على نحو ينطوي على الذوق والبساطة بحيث كانت الحجرة الصغيرة تضم كثيراً جداً من الأشياء . وكانت قطع الأثاث ، والخزائن ، والحقائب أنيقة دونما زخرف أو تَزَيُّد . وقد كان ذلك أيضاً أول ما أوصانا به ، وكان ما يفتأ يعود إليه المرة بعد المرة ، البساطةُ في كل شيء (٢) يعد الفن والعمل اليدوي معاً مؤهّلين لإخراجه . وكان بحكم كونه عدواً لدوداً لأشغال الزخرفة وأشغال الصدف ، ولكل الذوق المتصل بعصر الباروك ، يعرض علينا أمثال هذه النماذج القديمة المنقوشة على النحاس ، والمرسومة، في مقابل ألوان أفضل من الزينة ، وأشكال من الأثاث أكثر بساطة ، وكذلك في مقابل ضروب أخرى من الأشياء التي تكسى بها الحجرات ، ولما كان كل شيء من حوله يتفق مع هذه المبادىء ، فقد كانت الكلمات والدروس تترك في نفوسنا أثراً حسناً ودائماً . وكانت الفرصة تسنح له فوق ذلك أيضاً ليرينا أفكارها بصورة عملية ، إذ كان يتمتع بسمعة حسنة سواء لدى الخاصة أم لدى الرسميين ، وكان يستشار في المباني والتغييرات الجديدة . وكان على العموم يبدو أكثر ميلاً إلى صنع أشياء ، من حين إلى آخر ، من أجل غرض واستعمال معين ، أكثر من ميله إلى أشياء قائمة بذاتها تقتضي انجازاً وعملاً ومعالجة أكبر . ولذلك كان أيضاً على أهبة الاستعداد دائماً حين كان تجار الكتب يطلبون نقوشاً نحاسية أكبر وأصغر ، لأي غرض من الأغراض ، مثلما تم نقل التصاوير الخاصة بالكتابات الأولى لفينكلمان على النحاس من

قِبَلِه . ولكنه كان يقوم في معظم الأحيان بعمل مجرد رسوم بالخطوط العريضة كان جايزر (١) يعرف كيف ينطلق بها على سجيّته تماماً . وكانت شخوصه تتسم بشيء من العمومية بصورة مطلقة ، إن لم نقل بشيء من الذهنية . وكانت النساء عنده مستعذبات لطيفات ، والأطفال عنده على جانب كاف من البساطة ، إلاّ أن الأمور كانت تأبى أن تستقيم مع الرجال الذين كانوا في معظم الأحيان يكتسبون مظهر رجال لازّاروني ، بما في أسلوبه من خفة روح حقّة ، رضبابية وإيجاز (٢) في الوقت نفسه ، وبصورة دائمة . ولما كان يبني حساب تركيباته على الشكل . أقل مما يبنيها على الضوء والظل والكتلة ، فقد كانت تتميز على الإجمال تميّزاً جيداً شأن كل ما كان يعمله ويخرجه ، مصحوباً برشاقة خاصة . ولما كان مع ذلك ينطوي على ميل متأصّل إلى ما ينطوي على معنى ، أو استعارة ، ولم يكن يستطيع أن يحشر شيئاً يثير فكرة جانبية ، ولا كان يريد ذلك ، فقد كانت أعماله تقدم دائماً شيئاً يدعو إلى التفكير ، وكانت تكتمل عن طريق تصوّر ما ، إذ لم يكن من الممكن أن تكون كذلك عن طريق الفن والتنفيذ . وكان هذا الاتجاه الذي يعد خطيراً دائماً ينتهي به أحياناً إلى حدود الذوق الجيد ، ان لم يتجاوز به تلك الحدود . وكان يسعى إلى بلوغ مقاصده في كثير من الأحيان عن طريق أغرب الخواطر ، وعن طريق النوادر الجامحة ، أجل ، فهو يضفي على أفضل أعماله دائماً مسحةً من الفكاهة . وإذا لم يكن الجمهور دائماً راضياً عن أمثال هذه الأشياء انتقم لنفسه بنزوة جديدة ، أكثر غرابة . وهكذا عرض فيما بعد : في الحجرة الأمامية لقاعة الحفلات الموسيقية الكبرى ، شخصية نسائية مثالية بأسلوبه ، كانت تدفع بمقص لفتيل الضوء صوب شمعة ، وكان يسره سروراً

فائقاً أنه استطاع أن يسبب اختصام الناس حول مسألة هل تفكر هذه الربّة الغريبة أن تجلو الضوء أم تطفئه ؟ وأثار بذلك ضروباً شتى من الأفكار الجانبية المتسمة بالدعابة ، بصورة ماكرة .

ولاريب أن بناء المسرح الجديد في زماني أثار أكبر الانتباه ، إذ كانت ستارته (١) تحدث بلاريب أثراً مستعذباً إلى حد فائق ، وذلك أنه كان ما يزال جديداً كل الجدّة . وكان أوزر قد استنزل الربّات من السحائب التي كن في العادة يسبحن فيها في مثل هذه المناسبات ، إلى الأرض . وكانت تماثيل سوفوكل وأريستو فانس الصغيرة تزين الرواق الأمامي من معبد المجد الذي كان يحتشد من حوله كل كتاب المسرح الجدد . وهنا كانت آلهة الفنون حاضرة كذلك ، وكان كل شيء نبيلاً وجميلاً . وإذا العجيب يأتي الآن ! كان الناس يطلّون بنظرهم من خلال الوسط المفتوح على الباب الكبير للمعبد الواقع عن بُعد ، وإذا رجلٌ في سترة خفيفة تمشي بين كلا المجموعتين الآنفتي الذكر دون أن يحفل بهم ، منطلقاً نحو المعبد لايلوي على شيء ، ومن أجل ذلك كان القوم يرونه من ظهره ، ولم يكن يتميز بشيء خاص . وعلى الأرض الكبيرة فوق المسرح الجديد تم أداء هذا العمل . وكنا نحتشد حواليه في كثير من الأحيان وقد تلوت عليه هناك بنفسي ملصقات الإعلان عن « موزاريون » .

أما ما يتصل بي فلم أواصل خطواتي في ممارسة الفن بحال من الأحوال . لقد كانت دروسه تفعل فعلها في فكرنا وفي ذوقنا ، ولكن تصويره الخاص كان أكثر افراطاً في عدم التحديد من أن يقودني ، وأنا الذي كنت أنظر بمجرد بصيص من الضوء إلى موضوعات الفن

والطبيعة ، إلى ممارسة صارمة وحاسمة . أما الوجوه والأجسام ذاتها فقد نقل إلينا منها وجهات نظر أكثر مما نقل إلينا أشكالاً ، وتعبيرات أكثر من النِسَب . وكان يعطينا المفاهيم عن الصور ، ويطالبنا بأن ندعها تغدو حيّة فينا . على أن هذا كان خليقاً أن يكون أيضاً جميلاً وصائباً لو لم يكن أمامه مجرد مبتدئين . ولذلك فاذا استطاع المرء أن ينكر عليه الموهبة الممتازة في التعليم حقاً فلن يكون له بدٌّ من أن يقرّ في مقابل ذلك أنه كان بالغ الحنكة والخبرة بأمور الحياة ، وأن مرونته الموفّقة في الفكر تؤهله حقاً ليكون معلماً في حقيقة الأمر ، وبمعنى أعلى . أما النقائص التي كان يعاني منها كل امريء فقد كان يتبيّنها على نحو جيد حقاً ، على أنه كان يأبى مع ذلك أن يطعن فيها بصورة مباشرة ، وإنما كان ، بالأحرى ، يسوق المديح والذم في إشارة مقتضبة جداً . وكان لابد للمرء أن يفكر في المسألة الآن ، وقد أحرز في هذه الوجهة كثيراً من التقدم . ومثال ذلك أنني نفّذت على الورق الأزرق رسم باقة أزهار ، بموجب تعليمات جاهزة ، بعناية شديدة ، بالطباشير الأسود والأبيض ، وحاولت إبراز الصورة بالمسح حيناً ، وبالتظليل حيناً آخر . وبعد أن أجهدت نفسي زمناً طويلاً على هذا النحو ، جاء ذات مرة من ورائي ، وقال : « مزيداً من الورق » ، وابتعد على أثر ذلك فوراً . وجعلنا أنا ، وجاري نهرش رؤوسنا مفكرين فيما عسى أن يعنيه هذا ، لأن باقتي كان من حولها مجال كاف على نصف صفحة كبيرة من الورق . وبعد أن أعملنا فكرنا طويلاً اعتقدنا آخر الأمر أننا أصبنا مراده ، حين لاحظنا أنني قد غطيت ، عن طريق مداخلة الأسود والأبيض . كل الأرضية الزرقاء ، وأفسدت الحبر ذا اللون المتوسط ، وأخرجت بالفعل رسماً غير مستحسن ، بجهد كبير . وكان آخر الأمر

لايقصّر في تعليمنا قواعد المنظور ، والضوء والظل ، بصورة كافية حقاً ، ولكن دائماً على نحو يضطرنا إلى أن نجهد أنفسنا ونعذّبها لكي نقوم بتطبيق المبادىء المأثورة . ويبدو أن مقصده لم يكن سوى أن يكوّن لدينا ، نحن الذين لم يكن من المفروض أن نغدو فنانين حقاً ، حسن النظر والذوق ، وأن يعرّفنا على مقتضيات العمل الفنيّ دون أن يطالبنا مباشرة باخراجه . ولما لم يكن النشاط من شأني على كل حال ، إذ لم يكن ثمة شيء يمنحني المتعة سوى ما أوفّق فيه دونما جهد ، فقد غدوت ، شيئاً فشيئاً ، متبرّماً ، إن لم أغدُ كسولاً ، ولأن المعرفة أكثر راحة من العمل ، فقد ارتضيت لنفسي ما كان يفكر أن يوجهنا إليه على طريقته .

وفي ذلك الوقت كان كتاب « حياة الرسامين » لآرجانفيل (١) قد ترجم إلى الألمانية ، وتلقيته في نضارته التامة ، وأقبلت على دراسته بنشاط كاف . وبدا أن هذا يعجب أوزر ، وقد أتاح لنا الفرصة لرؤية بعض الملفّات (٢) من مجموعات لايبتسغ الكبرى ، ووجهّنا بذلك نحو تاريخ الفن . ولكن هذه التمارين أحدثت لديّ أثراً يختلف عمّا كان يحتمل أن يحمله في ذهنه . وذلك أن بعض الموضوعات التي رأيت الفنانين يعالجونها أيقظت في نفسي الموهبة الشعرية ، ومثلما يحول المرء النقش النحاسي إلى قصيدة ، كنت أصنع الآن قصائد على نمط النقوش (٣) والرسوم ، إذ كنت أجسّد لنفسي الشخوص المعروضة فيها ، في أحوالها السابقة واللاحقة ، وسرعان ما كان في وسعي أن أضع أغنية قصيرة تتلاءم معها ، وعوّدت نفسي ، على هذا النحو ، على أن أنظر إلى الفنون مرتبطاً بعضُها ببعض ، بل ان الأخطاء التي ارتكبتها ، ذاتها ، حتى غدت قصائدي بها وصفيّة في بعض الأحيان ، كانت مفيدة عندي ،

حين عدت إلى مزيد من إمعان النظر ، إذ كانت تنبّهني إلى الفرق بين الفنون . وكان في المجموعة عدد من أمثال هذه الأشياء الصغيرة التي قام بها بيهرِش (٤) ، ولكن لم يبق منها شيء .

وكان عنصر الفن والذوق الذي كان يعيش فيه أوزر ، والذي كان الزائرُ نفسه يُحمَلُ عليه ، ما دام يزوره بنشاط . يزيد في ارتقائه ويبعث فيه البهجة بصورة مطرّدة ، أنه كان يسره أن يستذكر الرجال الراحلين أو الغائبين الذين كان على علاقة بهم ، أو يواصل مثل هذا يوماً بعد يوم ، مثلما يفعل حين يقدم فروض الاحترام ذات مرة إلى أحد من الناس ، ويظل على سلوكه تجاه هذا الرجل دونما تغيير ، ويبرهن على ثبات ميله اليه .

وبعد أن سمعنا ، في عهد الفرنسيين ثناء على كيلوس * (٥) بصورة متميزة ، عرّفنا أيضاً على الرجال الألمان العاملين في هذا الميدان . فعرفنا أن الأستاذ كريسْت (٦) قد أسدى إلى الفن خدمات جُلّى بحكم كونه محباً ، وجامعاً ، وخبيراً ، ومسهماً في العمل ، وأن اطلاعه قد استخدم من أجل التنمية الحقة للفن . أمّا هاينيكِنْ (٧) فلم يكن من الجائز ، في مقابل ذلك ، ايراد اسمه ، وذلك ، من ناحية ، لأنه كان يُقبِل بنشاط مفرط على الاشتغال ببدايات الفن الألماني المفرطة في طفوليّتها والتي كان أوزر قلّما يقدّرها ، ولأنه سلك ، من ناحية أخرى ، ذات مرة سلوكاً غير نظيف مع فينكِلْمان ، الأمر الذي لم يكن من الممكن أن يصفح عنه قط . ومع ذلك فقد تم ، بجهود ليبّرْت (١) ، توجيه أنظارنا بقوة ، إذ استطاع معلمنا أن يبرز إنجاز هذا إبرازاً كافياً .

* Caÿlus

ذلك لأن التماثيل والأعمال التصويرية الكبيرة على الرغم من أنها كانت تظل ، كما يقول ، هي الأساس والقمة لكل معرفة بالفن ، فانها قلّما تُرى مع ذلك ، سواء في الأصل أم في النسخة المسكوبة ، ثم يتم التعرّف ، في مقابل ذلك ، عن طريق ليبّرت ، على عالم صغير من النفائس المنقوشة يغدو فيه إنجاز الأقدمين الأكثر إدراكاً ، والإكتشاف الموفّق ، والتأليف الملائم للغرض ، والمعالجة المبنية على الذوق ، أكثر لفتاً للنظر ، وأكثر فهماً . وتغدو المقارنة ، كما يقول ، أقرب إلى الإمكان ، حتى مع الكمية الكبيرة جداً . وفي الوقت الذي كنا فيه الآن نشتغل بذلك ، على قدر ما كان ذلك مسموحاً به ، كان يُشار إلى الحياة الفنية الرفيعة لفينكلمان (٢) في ايطاليا ، وكنا نتلقّف كتاباته الأولى بالتقدير والمهابة ، لأن أوزر كان يمجّده تمجيداً حماسياً وكان في وسعه أن يبثّ ذلك فينا بسهولة فائقة . والحق أنه لم يكن في وسعنا أن نحل لغز الإشكالية في تلك المقالات القصيرة التي كانت فوق ذلك تشوّش نفسها بنفسها عن طريق السخرية ، وتُحيل على آراء وأحداث شديدة الخصوصيّة . ولكن لمّا كان لأوزر قدر كبير من التأثير في هذا الصدد ، وكان ما يفتأ يحدثنا عن انجيل الجمال ، بل عن انجيل الذوق والظُرف ، فقد عثرنا من جديد على المعنى بوجه عام ، ورأينا أنفسنا بمثل هذه التفسيرات ماضين في طريق أكثر أمناً حين كنا نرى أن ليس من السعادة التي يستهان بها أن يمتح المرء من الينبوع ذاته الذي كان فينكلمان قد روى ظمأه منه .

ولايمكن أن يتاح لمدينة سعادة أكبر من أن يقطن فيها عدد من الرجال والمثقفين الذين تتشابه أفكارهم تجاه ما هو خير وحق ، جنباً إلى جنب . وقد كانت لايبتسغ تتمتع بهذه المزيّة ، وكان يزيد في

تمتّعها بها أنه لم تكن قد برزت بعدُ منازعات عديدة في الحكم والرأي . وكان هوبر ، جامع النقوش النحاسية ، والخبير المتمرّس ، قد أسدى فوق ذلك خدمة يُعترَف له فيها بالجميل ، وهي أنه فكّر في تعريف الفرنسيين أيضاً على قيمة الأدب الألماني . وكان هناك كرويْشاوف (١) ، الهاوي ذو النظرة المدرَّبة ، الذي كان يستطيع ، بحكم كونه صديقاً لعصبة الفن (٢) بأسرها ، أن يعدّ كل المجموعات مجموعاته ، وفينكر (٣) الذي كان يسره جداً أن يقاسم الآخرين المتعة التأملية التي كان يجدها في كنوزه ، وبعض الآخرين الذين يلحقون بهم : كانوا يعيشون جميعاً ويعملون بروح واحدة . وما كنت لأستطيع أن أذكر أنه نشب نزاع في تلك الأيام ، على كثرة ما كان يتاح لي أن أشهده ، حين كانوا يستعرضون الأعمال الفنية . وكان من البدهي أن تأتي في الاعتبار دائماً المدرسة التي خرج منها الفنان ، والعصر الذي عاش فيه والموهبة الخاصة التي وهبته إياها الطبيعة والدرجة التي وصل إليها في التنفيذ . ولم يكن هذا إيثاراً للموضوعات الذهنية ولا للموضوعات الدنيوية ، أو ، للموضوعات الريفية أو المتصلة بالمدينة ، أو الحية أو التي لاحياة فيها ، وإنما كان التساؤل دائماً عن الجانب الفني .

وإذا كان هؤلاء الهواة والجمّاعون الآن يتجهون ، تبعاً لأوضاعهم وأسلوب تفكيرهم ومقدرتهم وفرصهم ، نحو المدرسة الهولندية بصورة أكبر فقد ظلت هناك مع ذلك نظرة مفتوحة دائماً نحو الجنوب الشرقي في الوقت الذي كان المرء فيه يدرب عينيه على إنجازات فناني الشمال الغربي التي لانهاية لها .

وهكذا كان لابد للجامعة التي كنت أُفرّط فيها في اهداف أسرتي ،

بل في أهدافي الخاصة أن توطد لديَّ الأسس فيما كان يفترض أن أجد فيه غاية الرضى في حياتي ، كما أن الانطباع الذي تركته تلك الأماكن التي تلقيت فيها حوافز بالغة الأهمية ظل عندي على الدوام عزيزاً وغالياً إلى أقصى الحدود . وذلك أن قصر بلايْسِنبورج والحجرة في المعهد العالي ، وبوجه خاص مسكن أوزر ، وليس أقل من ذلك مجموعتا فينكلر وريشتر (٤) ، ما زالت تتجسد دائماً في صورة حية عندي .

ومع ذلك فلابد لشابٍ تظل أصعب المهام متروكة له وحده ، في الوقت الذي يتحدث فيه أناس أكبر سناً فيما بينهم عن أشياء معروفة من قبل ، ويطلّع على ذلك بصورة عرضية فحسب ، أن يجد نفسه في وضع مؤلم جداً ، ولذلك جعلت أتطلّع حوالي مع الآخرين بشوق إلى ضوء جديد كان من المفروض أن يأتي عن طريق رجل كنا ندين له من قبل بالكثير الكثير .

وإنما يمكن أن تتهيّأ للذهن متعته بدرجة عالية بطريقتين ، التأمّل ، والتصوّر ، ولكن ذاك يقتضي موضوعاً سامياً لايتهيّأ دائماً ، وثقافة نسبية لم يصل المرء إليها على وجه الخصوص . وفي مقابل ذلك فان التصور يقتضي مجرّد الاستعداد لتقبّل المؤثرات ، فهو يأتي معه بالمضمون ويعد هو نفسه آلة التشكيل . ومن أجل ذلك كان ذلك الشعاع من الضوء الذي يَسْتَنْزِلُه المفكر الممتاز من خلال السحب المدلهمّة ، الينا ، يلقى أعلى درجات الترحيب . ولابد للمرء أن يكون فتىً ليتصوّر أيّ أثر أحدثته فينا مسرحية ليسنج (١) « لاوكون » ، إذ انتزعتنا من اقليم التأمّل البائس ، فأخرجتنا إلى حقل الفكرة المكشوف . وتم التخلّص

مرة واحدة من مبدأ (الأدب على شاكلة الرسم) الذي كان يُساءُ فهمه زمناً طويلاً ، وغدا الفرق بين الفنون التشكيلية ، والفنون الكلامية ، واضحاً ، وبدت ذروتا كليهما منفصلتين الآن ، مهما يكن من تصادم أساسيهما ، فكان على الفنان التشكيلي أن يظل ضمن حدود الجميل ، بينما كان يباح للكلاميّ الذي لايستطيع أن يستغني عن معنى كل فن ، أن يتخطّى هذه الحدود أيضاً . فذاك يعمل من أجل المعنى الخارجي الذي لايمكن اشباعه إلاّ بالجميل ، وهذا من أجل المخيلة التي يمكن أن ترتضي القبيح ، بلاريب . وانجلت لنا ، كما تنجلي الأشياء أمام البرق ، كل نتائج هذه الفكرة الرائعة . وغدا كل النقد التوجيهيّ والحُكْميّ الذي كان موجوداً حتى الآن ، منبوذاً ، كصخرة مُجْتَرفة ، ورأينا أننا تخلصنا من كل الشرور ، واعتقدنا أنْ قد غدا من الجائز لنا أن ننظر ببعض الرثاء ، من عَلٍ ، إلى القرن السادس عشر الذي كان فيما عدا ذلك بالغ الروعة ، إذ لم يكن في وسع المرء أن يتمثّل الحياة ، في الأعمال التصويرية والقصائد الألمانية ، إلاّ في صورة مجانين قد زوّدوا بالجلاجل ، والموت إلاّ في صورة شوهاء لهيكل مُفَرْقِع ، مثلما لم يكن يستطيع أن يجسِّد شرور الحياة الضرورية والقائمة على المصادفة ، إلاّ في صورة الشيطان الشوهاء .

وكان أكثر ما يفتننا جمال تلك الفكرة ، وهي أن القدماء كانوا يقرّون أن الموت أخو النوم ، (٢) وأن كليهما مصوغان بصورة متساوية للتبادل فيما بينهما ، كما هو الحال في التوائم . وكان في وسعنا الآن ، وههنا فحسب ، أن نحتفل بانتصار الجميل احتفالاً رفيعاً ، وألاّ ننفيَ القبيح من كل نوع ، إذا لم يكن ثمة سبيل إلى طرده ذات مرة من العالم ، إلاّ إلى أدنى درجات المضحك .

على أن روعة مثل هذه المفاهيم الرئيسية والأساسية لاتتجلّى إلاّ للنفس التي تمارس فيها تأثيرها اللانهائي . ولا تتجلّى إلاّ في الزمان الذي تظهر فيه في اللحظة المناسبة ، على شوقٍ إليها . هنالك يشتغل بذلك أولئك الذين يجديهم مثل هذا الغذاء ، عصوراً بأكملها ، اشتغالاً ينطوي على المحبة ، ويتمتعون بنماء فائق ، على حين لايعدم الأمر وجود أناس يتصدّوْن على الفور لمقاومة مثل هذا التأثير ، ولاوجود آخرين يمارسون المساومة والسمسرة بالنتيجة حيال المعنى النبيل .

وكما أن التصور والتأمل يدعم أحدهما الآخر على نحو متبادل ، فانني لم أكن أستطيع أن أعالج هذه الأفكار الجديدة وقتاً طويلاً دون أن تنشأ لديّ رغبة لاحدّ لها في أن أشاهد ذات مرة أعمالاً فنية هامة بكمية أكبر . ومن أجل ذلك قررت أن أزور درسدن دونما إقامة . ولم تكن تنقصني النقود . ولكن كان هناك صعوبات أخرى ينبغي التغلب عليها وقد كنت أزيد فيها ، بمزاجي المنحرف ، دونما حرج : ذلك لأنني كنت أخفي مقصدي عن كل امريء من الناس ، لأنني كنت أود أن أتأمل كنوز الفن هناك على طريقتي الخاصة تماماً ، وكنت أقصد ألاّ أدع أحداً يضلّلني . وباستثناء هذا ، وبفعل ناحية غريبة أخرى ، أصبحت مسألة من المسائل البسيطة ، أكثر تعقيداً .

على أن فينا نقاط ضعف فطرية ومكتسبة ، وقد يرد بعدُ سؤالٌ هو : أيٌّ هاتين تدفعنا إلى الإبداع أكثر مما عداها . ومهما يكن من ولعي بالتعرّف على كل نوع من الظروف ، واتخاذ الحافز إلى ذلك ، فقد بثّ فيّ والدي مع ذلك أشدّ النفور من الفنادق ، وتأصلّت فيه هذه الفكرة خلال رحلاته في إيطاليا وفرنسا وألمانيا . وعلى الرغم من

أنه قلما كان يتحدث بالصور البيانية ، ولم يكن يستعين بها إلاّ حين يكون منشرح الصدر ، فقد كان من عادته مع ذلك أن يعاود هذا في بعض الأحيان : وذلك أنه كان يعتقد أنه كان يرى في باب الفندق دائماً نسيج عنكبوت ممتداً على مدى واسع ، بصورة فنيّة يبلغ منها أن الحشرات تستطيع أن تدخل فيه حقاً وهي طائرة ، ولكن لاتستطيع حتّى الدبابير المتمتعة بأفضل المزايا أن تخرج منه غيرَ منتوفة الجناحين . وكان يبدو له أمراً مريعاً ، من أجل ذلك ، أن يهجر المرء عاداته وكل ما هو عزيز عليه في الحياة ، وأن يعيش كما يريد له قيّم الفندق والنادل ، وأن يضطّر بعد إلى الدفع بصورة باهظة . وكان يشيد بكرم الضيافة في العصور الغابرة . وكان يقري الضيف حقاً ولاسيما الفنانين والعظماء ، مهما يكن ممتعضاً من صبره على أشياء غير مألوفة في البيت ، ومِنْ ذلك أنّ العرّاب (١) زيكاتس كان يتخذ من بيتنا مقراً دائماً له ، وأن آبيل آخر الموسيقيين (٢) ، الذي كان يعالج آلة الفيولونسيل معالجة موفّقة حائزة للإعجاب ، قد استقبل واستُضيف . وأنّى يكون لي الآن ، وأنا أحمل مثل هذه الانطباعات من أيام الصبا ، التي لم يمحُ آثارها شيء حتّى الآن ، أن أعقد العزم على دخول فندق في مدينة غريبة ؟ ولم يكن ثمة شيء أسهل من العثور على مأوى لدى الأصدقاء الطيبين . وكان مستشار البلاط كريبيل (٣) ، ومساعد القاضي هرمان (٤) ، وآخرون قد تحدثوا إليّ في ذلك كثيراً من الأحيان : ولكن كان ينبغي أن تظل رحلتي سراً بالقياس إلى هؤلاء أيضاً ، ووقعت على أغرب خاطرة . وذلك أن جاري في الحجرات ، اللاهوتيّ النشيط (٥) ، الذي كانت عيناه تخونانه على نحو مطرد في الزيادة ، مع الأسف ، كان له قريب في درسدن ، وهو حذّاء كان يراسله من حين إلى آخر .

وكان هذا الرجل قد غدا لافتاً للنظر عندي إلى أقصى الحدود منذ زمن طويل بسبب تصريحاته ، وكان وصول رسالة من رسائله يلقى منّا على الدوام حفاوةً احتفاليّة . وكان الأسلوب الذي يردّ به على شكاوى قريبه الخائف من العمى ، ذا سمة خاصة كل الخصوص : ذلك لأنه لم يكن يجهد نفسه في التماس أسس التعزية التي كان العثور عليها عسيراً دائماً . ولكن الأسلوب المرح الذي كان ينظر به إلى حياته الخاصة الضيّقة البائسة الكادحة ، والنكتة التي كان يستخرجها حتى من الآفات والمتاعب ، والإيمان الذي لايتزعزع ، بأن الحياة متاع في حد ذاتها ، كل ذلك كان ينتقل بالعدوى إلى من يقرأ الكتاب ، ويضعه لحظاتٍ من الزمان على الأقل ، في الحالة النفسية ذاتها ، وكنتُ بما عُهد فيَّ من الحماسة ، قد بعثت إلى هذا الرجل بتحيات خالصة ، وأثنيت على موهبته الطبيعية الموفّقة ، وأعربت عن رغبتي في التعرّف عليه . وبالنظر إلى هذا كله كان يبدو لي أنه ليس هناك شيء أكثر طبيعيّةً من زيارته ، والتسلّي معه ، بل والسكنى لديه والتعرّف عليه بصورة دقيقة تماماً ، وأعطاني صاحبي الطالب الطيب ، بعد شيء من الممانعة ، كتاباً مكتوباً بشيء من الجهد ، وارتحلت ، ولفافة أوراقي في جيبي ، في العربة الصفراء ،

وبحثت عن صاحبي الحذّاء (١) ، وسرعان ما وجدته في ظاهر المدينة ، واستقبلني بمودة وهو جالس على كرسيه ذي المسند ، وقال باسماً بعد أن قرأ الرسالة : « أنا استخلص من ذلك ، يا سيدي الشاب ، أنك مسيحيّ طريف » . فأجبت قائلاً : « وكيف ذلك ، أيها المعلّم ؟ » فمضى قائلاً : « ليست الطرافة هنا مقصودة بمعناها السيء ، فالناس يسمون بهذا الاسم من لاتكون ذاتُه متجانسة . وأنا أسميك مسيحياً

طريفاً لأنك تقرّ ، في بِضْعة * منك ، أنك من أتباع السيد المسيح ، غير أنك لست كذلك في البِضْعة الأخرى » . ومضى قائلاً ، في استجابة لرجائي أن يجلو لي الأمر : « يبدو أن غايتك أن تبشّر برسالة سارّة إلى المساكين والمستضعفين ، وهذا جميل ، وهذا التقليد للسيد المسيح محمود ، ولكن كان ينبغي لك أن تتدخل في حسابك أنه لم يكن يُعرِض حتى عن رائحة البلسم الذكية التي قد لاتجد منها عندي إلاّ النقيض » .

وقد ردّتني هذه البداية المضحكة على الفور إلى روح الدعابة الحسنة ، وجعلنا نتمازح فيما بيننا وقتاً غير قليل . ووقفت المرأة تفكّر مهمومة كيف ينبغي لها أن تؤوي مثل هذا الضيف وتقوم بخدمته ؟ وهنا أيضاً كانت له خواطر ظريفة جداً لم تكن تتصل بالكتاب المقدس وحده ، بل تعود إلى « حوليّات » جوتفريد (٢) ، وحين اتفقنا على أن من الواجب أن أبقى أعطيت كيسي ، كما كان ، للمضيفة لحفظه ، والتمست منها أن تتزوّد منه حين تمس حاجة إلى شيء ما ، وحين أراد أن يرفض ذلك ، وأفهمني بشيء من الدُعابة الماكرة أنه ليس مفلساً إلى هذه الدرجة كما قد يبدو عليه ، جرّدته من سلاحه بأن قلت : « حتى ولو كان الأمر من أجل مجرد تحويل الماء إلى خمر فلن تكون مثل هذه الوسيلة المنزلية الناجعة في غير محلها الصحيح ، طالما أن المعجزات ما عادت تحدث في هذه الأيام . وكان يبدو على المضيفة أنها تجد غرابة حديثي وسلوكي تتناقص بصورة مطردة ، وسرعان ما تمّ الانسجام

(*) البضعة (بكسر الباء) القطعة المقتطعة من كل أكبر ، ومنه قول الرسول (ص) : فاطمة بضعة مني يسرني ما يسرها ، ويسوؤني ما يسوؤها .

« المترجم »

بيننا ، وقضينا أمسية مرحة جداً . وكان يظل هو ذاته دائماً ، لأن كل شيء كان يصدر عن ينبوع واحد . وكانت ثروته عقلاً إنسانياً حصيفاً يستند إلى نفس مرحة ويرتضي النشاط التقليدي على المستوى الثابت . أمّا أنه كان يعمل دونما توقف فكان ذلك أولى خصاله وأكثرها ضرورة ، وأمّا أنه كان يرى كل شيء آخر من قبيل المصادفة ، فذلك ما كان يحفظ عليه راحته ، وكان لابدّ لي أن أقدّمه على كثير من الآخرين ، واضعاً إياه في مرتبة أولئك الذين كان يُطلَق عليهم اسم الفلاسفة العمليين أو حكماء الحياة اللاّواعين .

وأقبلت الساعة التي كان من المفروض أن يفتتح فيها المعرض (١) ، على انتظارٍ نافد الصبر ، فدخلت هذا الحَرَم ، وكان إعجابي يتجاوز كل تصوّر كنت قد تصوّرته . فهذه القاعة التي تتكرّر بذاتها ، والتي تسودها الأبّهة والنقاء مع أعلى درجات الهدوء ، والأُطُر التي تخطف الأبصار ، وكلها ما يزال أقرب إلى العصر الذي ذُهِّبت فيه ، والأرضية المجلُوَّة ، والحجرات التي يدخلها المتفرجون أكثر مما يستعملها العاملون ، كل ذلك كان يضفي شعوراً بالسمة الاحتفالية فريداً في نوعه كان يشابه الاحساس الذي يدخل به المرء كنيسة ، ولاسيما حين كان يظهر هنا على نحو متكرّر زخرف بعض المعابد ، وموضوع بعض العبادات ، متّخذاً لأغراض فنية مقدّسة . وتقبّلت العرض الانتقائيّ لدليلي قبولاً حسناً للغاية ، إلاّ أنني رجوت منه أن يأذن لي بالبقاء في قاعة المعرض الخارجية ، إذ كان وجودي هنا يبعث على ارتياحي كأنني في بيتي حقاً . وكنت قد رأيت من قبل أعمالاً لعدد من الفنانين ، وكنت أعرف آخرين عن طريق النقوش النحاسية ، وآخرين بالاسم ، ولم أكتم ذلك وزرعت في نفس دليلي بذلك شيئاً من الثقة ، بل كان يسلّيه الافتتان

الذي كنت أعرب عنه أمام القطع الفنية التي كانت الفرشاة تحرز فيها قصب السبق على الطبيعة : لأن هذه الأشياء كانت هي التي تجتذبني إليها على نحو متميّز ، حيث لم يكن بدّ للمقارنة مع الطبيعة المعروفة أن ترفع من قيمة الفن بالضرورة .

ولما دخلت من جديد على صاحبي الحذّاء للاستمتاع بوجبة الغداء ، لم أكد أصدّق عيني ، لأنني كنت أعتقد أنني أرى أمامي صورة لأوستاد يبلغ من كمالها أن المرء يحق له أن يعلّقها في المعرض . فكنت أرى وضع الأشياء والضوء والظل ، والصبغة العامة الضاربة إلى السمرة ، والجو السحري ، وكل ما كان المرء يعجب به في تلك الصور ، كنت أرى ذلك هنا في الواقع . وكانت المرة الأولى التي أحِسُّ فيها ،على مستوى بهذا العلوّ ، بالموهبة التي دربّتها فيما بعد بمزيد من الوعي ، ألا وهي ، أن أرى الطبيعة (١) بعيني هذا الفنان أو ذاك الذي وجّهت انتباهاً خاصاً إلى أعماله منذ هنيهة . وقد أتاحت لي هذه المقدرة كثيراً من المتعة ، ولكنها زادت أيضاً في الرغبة في الانصراف إلى ممارسة موهبة كان يبدو أن الطبيعة حرمتني منها ، من حين إلى آخر .

وكنت أختلف إلى المعرض في كل الساعات المتاحة ، وأواصل الإعراب عن افتتاني ببعض الأعمال الممتعة ، بجسارة . وقد أحبطت بذلك مقصدي الحميد ، وهو أن يظلّ الناس لايعرفونني ولا يلاحظونني . ولما لم يكن قد صحبني حتى الآن إلاّ واحد من صغار المشرفين ، فقد لاحظني الآن أيضاً مفتش المعرض المستشار ريدل (٢) ، ولفت انتباهي إلى كثير من الأشياء التي كان يبدو أنها تقع ضمن منطقتي بصورة متميّزة . ووجدت هذا الرجل الممتاز ، في تلك الأيام ، نشيطاً ولطيفاً

مثلما ظللت أراه بعد ذلك خلال العديد من السنين ، وبالقدر الذي ما زال يثبته حتى اليوم . وقد تداخلت صورته لديّ مع تلك الكنوز الفنيّة في نسيج واحد ، حتى انني لاأرى كليهما منفصلين قط ، بل إن ذكراه صحبتني إلى ايطاليا ، حيث كان حضوره عند بعض المجموعات الكبرى والفنيّة مرغوباً جداً لديّ .

ولما لم يكن في وسع المرء أيضاً أن يتأمل ، في حضور الغرباء والمجهولين ، أمثال هذه الأعمال وهو صامت دون اهتمام متبادل ، وكان النظر إليها خليقاً أن يكون الأكثر ملاءمة لكي تنفتح النفوس بعضها على بعض ، فقد دخلت أيضاً في حوار مع شاب كان يبدو أنه يقيم في درسدن ، ويتبع إحدى السفارات ، ودعاني إلى المجيء مساءً إلى فندق تجتمع فيه جماعة مرحة ، ويستطيع المرء أن ينفق فيه بعض الساعات الممتعة تماماً ، على حين يدفع كل امرىء قيمة شرابه المعتدل .

وحضرت دون أن ألقى الجماعة ، وقد أثار النادل شيئاً من الدهشة لديّ حين أبلغني تحيةً من السيد الذي طلبني إذ كان هذا ينهي إليّ بذلك اعتذاراً ، لأنه سيأتي إليّ متأخراً إلى حد ما ، مضيفاً قوله إنني ينبغي ألاّ أحسّ بصدمة في شيء مما يجري ، كما أنه لن يكون عليّ شيء آخر سوى أن أدفع ثمن مشروبي . ولم أكن أعرف ما ينبغي لي أن أصنع بتلك الكلمات ، ولكن نسيج والدي العنكبوتي خطر ببالي ، وتربصت منتظراً ما عسى أن يحدث . والتأم عقد الجماعة، وقدم مني صاحبي . ولم يُتَح لي أن ألاحظ طويلاً اذ تبيّن لي أن وراء المسألة عملية إرباك لشاب كان يتميّز ، بحكم كونه مستجداً ، بطبيعة جسورة

مزهـوّة بنفسها : ولذلك جعلت أحترس احتراساً شديداً لئلاّ يجد امرؤٌ منهم ما يبعث على الضحك في اختياره إيّايَ رفيقاً له . وعلى المائدة غدت تلك النيّة أكثر وضوحاً لكل واحد منهم ، إلاّ له . وكان القوم يشربون على نحو يزداد باطراد . ولما صاح القوم في النهاية بما يشبه الهتاف بالحياة على شرف أحبّائهم ، أقسم كل منهم بصوت عالٍ ، وإخلاص ، على أنه لايجوز بعد الآن أن يحدث شرب من هذه الكؤوس، وألقوا بها وراءهم . وكان هذا إشارة لنزوات أبعد شأواً . وأخيراً انسحبت بلطف بالغ ، وجعل النادل يرجو مني ، وهو يطلب مني حساب مشروب رخيص جداً ، أن أعود ، إذ لم تكن السهرة تجري على هذا النحو المتنوّع في كل الأماسيّ . وكنت بعيداً عن مأواي ، وكان الوقت قريباً من منتصف الليل حين بلغته . ووجدت الأبواب غير موصدة ، وكان القوم جميعاً قد خلَوْا إلى فراشهم ، وكان ثمة مصباح يضيء الحيّز المنزلي الضيق حيث كانت عيني التي تزداد مراناً على نحو مطرد ، تبصر أجمل صورة لشالْكن (١) ، تلك التي لم أكن أستطيع التخلّص منها حتى لقد كانت تطرد النوم من عيني .

وكانت الأيام القلائل لإقامتي في درسدنٍ مكرّسة لمتحف التصوير وحده . وكانت الأثريّات (٢) ما تزال في أجنحة الحديقة الكبرى ، ورفضت أن أراها ، هي وكلَّ ما كانت درسدن تضم من النفائس ، وأنا مترع بالإيمان أنه لابد أن يظل في مجموعة اللوحات نفسها وحولها ، شيء كثير بعدُ خافياً عليّ . فكنت أسلّم بقيمة الأساتذة الإيطاليين تسليماً مبنياً على الإخلاص والإيمان بدرجة أكبر من أن تتيح لي أن أتباهى بالنظرة الفاحصة فيها . وكان ما لم أكن أستطيع أن أنظر إليه على أنه طبيعة ، أو أُنْزِلَه منزلة الطبيعة ، أو أقارنَه مع موضوع

معروف ، لايترك في نفسي أثراً . وإنما يعد الانطباع المادي هو الذي يصنع البداية حتى لكل هواية رفيعة .

وكنت منسجماً مع صاحبي الحذاء كل الانسجام ، وكان فطِناً ، متعدد الجوانب ، وكنا نجاوز الحد في بعض الأحيان في الخواطر الهزلية . ومع ذلك فان الإنسان الذي يثني على نفسه بسعادة ويطالب الآخرين أن يسلكوا السبيل ذاته ، يضعنا في موقف مزعج ، بل إن تردد مثل هذه الأفكار يسبب لنا السآمة . لقد كنت أجد نفسي مشغولاً حقاً ، وكنت أجد التسلية ، والإثارة ، ولكني لم أكن سعيداً بحال من الأحوال ، وكانت الأحذية التي يعملها تأبى أن تلائمني . ومع ذلك فقد افترقنا ونحن أفضل الأصدقاء ، كما أن مضيفتي لم تكن غير راضية عند الرحيل .

وكان مقدَّراً لي أيضاً ، قبيل مغادرتي ، أن ألقى شيئاً مستحسناً جداً . وذلك أنني قُدِّمت ، بوساطة ذلك الشاب الذي كان يأمل في الحصول على شيء من ثقتي من جديد ، إلى المدير فون هاجيدورن (١) الذي عرض عليّ مجموعته بتلطّف كبير ، ووجد تسلية فائقة في حماسة صديق الفن الشاب ، وكان مولعاً ، شأن الخبير ، بالصور التي يملكها ، ولعاً حقيقياً تماماً . ومن أجل ذلك كان قلما يجد لدى الآخرين الاهتمام الذي يتمناه . وقد سرّه بوجه خاص أنني أعجبت بصورة لسفانفيلت (٢) إعجاباً فائقاً بلغ منه أنني لم أكن أشعر بالتعب من الثناء عليها والإشادة بها ، في كل جزء منها على وجه التفصيل . ذلك لأن أكثر ما كان يؤثر في نفسي ، من هذا التصوير ، إنما كان تلك المناظر الطبيعية التي كانت تذكرني من جديد بالسماء الجميلة المشرقة التي ترعرعت في ظلها ، والغزارة النباتية في تلك المناطق ، وسوى ذلك من المحاسن التي يضفيها المناخ الأكثر دفئاً ، إذ كانت هذه تثير لديَّ ذكرى مفعمة بالشوق .

على أن هذه التجاريب الممتعة التي تهيء الروح والعقل للفن الحق تعرضت مع ذلك للانقطاع والتثبيط بأحد المناظر الأكثر إثارة للأسى ، عن طريق حالة الدمار والخراب (١) ، في كثير من شوارع درسدن التي كنت أتخذ طريقي خلالها . فكان شارع الزنوج ، بأطلاله ، وكذلك كنيسة الصليب ببرجها المنسوف ، يحدثان لديَّ انطباعاً عميقاً ، ومازالا ماثلين كاللحظة المظلمة في مخيلتي . وكنت أرى ، من قبّة كنيسة فراونكيرشه هذه الأطلال البائسة مزروعة في ثنايا نظام المدينة الجميل . وهناك جعل الشمّاس يشيد لديّ بفن معلّم البناء الذي شيّد الكنيسة والقبة على مثل هذا الخراب غير المرغوب فيه وبناهما بناء محكَماً لاتزعزعه القنابل . ثم أومأ لي الشمّاس الطيب إلى الأنقاض من كل حدب وصوب ، وقال متفكراً ، باقتضاب : « هذا ما فعل العدو ! » .

وهكذا عدت الآن أخيراً إلى لايبتسج ، ووجدت أصدقائي الذين لم يألفوا مني أمثال هذا الشرود ، في دهشة عظيمة ، وقد شغلوا بتخمينات شتّى حيال ما ينبغي أن تعنيه رحلتي السرّية . ولمّا سردت عليهم قصتي سرداً أصولياً كاملاً أعلنوا إليّ أن هذه أسطورة وجعلوا يحاولون بنظرهم الثاقب أن يصلوا إلى ما وراء اللغز الذي كان لديّ من الجرأة ما يكفي لإخفائه وراء بيت الحذاء .

ولكنهم لو استطاعوا أن ينظروا في قلبي لما اكتشفوا فيه جرأة : ذلك لأن حقيقة تلك الكلمة القديمة ، وهي أن المزيد من المعرفة يعني المزيد من الاضطراب ، كانت قد أصابتني بكامل عنفوانها . وكنت كلما بذلت مزيداً من الجهد لتنسيق ما رأيت ، وتمثّله كان ما أُوفّق فيه أقلّ ، وكان لابد لي آخر الأمر أن أرضى بتأثير لاحق هادئ .

وعادت الحياة العادية تتملكني ، وكنت أشعر آخر الأمر بارتياح تام حين كانت صحبة صديق ، أو زيادة في المعارف التي كانت تلائمني ومران معين لليد ، يشغلنني على نحو أقل أهمية ، ولكنه أكثر تنسيقاً لأبعاد طاقاتي .

وكان من العلاقات الممتعة جداً ، وذات المفعول الشافي بالقياس إلي ، تلك العلاقة التي وصلت إليها مع بيت برايتكوبف . وكان برنهارد كريستوف برايتكوبف (١) ، المؤسس الحقيقي للأسرة ، الذي قدم إلى لايبتسج وهو عامل مطبعة فقير ، ما يزال على قيد الحياة ، وكان يسكن في « الدب الذهبي » وهو مبنى مرموق في سوق « نويماركت الجديد» ، وكان يَشْرَكُه فيه جوتشيد . وكان ابنه يوهان جوتلوب يمانويل ، قد تزوج أيضاً منذ عهد بعيد ، وغدا أباً لعدد من الأطفال . لم يكونوا يعتقدون أن في وسعهم أن يستعملوا جزءاً من ثروتهم بطريقة أفضل من أن يشيدوا منزلاً جديداً كبيراً ، هو « الدب الفضي » ، المواجه للأول ، والذي أسس على نحو أعلى وأرحب من المنزل الأصلي نفسه . وقد تعرفت على الأسرة في وقت البناء ذاته ، وربما كان الابن الأكبر (٢) يكبرني بضع سنوات وهو شاب معتدل القوام ، منقطع إلى الموسيقا ، متمرن على حسن معالجة البيانو الكبير مثل مرانه على معالجة الفيولين . ولم يكن الثاني ، وهو ذو نفس طيبة ، تنزع ، مثله ، إلى الموسيقا ، أقل من الأكبر ، بعثاً للحياة في الحفلات الموسيقية حتي كانت تقام في كثير من الأحيان . وكان كلاهما ، وكذلك أبواهما وأبهما ، ذوي مكانة راجحة عندي . وكنت أساعدهم في ومبتدأ البناء وفي نهايته ، وفي التأثيث وفي الانتقال ، وأدركت بذلك بعض

ما يتصل بمثل هذه الأعمال . وأتيحت لي الفرصة أيضاً لأرى النظريات الأوزريّة (١) وهي تطبّق . وكثيراً ما كنت زائراً في البيت الجديد الذي رأيته يُشاد ، وكنا نمارس بعض الأمور معاً . وكان أكبرهم يقوم بتلحين بعض أغانيَّ (٣) التي قلّما حظيت بالشهرة لأنها كانت تحمل اسمه ، مطبوعة ، ولكنها لم تكن تحمل اسمي . وقد سحبت أفضلها وأدخلتُها في تضاعيف سائر أشعاري الصغيره . وكان الأب قد اكتشف طباعة النوتة أو أكملها . وكان يأذن لي باستعمال المكتبة الجميلة التي كانت تتناول في معظمها أصل الطباعة ونموّها ، فاكتسبت بذلك بعض المعرفة في هذا الباب . بل وجدت فيها نقوشاً نحاسية جيدة تصور العصر القديم ، واستأنفت من هذا الجانب أيضاً دراساتي التي أتيح لها مزيد من التنمية حتى ان كمية كبيرة من الكبريت (٤) تبعثرت عند الانتقال . وأعدت تنسيقها على قدر ما استطعت وكنت مضطراً هذه الأثناء إلى النظر لدى ليبّرت (٥) والآخرين .

وكنت استشير طبيباً ، هو الدكتور رايشل (١) ، الذي كان بمثابة شريك في المنزل ، من وقت إلى آخر ، إذ كنت أشعر أنني لست على ما يرام على كل حال ، ان لم أكن مريضاً . وعلى هذا النحو كنا نعيش معاً حياة هادئة لطيفة .

وكان مقدَّراً لي الآن أن أدخل في نوع آخر من العلاقة . وذلك أن النقاش شتوك (٢) انتقل إلى السكن في السقيفة . وكان من مواليد نورنبرج . وكان رجلاً جمَّ النشاط ، دقيقاً في أعماله ، وممتازاً . وكان هو أيضاً ينقش ، مثل جايزر ، عن الرسوم الأوزرية ، لوحات

---

(١) نسبة إلى أوزر المذكور سابقاً .

أكبر وأصغر ، كانت تحرز تقدماً مطرداً في ملاءمتها للروايات والقصائد. وكان يقدّر على وجه الدقة كم ستشغله اللوحة . ولم يكن ثمة شيء يقدر على أن يصرفه عن عمله ، إذا لم يكن قد أدّى قسطه اليومي . فكان يجلس إلى مائدة للعمل عريضة عند النافذة ذات الجمالون ، في حجرة نظيفة منسّقة أيّما تنسيق ، حيث كانت زوجة وابنتان له (٣) تقومان تجاهه بالمؤانسة المنزلية . وكانت إحدى هاتين الأخيرتين متزوجة زواجاً سعيداً ، وكانت الأخرى فنانة ممتازة . وقد ظلّتا صديقتيَّ مدى الحياة . وكنت أقسّم وقتي الآن بين الطابقين ، العلوي والسفلي . وكنت أواظب مواظبة شديدة على ملازمة الرجل الذي كان له ، مع نشاطه الدؤوب ، روح فكاهية رائعة ، وكان يمثل الشهامة المتجسدة .

وقد اجتذبتني التقنية النظيفة لهذا الضرب من الفن ، وصحبته لأصنع شيئاً من نحو ذلك أيضاً . واتجه ميلي من جديد إلى المنظر الطبيعي الذي كان يبدو لي مسلياً في النزهات الحلوية ، وقريب المتناول في حد ذاته ، كما أنه أيسر فهماً في الأعمال الفنية ، من الشخصية البشرية التي كانت تفزعني ، ولذلك كنت أنقل ، بتوجيهه ، مناظر طبيعية مختلفة (٤) ، بطريقة التثقيب ، عن تيله ، وآخرين . وكانت تحدث بعض الأثر على الرغم من أنها كانت من عمل يدٍ غير متمرّسة . وكانت تلقى قبولاً حسناً . وكان تأسيس أرضيّة اللوحات ، وطلاؤها بالأبيض والنقل بالتثقيب ذاته ، وأخيراً الحفر بالمادة الكاوية ، كل ذلك كان يهيء أشغالاً متعددة الجوانب ، وسرعان ما بلغ بي الأمر أنْ استطعت أن أقف على صعيد واحد مع معلمي في بعض الأشياء ، ولم يكن ينقصني في الحفر بالمادة الكاوية الانتباه الضروري ، وكنت قلّما انتهي إلى الإخفاق في شيء ما . ولكنني لم أكن حذراً بما يكفي لحماية نفسي

من الأبخرة الضارة التي كان من المألوف أن تتكوّن في أمثال هذه المناسبات . وربما كان لها إسهام في الأدواء التي عذبتني فيما بعد ردْحاً من الزمان . وكنت أقوم ، في غضون مثل هذه الأعمال ، بالنقش على الخشب في بعض الأحيان لكي تتم تجربة كل شيء . وقد أنجزت صفوفاً صغيرة مختلفة من صفوف الطبع على النموذج الفرنسي . ووُجِد بعضُها صالحاًللا ستعمال .

وليسمح لي القاريء هنا بالإتيان على ذكر بعض الرجال الذين كانوا يقيمون في لايبتسج . كان جابي ضرائب المنطقة ، فايْسّه (١) ، وهو في أفضل سنوات العمر ، طلق الأسارير ، ودوداً ، حفيّاً . وكان يلقى منّا الحب والتقدير . والحق أننا كنا نأبى أن ندع مسرحياته تتبوّأ مكانة المسرحيات النموذجية على الإطلاق ، ولكننا كنا نسترسل في الانجذاب إليها ، كما كانت مسرحياته الغنائية التي بعث هيللر (٢) الحياة فيها ، بطريقة سهلة ، تمنحنا كثيراً من المتعة ، كما كان شيبلر (٣) الهامبورجيّ ، يسلك الطريق ذاتها ، وكانت مسرحيته الغنائية « ليسووارت وداريوليته » تلقى تشجيعاً مماثلاً منّا . وكان إيشنْبورج (٤) ، وهو شاب وسيم ، يكبرنا قليلاً فحسب ، يتميّز من الدارسين تميّزاً إيجابياً . وقد طاب لزخاريا (٥) المقام بيننا بضعة أسابيع . وكان يتناول طعامه معنا ، على مائدة واحدة ، إذ مهّد له أخوه . وكنا نقدّر ، بالبداهة ، أن من من الشرف أن نحتفي بضيفنا بطريقة التناوب ، ببضع وجبات متميّزة ، ومائدة لاحقة * أغنى ، وخمرٍ أكثر اصطفاءً ، وهو الذي

(*) المائدة اللاحقة Nachtisch ، أو Dessert بالفرنسية ، هي ما يتقدم من فواكه أو حلوى في نهاية المأدبة . « المترجم »

لم يكن يخفي ولَعه بالمائدة الجيدة ، بحكم كونه رجلاً ضخماً حسن البنية ، مرفّهاً . أما ليسنج (٦) فقد وصل في وقت لاأدري ما كان يدور في رأسنا فيه . وكان يطيب لنا ألاّ نوافقه فيما يرضيه ، في أي مكان ، بل أن نتجنب الأماكن التي يأتيها ، لأننا كنا نرى من المستحسن أن نقف عن بعد ، ولم يكن في وسعنا أن ندعي حقاً في الوصول إلى علاقة أوثق معه . على أن هذه السخافة الراهنة ، التي لاتعد شيئاً نادراً في الشباب المزهوّ بنفسه ، والمشحون بالأوهام ، لقيت جزاءها فيما بعد بالطبع ، إذ أنني لم أر بعينيَّ قط هذا الرجل الممتاز الذي كان يحظى بغاية التقدير عندي .

ومع ذلك فقد كان كلٌّ منا يضع فينكلمان نصب عينيه دائماً في كل الجهود التي تتصل بالفن والعصر القديم وبصورة حماسية، إذ كان مشهوداً له بالبراعة ، في وطنه ، . وكنا نقرأ كتاباته بنشاط ، ونحاول التعرف على الظروف التي كُتبت فيها أولاها . ووجدنا فيها بعض الآراء التي كان يبدو أنها منحولة عن أوزر ، بل وجدنا فكاهةً ودعاباتٍ على طريقته ، ولم نهدأ حتى كوّنّا تصوّراً تقريبياً عن المناسبة التي نشأت فيها هذه الكتابات الغريبة التي تنطوي ، فيما تنطوي عليه ، على كتابات حافلة بالألغاز ، على الرغم من أننا لم ندقّق في الأمر من هذه الناحية : ذلك لأن الشباب يُؤْثِر الإثارة على الاطلاع ، على أنها لم تكن المرة الأخيرة التي قُدِّر لي فيها أن أدين بمرحلة تعليمية (١) هامة لأوراق الكهانة .

وكان يسود في تلك الأيام عصر جميل في الأدب كان فيه أولو المزايا ما يزالون يلقَوْن التقدير على الرغم من أن منازعات كلوتْس (٢) ،

والمناظرات وحدها كانت تشير إلى أن هذا العصر يؤذن بنهاية عاجلة .
وكان فينكلمان يتمتّع بمثل هذا التبجيل العام الذي لاسبيل إلى الطعن فيه ، وان الناس ليعلمون كم كان حساساً تجاه أي شيء علنيّ كان يبدو غير متلائم مع مكانته التي يحسّ بها جيداً . وكانت كل المجلات تتفقّ على تمجيده . وكان أفاضل الرحّالة يعودون من لَدُنْه متعلّمين مسحورين . وكانت الآراء الجديدة التي يفضي بها تنتشر في العلم والحياة .
وكان أمير ديسّاوْ (٣) قد ارتقى إلى مكانة مماثلة ، إذ أثبت ، وهو الفتى ذو التفكير السليم والنبيل ، أنه محط الآمال حقاً ، في حلّه وتَرْحالِه .
وكان فينكلمان مفتوناً به إلى أقصى درجات الافتتان ، وكان يسبغ عليه ، حيثما ذكره ، أجمل الألقاب . وكان تنسيق المتنزَّه الوحيد في تلك الأيام (٤) ، والذوق الخاص بفن العمارة الذي كان يلقى المساندة من فون إردمانهوف (٥) عن طريق نشاطه ، كل ذلك كان يشهد لأميرٍ كان ، وهو يضيء الطريق للآخرين بقدوته ، يبشّر عمّاله ورعيته بعصر ذهبيّ . وقد سمعنا الآن نحن الصغار ، ونحن مغتبطون ، أن فينكلمان سيعود من إيطاليا وسوف يزور صديقه الأمير ، وأنه سيعرّج في طريقه على أوزر ، وأنه سيدخل أيضاً مجال أنظارنا ، بناء على ذلك .
ولم نكن ندعي الحق في التحدث إليه ، ولكننا كنا نأمل أن نراه ، ولما كان يطيب للناس في أمثال هذه السنين أن يحوّلوا كل مناسبة إلى مهزلة ، فقد اتفقنا بصورة مسبقة على الركوب والرحيل إلى ديسّاو ، حيث كنا نفكّر أن نسرّح الطرف هنا حيناً وهناك حيناً آخر ، في منطقة جميلة يضفي عليها الفن روعته ، وفي بلد ذي إدارة حسنة ومظهر مزخرف في الوقت ذاته ، لنرى أولئك الرجال الذي يفوقوننا إلى حد بعيد .
وهم يتجوّلون هنا وهناك ، بأم أعيننا . على أن أوزر نفسه كان يعتريه

انفعال شديد للغاية حين يفكر في ذلك مجرد تفكير . وقد كان لخبر موت فينكلمان (١) وقعٌ بيننا كوقع الرعد في السماء الصافية . وما زلت أذكر المكان الذي سمعت به فيه أول مرة ، فقد كان ذلك في ساحة بلايْسّنْبورج ، غير بعيدٍ من الباب الصغير الذي دأب الناس على أن يصعدوا من خلاله إلى أوزر . وتقدم مني تلميذ من زملائي وقال لي إن أوزر لاسبيل إلى محادثته ، وذكر العلة في ذلك . وقد أحدث هذا الحدث الجلَل أثراً مهولاً ، وكان هناك تفجّع وعويل على الصعيد العام ، كما أن موته المبكّر زاد من حدة الانتباه إلى قيمة حياته ، بل ربما كان من الممكن ألاّ يبلغ أثر نشاطه ، لو أنه استأنفه إلى سن متأخرة ، من العظمة ما كان لابد أن يكون عليه الآن ، إذ خصَّه القدر فوق ذلك ، شأن العديد من البشر الممتازين ، بنهاية غريبة وممقوتة .

ولكني لم أكن أقدّر ، وأنا أتفجّع لرحيل فينكلمان تفجعاً لاحد له ، أنني سوف أجد نفسي عما قريب في حال أشعر فيها بهموم حياتي الخاصة : ذلك لأن أحوالي الجسدية لم تكن تسير على أحسن ما يرام تحت وطأة هذا كله . وكنت قد حملت معي من البيت قدراً معيناً من الوسوسة كان أقرب إلى أن يزداد قوة منه إلى أن يزداد ضعفاً في الحياة الراكدة الخاملة . وكان الألم الذي كنت أحس به ، على صدري ، منذ حادثة آورشتيدت (١) ، من حين إلى آخر ، والذي تفاقم بعد السقوط عن الحصان بصورة ملحوظة ، يثير استيائي . وقد أفسدتُ على نفسي طاقات الهضم بالنظام الغذائي غير الناجح . وكانت البيرة الثقيلة ، من ميريسبورج ، تكدّر صفو دماغي . أما القهوة التي كانت تضفي عليّ مزاجاً كئيباً متميزاً للغاية ، ولاسيما حين استمتع بها مع

الحليب بعد المائدة ، فقد كانت تشلّ أحشائي . وكان يبدو أنها تعطّل وظائفها كل التعطيل ، حتى لقد كنت أحسّ بمخاوف كبيرة دون أن أستطيع أن أتخذ قراراً من أجل نمط من الحياة أكثر عقلانية . وكانت طبيعتي التي تشدّ أزرها طاقات الشباب الوافرة ، تتذبذب بين هذين الحدّيْن الأقصييَيْن للمرح الطليق والاستياء الكئيب المرضيّ . وكان قد حلّ ، فوق ذلك ، عصر الاستحمام بالماء البارد الذي كان يُوصى به بصورة مطلقة . وكان على المرء أن ينام على مرقد خشن ، وعليه غطاء خفيف فحسب ، فكان يمتنع بذلك كل التعرّق المألوف . وكان يقال لنا ، نتيجة لمؤثرات روسو التي أسيء فهمها ، ان هذه سوف تجعلنا ، مع الحماقات الأخرى ، أقرب إلى الطبيعة ، كما كانوا ، يَعدوننا ، وستخلصنا من مفاسد التقاليد . وكان العديد من الناس يحسون بكل ما تقدم ، وبدون تمييز ، مطبّقاً في تناوب غير معقول ، على أنه أكثر الأشياء ضرراً ، وكنت أجهد أعضائي ذات اللياقة الحسنة إجهاداً بلغ منه أن الأجهزة الموجودة ضمنها لم يكن لها بد أن تنفجر آخر الأمر في مؤامرة وثورة ، لإنقاذ المجموع .

ففي ليلة من الليالي استيقظت على نزيف (٢) حاد عنيف ، وكان لديّ بعدُ من الطاقة والوعي ما يكفي لإيقاظ جاري في الحجرة . واستدعي الدكتور رايْشل الذي أسعفني اسعاف الصديق البالغ المودة ، ولبثت على هذا النحو بضعة أيام أتأرجح بين الحياة والموت ، بل ان السرور بالتحسّن التالي غدا مريراً ، إذ كان قد تشكل الطفح على الجانب الأيسر من العنق ، مع ذلك ، وفي الوقت ذاته ، ورمٌ لم يجد القوم وقتاً لملاحظته إلاّ بعد تجاوز الخطر . على أن الإبلال من المرض يظل مع

ذلك دائماً مستعذباً وباعثاً على البهجة ، وان سار ببطء وبصورة بائسة ، ولما كانت الفطرة عندي قد أسدت بعض العون فقد بدا أنني غدوت الآن أيضاً إنساناً آخر ، ذلك لأنني كنت قد اكتسبت عقلية مرحة إلى حد كبير ، مما لم أكن أعرفه عن نفسي منذ عهد طويل ، وكان يسرني أن أجد نفسي وقد تحررت في داخلها على حين كانت معاناة طويلة الأمد تهددها في الوقت نفسه من الخارج .

غير أن ما جعلني أقف في هذا الوقت على قدمي بوجه خاص هو أنني رأيت العدد الجمّ من الرجال الأفاضل يبادرون اليّ على غير استحقاق مني . وأنا أقول : على غير استحقاق : إذ لم يكن بينهم من لم أثقل عليه بالمزاج البغيض ، ولا مَنْ لَم أنَلْ منه أكثر من مرة بالحماقة المَرَضيّة ، بل مَنْ لم أجتنبه بعناد حيناً من الزمان ، في غمرة شعوري بما أصابني من الظلم . على أن هذا كله طواه النسيان ، فقد كانوا يعاملونني برقّة متناهية ، ويسعون إلى تسليتي والترفيه عني ، في حجرتي تارةً ، وحين غدا في وسعي أن أغادرها تارة أخرى . وكانوا يخرجون معي ، ويقومون على خدمتي في منازلهم الريفية ، وبدا لي أنني سأبلّ من المرض قريباً .

وأذكر من هؤلاء الأصدقاء أولاً عضو المجلس البلدي في تلك الأيام ، الدكتور هرمان (١) ، وهو عمدة لايبتسج فيما بعد . وكان من رفاق المائدة الذين تعرفت عليهم بوساطة شلوسّر ، وهو ذلك الذي ظلت العلاقة معه ثابتة مستقرّة على الدوام . وكان في وسع المرء بلاريب أن يعدّه من أكثر المواطنين ذوي التعليم العالي نشاطاً . وكان يتردّد على زملائه على نحو فائق الانتظام ، كما ظل نشاطه الخصوصي ثابتاً

على الدوام . وكنت أراه ، خطوةً خطوةً ، وهو يبلغ درجة الدكتوراة ، دون أدنى كبْوَة ، ثم يرتقي إلى وظيفة القاضي المتمرّن دون أن يبدو له شيء ما مجهداً في هذا الصدد ، ودون أن يستعجل شيئاً أو يتأخر عنه قيد أنملة . وكانت رقة شخصيته تجتذبني ، كما كان حديثه الحافل بالدروس يأسرني ، بل إني لأعتقد حقاً أنني كنت أشعر بالسرور من نشاطه المنضبط ، بصورة متميزة لأنني كنت أحسب أني أكتسب بالاعتراف والتقدير ، جزءاً على الأقل من المأثرة التي لم يكن في وسعي أن أفخر بها بحال من الأحوال .

وكان نظامياً في أعماله مثلما كان كذلك في تدريب مواهبه وفي الاستمتاع بمباهجها . وكان يعزف على البيانو الكبير ببراعة كبيرة ، ويرسم عن الطبيعة رسماً يقوم على الإحساس ، ويدفعني لأصنع صنيعه ، إذ كان دأبي أن أرسم ، بطريقته ، على الورق الرماديّ ، بالطباشير الأسود والأبيض ، بعض المراعي الموجودة على نهر البلايْسّه ، وبعض الجهات اللطيفة لهذه المياه الهادئة ، مسترسلاً مع ذلك دائماً في متابعة أحلامي بشوق . وكانت له مقدرة على مقابلة طبيعتي التي تتسم ، فيما تتسم ، بالهزل ، وبالنكات المرحة ، وأنا أذكر بعض الساعات البهيجة التي قضيناها معاً ، حين كان يدعوني ، بحفاوة هزلية ، إلى طعام العشاء ، في خلوة ثنائيّة ، حين كنا نأتي على ما يسمى « أرنب البلدية » الذي كان يساق إليه أجراً عينياً على وظيفته ، بتدبيرنا الخاص ، وعلى أضواء الشموع الموقَدة ، وحيث كان يطيب لنا أن نضيف التوابل إلى الطعام وأن نزيد في قوة الخمر ، مع بعض النوادر ، على طريقة بيهرِش . وما زلت أقرّ مع خالص الشكر ، لهذا الرجل الممتاز الذي ما زال حتى

الآن يواصل ممارسة عمله في منصبه المرموق ، أنه أدّى إليّ ، في دائي الذي كنت أحسّ به في الحقيقة ، ولكني لم أكن أقدّره بكامل حجمه ، أخلص ضروب العون ، ووهب لي كل ساعة خالية ، وكان يعرف كيف يجلو لي وجه اللحظة المتكدّر بتذكيري بألوان المرح الغابرة ، وانه ليسرني أن أتمكن من أن أزجي إليه الشكر علانية بعد هذا الوقت الطويل .

وفضلاً عن هذا الصديق الغالي كان جروننج (١) فون بريمن يعنى بي بوجه خاص . وكنت قد تعرّفت عليه من عهد قريب ، ولم أتبيّن حسن نيته تجاهي إلاّ مع هذا الحادث . وكان يزيد في حيوية إحساسي بقيمة هذا الجميل أنّ أحداً من الناس لايسعى إلى صلة حميمة مع المتألّمين . ولم يكن يدّخر شيئاً ليرفّه عني ، وليخرجني من التفكير في حالتي ، وليظهر لي البرء والنشاط المتسم بالعافية في أجل قريب وليعدني به . وما أكثر ما كان يسرني أن أسمع ، على مدى الحياة : كيف أثبت هذا الرجل الفاضل أنه ذو منفعة لمسقط رأسه في أهم الأمور ، وكيف كان يعود عليه بالخير :

وكذلك كان الصديق هورن (٢) يدع حبه وعنايته يحدثان أثرهما هنا بغير انقطاع . لقد كان بيت برايتكوف كله ، وأسرة شتوك ، وبعض الآخرين يعاملونني معاملة القريب الحميم . وعلى هذا النحو كان يتم ، بفعل الإرادة الطيبة عند كثير من البشر أولي المودة ، تخفيف وطأة الشعور بحالتي إلى أقصى الحدود .

ولابد لي مع ذلك أن أذكر هنا ، بمزيد من التفصيل ، رجلاً لم أتعرّف عليه إلاّ في هذا الوقت ، وقد صرفت صحبته الحافلة بالدروس ،

نظري عن الوضع الكئيب الذي كنت فيه حتّى إنني أُنْسيتُه بذلك حقاً .
وكان هذا لانجر (١) ، أمين المكتبة اللاحق في فولفنبوتّل . ولما كان ممتازاً في ثقافته واطلاعه فقد كان يسره ظمأي الحارّ إلى المعارف الذي كان يتجلّى الآن بصورة محمومة تماماً في حالة التوفّز المرضيّ ، وكان يحاول تهدئتي عن طريق نظرات شاملة واضحة ، وقد غدوت مديناً لصحبته بالكثير جداً على الرغم من قصرها ، إذ كان يعرف كيف يوجهني بطرق شتى ، ويلفت انتباهي إلى ما كان ينبغي لي أن أتوجّه إليه في الوقت الراهن بالذات . وقد وجدت نفسي مديناً لهذا الرجل الخطير حين عرّضته صحبتي لبعض الخطر : ذلك لأنه حين حصل ، بعد بيهرِش ، على وظيفة معلم خصوصي عند الجْراف الشاب ليندناوْ ، اشترط الأب على المعلم الجديد بصراحة ألاّ يصاحبني ، واستطاع ، إذ كان الفضول يدفعه إلى التعرّف على شخصية خطيرة كهذه ، أن يراني مراراً ، في مكان ثالث ، وسرعان ما استأثرت بميله إليّ ، وكان يأتيني فيأخذني في أوقات الليل ، إذ كان أذكى من بيهرِش ، وكنا نخرج معاً للنزهة ونتحادث في أشياء ممتعة وأصحبه في النهاية حتّى باب حبيبته ، لأن هذا الرجل الذي يبدو في ظاهره صارماً جاداً ، من أرباب العلم ، لم يسلم من شباك امرأة من جميلات النساء .

وكان الأدب الألماني ، ومعه مشروعاتي الشعرية الخاصة ، قد باتا غريبين عني ، واتجهت من جديد ، كما جرت العادة أن يتم ذلك في مثل هذا المنهج من مناهج التعليم الذاتي ، نحو الأعزّة من القدماء الذين كانوا ما يزالون يخطّون ، كالجبال البعيدة الزرق ، أفق رغائبي الفكرية ، وهم الواضحون في خطوطهم العريضة ، وفي مادتهم ، ولكنهم غير

معروفين في الأجزاء والعلاقات الداخلية ، وكنت أقايض لانجر (٢) ، حيث كنت أقوم بدور جلاوكوس وديوميديس في الوقت ذاته ، وكنت أدع له سيلالاً كاملة من الأدباء والنقاد الألمان ، وأتلقى مقابل ذلك عدداً من الكتاب الاغريقيين الذين كان يفترض أن تنعشني الاستفادة منهم ، حتى مع أكثر أشكال الإبلال من المرض إبطاءً .

ومن شأن الثقة التي يهبها الأصدقاء الجدد بعضهم لبعض ، أن تتطوّر على مراحل . وتعد الأشغال والهوايات المشتركة أول ما يبرز فيه التوافق المتبادل . ثم ينتشر التواصل في العادة على العواطف الماضية والحاضرة ، ولاسيما على المغامرات العاطفية ، ولكن هناك شيئاً أعمق بعدُ ينضم إلى ذلك ، حين تنزع العلاقة إلى الاكتمال ، وذلك هو الأفكار الدينية ، وشؤون القلب التي لها صلة بما هو باقٍ على الزمن ، والتي توطّد أساس الصداقة مثلما تزيّن ذروتها .

وقد كانت الديانة المسيحية تتأرجح بين جانبها التاريخي — الوضعيّ وبين الربوبية (١) الخالصة التي كان يُقصَد بها ، وهي المؤسسة على الأخلاق ، أن تبرّر الأخلاق من جديد . وقد كان اختلاف الشخصيات وأساليب التفكير يتجلّى هنا في ضروب من التدرّج لانهاية لها ، وذلك ، على وجه الخصوص ، لأن هناك فرقاً رئيسياً يشترك في إحداث الأثر ، وفيه نشأ السؤال عمّا يمكن وما يجوز أن يكون للعقل ، وللإحساس ، من نصيب في هذه القناعات . ولقد أثبت أكثر الرجال حيوية وحِذْقاً في هذه الحالة أنهم كالفراشات التي تطرح ، في غير مبالاة تامة ، شرنقة مرحلة الدودة (٢) التي ازدهرت فيها حتى بلغت كمالها العضويّ . وثمة آخرون ، أولو عقلية أكثر وفاءً وتواضعاً ، يمكن للمرء أن يقارنهم

بالأزهار التي لاتنتزع نفسها من الجذر . ومن جذع الأم ، على الرغم من تفتحها في أجمل ازدهار . بل الأحرى أنها لاتأتي بالثمار المنشودة إلاّ بوساطة هذا الرباط العائلي . وقد كان لانجر من هذا الطراز الأخير . ذلك لأنه كان يحب ، على الرغم من أنه كان مثقفاً وخبيراً ممتازاً بالكتب ، أن يُولِيَ الكتاب المقدس مزية خاصة على الكتابات المأثورة الأخرى ، وأن ينظر إليه على أنه وثيقة نستطيع أن نتبيّن منها وحدها شجرة نسبنا الأخلاقي والفكري ، وكان من أولئك الذين تأبى العلاقة المباشرة مع الإله العالمي الكبير أن تدخل في عقولهم ، ومن أجل ذلك كانت الوساطة ضرورية عنده ، وكان يعتقد أنه يجد نظيراً لها في كل مكان ، في الأشياء الأرضية والسماوية . وكان حديثه الممتع والمتسلسل يجد أذناً صاغية لدى الشاب الذي كان الداء المُمِض قد عزله عن أشياء الدنيا ، وكان يجد توجيه حيوية فكره صوب الأمور السماوية أمراً مرغوباً فيه إلى أقصى الحدود . ولما كنت ذا قدم راسخة ، في الكتاب المقدس ، فقد كان الأمر يتصل بمجرد العقيدة ، وهو أن أعمد إلى ما كنت حتى الآن أقدّره على طريقة البشر ، فأعلن أنه إلهيّ ، وذلك ما كان يقع مني موقعاً أسهل ، إذ كنت قد أديت الإقرار الأول بهذا الكتاب على أنه إلهيّ . ولذلك فقد كان الانجيل موضع ترحيب عند متألمٍ رقيق ، بل شاعرٍ بالضعف . وعلى الرغم من أن لانجر كان ، مع إيمانه ، رجلاً متعقّلاً جداً في الوقت ذاته ، وكان يصر إصراراً شديداً على أنه لاينبغي للمرء أن يدع السيطرة للإحساس ، وألاّ ينقاد إلى التحمّس ، فانني لم أكن أستطيع حقاً أن أشتغل بالعهد الجديد بدون شعور وحماسة .

وبأمثال هذه الأحاديث كنا نزجي بعض الوقت . وقد ظفر بي

نصيراً مخلصاً حسن الإعداد ، بطريقة كان يبلغ من لطفها أنه لم يكن يتردد في التضحية ببعض الساعات الموقوفة على جميلته من أجلي ، بل إنه جازف بأن يعد خائناً ، ويُساءَ النظر إليه من قبل راعيه ، مثل بيهرِش . وقد قابلت ميله نحوي بأعظم آيات الامتنان . ولئن كان ماأسداه إليّ جديراً بالتقدير في كل وقت فقد كان لابد له أن يكون في حالتي الراهنة جديراً بأقصى التقدير .

ولكن لما كان للإيقاعات الخشنة والصاخبة في النظام الكوني أعظم الوقع في نفوسنا وأشدّه في العادة ، حين يكون انسجامنا النفسيّ أكثر ما يكون توجهاً إلى الناحية الروحية ، وكان التناقض المستمر أبداً في هيمنته ، بصورة خفية ، والمنبثق دفعة واحدة ، لايحدث أثره إلاّ على نحو أكثر إثارة للحساسية ، فقد كان مقدّراً لي أيضاً ألاّ أغادر مدرسة صاحبي لانجر المشّائية (١) دون أن أكون قد شهدت قبل ذلك بعدُ حدثاً غريباً بالقياس إلى لايبتسج على الأقل ، وهو شغب أثاره الطلاب ، وذلك في الحقيقة ناجم عن الباعث التالي : وهو أن عدداً من الشباب اختلفوا مع جند المدينة ولم تمض المسألة دونما عراك . وتحالف عدد من الطلاب للثأر للإهانات التي لحقت بهم ، وقاوم الجنود مقاومة عنيدة ، ولم يكن الأمر في صالح المواطنين الأكاديميين الساخطين سخطاً شديداً . وأخذ القوم يتحدثون الآن بأن أناساً مرموقين قد أثنوا على المنتصرين لمقاومتهم الشجاعة وكافأوهم ، وحدثت بذلك استثارة قوية لحسّ الكرامة والانتقام عند الشباب . وجعل القوم يتحدثون علانية بأن نوافذَ قد ضربت في المساء التالي ، واضطر بعض الأصدقاء الذين أخبروني بأن هذا قد حدث حقاً ، إلى أن يذهبوا بي إلى هناك ، إذ أن الشباب

والجمهور ينجذبان دائماً بالخطر والشغب . وقد بدأت بالفعل مسرحية غريبة . كان الشارع الخالي في نهاية الأمر يحتله من أحد الجانبين البشر الذي كانوا ينتظرون بهدوء تام ، دونما ضجيج أو حركة ، ما عسى أن يحدث . وعلى المسار الخالي كان نحو اثنا عشر من الشباب يسيرون جيئة وذهاباً ، وهم ، كما يبدو ، في منتهى الرزانة . ولكنهم كانوا لايكادون يواجهون المنزل المشار إليه حتى يقذفوا ، وهم سائرون ، بالحجارة نحو النوافذ ، ويعودون إلى ذلك مراراً في جيئتهم وذهابهم ، ما دامت ألواح الزجاج تواصل الصليل . وبمثل الهدوء الذي كان هذا يتم به مضى كل شيء في النهاية ، ولم تخلّف المسألة نتائج أخرى .

ومع هذا الصدى الصارخ للوقائع الكبرى في المعهد العالي ارتحلت في ايلول عام ١٧٦٨ ، عن لايبتسج ، في عربة مريحة لحوذي مستأْجَر(١) وفي صحبة بعض الشخصيات التي يعتمد عليها من معارفي . وكنت أفكر في ذلك الحادث السابق في منطقة آورشتيدت (٢) ، ولكني لم أكن أستطيع أن أحدس ما كان خليقاً أن يهددني من هناك بخطر كبير خلال سنوات كثيرة بعد ذلك ، ولاسيما حين أتيح لي أن أفكر ، ونحن في جوتا (٣) ، حيث كنا نستعرض القصر ، في القاعة الكبرى المزدانة بالصور المنقوشة على الجص ، في أن قدراً كبيراً من الرحمة والرقة كان مقدّراً لي أن أشهده في ذلك المكان بالذات .

وكنت كلما اقتربت الآن من مسقط رأسي ازددت استعادةً في ذهني ، بطريقة تأملية ، لتلك الظروف ، والنظرات المستقبلية ، والآمال التي خرجت بها من البيت ، وكنت أشعر بشعور ساحق جداً وأنا أعود الآن كمن غرقت به السفينة . ولما لم يكن لديّ ما ألوم نفسي

عليه مع ذلك فقد تمكنت من تهدئة نفسي إلى حد بعيد ، وفي هذه الأثناء كان الترحيب لايخلو من النشاط . وقد أحدثت الحيوية الكبيرة في طبيعتي ، والتي أثارتها علتي وزادت فيها ، مشهداً عاطفياً حاراً . وربما كنت أبدو على حال أكثر سوءاً مما كنت أعرف أنا نفسي لأنني لم أكن قد أخرجت ، منذ عهد طويل ، مرآة استشيرها ، ومن عساه لايألف نفسه ! وجملة القول إن القوم اتفقوا بهدوء على تحصيل بعض المعلومات شيئاً فشيئاً ، وعلى إفساح المجال قبل كل شيء لبعض التهدئة سواء من الناحية الجسدية أم من الناحية الذهنية .

واجتمعت بي أختي على الفور ، ومثلما كنت أعرف بصورة عرَضية من رسائلها ، استطعت أن اطلع الآن بمزيد من التفصيل والدقة ، على أحوال الأسرة وأوضاعها ، وكان والدي قد وجّه ، بعد رحيلي ، كل هوايته التعليمية لأختي ، وكاد يقطع عليها ، وهي في بيت موصَد تماماً ، آمنٍ بالسّلام ، وقد خلا حتى من المستأجرين ، كل وسائل التوجه إلى الخارج والاستجمام إلى حد ما . وكان عليها أن تدرس الفرنسية والإيطالية والانكليزية بطريقة التناوب ، وتعالجها ، ويضطرها مع ذلك إلى التدرّب على البيانو شطراً كبيراً من النهار . ولم يكن من الجائز التقصير في الكتابة أيضاً . وكنت قد لاحظت من قبل أن مراسلاتها معي كان موجّهة ، وأنه كان يدع تعاليمه تصل إليّ عبر قلمها ، لقد كانت أختي ومازالت ، مخلوقاً يستعصي على التحديد ، كانت المزيج المتناهي في الغرابة ، من الصرامة والليونة ، ومن العناد والتساهل ، وهي سجايا كانت تحدث أثرها مجتمعة تارة ، ومتفرّقة بفعل الإرادة والهوى ، تارة أخرى . ومن ذلك أنها وجهت صلابتها ، بطريقة بدت

لي رهيبة ، نحو الأب الذي لم تغفر له أنه حرمها طوال هذه السنين الثلاث كثيراً من المتعة البريئة أو كدَّرها . وأنها كانت تأبى أن تقرّ له بخصائصه الحسنة والممتازة على الإطلاق . وكانت تفعل كل ما يأمر به ويرسمه ، ولكن بالطريقة الأكثر نفوراً على الإطلاق . كانت تفعل ذلك بنظام مأثور ، ولكنها لم تكن تفعل شيئاً أكثر منه ولا شيئاً أقل . ولم تكن تطمئن إلى شيء بدافع الحب أو الإعجاب ، حتى كان هذا أحد الأشياء الأولى التي شكت منها الوالدة في حديث خاص معي . ولما كانت أختي في حاجة ملحة إلى الحب ، شأن أي مخلوق بشري ، فقد وجهَتْ ميلها كله نحوي . وكان اهتمامها برعايتي وتسليتي يلتهم كل وقتها . وكانت رفيقاتها اللواتي تسيطر عليهن دون أن يخطر ذلك ببالها ، يضطَرِرْن كذلك إلى ابتداع أمور شتى للظفر باعجابي ، وليكنّ مواسياتٍ لي. وكانت مبدعة في الترفيه عني ، بل إنها ابتدعت بعض الأصول في الدعابة الماكرة مما لم أكن أعرفه عنها من قبل أبداً ، وكان يليق بها إلى حد كبير . وسرعان ما نشأت بيننا لغة سريّة خاصة كنا نستطيع أن نتحدث بها عن الناس جميعاً دون أن يفهمونا ، وكانت تستخدم لغة الأفاقين هذه في كثير من الأحيان ، بكثير من الجسارة ، في حضور الوالدين .

وكان والدي (١) ، من الناحية الشخصية ، في حالة ارتياح كبير ، متمتعاً بصحة حسنة ، وكان ينفق شطراً كبيراً من النهار في تعليم أختي ، ويكتب في وصف رحلاته ، ويضبط مفاتيح عوده وقتاً أطول مما يعزف عليه ، وكان مع ذلك يكتم ما وسعه الكتمان ، الاستياء الناجم عن أنه بدلاً من أن يجد ابناً متين البنية ، نشيطاً ، يفترض فيه أن يتخرّج الآن ويجري في مسار الحياة ذاك المرسوم ، يجد ابناً سقيماً كان يبدو أنه يعاني

في نفسه أكثر مما يعاني في جسده .ولم يكن يكتم رغبته في الاسراع بالعلاج ، ولكن كان لابد للمرء أن يتخذ جانب الحذر من التصريحات المبنية على الوسواس في حضوره ، إذ كان من الممكن أن يغدو حينئذ عنيفاً ومرّاً .

وكانت أمي التي كانت بطبيعتها ذات حيوية ومرح فائقين تقضي في هذه الظروف أياماً شديدة السآمة ، وكان القيام بأمور المنزل يتم خلال أمد قصير ، وكانت نفس السيدة الطيبة التي لم تخلُ قط مما يشغلها من الداخل ، تريد أيضاً أن تجد بعض ما يثير الاهتمام ، وكان أول ما لقيته من ذلك في الدين الذي تلقفته بمزيد من الحب ، إذ كانت الفاضلات من صويحباتها عابدات مثقفات ذوات عاطفة حارة ، وكانت الآنسة فون كليتّنْبِرج (١) تتبوأ مكان الصدارة بين هؤلاء ، وهي التي نشأت من أحاديثها ورسائلها « اعترافات النفس الجميلة » التي يجدها المرء متضمنة في « فيلهلم مايستر » ، وكانت رقيقة البنية ، متوسطة الطول ، وكان السلوك الطبيعي المخلص قد زاد في رقته الأسلوب القائم على التمرس بالحياة وطراز المجتمع الراقي . وكانت حلتها الجميلة جداً تذكر بثياب النساء المورافيّات * . ولم يكن المرح وسكينة النفس يغادرانها قط . وكانت تنظر إلى علتها على أنها جزء ضروري من وجودها الدنيويّ العابر ، فكانت تعاني مع أعظم ضروب الصبر ، وكانت في الفترات التي تخلو من الألم مفعمة بالحيوية كثيرة الحديث . وكان أحبَّ التسليات إليها ، بل ربما تسليتها الوحيدة ، التجاريبُ الأخلاقية التي يستطيع الانسان الذي يراقب نفسه ، أن يُجرِيَها على نفسه ، حيث كانت

(*) نسبة إلى احدى منظمات الأخوة المسيحية في ذلك العهد .

« المترجم »

تندمج بذلك الأفكار الدينية التي كانت ترد في الاعتبار عندها بطريقة بالغة الظرف ، بل بطريقة عبقرية ، على أنها طبيعية وفوق الطبيعية . وقلّما تمس الحاجة إلى المزيد ، ليبعث المرء من جديد ، في ذاكرة أصدقاء مثل هذه الضروب من الوصف ، ذلك الوصف المفصَّل المكتوب في نفسها . وبالنظر إلى المسار الخاص تماماً ، الذي اتخذته لنفسها منذ الصبا ، وإلى الطبقة النبيلة التي ولدت ونشأت فيها ، وإلى حيوية ذهنها وتفرّده ، فانها لم تكن تأتلف على أحسن وجه مع سائر النساء ، اللواتي كنّ قد اتخذن الطريق ذاته للخلاص . وكانت السيدة جريسباخ (١) ، وهي أفضلهن ، تبدو مفرطة في الصرامة ، مفرطة في الجفاف ، مفرطة في الثقافة ، وكانت تعرف ، وتفكر ، وتطلّع ، أكثر من الأخريات اللواتي كن يكتفين بتطور شعورهن ، وكانت من أجل ذلك ثقيلة عليهن ، إذ لم تكن كل واحدة منهن تستطيع أن تسوق معها عُدّةً كبيرة كهذه على الطريق إلى السعادة ، ولكن أكثرهنّ كنّ في مقابل ذلك على شيء من الرتابة بالطبع ، إذ كن يلتزمن مجموعة معينة من المصطلحات (١) التي يمكن للمرء أن يقارنها بتلك المصطلحات الخاصة بالمتأخرين من الحسّاسين . وكانت الآنسة فون كليتّنبْرِج تسلك طريقها بين كلا الحدّين الأقصيَيْن ، وكان يبدو أنها تعكس ، مع شيء من الإعجاب بالنفس ، صورة الجراف تْسِنْسِنْدورف ، الذي كانت أفكاره وآثاره تقدم الدليل على منبت أكثرَ سموّاً وطبقة أكثر نبلاً ، وقد وجدت الآن فيّ ما كانت تحتاج إليه ، مخلوقاً فتياً مفعماً بالحيوية ، كما أنه يتطلّع إلى شفاء مجهول ، ولم يكن ، على الرغم من أنه لايستطيع أن يرى نفسه خاطئاً بوجه خاص ، يجد نفسه في حال تبعث على الارتياح ، ولم يكن سليماً تماماً ، لابجسده ، ولا بنفسه . وكانت تُسَرُّ بما وهبت

لي الطبيعة ، كما تسرّ ببعض ما اكتسبت ، ولئن أقرّت لي بالكثير من المزايا فان ذلك لم يكن بحال من الأحوال مذلّلاً لها : ذلك لأنها لم تكن تفكر في المنافسة بنفسيّة الرجل أولاً ، كما أنها كانت تعتقد ، ثانياً ، أنها تفوقني كثيراً جداً بالنظر إلى الثقافة الدينية ، وكانت تفسّر اضطرابي ، وضيق صدري ، وطموحي ، وسعيي ، وبحثي ، وتفكيري ، وتأرجحي ، على طريقتها . ولم تكن تخفي عني قناعتها ، بل كانت تؤكد لي ، دونما التواء ، أن كل شيء مردّه إلى أنني لاأعتمد على رضى الرب . على أنني كنت أعتقد منذ الصبا أن علاقتي بالرب حسنة تماماً ، بل انني كنت أتصور ، على أثر بعض التجاريب ، أنه قد يكون لي عنده فضل حساب ، وقد كان هذا الاعجاب بالنفس مبنياً على نيتي الطيبة بلا حدود . ومن الممكن أن يتصور المرء كم من مرة كنا نخوض في هذا ، أنا وصديقتي ، جدالاً كان ينتهي دائماً بأكثر النهايات وداً ، وكان ينتهي أحياناً بمثل نهاية حواري مع العميد القديم ، أي بأنني غلام غريب الأطوار لابد للمرء أن يغتفر له بعض الأمور .

ولما كان الورم في الرقبة يعذبني عذاباً شديداً : إذ كان الطبيب والجرّاح يريان أن من المستحسن تخفيف هذا الورم أولاً ، ثم انهما يريدان ، كما يقولان ، أن ينضجاه ، ثم يفتحاه أخيراً ، فقد كان لديّ وقت لاحتمال المتاعب أكثر مما لديَّ منه لاحتمال الآلام ، على الرغم من أن المسح المتواصل أبداً بحجر جهنم ، والأشياء الكاوية الأخرى كان لابدّ أن يوحي بمستقبل بالغ الازعاج مع كل يوم . وكان الطبيب والجرّاح أيضاً من الأتقياء المتميّزين ، على الرغم من أن كليهما كان ذا طبيعة مختلفة إلى أقصى حدود الاختلاف فأما الجراح ، وهو رجل معتدل القامة ، ذو يد خفيفة بارعة ، فكان يصبر على أحواله صبراً

مسيحياً حقاً ، ولكنه صبر محموم ، مع الأسف ، ولم يكن يدع أحداً يحرجه في مهنته عن طريق بؤسه . وأما الطبيب (١) فكان رجلاً لاسبيل إلى تفسيره ، ذا نظرة خبيثة ، وكلام ودّي ، وذا غموض في نهاية الأمر ، وكان قد اكتسب ثقة خاصة تماماً في محيط الأتقياء .وكان بنشاطه ونباهته عزاءً للمرضى ، غير أنه كان يوسع دائرة زبائنه أكثر مما يفعل بأي طريق آخر ، عن طريق موهبة توزيع أدوية سرية يحضرها بنفسه (١) ، من وراء ستار . ولم يكن يجوز لأحد عندنا أن يتحدث عنها ، لأن التركيب الخصوصي كان محظوراً حظراً باتاً . على أنه لم يكن يستخفي بمساحيق معينة قد تكون أيَّ مادة هاضمة ، ولكن الحديث عن ذلك الملح الهام الذي لاينبغي أن يستعمل إلاّ مع أكبر الأخطاء لم يكن يجري إلاّ بين المؤتَمنين ، على الرغم من أنه ما من أحد قد رآه بعد أو أحسّ بأثره ، ولكي يدعم الإيمان بامكان وجود مثل هذه الأداة العامة الشاملة كان الطبيب يوصي مرضاه ، حيثما كان يجد بعض الاستجابة ، بقراءة كتب معينة في الكيمياء السيميائيّة السرّية ، ويوحي إليهم أن في وسع المرء ، عن طريق الدراسة الخاصة لهذه الكتب ، أن يصل إلى حد تحصيل تلك الجوهرة بنفسه ، وهو الأمر الذي يزداد ضرورة ما دام التحضير لايمكن تناقله ، سواء لأسباب طبيعية ، أم لأسباب أخلاقية على وجه الخصوص . وأن على المرء ، ليتبيّن ذلك العمل الكبير ويخرجه ، ويستعمله ، أن يحيط علماً بأسرار الطبيعة في صورة مترابطة ، لأنها ليست بشيء متفرِّق ، وإنما هي شيء عامّ شامل ، كما أن من الممكن إخراجها بلاريب ، بصور وأشكال مختلفة . وكانت صديقتي قد أصغت إلى هذه الكلمات الجذابة ، وكان شفاء الجسد وثيق الصلة جداً بشفاء الروح . وهل كان يمكن أن يُسدى إلى الآخرين معروف

أكبر ، ورحمة أعظم ، من أن يكتسب المرء وسيلة تُخفّف بها بعض الآلام ، وتَدرأ بها بعض الأخطار ، وكانت قد درست من قبل ، سراً ، كتاب ويلنج (٢) (القبالة السحرية) ، ولما كان المؤلف يسارع بنفسه إلى تَغْشِية الضوء الذي يبعث به ، وازالته من جديد ، فقد جعلت تلتمس صديقاً يصحبها في غمرة تعاقب النور والظلام ، ولم يكن الأمر يحتاج إلاّ إلى حافز ضئيل من أجل حقني بهذا المرض أيضاً . وعمدت إلى تأمين الكتاب ، الذي يمكن متابعة نسبه ، شأن كل الأسفار من هذا النوع ، على خط مستقيم ، حتى المدرسة الأفلاطونية الحديثة (١) . وكان أفضل جهدي في هذا الكتاب ملاحظتي بأقصى الدقة للإشارات الغامضة حيث يحيل المؤلف من موضع إلى آخر ، ويعد بذلك بالكشف عمّا يخفي ، وبيان أرقام الصفحات الخاصة بأمثال هذه المواضع التي يجب أن يوضح بعضُها بعضاً ، على الحاشية . ولكن الكتاب بقي على هذه الصورة غامضاً أيضاً وممتنعاً على الفهم بما فيه الكفاية ، فضلاً عن أن المرء يغرق آخر الأمر في دراسة مجموعة معينة من المصطلحات ، ويعتقد ، وهو يتصرّف بها كما يشاء ، أنه في الوقت الذي لايفهم فيه شيئاً ، فهو يقول شيئاً ما على الأقل . ويأتي الكتاب المذكور على ذكر أسلافه بكثير من التقدير ، ولذلك فقد لقينا حافزاً للبحث عن تلك المصادر بأنفسنا . فاتجهنا الآن إلى أعمال تيوفراستوس باراسيلوس (٢) ، وباسيليوس فالينتينيوس (٣) ، ولم يكن اتجاهنا بأقل من ذلك نحو، هلمونت (٤) ، وستاركي (٥) ، وآخرين ، ممن كنا نحاول أن نتبيّن ونتتبّع نظرياتهم وتعاليمهم القائمة ، بصورة أقل أو أكثر ، على الطبيعة والخيال . وكانت « السلسلة الذهبية الهوميرية (٦) » تحظى باعجابي بوجه خاص ،إذ كان يتم تصوير الطبيعة فيها في ترابط جميل،وان كان

ذلك بطريقة ربما كانت خيالية . وعلى هذا النحو كنا ننفق ، متفرقين حيناً ، ومجتمعين حيناً آخر ، كثيراً من الوقت ، في هذه الغرائب ؛ ونقضي أمسيات شتاء طويل ، كان عليّ خلالها أن أحرس الحجرة ؛ وأنا جد مستمتع ، بينما كنا ، نحن الثلاثة ، وأميّ معنا ، نتسلّى بهذه لأسرار أكثر مما كان يمكن أن يسلّينا الكشف عنها .

وفي هذه الأثناء كان يجري إعداد محنة لي بالغة القسوة : ذلك لأن هضماً فاسداً ، بل يحق للمرء أن يقول ، في لحظات معينة : هضماً مدمّراً ، قد أثار أعراضاً جعلتني أعتقد أني سأفقد الحياة تحت وطأة أكبر المخاوف ، وأبت أي وسيلة مستعملة أخرى أن تثمر شيئاً . وقد أرغمت أمي المرتبكة ، وهي في محنتها الأخيرة ، الطبيب المُحرَج ؛ بأشد ضروب الإلحاح ، على أن يخرج بدوائه الكليّ وبعد تمنّع طويل أسرع إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل ، وعاد بكأس صغير من الملح الجاف المتبلور الذي أذيب في الماء ، وتجرّعه المريض ، وكان له طعم قلويّ صريح . ولم يكد يتم تناول الملح حتى ظهر انفراج في الحالة ، ومنذ تلك اللحظة اتخذ المرض منعطفاً كان يؤدي إلى التحسّن على مراحل . ولايمكنني أن أبيّن إلى أي مدى رسّخ هذا الإيمانَ بطبيبنا وهمّته في إيصالنا إلى مثل هذا الكنز ، ورفع من شأنه .

وكانت صديقتي التي تقطن في بيت كبير حسن الموقع ، وليس معها أبوان ، ولا إخوة ، قد شرعت من قبل في تأمين فرن هوائي (١) صغير ، وقوارير ، وبواتق ذوات حجم معتدل ، وجعلت تقوم ، بعمليّاتها بناء على إشارات من ويلنج ، وإيحاءات هامة من قبل الطبيب والمعلم ؛ ولاسيما ، على الحديد الذي كان يفترض أن أكثر طاقات

الشفاء فعالية تستكنّ فيه ، إذا ما عرف المرء كيف يكشف عنها . ولما كان ملح الهواء (٢) * الذي لم يكن بدٌّ من استحصاله يلعب دوراً كبيراً في كل الكتب المعروفة لدينا ، فقد كانت هذه العمليات تقتضي مواداً قلوية تتحد وهي تتبدّد مع الهواء ، بتلك الأشياء العُلويّة . وكان يفترض فيها آخر الأمر أن تخرج ملحاً وسيطاً (٣) ممتازاً حافلاً بالأسرار في حد ذاته .

وبمجرد أن تماثلت للشفاء ، وتمكنت ، إذ كان يواتيني فصل السنة الأفضل ، من الإقامة في حجرتي ذات الجمالون ، شرعت أنا أيضاً في إقامة جهاز صغير ، إذ تم إعداد فرن هوائي مع حمّام رملي (٤) ، وتعلمت بسرعة كبيرة تحويل الدوارق الزجاجية إلى أطباق بفتيل مشتعل ، حيث كان من الواجب تبخير الخلائط المختلفة ، ثم كان يتم الآن معالجة التركيبة الخاصة بالعالم الأكبر (٥) والعالم الأصغر — ، بطريقة عجيبة حافلة بالأسرار . وكان القوم يحاولون قبل كل شيء إخراج أملاح وسيطة بطريقة لم يُسمَع بها . ولكن ما شغلني حيناً من الزمان أكثر مما عداه كان ما يسمى بالخمر السيليسي (ماء الصوّان) ، الذي يتكوّن حين يحلّ المرء أحجار الصوان النظيفة في مقدار ملائم من البوتاس ، فينشأ عن ذلك زجاج شفاف يذوب في الهواء ، ويكوّن سائلاً رائقاً جميلاً (٦) . ومن صنع هذا ذات مرة بنفسه ، ورآه بأم عينيه ، فلن يلوم أولئك الذين يؤمنون بالتربة البكر (٧) وبامكانية إحداث التأثير عليها ، والتأثير من خلالها . وقد وصلت إلى مهارة خاصة في تحضير هذا الماء الصوّاني ، وكانت الحجارة الصوانية الجميلة البيض التي توجد

(*) ملح الهواء عند أهل السيمياء هو المادة التي اذا لم يكن الهواء مشبعاً بها فسد إجمالا .

في نهر الماين تقدم لذلك مادة كاملة ، كما أنني لم أقصّر فيما تبقّى ، ولم أقصر في النشاط ، إلاّ أنني أصبت بالإرهاق حقاً في نهاية الأمر ، إذ لم يكن لي بد أن ألاحظ أن المادة الصوانية لم تكن متحدة بالملح اتحاداً وثيقاً بحال من الأحوال ، كما كنت أعتقد على الطريقة الفلسفية : ذلك لأنه كان ينفصل من جديد بسهولة فائقة ، كما أن السائل المعدني المتناهي في جماله ، والذي كان قد تجلّى لي في بعض المرّات ، مثيراً لديّ أعظم دهشة ، في صورة هُلامٍ حيرانيّ ، كان يدع مع ذلك مسحوقاً يسقط دائماً ، وكان لابد لي أن أعدّه أكثر ضروب الغبار الصواني نعومة ، ولكنه لم يكن ينطوي بحال من الأحوال على أثر ملموس لأي شيء مثمر بطبيعته ، فكان في وسع المرء أن يأمل في أن يرى هذه التربة العذراء تنتقل إلى الحالة الأصلية .

ومهما يكن من غرابة هذه العمليات وافتقارها إلى رابطة ، فقد تعلمت منها مع ذلك أموراً شتى . وكنت أنتبه بدقة إلى كل عمليات التبلور التي كان من الممكن أن تظهر ، وتعرفت على الأشكال الخارجية لبعض الأشياء الطبيعية . وفي الوقت الذي كنت أدرك فيه أن الناس في العصور الحديثة يعالجون الموضوعات الكيميائية على نحو أكثر منهجيّة ، كنت أريد بصورة عامة أن أكوّن تصوراً عن ذلك ، على الرغم من أنني لم أكن أحظى ، بحكم كوني في منتصف الطريق ، إلاّ بقليل من الاحترام عند الصيادلة ، وعند كل أولئك الذين كانوا يقومون بعملياتهم بالنار العادية . وفي هذه الأثناء كان الموجز الكيميائي لبورهاف (١) يجتذبني بقوة جبارة ، ويستدرجني إلى قراءة كتب عديدة لهذا الرجل . ولما كان موضي الطويل الأجل قد جنح بي على كل حال صوب الجانب

الطبيّ فقد وجدت بوساطته تمهيداً لدراسة « الأقوال المأثورة » أيضاً ، لهذا الرجل الممتاز . وكان يسرني أن أطبعها في ذهني وفي ذاكرتي . وكان ثمة صناعة أخرى أكثر انسانية إلى حد ما ، وأكثر نفعاً إلى حد بعيد ، من أجل التثقيف الراهن ، وهي أنني كنت أتصفح الرسائل التي سبقأن كتبتها من لايبتسج إلى البيت .وما من شيء يكشف لنا عن أنفسنا أكثر من أن نرى أمامنا من جديد ما صدر عنّا قبل بضع سنوات ، بحيث نستطيع الآن أن نتأمل أنفسنا على أنها موضوع من الموضوعات . ولكني كنت في تلك الأيام صغيراً جداً بعدُ . وكان العصر الذي تم تصويره بهذه الأوراق ما يزال مفرطاً في القرب . ولما كان المرء ، بصورة مطلقة ، لايطرح عنه في سنوات الصبا بسهولة ظلمةً معينة ناجمةً عن الإعجاب بالنفس ، فان هذا يتجلّى بصورة خاصة في أن المرء يزدري نفسه في الماضي المنصرم منذ عهد قريب : ذلك لأن المرء حين يعي بالطبع ، من مرحلة إلى مرحلة ، أن ما يراه حسناً وممتازاً في نفسه وفي الآخرين ، لايصمد للاختبار ، فان المرء يعتقد أن أفضل سبيل لتجاوز هذا الحرج هو أن ينبذ بنفسه ما لايستطيع أن ينقذه . وهذا ما جرى لي أيضاً . ذلك لأنني مثلما تعلمت في لايبتسج ، شيئاً فشيئاً ، أن أستخفّ بجهودي الصبيانية ، كانت تبدو لي الآن مسيرتي في المعهد العالي ، على النحو ذاته ، في صورة تنطوي على الاستخفاف ، ولم أكن أتبيّن أنها كان يجب أن يكون لها قيمة كبيرة عندي لمجرد أنها رفعتني إلى درجة أعلى من درجات التأمل والنظر . وكان والدي قد جمع رسائلي ، سواء منها ما كان موجهاً إليه أم ما كان موجهاً إلى أختي ، وثبّتها بسلك ، بل صحّحها باهتمام وأصلح أخطاء الكتابة كما أصلح الأخطاء اللغوية .

وكان أول ما لفت نظري في هذه الرسائل مظهرُها الخارجي . لقد ذعرت من إهمال لايصدق للخطّ كان يمتد من تشرين الأول ١٧٦٥ إلى منتصف كانون الثاني التالي . ولكن يداً تظهر دفعة واحدة ، في منتصف آذار ، رزينةً كل الرزانة ، ذات نظام وتنسيق ، كما تعودت استعمالها فيما عدا ذلك ، في مسابقات الجوائز . وانحلّت دهشتي من ذلك متحوّلة إلى ثناء على جيللرت الطيب الذي كان ، كما أذكر الآن جيداً ، قد جعل ، بلهجته الحارة . من الواجبات المقدسة علينا ، في موضوعات الإنشاء التي كنا نقدمها إليه ، أن ندرّب أيدينا تدريباً شديداً ، بل تدريباً يربو على تدريبنا على الأسلوب . وكان يكرّر هذا كلما واجهته كتابة مخَرْبَشة ، حيث كان يعلن مراراً أنه يسره سروراً شديداً أن يجعل من الخط الجميل لتلاميذه غرضاً رئيسياً من أغراض التعليم عنده ، وذلك بوجه خاص لأنه لاحظ بما فيه الكفاية أن الخط الحسن يجرّ معه أسلوباً حسناً .

وكان في وسعي ، أن ألاحظ فيما عدا ذلك أيضاً أن المواضع الفرنسية والانكليزية من رسائلي مكتوبة بطلاقة وحرية ، على الرغم من أنها لم تكن خالية من الأخطاء . وكنت قد واصلت التمرين على هذه اللغات أيضاً في مراسلتي مع جورج شلوسّر (١) ، الذي ظل موجوداً بعدُ في تريبتوف ، وظللت على علاقة دائمة به ، وكنت أطلّع بذلك على بعض أحوال العالم (إذ لم تكن الأمور تجري وفقاً لما كان يأمل تماماً) ، وأزداد ثقة بطريقة تفكيره الجديّة النبيلة .

وكان من الملاحظات الأخرى التي ما كانت لتَغْرُبَ عني عند تصفح تلك الرسائل ، أن أبي ألحق بي ، وهو في الغاية من حسن النية ،

ضرراً خاصاً ودفعني إلى نمط الحياة الغريب الذي دخلت فيه آخر الأمر . وذلك أنه كان قد حذرني مراراً من لعب الورق . ولكن السيدة زوجة مستشار البلاط بوهمهٍ استطاعت ، طوال حياتها ، أن تكرّس وضعي هذا على طريقتها ، إذ كانت تعدّ تحذير والدي قاصراً على سوء الإستعمال ولمّا تبيّنت لي الآن أيضاً مزايا هذا اللعب في المجتمع فقد تركتها تسيّر أموري بسرور . لقد كنت أتمتع حقاً بالرغبة في اللعب ، ولكن لم أكن أملك روح اللعبة . فقد تعلمت كل الألعاب بسهولة وسرعة ، ولكني لم أستطع قط أن أحافظ على الانتباه اللازم طوال أمسية كاملة ، وكنت إذا بدأت بداية حسنة حقاً قصّرت دائماً في النهاية ، وجَرَرْتُ الخسارة على نفسي وعلى الآخرين ، فكنت أنصرف على أثر ذلك مغيظاً ، إمّا إلى مائدة العشاء ، وإمّا مفارقاً للجماعة . ولم تكد السيدة بوهمه تقضي نحبها ، وهي التي لم تكن ، على أية حال ، تحملني بعدُ ، خلال مرضها الطويل ، على المضيّ في اللعب ، حتى اكتسب درس والدي قوّته . فجعلت أول الأمر اعتذر عن حفلات اللعب ، ولما كان القوم ما عادوا يعرفون كيف يتصرفون معي فقد صرت ثقيلاً على نفسي أكثر مما كنت ثقيلاً على الآخرين ، ورفضت الدعوات التي تضاءل ورودها بعد ذلك ، وتوقفت تماماً في النهاية . ولم يكن من الممكن لِلّعب الذي يُستَحسَن كثيراً للشباب ، ولاسيما أولئك الذين يتمتعون بعقلية عملية ، ويريدون أن يضربوا في الأرض ، أن يتحول عندي قطّ إلى هواية ، بالطبع ، لأنني لم أكن أتقدم ، وكنت أحب أن ألعب ما دمت أريد اللعب . ولو أن امرءاً أعطاني نظرة عامة حول ذلك ، وجعلني ألاحظ كيف تشكل هنا علائمُ معينةٌ ومصادفاتٌ نوعاً من المادة على نحو يقل أو يكثر ، مما يمكن أن يتم به تدريب ملكة الحكم والتصرّف ، ولو

أن امرءاً جعلني أنظر في بضعة ألعاب مرة واحدة لكان ذلك أحرى أن يجعلني أميل إليها بلاريب . وكنت ، مع كل ذلك ، قد وصلت ، من خلال تلك التأملات ، في العصر الذي أتحدث عنه ، إلى قناعة مؤداها أنْ ليس على المرء أن يتجنّب الألعاب الاجتماعية ، بل عليه أن يطمح ، بالأحرى ، إلى براعة فيها . فالوقت طويل لانهاية له ، وإنما كلُّ يوم وعاءٌ يمكن أن يُصبَّ فيه ما هو كثير جداً إذا ما أراد المرء أن يملأه حقاً .

وكنت مشغولاً ، من وجوه عدّة ، في وحدتي ، ولاسيما حين أتيحت الفرصة لأطياف هواياتي المختلفة التي أقبلت عليها شيئاً فشيئاً ، أن تطلّ من جديد . فعدت من جديد أيضاً إلى الرسم ، ولما كنت أريد دائماً أن أعمل بصورة مباشرة وفقاً للطبيعة ، أو بالأحرى ، وفقاً لما هو واقعيّ ، فقد رسمت حجرتي ، بأثاثها ، والأشخاص الذين كانوا فيها ، وحين ما عادَ هذا يسليني صرت أصوّر أقاصيص شتّى من المدينة كان الناس يتحدثون فيها منذ حين ، ويجدون فيها متاعاً . ولم يكن هذا كله بغير سمة معينة ، ولم يكن بغير ذوق معين، ولكن ما يؤسف له أن الأشخاص كانوا يفتقرون إلى النِسَب ، وإلى الجوهر الحقيقي ، كما أن التنفيذ كان متناهياً في ضبابيّته . وكان والدي الذي ظلت هذه الأشياء تسرّه ، يريد أن تكون أكثر وضوحاً . وكان من المفروض أن يكون كل شيء منتهياً ومُخْتَتَماً ، ومن أجل ذلك أوعز باعدادها وتبطينها بالكتان ، بل لقد كان على الرسام مورجِنْشتيرن (١) ، وهو رسام بيته — وهو ذاته الذي عُرِف ، بل اشتهر بمناظر الكنائس فيما بعد — أن يدخل خطوط المنظور للحجرة والأماكن التي بدت بالطبع

صارخة إلى حد كبير في مقابل الشخوص المشار إليها على نحو ضبابيّ . وكان يعتقد أنه يضطرّني بذلك إلى التحديد بصورة مطرّدة ، ولكي أحظى بمرضاته رسمت ضروباً شتى من الحياة الهادئة استطعت فيها أن أعمل بمزيد من الوضوح والتحديد بينما كان الواقعيّ ينتصب انموذجاً قبالتي . وأخيراً خطر ببالي من جديد الحفر على المعادن أيضاً ، وكنت قد قمت بصياغة منظر طبيعي ممتع جداً . وشعرت بسعادة كبيرة حين تمكنت من تجربة الوصايا القديمة عندي ، والمأثورة عن شتوك ، واستطعت أن استذكر تلك الأيام الممتعة في أثناء العمل . وسرعان ما حفرت اللوحة ، وأوعزت بعمل نسخ تجريبيّة منها . وكان من سوء الحظ أن الصياغة كانت تفتقر إلى الضوء والظل ، فأخذت أعذّب نفسي الآن في إدخال كليهما ،ولكن لمّا لم يكن جوهر المسألة واضحاً في ذهني كل الوضوح فانني لم أستطع الفراغ من ذلك . وكنت في هذا الوقت اتمتع بصحة حسنة تماماً بالقياس إليّ ، ولكن بلاءً لم يعذبني قط من قبل يصيبني في هذه الأيام . وذلك أن بلعومي أصيب بجرح كامل ، والتهب بصورة خاصة هذا الذي يسمونه اللهاة ، التهاباً شديداً . ولم أكن أستطيع أن ابتلع شيئاً إلاّ مع الآلام المبرّحة ، ولم يعرف الأطباء ما يصنعون بذلك . وكان القوم يعذبونني بالغرغرة والمعالجة بالفرشاة ، ولم يستطيعوا أن يخلصوني من هذه المحنة ، وأخيراً أدركت ، كأنما بطريق الإلهام ، أنني لم أكن حذراً بالدرجة الكافية في الحفر على المعدن ، وأنني حين كنت أكرر ذلك كثيراً ، وبحماسة ، كنت أجرّ على نفسي هذا الوبال ، وأجدّده ، وأزيد فيه المرّة بعد الأخرى . وكانت هذه المسألة قابلة للتصديق عند الأطباء ، في الوقت الذي أمسكت فيه عن النقش بالإزميل والحفر على المعدن حين لم تسفر المحاولة عن نتيجة حسنة بحال من الأحوال

وكان لديّ من الأسباب ما يحملني على إخفاء عملي أكثر مما يحملني على عرضه ، وهو الأمر الذي كنت أعزيّ نفسي به بصورة اسهل حين رأيت نفسي متخلّصاً بسرعة كبيرة من الداء العضال . ومع ذلك فلم أكن أقدر على الامتناع عن ملاحظة أن الأعمال المماثلة في لا يبتسج قد أسهمت بلاريب في تلك الآفات التي كنت قد عانيت منها قَدْراً كبيراً . ولاريب أن من الأمور المملّة والكئيبة في بعض الأحيان ، أن نفرط في الانتباه إلى أنفسنا ، وإلى ما يؤذينا وما ينفعنا ، إلاّ أنه ليس من العجيب ولا الغريب أن الجنس البشري لم يقض على نفسه منذ أمد بعيد مع ما في الطبيعة البشرية من تنافر غريب من ناحية ، وما فيها من اختلاف لانهاية له في أسلوب الحياة ومسراتها من ناحية أخرى . ويبدو أن الطبيعة البشرية تتمتع بنوع من الصلابة وتعدد الجوانب ، إذ أنها تتغلّب على كل ما يقاربها أو ما تتلقّاه في داخلها ، وإذا كانت لاتستطيع أن تتمثّله فهي تجعله شيئاً غير ذي بال على الأقل . وهي تضطر بالطبع إلى التراجع عند الشطط الكبير على الرغم من كل مقاومة ، كما يؤكد لنا ذلك كثير جداً من الأمراض المتوطنة ، وآثار الخمر ، ولو أننا استطعنا ، دون أن يتولاّنا الخوف ، أن ننتبه إلى أنفسنا ، وإلى ما في حياتنا المدنية والإجتماعية المعقدة ، مما يحدث فينا آثاراً نافعة وآثاراً ضارة ، وانتهينا عمّا يريحنا بالطبع من حيث كونه متعة ، من أجل نتائجه الوخيمة ، لأمكننا بالطبع أن نزيح بسهولة كثيراً من المتاعب التي تعذبنا أكثر من المرض نفسه في كثير من الأحيان . حتى مع وجود البُنى السليمة فيما عدا ذلك . والمؤسف أن الأمر في الجانب الغذائي هو ذاته في الجانب الأخلاقي ، فنحن لانستطيع أن نتبيّن خطأً من الأخطاء قبل أن نتخلّص منه ، وذلك ما لايُكتسب معه شيء من الأشياء ،

لأن الخطأ التالي لايبدو مشابهاً للخطأ السالف ، وبناء على ذلك فليس من الممكن التعرّف عليه في الصورة ذاتها .

ولم يكن من الممكن ، لدى تصفح تلك الرسائل التي كتبت من لايبتسج إلى أختي ، أن تَغرُب عني أيضاً ، ضمن أشياء أخرى ، تلك الملاحظة ، وهي أنني كنت أعدّ نفسي على الفور ، ومع الدراسة الجامعية الأولى ، بالغ الذكاء والحكمة ، إذ قمت مقام الأستاذ ، بمجرد أن تعلمت شيئاً ، وأصبحت ، من أجل ذلك على الفور ذا صفة تربوية ، ولقد كان يضحكني بما فيه الكفاية أن أرى ما كان يسرده علينا جيللرت في المحاضرة أو ينصحنا به موجهاً إلى أختي على الفور ، دون أن أتبيّن أن شيئاً ما ، سواء في الحياة أم في القراءة ، يمكن أن يكون ملائماً للفتى دون أن يكون ملائماً للمرأة ، وكنا نتندَّر معاً على هذا التقليد ، كما غدت القصائد التي كتبتها في لايبتسج ضئيلة الشأن في نظري ، وبدت لي باردة ، جافة ، مفرطة في السطحية ، بالنظر إلى ما يفترض أن يعبّر عن أحوال القلب البشري ، أو الفكر البشري . وقد دفعني هذا ، حين كان عليّ أن أغادر بيت أبي الآن مرة أخرى ، وأنتقل إلى معهد عال آخر ، إلى أن أعود إلى إصدار شهادة ذاتية رئيسيّة حول أعمالي ، وألقيت بعدد من المسرحيات المبدوءة التي كان بعضها قد وصل إلى الفصل الثالث أو الرابع ، على حين وصل بعضها الآخر إلى المدخل الكامل ، إلى جانب الكثير من القصائد الأخرى والرسائل والأوراق . ولم يكد ينجو شيء سوى مخطوط بيهرِش « نزوة العاشق » و « المتورطون» وقد كنت أقوم بتصحيح الأخيرة على نحو متصّل ، بولع خاص . ولما كانت المسرحية منتهية فقد عدت إلى معالجة المدخل مرة أخرى لأجعله

أكثر حركة ووضوحاً في الوقت ذاته . وكان ليسّنغ قد طرح في الفصلين الأوّلين من مسرحية « مينّا » أنموذجاً لايُجارى لكيفية التقديم للمسرحية ، ولم يكن هناك شيء عندي أهمّ من الإمعان في معناه وفي مقاصده .

والحق أن رواية ما كان يمسّني ، ويثيرني ، ويشغلني في هذه الأيام ، رواية مستفيضة بما فيه الكفاية ، ولكن لابد لي على الرغم من ذلك ، أن أعود إلى ذلك الاهتمام الذي بثّته في نفسي الأشياء الخارقة للطبيعة التي كنت أقوم بتكوين تصوّر عنها بصورة نهائيةوحاسمة على قدر الإمكان .

وقد أحدث لديّ تأثيراً كبيراً في هذا الصدد كتاب هام وقع في يدي ، وكان هذا كتاب آرنولد « تاريخ الكنائس والهراطقة » (١) . وهذا الرجل ليس مجرد مؤرخ متأمّل ، وإنما هو في الوقت نفسه ورع وذو إحساس ، وكانت أفكاره تجاري أفكاري إلى حد كبير . على أن ما كان يسلّيني في كتابه بوجه خاص هو أنني خرجت بتصوّر إيجابيّ عن بعض الهراطقة الذي كانوا يُقدَّمون إليّ حتى الآن في صورة مخبولين أو ملاحدة . وإنما تكمن روح المناقضة وحب المتناقض فينا جميعاً . وأقبلت بنشاط على دراسة الآراء المختلفة ، ولما كنت قد سمعت ، في عدد كاف من المرات ، من يقول إن لكل انسان في النهاية دينه الخاص ، فلم يكن يبدو لي شيء أكثر طبيعيّة من أنني أستطيع ، أنا أيضاً ، أن أكوِّن دیانتي الخاصة ، وقد فعلت هذا بكثير من الارتياح وكانت الأفلاطونية الجديدة كامنة في الأساس (٢) ، كما أسهمت الهرمسيّة ، والصوفية ، والقبالية (٣) في ذلك أيضاً ، وهكذا شيّدت لنفسي عالماً كان يبدو غريباً بما فيه الكفاية .

ولقد وَدِدْتُ لو تصورت بصورة حسنة ذاتاً إلهية نشأت من تلقاء ذاتها منذ الأزل (١) ، ولكن لما كان النشوء لايمكن تصوره دونما تعدّد فقد كان لابد أن تتجلّى بالضرورة في صورة ثانٍ نقرّ به تحت اسم الابن ، وكان لابد لهذين كليهما أن يواصلا فعل الخلق ، وقد تجليّا بذاتهما من جديد في ثالثٍ كان مكافئاً للكلّ في وجوده وحياته وخلوده . وبذلك اختُتِمت دائرة الذات الالهية ، وما كان من الممكن حتى بالنسبة إليهم أنفسهم أن يخلقوا مرة أخرى شبيهاً مماثلاً لهم مماثلة كاملة . ومع ذلك فان الدافع إلى الخلق لمّا كان يمضي قدماً على نحو دائم ، فقد خلقوا رابعاً ، غير أنه كان يحمل تناقضاً في ذاته ، إذ كان يفترض فيه أن يكون مطلقاً ، ومع ذلك فهو في الوقت نفسه متضمن فيهم ومحدود بهم ، وكان هذا الآن هو الشيطان (٢) الذي انتقلت إليه منذ الآن كل طاقة الخلق ، وكان من المفروض أن يصدر عنه كل ما تبقى من الوجود . وقد أثبت على الفور نشاطه اللانهائي ، إذ خلق الملائكة أجمعين ، وكلّهم ، مرة أخرى ، على شاكلته ، في المطلق ، ولكنهم متضمّنون فيه ومحدودون به . ولمّا أحاط به مثل هذا المجد نسي أصله الأعلى ، واعتقد أنه يجده في ذاته نفسها ، وعن هذا النكران الأول للجميل نشأ كل ما يبدو لنا غير منسجم مع مقصد الذات الالهية ورغباتها . وكان كلما ازداد تركيزاً على ذاته ازدادت أحواله سوءاً بصورة لامندوحة عنها ، وكذلك أحوال كل الأرواح الشريرة التي كان يفسد عليها الارتقاء الجميل إلى أصلها .وهكذا حدث ما يشار إليه عندنا في صورة ارتداد الملائكة . فكان قسم من هؤلاء يحتشد حول الشيطان ، واتجه القسم الآخر من جديد صوب أصله . وعن هذا الاحتشاد لكل الخلق ، الذي كان قد صدر عن الشيطان وكان مضطراً إلى اتباعه ،

نشأ الآن كل ما ندركه في صورة المادة ، وما نتصوره ثقيلاً ، جامداً ، مظلماً ، والذي يعدّ ، إذ ينحدر من الذات الالهية عن طريق الأبوّة وان لم يكن ذلك بطريق مباشر ، ذا سلطان وخلود مطلقين على النحو ذاته كالأب والجدّين . ولكن لمّا كان كل الشرّ ، إذا جاز لنا أن نسميه كذلك ، إنما نشأ عن مجرد الإتجاه الوحيد الجانب للشيطان ، فقد كان هذا الخلق يفتقر بالطبع إلى نصفه الأفضل : ذلك لأن كلّ ما يتم اكتسابه عن طريق التّركيز كان يملكه ذلك الخلق ، ولكنه كان يفتقر إلى كل ما لايمكن إحداثه إلا عن طريق التوسع . وعلى هذا النحو كان مجمل الخلق خليقاً أن يقضي على نفسه بنفسه عن طريق التّركيز المتواصل أبداً ، وأن يدمر نفسه مع أبيه الشيطان ويخسر كل دعاوى حقه في المساواة مع الآلهة في خلودها (١) . وقد نظرت الآلهة في هذا الوضع حيناً ، وكان أمامها خيار يتمثل في انتظار تلك الدهور (٢) التي أصبح فيها الميدان نقياً من جديد وبقي لها فيه مجال لخلق جديد ، أو التدخل في الحاضر وإعانة النقص على الوصول إلى كماله . وقد اختارت الآن الأخير وأكملت بمحض إرادتها ، في لحظة من اللحظات ، كل النقص الذي جره عليها نجاح بداية الشيطان . وأضفت على الوجود اللانهائي المقدرة على التوسع ، وعلى أن يتحرك في اتجاهها ، وأعيد اصلاح نبض الحياة الحقيقي من جديد ، كما أن الشيطان نفسه لم يستطع أن يتخلص من هذا التأثير . وهذا هو العصر الذي ظهر فيه ما نعرفه بالنور ، حيث بدأ ما تعودنا أن نعبر عنه بكلمة « الخلق » وعلى الرغم من شدة ما أصاب هذا الخلق من التعقيد على مراحل ، عن طريق طاقة الحياة الصادرة عن الآلهة والمتسمة بتأثيرها المتصل أبداً فقد كان هناك افتقار إلى كائن يتسم بالبراعة في إعادة صياغة الإرتباط بالذات الإلهية ، وهكذا تم خلق

الإنسان ، الذي كان يراد به أن يكون مشابهاً في كل شيء للذات الإلهية ، بل أن يكون مماثلاً لها ، ولكنه وجد نفسه بذلك مرة أخرى ، بالطبع ، في الحالة التي كان عليها الشيطان ، وهي كونه مطلقاً ومحدوداً في الوقت ذاته ، ولما كان مقدراً لهذا التناقض أن يتجلّى فيه من خلال كل مقولات الوجود وأن يرافق أحواله وعي كامل مثلما يرافقها إرادة حاسمة ، فقد كان لابد من التكهن بأن يصبح هذا المخلوقَ الأكثر كمالاً والأكثر نقصاً ، والأكثر سعادة والأكثر تعاسة . ولم يلبث طويلاً حتى لعب هو أيضاً دور الشيطان بصورة كاملة . وإنما يعد الانفصال عن المحسن هو النكران الحقيقي للجميل ، وهكذا أصبح ذلك الارتداد بارزاً في المرة الثانية على الرغم من أن الخلق كله ليس،ولم يكن ، شيئاً آخر ، سوى ارتداد وعودة إلى الأصليّ .

ويتبيّن للمرء بسهولة كيف أن الخلاص هنا لايتم البت فيه من قِبَل الأبدية فحسب ، وإنما ينظر إليه على أنه أبدي بالضرورة ، بل على أنه لابد أن يتجدد ، المرة تلو المرة ، خلال كل زمان الصيرورة والوجود . وما من شيء أكثر طبيعية في هذا المعنى من أن تتخذ الذات الالهية نفسها صورة الإنسان التي أعدّتها لنفسها ستاراً من قبل ، وأنّها تقاسم هذا الإنسان مصائره إلى أجل قريب لكي تزيد عن طريق هذه المشابهة في ما هو سارّ ، وتخفف ما هو مؤلم . وإنما يعلمنا تاريخ كل الأديان والفلسفات أن هذه الحقيقة الكبرى ، التي لايستغني عنها الإنسان ، إنما يتم تناقلها من قبل أمم مختلفة ، في عصور مختلفة ، بطرق شتى ، بل في أساطير وصور غريبة تتسم بالمحدودية ، ويكفي أن يعترف بأننا نوجد في وضع إذا كان يبدو أنه يجتذبنا إلى الأسفل ويضغط علينا فهو

يتيح لنا مع ذلك الفرصة للارتقاء ، بل يوجب علينا أن نرتقي بأنفسنا ، وأن نستجيب إلى مقاصد الذات الإلهية ، وألاّ نقصّر ، في الوقت الذي نضطر فيه إلى تحقيق ذواتنا من ناحية ، في التجرد من ذواتنا من الناحية الأخرى ، في موجات نبضيّة نظامية .

* * *

فهرس الجزء الأول

الموضوع	الصفحة

القسم الأول

القسم الثاني

٢٥٠٠ ط١ /٨/١٩٩٢

ليس جوته بحاجة الى من يعرف به . فهو شاعر أوروبا ومفكر عصري الأنوار والرومانتيكية . ولكن كتابه هذا يطرح علينا سؤالين :

الاول – علام أعطى جوته لمذكراته عنوان « الشعر والحقيقة » ؟

الثاني – عن نوع مذكرات جوته . وهو نفسه يجيب عن سؤالنا في مقدمة الكتاب : عالج جوته مشكلات عصره كلها ، عبر عن احاسيسه ، قيمه ، طموحاته ، وعن الآفاق التي شقها او سيشقها الانسان الغربي اذ ذاك . ومن المعلوم أن « فوست » صار ، في نظر الكثيرين شعار المرحلة تلك ، ومع ان جوته استخدم للتعبير عن فكرة الأجناس الأدبية وأنواع الكتابة ، ففي فكره فائض عنها كلها . ويبدو أن هذا « الفائض »أربك قراءه بحيث كتب اليه احد أصدقائه طالبا منه أن يوضح الناس الناظم الداخلي لمؤلفاته . وكتاب « الشعر والحقيقة » هو الجواب عن هذا الطلب . وكتاب جوته الذي شارك وبشكل فعال في كل جوانب فعاليات عصره، الأدبية والسياسية والاجتماعية ، كان في الوقت ذاته أبعد نظرا من رجالات ذاك العصر . فالقسم الأعظم مما كتب ما يزال يستدعينا حتى اليوم وسيستدعي أبناءنا على ما يبدو رغم الفاصل الزمني الكبير بيننا وبينه . ومما يسترعي الانتباه حقا هو ان مذكرات جوته هذه غنية بالأفكار والأحاسيس ، بالالوان والصور ، بالمعاني والحقائق غنى أي مؤلف آخر من مؤلفاته . أفيكون الشعر عند جوته هو الطريق الى الحقيقة ؟ على الأرجح .

فثمة فلاسفة يرون اليوم مع هيدجر وبعده ، أن الفكر هو حيث يحصل التلاقي بين الشعر والفلسفة وأن الشعر والفكر واحد . أجل الشعر ، ولكن من مستوى .... جوته مثلا ....

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٢